

د. جمال واكيم

المشرق سياسياً

2018 - 1918



مركز المشرق
للأبحاث والدراسات

Levant Center for Research and Studies

المشرق سياسياً

2018 - 1918

الكتاب: المشرق سياسياً 1918-2018

المؤلف: د. جمال واكيم

الموضوع: تاريخ سياسي

عدد الصفحات: 383

القياس: 17 x 24

تدقيق لغوي: هاني الحلبي

الطبعة الأولى، 2019

© جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة

مركز المشرق للأبحاث والدراسات

بيت المشرق ، ساحل علما - جونيه، لبنان

رقم الهاتف: 00961 9 636400

00961 81 835109

البريد الإلكتروني: levant.research.center@gmail.com

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن من مركز المشرق للأبحاث والدراسات.

د. جمال واكيم

المشرق سياسياً 1918 – 2018



مركز المشرق
للأبحاث والدراسات

Levant Center for Research and Studies

الفهرس

9	مقدمة
15	الجزء الأول 1920 - 1958
17	الفصل الأول: سوريا 1920 - 1958
41	الفصل الثاني: لبنان 1920 - 1958
65	الفصل الثالث: العراق 1920 - 1958
83	الفصل الرابع: فلسطين والأردن 1920 - 1958
109	الجزء الثاني 1958 - 1970
111	الفصل الأول: سوريا 1958 - 1970
125	الفصل الثاني: لبنان 1958 - 1970
147	الفصل الثالث: العراق 1958 - 1970
169	الفصل الرابع: فلسطين والأردن 1958 - 1970
187	الجزء الثالث 1970 - 1991
189	الفصل الأول: سوريا 1970 - 1991
213	الفصل الثاني: لبنان 1970 - 1991
235	الفصل الثالث: العراق 1970 - 1991
259	الفصل الرابع: فلسطين والأردن 1970 - 1991
277	الجزء الرابع 1991 - 2000
279	الفصل الأول: العراق 1991 - 2010
293	الفصل الثاني: سوريا ولبنان 1991 - 2010
321	الفصل الثالث: فلسطين والأردن 1991 - 2010
339	خاتمة

مقدّمة

في العام 1516 انتصر الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول على جيش ممالك مصر بقيادة السلطان قانصوه الغوري في معركة مرج دابق بالقرب من حلب. وبنتيجة هذا الانتصار تمكّن العثمانيون من ضم بلاد الشام إلى دولتهم، ما مكّنهم بعد ذلك بعام من احتلال مصر لينطلقوا منها لاحتلال منطقة الحجاز واليمن وشمال أفريقيا حتى حدود المغرب، ويدخلوا بالتالي الأقطار العربية تحت حكمهم لنحو ثلاثة قرون بالنسبة لشمال أفريقيا، وأربعة قرون بالنسبة لبلاد المشرق والجزيرة العربية.¹ بقيت الدولة العثمانية هي الدولة الأقوى في أوروبا حتى بدايات القرن الثامن عشر. خلال هذه الفترة تمكنت من الوصول إلى قلب أوروبا ومحاصرة فيينا مرتين كانت الثانية في أواخر القرن السابع عشر. لكن النظام الإقطاعي الذي قامت عليه الدولة العثمانية منذ تأسيسها بدأ بالتفكك خصوصاً خلال القرن الثامن عشر. في الوقت الذي كان العالم ينتقل مع أوروبا الغربية إلى مرحلة الرأسمالية الماركنتالية.² وقد ترافق ذلك مع تفكك الدولة العثمانية من الداخل ما انعكس بحيازة الولاة المحليين على سلطات أكبر بكثير ترقى إلى الحكم الذاتي إن لم يكن الانفصال عن الدولة.

مع النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت الإمبراطورية الروسية ترنو بأنظارها جنوباً للوصول إلى البحر الأسود الذي كان حتى ذلك الوقت بحيرة عثمانية، وكان ذلك بإطار الاستراتيجية الروسية للسيطرة على القسطنطينية والوصول إلى شواطئ شرقي البحر المتوسط. في هذا الإطار وقعت الحرب الروسية العثمانية بين عامي 1768 و1774 والتي تمكّنت الدولة الروسية بنتيجتها من السيطرة على شبه جزيرة القرم وكسر احتكار الدولة العثمانية للهيمنة على البحر الأسود.³ وقد تلت ذلك حروب روسية - عثمانية عدة كانت تسعى الدولة الروسية من خلالها إلى السيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية في شرق أوروبا والبلقان. وقد ترافق ذلك مع أحداث جسيمة وقعت في أوروبا الغربية وشمال أميركا شهدت ثورة المستعمرات البريطانية على الساحل الشرقي للقارة الشمالية نتج عنه استقلال المستعمرات الثلاث عشرة وتأسيس الولايات المتحدة الأميركية، وتلا ذلك وقوع الثورة الفرنسية في العام 1789 بالتوازي مع تطور تقني في بريطانيا أدّى إلى الثورة الصناعية. وقد أذن ذلك بانطلاق الرأسمالية كنظام مهيمن في أوروبا الغربية ومن ثم في العالم وتوسّع هذه الرأسمالية لتشمل العالم بأجمعه.

¹ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، بيروت: الفارابي، 1980، 7.

² لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، 27 - 30.

³ Simon Dixon, Catherine the Great, Harper Collins Ebooks, 2009, 209.

وقد تأثرت الدولة العثمانية بذلك حين قام نابوليون بونابرت باحتلال مصر في العام 1799 فأظهر الضعف الذي وصلت اليه الدولة العثمانية.⁴ وقد تلا ذلك تغلغل الرأسمال الفرنسي في الدولة العثمانية عبر بوابتي حلب وبيروت وصعود نجم محمد علي باشا والي مصر، الذي عقد علاقات وثيقة مع فرنسا وقام بتحديث جيشه وبناءه الاقتصادية لمواجهة الدولة العثمانية ويحاول الاستقلال عنها.⁵ ولولا تدخل القوى الغربية بقيادة الإمبراطورية البريطانية لكان محمد علي تمكّن من الاستيلاء على القسطنطينية واستبدل حكم بني عثمان بحكم أسرته هو على الأقطار العربية.⁶

مع العام 1830 كان مقدراً للعالم العربي أن يدخل مرحلة الاستعمار مع احتلال فرنسا للجزائر.⁷ وقد تلا ذلك تغلغل الرأسمالية الغربية في الدولة العثمانية بشكل واسع ما أحدث تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة في هذه الدولة مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد نتج عن ذلك سعي القوى الأوروبية لتقاسم الدولة العثمانية التي باتت تسمّى برجل أوروبا المريض. وفي العام 1876 شنّ الروس حرباً جديدة ضد الدولة العثمانية نتج عنها استقلال صربيا ورومانيا ونييل بلغاريا استقلالاً ذاتياً موسعاً وسيطرة دولة النمسا - المجر على البوسنة والهرسك.⁸ وبذلك فقدت الدولة العثمانية معظم ولاياتها في أوروبا، خصوصاً أن اليونان كانت قد استقلت في العام 1829. وفي العام 1882 تقاسمت الإمبراطوريتان الفرنسية والبريطانية شمال أفريقيا، إذ احتلت الأولى المغرب وتونس،⁹ فيما احتلت الثانية مصر،¹⁰ وبالتالي لم يبق من ممتلكات الدولة العثمانية في شمال أفريقيا إلا ليبيا. وكانت بريطانيا قد سيطرت على سواحل منطقة الخليج الغربية في العام 1821 وفرضت هيمنتها عبر إجبار المشايخ المحليين على توقيع اتفاقية حماية مع بريطانيا. وقد تلا ذلك احتلال بريطانيا لميناء عدن في اليمن ناهيك عن أن سلطنة عمان لم تدخل أبداً تحت حكم الدولة العثمانية وكانت إمبراطورية مستقلة تهيمن على قسم من تجارة غرب المحيط الهندي.¹¹ وبذلك فمع حلول أواخر القرن التاسع عشر كانت مساحة الدولة العثمانية قد تقلّصت إلى البانيا

⁴ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، 46 - 55.

⁵ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، 546 - 549.

⁶ لوتسكي، 143.

⁷ لوتسكي، 202.

⁸ P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent: 1516 - 1922 A Political History, London: Cornell University

. 216 - 211 Press, 1966

⁹ لوتسكي، 330.

¹⁰ لوتسكي، 268.

¹¹ لوتسكي، 109 - 110.

ومقدونيا وتراقيا في أوروبا، والأناضول والعراق وبلاد الشام والحجاز واليمن الشمالي وشبه الجزيرة العربية، وليبيا في شمال أفريقيا.

مع بدايات القرن العشرين كانت الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة كبيرة من الضعف وكانت جميع القوى الأوروبية تنتظر وفاة هذه الدولة وتقاسم تركتها، وكان أبرز هذه القوى فرنسا وبريطانيا وروسيا. في المقابل كانت ألمانيا قد خرجت دولة قوية بعد توحيدها على يد بسمارك في العام 1870 بعد انتصاره على فرنسا في الحرب التي وقعت بينهما في العام نفسه. وكانت ألمانيا تريد أن تطرح نفسها قوة بين القوى الأوروبية ما أحدث خلا في التوازن الأوروبي الذي أرساه مؤتمر فيينا الذي عُقد عقب هزيمة نابوليون في معركة واترلو في العام 1815. وقد نظرت ألمانيا إلى كل من النمسا - المجر والدولة العثمانية كحلفاء وبدأت بتحسين العلاقات معهما منذ نهاية القرن التاسع عشر.

بالتوازي مع هذه التطورات فلقد سعت الدولة العثمانية إلى تحديث نفسها بدءا من بدايات القرن التاسع عشر، وبشكل مكثف بعد العام 1840. فنشأت نخب وتيارات تحمل أفكارا جديدة تأثرت بالتيار القومي في أوروبا الغربية وتبنت هذه الأفكار. فكان منها القومية الطورانية أو التركية، وتيار القومية العربية الذي كان ينادي بقيام أمة عربية على معظم أراضي الدولة العثمانية الناطقة بالعربية، وتيار القومية السورية الذي كان ينادي بوحدة الهلال الخصيب أي بلاد الشام ومن ثم وحدة الشام والعراق، وتيار القومية اللبنانية الذي كان ينادي باستقلال لبنان.

في العام 1908 وقع انقلاب قاده ضباط من الجيش العثماني ضد السلطان عبد الحميد نادى بقيام ملكية دستورية وبتحديث الدولة والحد من التدخلات الغربية فيها.¹² وقد قام الضباط بعد عام بعزل السلطان عبد الحميد بعد محاولة منه للقيام بثورة مضادة وبات القادة الثلاثة لجمعية الاتحاد والترقي وهم أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا يحكمون الدولة العثمانية. وفي العام 1812 - 1813 تعرضت الدولة العثمانية لهزيمة في حروب البلقان ما أفقدها ألبانيا ومقدونيا وباتت ممتلكاتها محصورة بتراقيا.¹³ وفي العام 1814 دخلت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا والنمسا - المجر في الحرب العالمية الأولى. في هذا الوقت كانت فرنسا وبريطانيا وروسيا ترسم مستقبل الدولة العثمانية بعد الحرب فوقعن اتفاقية سرية لتقاسم ولايات الدولة العثمانية وقد عرفت هذه الاتفاقية باتفاقية سايكس بيكو، بعد انسحاب الروس منها بعد ثورة أكتوبر الشيوعية في العام

¹² لوتسكي، 394.

¹³ لوتسكي، 406 - 407.

1917. وبموجب هذه الاتفاقية تقرّر حصول بريطانيا على العراق والأردن وفلسطين، وحصول فرنسا على لبنان وسوريا. وبالتوازي مع هذه الاتفاقية السرية فلقد أطلقت بريطانيا على لسان وزير خارجيتها آرثور بلفور وعدا للحركة الصهيونية بمنحها الحق بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.¹⁴

وقد تضاربت هذه الوعود البريطانية مع وعود أخرى كانت أعطتها بريطانيا للنخب الشامية والعراقية بمنح بلادهم الاستقلال في إطار دولة عربية كان مقررا أن يصبح الشريف حسين حاكم مكة ملكا عليها على أن تضمّ الهلال الخصيب والجزيرة العربية بعد اندلاع الثورة العربية الكبرى في صيف العام 1916.¹⁵ وبعد انهيار الدولة العثمانية في خريف العام 1918 نتيجة هزيمتها في الحرب العالمية الأولى مع حليفتيها ألمانيا والنمسا، وقعت بلاد المشرق العربي تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي فاحتلت فرنسا سوريا ولبنان فيما احتلت بريطانيا العراق والأردن وفلسطين.

وهذا العام (2018) يصادف ذكرى مرور مئة عام على انهيار الدولة العثمانية ووقوع بلدان المشرق تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي وقيام الكيانات الوطنية في هذه المنطقة. من هنا فإن فكرة هذا الكتاب هي في سرد تاريخ منطقة المشرق، أي سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين خلال مئة عام من زاوية التاريخ السياسي لهذه البلدان في إطار التحوّلات الإقليمية والدولية التي جرت خلال قرن كامل وصولا إلى يومنا هذا، وما تشهده المنطقة العربية بشكل عام والمشرق وسوريا بشكل خاص من تطورات تؤذن بنهاية مفاعيل تطورات بدايات القرن العشرين.

ولأن هذه المرحلة هي مرحلة طويلة ومتشعبة، وقد تميّزت فترات منها بخصائص مختلفة عن الفترات الأخرى فلقد ارتأيت أن أقسم الكتاب إلى أربعة أجزاء. ويشمل الجزء الأول الفترة الممتدة من العام 1920 تاريخ الدخول الفعلي لأقطار المشرق تحت الهيمنة البريطانية والفرنسية وتقسيمها ورسم حدودها وفقا لما هو الوضع في زماننا الراهن، وحتى العام 1958. والسبب في اختيار العام 1920 كتاريخ بداية والعام 1958 كتاريخ نهاية هو أن منطقتنا شهدت خلال هذه المرحلة تأثيرا بريطانيا - فرنسيا بالدرجة الأولى على مجريات الأحداث. أما الجزء الثاني فيتناول المرحلة الممتدة من العام 1958 إلى 1970. وقد تميّزت هذه المرحلة بالصراع بين قوى محلية عبرت عن نفسها بأحزاب وقوى قومية ويسارية نادى باستقلال دولها في مواجهة محاولات الولايات المتحدة بالدرجة الأولى لفرض هيمنتها على المنطقة العربية خلفا للنفوذ البريطاني والفرنسي الذي زال

¹⁴ لوتسكي، 460 - 467.

¹⁵ لوتسكي، 456 - 457.

بنتيجة هزيمة بريطانيا وفرنسا ومعهما إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر في العام 1956. وتشكل هذه المرحلة فترة انتقالية بين زوال النفوذ البريطاني - الفرنسي وصعود النفوذ الأمريكي بدءاً من السبعينيات من القرن الماضي. أما الجزء الثالث فيمتدّ من العام 1970 حتى العام 1991 وهو يشمل الجزء الثاني من مرحلة الحرب الباردة والتي تميّزت بتصاعد النفوذ الأمريكي وتراجع النفوذ الروسي وصولاً إلى انهيار كتلة الدول الاشتراكية في العام 1989 ومن ثم الاتحاد السوفياتي في العام 1991. وقد توافقت هذه الفترة مع تراجع دور قوى التحرر العربية في مواجهة الهيمنة الأميركية وانتقال مصر من التحالف مع كتلة الدول الاشتراكية إلى الدخول في فلك النفوذ الأمريكي بعد العام 1974، وصولاً إلى حرب الخليج الثانية في العام 1991 والتي شهدت تدمير العراق على يد آلة الحرب الأميركية. أما الجزء الرابع فيتناول المرحلة الممتدة من العام 1991 وحتى العام 2010، وهو العام الذي سبق اندلاع ما يُسمّى بالربيع العربي والذي شكّل إعلاناً عن وفاة النظام الرسمي العربي الذي قام بعد الحرب العالمية الأولى. وقد تميّزت هذه المرحلة بهيمنة أميركية على القرار الدولي مع صعود قوى تحاول أن تقف في مواجهة الهيمنة الأميركية وعلى رأسها روسيا والصين وإيران.

وبما أننا نتعاطى مع عدد من البلدان في المشرق كان لكل منها خصائصه على الرغم من القواسم المشتركة والأحداث الدولية والإقليمية التي أثّرت فيها جميعاً، فلقد قسمت الأجزاء الثلاثة الأولى إلى أربعة فصول لكل منها. ويتناول الفصل الأول من كل جزء سوريا كمنطلق ومحول دائم للأحداث في منطقة المشرق العربي، يليها فصل ثانٍ عن لبنان بحكم العلاقة الوثيقة بين البلدين بحكم أن لبنان نشأ بالأساس كمدخل غربي إلى بلاد الشام، وفصل ثالث عن العراق وفصل رابع يشمل كلا من الأردن وفلسطين للترباط الوثيق والتداخل الكبير بينهما. ولقد خالفت هذا الترتيب في الجزء الرابع نتيجة تطوّرات فرضت معطيات موضوعية جعلتني أبدأ بفصل أول عن العراق تلاه فصل ثانٍ شمل لبنان وسوريا نتيجة التداخل الكبير الذي حصل بين هذين البلدين في الفترة بين العامين 1991 و2010، وفصل ثالث شمل الأردن وفلسطين. وأختم الكتاب بخلاصة مطوّلة تتضمّن الأحداث التي جرت خلال الربيع العربي، خصوصاً في سوريا والعراق بحكم أن مفاعيل هذه الأحداث تؤذن بمرحلة جديدة في تاريخ منطقة المشرق، نتيجة التحوّلات الجسيمة في النظام الدولي والتي تشهد لأول مرة تراجع نفوذ القوى الغربية لصالح صعود القوى الآسيوية نتيجة تحوّل مركز الثقل الاقتصادي من شمال الأطلسي إلى المحيط الهندي، ونتيجة نهاية عصر الهيمنة الأحادية للولايات المتحدة الأميركية والانتقال إلى نظام دولي متعدّد الأطراف.

وبما أنني أتعاطى مع أحداث تتقاطع فيها البلدان المعنية، وللزوم تواصل الأحداث في كل فصل على حدة، فإن القارئ قد يجد تكرارا لذكر حدث معين بين فصل وآخر من الفترة نفسها وذلك حتى نربط الأحداث بعضها ببعض وحتى لا يكون هنالك انقطاع في تفسير الأحداث.

الجزء الأول 1920 – 1958 |

الفصل الأول

سوريا 1920 – 1958

سيرتبط تاريخ سوريا الحديث إلى حدّ بعيد بدورها كمحور للسياسة العربية نتيجة نشوء نخب حديثة فيها ساهمت في إطلاق تيارات حديثة كان أقواها التيار القومي العربي نتيجة عوامل عدّة وجدت جذورها في حملة نابوليون بونايرت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، إضافة إلى الدور المحوري الذي لعبه باشا مصر محمد علي باشا في المشرق واستخدامه للشعار القومي العربي كمسوِّغ لمنافسة العثمانيين على النفوذ في هذه المنطقة. وكان القرن الثامن عشر شهد بداية التراجع والضعف في الإمبراطورية العثمانية ما جعل النخب فيها واعية ضرورة التحديث. وتعود بدايات التحديث العثماني إلى القرن الثامن عشر، حين سعت الحكومات العثمانية إلى إيجاد سبل لاستعادة تفوّقها العسكري في وجه الغرب، وذلك عبر إرسال البعثات العسكرية إلى أوروبا. وقد فتحت حملة بونايرت الباب أمام إقامة اتصال مباشر بين المشرقيين العرب والقيم الغربية. وبعد حملة بونايرت، سعى والي مصر محمد علي باشا الذي سعى إلى استقلال دولته عن الإمبراطورية العثمانية عبر تبني شعارات قومية عربية، رغم أنه هو نفسه كان من أصل ألباني. ومع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، انتشر الشعور القومي العربي بصورة خاصة في بلاد الشام. وقد ترافق ذلك مع تدهور الأوضاع في الدولة العثمانية التي باتت تعرف برجل أوروبا المريض. وقد توسّع التأييد للقومية العربية بعد انقلاب جمعية الإتحاد والترقي في عام 1908 وتبنيها خطاباً قومياً عنصرياً في العام 1913 عقب هزائنها في الحروب البلقانية. وقد دفع هذا بالكثير من الجمعيات العربية التي تشكلت آنذاك إلى المطالبة بالاستقلال التام للمشرق العربي عن الدولة العثمانية.

خلال الحرب العالمية الأولى مارس العثمانيون حملات قمع ضد رعايا السلطنة في المشرق العربي ما عزّز الحملات الداعية للتمرد على الدولة العثمانية.¹⁶ وقد لاقت هذه الجهود دعماً من قبل الحلفاء البريطانيين والفرنسيين الذين كانوا يقاتلون الدولة العثمانية وحليفها الألماني

Laurens, Henry: *l'Orient Arabe, Arabisme et Islamisme de 1798 à 1945*, Armand Colin, Paris, 2000. ¹⁶

والنمساوي. وفي صيف العام 1916 اندلعت الثورة العربية الكبرى بقيادة شريف مكة الحسين بن علي ضد الدولة العثمانية.¹⁷ وقد تمكنت طلائع الثورة العربية من تحرير الأقطار العربية في المشرق من الحكم العثماني على أمل تحقيق الحليفين البريطاني والفرنسي وعودهما للعرب بمنحهم الاستقلال ضمن حدود تضمّ إلى الجزيرة العربية بلاد المشرق العربي، إلا أنه كانت للبريطانيين والفرنسيين مخططات أخرى للمنطقة. فلقد كان الطرفان قد وقّعا اتفاقية سرية لتقاسم المشرق العربي بينهما عرفت باتفاقية سايكس بيكو، فيما منح البريطانيون الحركة الصهيونية وعدا بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين عرف بوعد بلفور. وهذا أصاب العرب بالخيبة وبقي الكثيرون منهم يتطلّعون لإقامة دولة موحّدة لهم.¹⁸ ففي تشرين الأول أكتوبر 1918 كانت القوات العثمانية قد انسحبت بالكامل من بلاد الشام باستثناء منطقة كيليكيا وديار بكر التي ستصبح جزءا من جنوب تركيا، وكانت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين قد دخلت إلى دمشق وأقامت حكومة عربية بدعم من البريطانيين، إلا أن فرنسا رفضت ما اعتبرته فرضا للأمر الواقع، معتبرة أن من حقها نيل لبنان وسوريا بالاستناد إلى بنود اتفاقية سايكس بيكو. وردا على التهديدات الفرنسية عقد في بداية العام 1919 المؤتمر السوري الأول الذي طالب بإقامة مملكة سوريا تضم كامل بلاد الشام على أن يكون فيصل بن الحسين ملكا عليها. وقد رفضت فرنسا مقررات المؤتمر كما رفضت حضور فيصل بن الحسين لمؤتمر الصلح في فرساي ما دفعه للقبول بالضغوط البريطانية بلقاء زعيم الحركة الصهيونية حاييم وايزمن وتوقيع اتفاقية معه يرضى بموجبها بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، من دون إعلام أعضاء المؤتمر الوطني السوري بذلك. وبعد عودته إلى دمشق بعد أشهر عدة كانت فرنسا لا تزال تطالب بوضع سوريا ولبنان تحت انتدابها وهو ما رفضه الوطنيون السوريون. وفي تموز يوليو 1920 كانت فرنسا قد نالت دعما بريطانيا للقيام بحملة عسكرية ضد دمشق بعد أن "تنازلت" عن الموصل للبريطانيين وبعد أن "تنازلت" عن كيليكيا لتركيا. ووقعت معركة ميسلون التي هُزم فيها الحكم الوطني في سوريا واستشهد وزير دفاعها يوسف العظمة ووقعت سوريا تحت الانتداب الفرنسي.¹⁹

¹⁷ قدرى قلججي، الثورة العربية الكبرى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 1993 ص. 229

¹⁸ Ajami, Fouad: *The End of Pan Arabism*, Foreign Affairs, vol 11, No 2, 1978/9, p.335

¹⁹ سعاد جروس، من الانتداب إلى الانقلاب: سورية زمان نجيب الرئيس، بيروت: دار رياض نجيب الرئيس، 2015، 48 - 52.

محاولات التقسيم

ما أن دخل الجنرال الفرنسي غورو إلى دمشق حتى شرع بسلسلة إجراءات تهدف إلى تقسيم سوريا الكبرى دويلات عدة تقوم على أسس طائفية وعشائرية وإقليمية ضيقة. فإذا به يعلن بعد أسبوع وتيف على دخوله دمشق فصل أربعة أقضية في منطقة البقاع هي حاصبيا وراشيا والبقاع وبعبك عن ولاية دمشق وإحاقها بجبل لبنان، وذلك في 3 آب 1920 ليعلن أواخر الشهر نفسه عن قيام دولة لبنان الكبير بضم ولاية بيروت العثمانية إلى جبل لبنان ليصبح لبنان من ضمن حدوده الحالية. وفي تشرين الثاني نوفمبر 1920 أعلن غورو قيام دولة دمشق بعد سلخ فلسطين والأردن عنها وتنازل السلطات الفرنسية عنهما لصالح الانتداب البريطاني. وفي الشهر نفسه تم الإعلان عن دولة حلب بعدما تمّ التنازل للدولة التركية الناشئة عن ريف حلب الشمالي واعتبار خط سكة اسطنبول بغداد هو الحد الفاصل بين دولة حلب والدولة التركية الحديثة. وبالتوازي مع ذلك أعلن قيام دولة العلويين في جبال العلويين والساحل الممتد من الحد الجنوبي للواء اسكندرون وصولاً إلى النهر الكبير الذي يفصلها عن دولة لبنان الكبير. وقد استكمل غورو عملياته التجزئية في 4 آذار 1921 بالإعلان عن قيام دولة جبل الدروز في منطقة جبل العرب، ناهيك عن إعلان وضع خاص للواء اسكندرون الذي سيلحق في العام 1938 بالدولة التركية.²⁰

وكانت سلطات الانتداب قد فرضت قيام "الدولة السورية" من العام 1925 وحتى العام 1930 التي تعاقب على رئاستها ثلاثة رؤساء كان للانتداب اليد الطولى في تعيينهم. وهؤلاء الرؤساء هم صبحي بركات، وهو ضابط سوري سابق في الجيش العثماني من أصل كردي، وأحمد نامي وهو صهر السلطان عبد الحميد، والشيخ تاج الدين الحسني،²¹ إلا أن هذا الكيان لم يكتب له طول بقاء بسبب عدم قبول الوطنيين السوريين له. وكانت سلطات الانتداب قد واجهت مقاومة شرسة من السوريين منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي للبلاد. وكان الزعيم إبراهيم هنانو أول من أعلن الثورة على الانتداب في أواخر العام 1920 في حلب. إلا أن ثورته كانت قصيرة الأمد خصوصاً بعد اتفاق الفرنسيين مع جمهورية تركيا الحديثة التي كانت تشهد مخاضها على يد مصطفى كمال أتاتورك على ترسيم الحدود بينهما وفقاً لما تقدّم. وفي تموز 1922 ثار جبل العرب بقيادة سلطان باشا الأطرش نتيجة سياسات الانتداب، وكانت شرارة الانطلاقة ناتجة عن اعتقال الثائر أدهم خنجر الذي سبق أن حاول قتل الجنرال غورو في حوران. وقد طالب سلطان تسليمه أدهم خنجر لأنه

²⁰ سعاد جروس، من الانتداب إلى الانقلاب، ص.ص. 60 - 61.

²¹ سامي مبيض، تاريخ دمشق المنسي: أربع حكايات 1916 - 1936، بيروت، دار رياض الريس، 2016، ص.ص. 85 - 119.

اعتقل في بيته إلا أن سلطات الانتداب سارعت بنقله إلى دمشق ومنها إلى لبنان لتعده في بيروت في أيار 1923. وردا على مهاجمة سلطان باشا لقافلة فرنسية قامت سلطات الانتداب بتدمير بيته في آب 1922 لتندلع شرارة الثورة لأشهر عدة حتى نيسان 1923 عندما تمّ الإعلان عن هدنة. لكن هذه الثورة ستتجدّد في حزيران 1925. فبنتيجة السياسات التعسفية التي قامت بها سلطات الانتداب توجّه وفد من وجهاء جبل العرب إلى بيروت للتظلم للمندوب السامي من ممارسات النقيب كارييه الذي عين حاكما على جبل العرب خلفا لسليم الأطرش الذي توفي في ظروف غامضة في العام 1924، إلا أن الجنرال ساراي، المفوض السامي على لبنان وسوريا رفض استقبال الوفد وهدّد أعضائه بالنفي إذا لم يعودوا إلى السويداء. هذا دفع بسلطان باشا إلى إعلان الثورة على الانتداب والاتصال بالقيادات الوطنية وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في دمشق وإبراهيم هنانو في حلب. وقد تواصل هنانو مع محمد بك العياش مدّ الثورة إلى دير الزور. في المقابل فإن الشهبندر تواصل مع المجاهد فوزي القاوقجي لإطلاق شعلة الثورة في حماة وحمص.

مجريات الثورة ونتائجها

بدأت مجريات الثورة بهجوم شنه سلطان باشا على دار المفوضية الفرنسية في صلخد في أيلول سبتمبر 1925 حيث تمّ حرقها، اتبعه بهجوم على قوة فرنسية في بلدة الكفر بقيادة النقيب نورمان انتهى بإبادة القوة الفرنسية وعددها نحو 300 جندي؛ ردا على ذلك جرّد الجنرال ساراي حملة من خمسة آلاف جندي التقت الثوار في منطقة ازرع. ورغم تفوّق القوة الفرنسية بالعتاد والعدد، خصوصاً أن قوات الثوار لم تتجاوز ثلاثة آلاف إلا أن النصر كان حليف سلطان الذي أباد القوة الفرنسية التي لم ينج منها إلا نحو ألف جندي. وفي 4 تشرين الأول 1925 هاجم فوزي القاوقجي والبدو من قبيلة الموالي الحامية الفرنسية في مدينة حماة وكاد أن يسيطر على المدينة لولا استخدام القوات الفرنسية الكثيف لسلاح الطيران والمدفعية. وفي منطقة غوطة دمشق قاد المجاهد حسن الخراط الثوار وانتصر على القوات الفرنسية في قرية المليحة في أوائل تشرين الأول أكتوبر، ليقود نسيب بك البكري في 18 من الشهر عينه قوة من الثوار للسيطرة على دمشق. وقد أجبر الثوار القوات الفرنسية على الانسحاب إلى القلعة مع عوائلهم ما دفع بالجنرال ساراي إلى الإيعاز لقواته بقصف دمشق بالمدفعية الثقيلة مدمّرا مئات المنازل. وقد دامت الثورة مدة عامين كاملين كان النجاح فيها حليفا للثوار في المناطق الريفية، فيما فشلوا في إحكام سيطرتهم على المدن. وقد تكبد الثوار آلاف الشهداء كانت غالبيتهم من منطقة جبل العرب التي تحملت العدد الأكبر من الخسائر.

وفي النهاية فإن السلطات الفرنسية تمكنت بالتنسيق مع سلطات الانتداب البريطانية من إحكام الحصار على الثوار ما أدى في النهاية إلى هزيمتهم ولجوء سلطان باشا الأطرش إلى وادي سرحان لمدة عشر سنوات.²²

على الرغم من هزيمة الثورة إلا أنها نجحت في منع تفتيت سوريا. فلقد اضطر الفرنسيون لإعادة توحيد حلب ودمشق في دولة واحدة في العام 1925. وقد ظهرت دعوات في فرنسا للاستغناء عن الانتداب على سوريا ولبنان كان أبرزها في العام 1928 على لسان النائب في البرلمان الفرنسي سيكست كوانتين، ونال اقتراحه تأييد مئتي نائب في مقابل معارضة 280 نائباً. وقد ساهمت الثورة في تعميق اللحمة بين مختلف شرائح المجتمع السوري وقياداته الوطنية وتوحيد أجندتهم الوطنية وإجبار الانتداب على إجراء انتخابات نيابية أدت إلى فوز القيادات الوطنية بقيادة هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو بمعظم الأصوات. وقد تمّ استبدال المندوب السامي ساراي بهنري دو جوفينيل الذي كان أكثر تجاوباً مع مطالب الشعب السوري. وبشكل عام ساهمت الثورة السورية الكبرى ببلورة هوية وطنية سوريا جامعة تتجاوز الهويات المحلية والإقليمية والعشائرية ما سيكون له دور مقرر في تاريخ سوريا في العقود اللاحقة. وكان من نتائج الثورة إعلان قيام الجمهورية السورية في العام 1930 وإضعاف المساعي بسلخ جبل العلويين وجبل العرب عنها ما أدى إلى إعادتهما إلى حضن الدولة السورية في العام 1936 من ضمن الاتفاقية التي وقعت بين القيادة الوطنية السورية وسلطات الانتداب.²³

معاهدة 1936

شكّل إعلان الجمهورية السورية في العام 1930 بداية مسار جديد من نضال السوريين لنيل الاستقلال، كانت قاعدته هذه المرة المدن السورية وبالدرجة الأولى مدينة دمشق وبالدرجة الثانية مدينة حلب، فيما تراجع دور قيادات الريف خصوصاً بعد الضربة التي تلقوها بعد هزيمة الثورة السورية ونفي قائدها سلطان باشا في العام 1927. وقد وازبت القيادات الوطنية السورية على المطالبة بالاستقلال في ظل مفاصلة سلطات الانتداب الفرنسي. لكن مع حلول العام 1935 كانت قد جرت تطورات كبيرة على مستوى العلاقات الدولية والتوازنات الأوروبية مع بروز نجم أدولف

²² راجع Michael Provence, The Great Syrian Revolt,

²³ كمال ديب، سورية في التاريخ: من أقدم العصور حتى 2016، بيروت: المكتبة الشريفة، 2017، ص.ص. 165 - 174.

هتلر في ألمانيا وتجاوزه لبنود اتفاق فيرساي وإعادة تسليحه للجيش الألماني. وكانت فرنسا تخشى على نفسها من تبعات هذه التطورات في الوقت الذي كانت لا تزال تحاول فيه جاهدة تجاوز الأزمة الاقتصادية التي تفجرت في العام 1929. هذا كان من عوامل صعود الجبهة الاشتراكية بقيادة ليون بلوم إلى السلطة في حزيران من العام 1936. وقد أبدت القيادة الفرنسية الجديدة تعاطفا نسبيا مع مطالب الشعوب في مستعمراتها ومن ضمنها سوريا ولبنان، خصوصا في ظل حاجتها لكسب تعاطف هذه الشعوب في ظل بروز الخطر الألماني.

في هذا الوقت، ويأسا من الوصول إلى نتائج مع سلطات الانتداب في سوريا ولبنان أعلنت القيادات الوطنية السورية إضرابا عاما دام خمسين يوما، من 8 كانون الثاني يناير وحتى 25 شباط فبراير 1936. وكانت حكومة الانتداب تدعم حكومة يرأسها الشيخ تاج الدين الحسني الموالي لها، فقامت بإقالتها وعيّنت مكانها حكومة برئاسة عطا الأيوبي. وفي الأول من آذار 1936 استدعي هاشم الأتاسي للقاء المندوب السامي في بيروت فكانت مطالب الأتاسي تتمثل بإعادة العمل بدستور الجمعية التأسيسية وإلغاء نظام الانتداب وتوقيع معاهدة مع فرنسا تنظم العلاقة بينها وبين سوريا بعد إعادة الأقاليم التي سلخت عنها. وفيما أبدى دو مارتيل تعاطفا مع بعض البنود التي تتعلق بإطلاق بعض المعتقلين وتحرير أملاكهم المحتجزة، إلا أنه تحفظ عن إطلاق أي قرار يتعلق بالاستقلال التام لأنه من صلاحيات الحكومة الفرنسية في باريس. عندذاك تقرر إيفاد وفد سوري إلى باريس للتفاوض مع الحكومة الفرنسية. وتشكل الوفد من رئيس الكتلة الوطنية هاشم الأتاسي وعضوية السادة فارس الخوري وجميل مردم عن الكتلة الوطنية ومصطفى الشهابي وأدمون حمصي كممثلين عن الحكومة السورية ونعيم انطاكي وأحمد اللحام وتوجّه الوفد إلى باريس في 26 آذار، حيث عقد سلسلة اجتماعات مع ممثلين عن الحكومة الفرنسية لم تنتج ثمارها إلا بعد تبوء ليون بلوم منصب رئاسة الحكومة الفرنسية في حزيران من العام نفسه كما سبق ذكره، إذ وافقت حكومته على مطالب الكتلة الوطنية السورية وأهمها إعادة المناطق التي سلخت عن سوريا وخصوصاً دولة جبل الدروز وجبل العلويين إلى كنف سوريا، والاتفاق على خطوات تمهيدا لإعلان الاستقلال التام، على أن يصادق على المعاهدة مجلس نيابي ينتخب في انتخابات تجرى في تشرين الثاني 1936. وقد فازت الكتلة الوطنية بهذه الانتخابات وصادقت على المعاهدة، إلا أن الجانب الفرنسي بدأ بالمماطلة في تنفيذها نتيجة ضغوط مارستها القوى اليمينية، إلا أن الإنجاز الأكبر الذي نتج عن

هذه الاتفاقية هو إعادة توحيد سوريا بمعظم مناطقها، وتبوء أركان الكتلة الوطنية مقاليد الحكم في البلاد.²⁴

وقد نصت معاهدة العام 1936 على ما يلي:

أ- في ما يتعلق بنص المعاهدة فإنه يتكوّن من ديباجة وتسع مواد، وأهم أحكامه:

(1) تعترف فرنسا بسوريا كأمة مستقلة وعليها تهيئة جميع الشروط لقبولها عضوا في عصبة الأمم) ضمن مهلة لا تتجاوز ثلاث سنوات (الديباجة).

(2) تنشأ بين الدولتين علاقة صداقة وتحالف بعد زوال الانتداب، على أساس الحرية التامة والسيادة والاستقلال (الديباجة).

(3) يسود بين فرنسا وسوريا سلم وصداقة دائمان (المادة 1).

(4) تتبادل الدولتان التمثيل الدبلوماسي، وتتشاوران مسبقا في كل أمر يتعلق بالسياسة الخارجية ويكون من شأنه أن يمس بمصالحهما المشتركة (المادة 2).

(5) في يوم زوال الانتداب يتخذ الطرفان المتعاقدان التدابير اللازمة لنقل الحقوق والواجبات الناجمة عن جميع المعاهدات التي عقدتها فرنسا باسم سوريا أثناء فترة الانتداب إلى مسؤولية الحكومة السورية (المادة 3).

(6) إذا حدث خلاف بين سوريا ودولة أخرى وكان من شأنه إحداث خطر بقطع العلاقات مع تلك الدولة تتداول الحكومتان لتسوية الخلاف بالطرق السلمية، وفقا لأحكام ميثاق عصبة الأمم أو أي اتفاق دولي آخر ينطبق على مثل هذه الحالة (المادة 4/ف1).

(7) إذا تطور مثل هذا الخلاف إلى نزاع مسلح منذرا بخطر حرب محقق يتداول الطرفان المتعاقدان لاتخاذ تدابير الدفاع الضرورية باعتبارهما حليفين. وتنحصر معونة الحكومة

²⁴ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص. 174.

السورية في هذه الحالة على تقديم التسهيلات الضرورية بالمواصلات البرية والبحرية والجوية إلى الحكومة الفرنسية (المادة 4/ف2).

(8) إن مسؤولية حفظ النظام في الأراضي السورية والدفاع عنها هي مسؤولية تقع على الحكومة السورية، وتنحصر مسؤولية الحكومة الفرنسية في هذا المجال على تقديم مساعدتها العسكرية إلى سوريا خلال مدة المعاهدة حسب أحكام الاتفاق العسكري الملحق (المادة 5).

(9) مدة المعاهدة خمس وعشرون سنة، ولا يمكن تعديلها أو تجديدها إلا بناء على طلب أحد الطرفين - أو كلاهما - بعد انقضاء عشرين سنة على بدء تطبيقها (المادة 6).

(10) تهرم المعاهدة، ويتم تبادل صكوك الإبرام بأسرع ما يمكن، وتبلغ إلى عصبة الأمم. وتوضع هذه المعاهدة موضع التطبيق مع الاتفاقات والعقود الملحقة بها يوم قبول سوريا في عصبة الأمم (المادة 7).

(11) حالما توضع هذه المعاهدة موضع العمل تسقط عن الحكومة الفرنسية المسؤوليات والواجبات المترتبة عليها فيما يتعلق بسوريا، سواء من جراء مقررات دولية أو من أعمال عصبة الأمم، وما تبقى من هذه المسؤوليات والواجبات ينتقل حكماً وتلقائياً إلى الحكومة السورية (المادة 8).

(12) كتبت هذه المعاهدة بالفرنسية والعربية، وكلا النصين رسمي ويُعَوَّل على النص الفرنسي عند حدوث اختلاف (المادة 9/ف1)، وإذا حصل اختلاف بشأن تفسير هذه المعاهدة أو تطبيقها، ولم يمكن حسمه نهائياً عن طريق المفاوضات المباشرة يلجأ الطرفان المتعاقدان إلى أصول المصالحة والتحكيم المنصوص عليها في صك عصبة الأمم (المادة 9/ف2).

ب- أما بشأن الاتفاق العسكري الملحق بالمعاهدة فإنه ضم ثماني مواد، وأهم أحكامه هي:

(1) إن الحكومة السورية بحلولها محل السلطات الفرنسية تأخذ على مسؤوليتها القوى

العسكرية القائمة (قوات الشرق الخاصة) مع تكاليفها وواجباتها. والحد الأدنى الذي يجب أن تكون عليه هذه القوات هو (فرقة مشاة) و(لواء خيالة) والمصالح التابعة لهما.

(2) تتعهد الحكومة الفرنسية بأن تمنح الحكومة السورية التسهيلات التالية بشرط أن تتحمل الحكومة السورية نفقات هذه التسهيلات:

- وضع بعثة عسكرية تعليمية فرنسية لتعليم الجيش والدرك والبحرية والطيران في سوريا، وتتعهد الحكومة السورية في مقابل ذلك بأن لا تستخدم سوى الفرنسيين بصفة معلمين واختصاصيين في المجالات العسكرية. ويجوز لبعض هؤلاء المعلمين الفرنسيين تسلّم قيادة فعلية في القوى العسكرية السورية بشكل مؤقت، إذا طلبت ذلك الحكومة السورية رسمياً من رئيس البعثة العسكرية الفرنسية.

- للحكومة السورية الحق في إرسال بعثات إلى المدارس ومراكز التعليم والقطعات الفرنسية، وللحكومة السورية الحق بإرسال بعثات عسكرية إلى غير فرنسا في حال عدم توفر الاختصاص المطلوب دراسته أو التدريب عليه.

(3) تسهيلات لتنفيذ واجبات التحالف تتخذ الحكومة السورية لقواها المسلحة سلاحاً وعدداً من الطراز نفسه المستخدم في القوات المسلحة الفرنسية.

(4) تتعهد الحكومة السورية بوضع قاعدتين جويتين لا تبعدان أكثر من 40 كم عن المدن الكبرى ولا مانع مؤقتاً أن تكون هاتان القاعدتان هما قاعدتا المزة والنيرب.

(5) يحق للحكومة الفرنسية ولمدة لا تتجاوز خمس سنوات من بدء تطبيق المعاهدة، أن تستبقي جنوداً فرنسيين في منطقتي (جبل الدروز) و(جبل العلويين)، ومن الواضح أن استبقاء الجنود الفرنسيين في مختلف هذه النقاط لا يفيد معنى الاحتلال ولا يمس بحقوق السيادة السورية.

(6) تمنح الحكومة السورية كل ما يمكن من التسهيلات اللازمة لتمويل القوى الفرنسية وتعليمها وتنقلاتها ومواصلاتها، وهذه التسهيلات تشمل استعمال الطرق والسكك الحديدية

وطرق الملاحة والمرافئ والأرصفة والمطارات وسطوح المياه وحق الطيران فوق الأراضي واستعمال شبكات البرق والهاتف واللاسلكي.²⁵

وقد صادق البرلمان السوري على المعاهدة في 26 كانون الأول 1936، فيما لم يصادق البرلمان الفرنسي عليها ما دفع بسلطات الانتداب إلى عدم تطبيق بنودها على الرغم من مطالبة الجانب السوري بذلك. بناء على ذلك أصدرت السلطات الوطنية السورية قرارا بعودة القادة الوطنيين المنفيين إلى الوطن وعلى رأسهم سلطان باشا الأطرش وشكيب أرسلان وعبد الرحمن الشهبندر وإحسان الجابري وبدأت بممارسة صلاحياتها وكأنها حكومة دولة مستقلة كاملة السيادة. وكان لهذا أن يخلق لها مشكلات مع سلطات الانتداب. وقد تأزّم الوضع مع تعيين غابرييل بيو خلفا لـدي مارتيل في كانون الثاني يناير 1939، حيث قام المندوب السامي الجديد بإعادة فرض سيطرته المطلقة على القرار في البلاد ما دفع برئيس الدولة هاشم الأتاسي وحكومته إلى الاستقالة وتفجّر الأزمة مجددا. وما فاقم من هذه الأزمة هو تنازل السلطات الفرنسية لتركيا عن لواء اسكندرون.²⁶

نحو الاستقلال

في أيلول من العام 1939 اندلعت الحرب العالمية الثانية بعدما قامت ألمانيا النازية باجتياح بولندا. بعد ذلك بثمانية أشهر اجتاحت ألمانيا الدنمارك والنرويج، ثم وجّهت أنظارها في أيّار مايو صوب هولندا وبلجيكا وفرنسا، وتمكنت في أسابيع قليلة من دحر جيوش الحلفاء مجتمعة لتدخل باريس منتصرة وتفرض هيمنتها على فرنسا وكامل أوروبا الغربية. في أيّار مايو 1941 تبوأ رشيد عالي الكيلاني رئاسة الحكومة في العراق، وكان معروفا بعدائه للإنكليز، فطالب بانسحاب القوات الإنكليزية من بلاده، إلا أنها رفضت ذلك فدارت معارك معها. وقد استفاد الألمان من اتفاقية الهدنة مع الحكومة الفرنسية ليستخدموا مطارات لبنان وسوريا لدعم ثورة الكيلاني التي فشلت في نهاية المطاف. هذا دفع بالبريطانيين إلى التفكير في السيطرة على سوريا ولبنان بدافع تأمين ظهرهم في المشرق العربي في الوقت الذي كانت تتقدّم فيه قوات الماريشال الألماني رومل في ليبيا

²⁵ موقع وزارة الدفاع السورية، <http://www.mod.gov.sy/index.php?node=554&cat=1169>

²⁶ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 174 - 180.

باتجاه قناة السويس في مصر. هذا أدّى إلى حملة بريطانية شاركت فيها قوات فرنسية موالية لشارل ديغول تمكّنت من السيطرة على لبنان وسوريا في صيف 1941. هذا التطور سيؤدي إلى إضعاف النخب المرتبطة بفرنسا في كل من لبنان وسوريا لصالح نخب بدأت تنسج علاقات مع البريطانيين.

في هذا الإطار بدأ يبرز نجم شكري القوتلي كالزعيم الجديد للكتلة الوطنية في سوريا. والقوتلي ينتمي إلى عائلة من كبار أثرياء دمشق كانت تعتاش من إدارة أملاكها الزراعية. وقد انضمّ إلى جمعية العربية الفتاة التي كانت تنادي بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية في العام 1910، وخلال الحرب العالمية الأولى تعرّض للسجن والتعذيب وحاول الانتحار. وبعد انهيار الدولة العثمانية شكّل حزب الاستقلال العربي، وكان له دور في الثورة السورية الكبرى ما دفع بالسلطات الفرنسية إلى إصدار أحكام إعدام ضده فهرب إلى الحجاز، حيث عقد علاقات وثيقة مع أميرها فيصل آل سعود الذي سيصبح ملكاً على المملكة العربية السعودية بين عامي 1964 و1975. في عام 1930 أسقطت الأحكام بحق القوتلي فعاد إلى دمشق وانضم إلى الكتلة الوطنية وترأسها خلال غياب رئيسها الأصيل هاشم الأتاسي في باريس أثناء مفاوضاته الحكومة الفرنسية على اتفاقية 1936. في العام 1941، قاد القوتلي احتجاجات شاملة ضد سلطات الانتداب ما ساهم في بروز نجمه. وفي العام 1943 نظمت انتخابات نيابية عامة فازت فيها الكتلة الوطنية بشكل ساحق، وترشح شكري القوتلي لرئاسة الجمهورية ففاز بها في آب 1943. وقد سارع بعد ذلك للتنسيق مع القيادات اللبنانية وعلى رأسها بشارة الخوري ورياض الصلح للمطالبة بالاستقلال الكامل لسوريا ولبنان وهو ما تمّ لهما في 22 تشرين الثاني 1943 بعد صدامات عنيفة مع سلطات الانتداب، علماً أن هذه القيادات كانت تلقى تأييداً من الجنرال سبيرز، المندوب السامي البريطاني في سوريا ولبنان. لكن سوريا لم تتخلص كلياً من الهيمنة الفرنسية إلا في 17 نيسان 1946 بعد جلاء كامل الجيوس الفرنسية عن أراضيها. وقد سبقت ذلك تجاذبات وصدامات بين الفرنسيين والسلطات الوطنية السورية نتيجة رغبة باريس بفرض اتفاقيات مجحفة على الجانب السوري بحجة الحفاظ على المصالح الفرنسية. وقد وصلت الصدامات حدّ قصف الفرنسيين لدمشق بالمدفعية وهجومها الشهير على البرلمان السوري في أيار 1945. ولم يتوقّع العدوان الفرنسي إلا بعد رفع سوريا لشكوى إلى مجلس الأمن الذي كان قد تشكل حديثاً كجزء من منظمة الأمم المتحدة.²⁷

²⁷ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 180 - 182.

رئاسة شكري القوتلي

ما إن خرج الفرنسيون في سوريا حتى ظهرت تحديات جديدة أمام الحكم في البلاد. فلقد كانت البلاد تشهد دورات تضخم عالية، فيما أذنت نهاية الحرب العالمية الثانية بتقليص الإنفاق العسكري الفرنسي على القواعد العسكرية في المستعمرات. ومن ضمنها سوريا ولبنان. وبعد رحيل الفرنسيين تأثر آلاف السوريين العاملين في القواعد الفرنسية الذين فقدوا عملهم. إضافة إلى ذلك فلقد كانت النخب الحاكمة تنتمي إلى أسر الوجهاء السوريين المنتمين إلى العائلات الإقطاعية الذين كانوا يعيشون في المدن إلا أنهم كانوا يملكون معظم الأراضي الزراعية وحتى القرى في الريف. وقد كان هذا هو السبب الرئيس في إفقار الريف السوري وجعله يعيش في حالة مزرية. وبعد الاستقلال فاقمت السياسات الاقتصادية المعتمدة من قبل الحكومة السورية من الأوضاع المعيشية السيئة لأبناء الريف الذين كانوا في نزوح مضطرب منذ العشرينيات من الريف إلى المدن، خصوصاً مدن حلب وحماة وحمص ودمشق. وقد مارست الحكومات المتعاقبة خلال فترة الانتداب الإرهاب على سكان الريف لتطويعهم. ويمكن أن نفهم قضية إعدام سلمان المرشد مؤسس الطائفة المرشدية في ريف اللاذقية في هذا الإطار. وكان سلمان المرشد قد ولد في العام 1907 في قرية جوبة برغال في ريف اللاذقية، وقد انشق في شبابه عن الطائفة العلوية وأسس طائفة جديدة أرسى طوقسها وأصولها ونُسب المنتسبون إليه وسمّوا بالمرشدية. وقد شكلت حركته تحدياً لسيطرة المشايخ التقليديين على مقدرات الطائفة العلوية. وبعد انسحاب الفرنسيين من سوريا استولى أتباع سلمان المرشد على الكثير من أسلحتهم التي خلفوها وراءهم واتهم بإعلان العصيان على السلطة المركزية ما دفع بالقوتلي إلى إرسال قوة لاعتقاله ثم محاكمته وإعدامه في العام 1946. وقد شكلت حركة المرشد جزءاً من تمرد الريف بسبب الظروف الاقتصادية الآتفة الذكر.

إضافة إلى ذلك فلقد مارس شكري القوتلي وأعضاء الكتلة الوطنية التي يتزعمها القمع ضد خصومهم، حيث قاموا بتعيين مقرّبين منهم في المراكز المفصلية في الدولة وقمعوا الحريات السياسية والإعلامية والثقافية إذ لجأوا إلى إغلاق الصحف التي تنتقدهم ومنع الكتب التي "تمس هيبة الدولة"، وجرت محاباة تجار دمشق على حساب تجار حلب الذين كانوا قد نكبوا منذ تأسيس الدولة السورية نتيجة فصل ريف حلب الشمالي وضمّه إلى تركيا. هذا أثر على مسار الانتخابات الفرعية والنقابية التي أجريت في حلب في العام 1946، إذ كان رشدي الكيخيا وناظم القدسي قد انشقا عن الكتلة الوطنية وأسسوا حزب الشعب الذي لاقى دعماً من تجار حلب، وخاض الانتخابات ضد الكتلة الوطنية وحقق فوزاً كبيراً في المدينة. ما دفع برئيس الوزراء سعد الله الجابري

إلى الاستقالة من الحكومة ومن الكتلة الوطنية وأسس حزبا جديدا هو الحزب الجمهوري العربي. وفي الانتخابات التي جرت في تموز يوليو 1947 فازت الكتلة الوطنية في دمشق، لكنها خسرت في حلب وحماه ما جعلها تخسر الغالبية النيابية وتضطر إلى تأليف حكومة ائتلافية برئاسة جميل مردم بك مع حزب الشعب الذي فاز في المدن الشمالية. وفي العام التالي أجرى القوتلي تعديلا دستوريا حتى يتمكن من الترشح لولاية ثانية بدأها في نيسان أبريل 1948 وسط معارضة كبيرة من جمهور كبير من السوريين كان رأس حربته هذه المرة أحزاب جديدة ظهرت على الساحة وتمكنت من استقطاب تأييد كبير من قبل السوريين خصوصاً المنتمين إلى الطبقات الوسطى والفئات الريفية.²⁸

الأحزاب السورية الجديدة

شكلت فترة الثلاثينيات والأربعينيات مرحلة نهوض الطبقة الوسطى والطبقات الفقيرة وخروج نخب منها تطالب بحقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وقد كان الغالب على هذه الأحزاب أنها كانت عابرة للحدود بين لبنان وسوريا بالدرجة الأولى وأهمها حزب الكتلة الوطنية السورية والحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث والحزب العربي الاشتراكي، وقد اندمج هذان الأخيران في الخمسينيات ليشكلا حزب البعث العربي الاشتراكي. هذا إضافة إلى حزب الأخوان المسلمين الذي تأسس في الوقت نفسه في سوريا ومصر.

وقد هيمن على الحياة السياسية في سوريا في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات حزب الكتلة الوطنية. وهو حزب ضم كبار الوجهاء السوريين من ملاك الأراضي الكبيرة في ريفي دمشق وحماة، وقاد نضال السوريين ضد سلطات الانتداب وحقق الاستقلال لسوريا. وقد تأسست الكتلة الوطنية في شباط فبراير 1925 بعد سماح المفوض السامي الفرنسي في سوريا الجنرال سراي بعمل الجمعيات والأحزاب. وكان من أبرز قيادات الكتلة الوطنية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي كان سبق وأسس حزب الشعب خلال فترة حكم الملك فيصل الأول لسوريا بين عامي 1918 و1920. لكن عمل الكتلة لم ينطلق إلا بعد العام 1928 قبيل الانتخابات العامة في البلاد التي دعت إليها سلطات الانتداب، وقد ضمت قوائمها رموز الحركة الاستقلالية السورية ضد الحكم التركي والانتداب الفرنسي. وقد انتخب هاشم الأتاسي رئيسا للكتلة فيما تألف أول مجلس لها من كل من الشيخ أحمد بن خزعل الرفاعي وعبد الرحمن الكيالي وسعد الله الجابري، ولطفي الحفار، وجميل مردم

²⁸ راجع عبد الله فكري الخاني، جهاد شكري القوتلي من أجل الاستقلال والوحدة، بيروت: دار النفائس، 2003.

بك، وشكري القوتلي، والشيخ صالح العلي، وسلطان باشا الأطرش، ونسيب البكري، والشيخ أحمد فاضل الكيالي، وفارس الخوري، والشيخ محمد خير بيك الحريري، ومحمد الأشمر وفخري البارودي ونجيب البرازي.

ومنذ الثلاثينيات ظهر تباين في الكتلة بين تيار بزعامة عبد الرحمن الشهبندر يدعو إلى التقارب مع العراق والوحدة معه، وكان هذا التيار مدعوماً من هاشميين العراق ومن البريطانيين، في مقابل تيار آخر يقوده شكري القوتلي ويدعو إلى سياسة أكثر استقلالية لسوريا، وقد جرت أخبار تقول بأن هذا التيار كان مدعوماً من مصر والمملكة العربية السعودية اللتين كانتا قد بدأتا تنافسان العراق في المشرق منذ بداية الأربعينيات من القرن الماضي. وقد تفجر الخلاف داخل الكتلة بعد اغتيال الشهبندر واتهام قيادات في الكتلة الوطنية على رأسهم القوتلي وجميل مردم بك بها. وبنتيجة ذلك انقسمت الكتلة الوطنية عقب جلاء القوات الفرنسية عن سوريا إلى حزبين هما الحزب الوطني بقيادة شكري القوتلي وحزب الشعب بقيادة رشدي كيخيا وناظم القدسي. وبعد العام 1946 خرجت من الكتلة الوطنية قيادات بارزة مثل جميل مردم بك وعبد الرحمن الكيالي وحتى رئيس الكتلة السابق هاشم الأتاسي في حين ضعفت الكتلة في الخمسينيات في ظل صعود نجم حزب البعث والحزب السوري القومي والحزب الشيوعي، وفي ظل الانقلابات العسكرية التي تتالت على سوريا منذ العام 1949.²⁹

بالتوازي مع الكتلة الوطنية فلقد نشأت أحزاب تمثل الطبقات الوسطى والدنيا. وكان الحزب الشيوعي من أبرز هذه الأحزاب وقد تأسس في بلدة الحدث اللبنانية على يد نقابيين كانوا يناضلون من أجل حقوق العمال وتأثروا بالثورة البولشفية. وقد أعلن تأسيسه رسمياً في العام 1924 وانتخب النقابي فؤاد الشمالي كأول أمين عام له. وقد ارتبط الحزب بشكل عضوي بالحزب الشيوعي السوفياتي وكان يتلقى تعليماته منه في معظم قضاياها الرئيسية. وسرعان ما لاقى الحزب تأييداً من قبل المثقفين المنحدرين من أصول ريفية وفي أوساط العمال المتحدرين من فئات ريفية جاءت إلى المدن للعمل. وفي العام 1933 كان فؤاد الشمالي قد أبعد عن الحزب بتأثير من موسكو بعد إطاحة راعيه غريغوري زينوفيف ورفيقه ليف كامينيف على يد ستالين. وقد خلفه في منصب الأمين العام للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا خالد بكداش الذي سيلعب الدور الرئيسي في قيادة الحزب لثلاثة عقود تالية. وبكداش ينتمي لعائلة كردية دمشقية، وقد ولد في العام 1912 وانتسب إلى الحزب الشيوعي في العام 1930. وقد ترجم ألمانيستو الشيوعي إلى اللغة العربية ومثل الشيوعيين العرب

²⁹ راجع كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 180 - 182.

في اجتماعات الكومنترن في العام 1935. وفي العام 1937 أسس جريدة صوت الشعب لتكون ناطقة باسم الحزب الشيوعي. وقد لعب بكداش دورا بارزا في الثلاثينيات والأربعينيات في مواجهة سلطات الانتداب، ثم كان للحزب الشيوعي دور كبير في النضالات العمالية والنقابية في كل من سوريا ولبنان خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي.³⁰

أما الحزب الثالث الذي سيلعب دورا في تلك المرحلة فهو الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسس في لبنان على يد انطون سعادة. وهو من مواليد الشوير في منطقة المتن الشمالي. وقد آمن سعادة بوحدة بلاد الشام بحدودها الطبيعية أي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وشبهة جزيرة سيناء ومنطقة كيليكييا في جنوب تركيا بالإضافة إلى جزيرة قبرص. وفي وقت لاحق وجد سعادة تكاملا بين بلاد الشام والعراق الذي اعتبره أيضا جزءا من الأمة السورية أو الهلال الخصيب. وقد ناضل الحزب في الثلاثينيات ضد الانتداب الفرنسي وقد عانى مؤسسه وقائده أنطون سعادة مرات عدة من السجن بتهم مناهضة الانتداب إلى حين اغترابه القسري إلى البرازيل في العام 1938 والتي عاد منها بعد تسع سنوات. وفي بداياته نشأ تباين حاد بين الحزب والفكر القومي العربي، لكن في أواخر الأربعينيات كانت أفكار سعادة أوضح لأتباعه وخصومه على السواء، بالعمل الثقافي السياسي والمزيد من الإعلام المسؤول والانفتاح الفكري بين القوى السياسية. واعتبر أن سوريا هي أمة من الأمم العربية رغم ما يميزها عن باقي هذه الأمم. كذلك كان الحزب جذريا في معاداته للطائفية السياسية خصوصا في لبنان واعتبرها عائقا أمام وحدة الأمة، كما اعتبر أن الإسلام والمسيحية هما تعبيران حضاريان من نتاج الهوية الحضارية للأمة السورية. وقد لاقى الحزب تأييدا في صفوف الفئات الريفية والطبقة الوسطى في المدن، خصوصا في بيروت وجبل لبنان وجبال العلويين وجبل العرب في سوريا. وخلال الثلاثينيات والأربعينيات كان الحزب السوري القومي الاجتماعي على تنافس حاد مع الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان.³¹

أما الحزب الرابع فكان حزب البعث الذي تم تأسيسه من قبل أستاذين دمشقيين درساً في السوربون في فرنسا خلال الثلاثينيات هما ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. وقد كان الإثنان ينتميان إلى الطبقة الوسطى العليا الدمشقية وقد تأثرا بالتيار العروبي الذي كان في أوج صعوده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وعند عودتهما إلى دمشق بدءا يدعوان إلى فكرتهما بين تلاميذهما في المدارس التي علما فيها. وكانت دعوتهما لإنشاء

³⁰ راجع ل. س. أيوب، الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، بيروت: دار الحرية، 1959.

³¹ راجع، أحمد سام الأحمد، الحزب السوري القومي الاجتماعي: 1932 - 1962 دراسة تاريخية، بيروت: دار ومكتبة التراث الأدبي، 2014.

حزب يعتمد النموذج اللينيني للمنظمات الحزبية نتيجة شعورهما بالتحدي الناجم عن توسع شعبية الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي، فيما كانت العروبة تيارا لا تنظيم يؤطر صفوفه. وقد بقي الأستاذان يدعوان لفكرتهما حتى كان التأسيس الرسمي للحزب في العام 1947. بالتوازي مع جهودهما كان هنالك محامٍ من مدينة حماه هو أكرم الحوراني وكان قد بدأ نضاله في الثلاثينيات من القرن الماضي أثناء دراسته للحقوق، وقد انضم لفترة وجيزة إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي إلا أنه تركه بعد ذلك نتيجة مواقف الحزب السلبية تجاه العروبة. وكان نضال الحوراني في حماه بالدرجة الأولى ضد تسلط التجار وطبقة الآغوات على الفقراء والفلاحين فأسس لذلك الغرض حزبا هو الحزب العربي الاشتراكي وخاض نضالا ضدهم وضد سلطات الانتداب وتمكن بدعم فقراء حماه وريفها من أن يحدث خرقا ويصبح نائبا في البرلمان السوري في العام 1943. وقد تواصل مع ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار في أوائل الخمسينيات حيث وحدوا حزبي البعث والعربي الاشتراكي ليصبح الحزب باسم البعث العربي الاشتراكي وذلك في سنة 1954. وقد لقيت الأحزاب الثلاثة هوى في نفوس ضباط الجيش المتحدرين من أولاد وجهاء الريف ومن الطبقة الوسطى في المدن السورية. وكانت هذه الطبقة قد بدأ يصعد دورها خلال الأربعينيات وبدأت تصطدم بمصالحها بمصالح طبقة كبار التجار والوجهاء في المدن والتي سيطرت على الحياة السياسية خلال النصف الأول من القرن العشرين.³²

وأخيرا، فلقد كان حزب الأخوان المسلمين من الأحزاب التي ستتشكل في سوريا بالتوازي مع تشكل الحزب في مصر، إلا أنه في سوريا لن يلعب دورا بارزا قبل منتصف الستينيات من القرن الماضي. وقد تأسس الحزب في سوريا في الثلاثينيات في البيئات المحافظة في دمشق وحلب وحماة وحمص. وكان مصطفى السباعي أول مراقب عام له بين عامي 1945 و1964. وفي العام 1964 خلفه في المنصب كمراقب عام الدكتور عصام العطار وذلك حتى عام 1973. وقد أقر الحزب ثلاث مؤسسات تحكم عمله وهي مجلس شورى ينتخب المراقب العام ويقر القيادة التي يختارها هذا المراقب العام إضافة إلى الخطط والسياسات، إضافة إلى المراقب العام وأعضاء قيادته الذين يتولون شؤون الجماعة، ومحكمة عليا حزبية تفصل في النزاعات التي تنشأ في صفوف الجماعة. ولم تتوسع قاعدة تأثير الجماعة خلال الفترة الممتدة من الثلاثينيات وحتى السبعينيات من القرن الماضي بنتيجة احتلال الساحة السياسية من قبل الأحزاب المذكورة آنفا.

³² راجع شبلي العيسمي، حزب البعث العربي الاشتراكي: مرحلة الأربعينيات التأسيسية 1940-1949، بيروت: دار الطليعة، 1980 ومصطفى دندشلي، حزب البعث العربي الاشتراكي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

عصر الانقلابات

شهدت سوريا بين عامي 1949 و1958 صراعا عليها كانت أطرافه الإقليمية مصر والمملكة العربية السعودية من جهة في مواجهة هاشميين العراق والأردن من جهة أخرى، أما أطرافه الدولية فكانت بريطانيا الداعمة للهاشميين من جهة والمصريين والسعوديين الذين كانوا قد بدأوا ينسجون علاقات مع الأميركيين منذ العام 1945 مع الولايات المتحدة الأميركية. السنة الأولى من حكم القوتلي في ولايته الثانية قد شهدت تحديات كبيرة كان أبرزها تفاقمهم الازمات الاقتصادية ونكبة فلسطين. وكانت المنظمات الصهيونية قد أعلنت قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين في 15 أيار مايو 1948 عقب إنهاء السلطات البريطانية انتدابها على فلسطين في اليوم نفسه. فدخلت جيوش الدول العربية إلى فلسطين بالإضافة إلى جيش من المتطوعين العرب هو جيش الإنقاذ لنجدة الشعب الفلسطيني ومنع سلب فلسطين، إلا أن هذه الدول كانت لا تزال تحت الهيمنة البريطانية الفرنسية ولم تكن حاضرة لمواجهة تحدٍّ كهذا. فهُزمت في الميدان واضطرت إلى توقيع هدنة مع الكيان الصهيوني فيما استقبلت الدول المجاورة لفلسطين مئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين هجروا من أرضهم ليعيشوا في مخيمات للجوء في الشتات. وقد أدّت هذه الأزمات إلى حركات احتجاج عارمة في سوريا ضد حكم القوتلي واجهها بالقمع وزجّ بالسجون مئات الصحافيين والنقابيين وقادة الأحزاب الصاعدة.³³

في ظل هذه الظروف قام قائد الجيش السوري حسني الزعيم بانقلاب على القوتلي في 30 آذار مارس 1949. والزعيم من عائلة كردية من حلب وقد ولد في العام 1894. وقد درس في مدرسة الضباط العثمانية والتحق بالجيش العثماني ثم بالجيش السوري الذي شكل خلال فترة الانتداب. وخلال الحرب العالمية الثانية قاتل إلى جانب قوات فيشي ضد القوات البريطانية الفرنسية الغازية في العام 1941 ما جعل قوات فرنسا الحرة تحكم عليه بالسجن لعشر سنوات، إلا أن القوتلي أعفى عنه بعد الاستقلال في العام 1944 وعينه قائدا للجيش. وقد جرى انقلاب الزعيم نتيجة خوفه من تحقيق الفساد في الجيش هدد القوتلي بفتحه وملاحقة الزعيم المتورط فيه. لكن كانت للانقلاب أبعاد أخرى إذ إن بريطانيا وهاشميين العراق دعماه في إطار محاولتهما وضع سوريا تحت المظلة الهاشمية البريطانية على حساب النفوذ الفرنسي الذي كان في طور الزوال. كذلك فلقد كان دعم الهاشميين للزعيم بسبب العداء الذي كان القوتلي يكنّه للهاشميين وصداقته مع الملك عبد العزيز

³³ راجع: Patrick Seale, The Struggle For Syria: A Study in Post War Arab Politics 1945 – 1958, london: Yale University Press, 1987.

آل سعود وهو العدو الرئيس للهاشميين في العراق والأردن. يضاف إلى ذلك ارتباط اسم الزعيم بمشروع بريطاني لتمرير خطوط التابلاين من العراق إلى بانياس على شاطئ المتوسط، في الوقت الذي كانت شركة ارامكو تطمح لتمرير خط للنفط من السعودية عبر الأراضي الأردنية والسورية واللبنانية إلى ميناء صيدا لنقل النفط السعودي إلى هناك. وقد دعم السوريون القوميون الاجتماعيون في الجيش السوري الزعيم في انقلابه، خصوصاً أنهم ظنوا أنه بات بإمكانهم إقامة وحدة الهلال الخصيب التي ينادون بها. وقد تم اتصال بين الزعيم انطون سعادة قائد الحزب وحسني الزعيم بغية التنسيق للقيام بانقلاب للسيطرة على السلطة في لبنان وضمّه إلى هذا الاتحاد. لكن الزعيم انقلب بعد أشهر قليلة على الهاشميين والبريطانيين وبدأ بالتواصل مع الأميركيين والسعوديين والمصريين. وكان من ثمار ذلك انقلابه على اتفاقه مع أنطون سعادة وتسليمه إلى السلطات اللبنانية التي سارعت إلى إعدامه في 8 تموز يوليو 1949 للتخلص من الخطر الذي يشكله على مصالح النخب الحاكمة في لبنان.³⁴ بنتيجة ما قام به الزعيم دعم البريطانيون والهاشميون انقلاباً آخر على الزعيم قاده سامي الحناوي في 14 آب أغسطس 1949. وكان الحناوي ولد في حلب في العام 1898 والتحق عام 1916 بالمدرسة العسكرية باسطنبول وقاتل في صفوف الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الأولى، ثم التحق بعد نهاية الحرب بالكلية العسكرية السورية في ظل الانتداب وتدرج في صفوف الجيش. وكان ميالاً للحزب السوري القومي الاجتماعي وللوحدة مع العراق، لذلك فلقد أيّد انقلاب الزعيم في البداية، لكنه غضب عليه بعدما غير الزعيم توجهاته وسلّم انطون سعادة ليُعدم في لبنان. لذلك قاد الحناوي الانقلاب على الزعيم واعتقله مع رئيس وزرائه محسن البرازي وقام بإعدامهما ثم بدأ بالبحث في تحقيق الوحدة مع العراق تحت التاج الهاشمي.³⁵ هذا دفع بمصر والسعودية إلى دعم انقلاب عليه في 16 كانون الأول ديسمبر قاده أديب الشيشكلي. وكان الشيشكلي ذا ميول قومية اجتماعية وقد دعم انقلاب الزعيم، إلا أنه اختلف معه فصرّفه الزعيم من الخدمة العسكرية. وعندما استولى الحناوي على السلطة أعاد الشيشكلي إلى الجيش كقائد للواء الأول ليكون سنداً له. لكن المصريين والسعوديين اتصلوا بالشيشكلي وأغروه بالانقلاب على الحناوي خوفاً من أن يضع أخصامهم الهاشميون سوريا تحت نفوذهم فقام بالانقلاب واستولى على السلطة حتى العام 1954.

تسلّم الشيشكلي السلطة عبر تشكيله للمجلس العسكري الأعلى وترؤسه إياه فيما تمّ تعيين هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية. وفي بداية العام 1951 اختلف مع الأتاسي فعزله من رئاسة الجمهورية

³⁴ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 211 - 215.

³⁵ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 215 - 216.

وقام باعتقال رئيس الوزراء ومعظم أعضاء الحكومة وعيّن الماريشال فوزي سلو رئيساً للجمهورية قبل أن يعين نفسه رئيساً بعد استفتاء أجراه في العام 1953. وخلال هذه الفترة كان الشيشكلي يحاول اللعب على التناقض بين الهاشميين في العراق من جهة والمصريين والسعوديين من جهة أخرى، في محاولة منه للاستئثار بالحكم في سوريا. وقد دفعت به سياساته للاستفراد بالسلطة إلى الاصطدام بمعظم شرائح المجتمع السوري، وقد اعتمد سياسة قمع ضد معارضيه وصلت حد قصفه السويدياء بالطائرات نتيجة شكوكه بولاء دروز جبل العرب للعراق. إضافة إلى اعتقاله المتكرر لقادة الأحزاب والزعامات السورية التقليدية. هذا جعل ضباط الجيش من مختلف المشارب القومية الاجتماعية والقومية العربية والبعثية والشيوعية يتفقون على إطاحته وهو ما تمّ لهم في شباط فبراير 1954 ما دفعه إلى الفرار إلى لبنان ومنه إلى البرازيل، حيث تمّ اغتياله في العام 1964 على يد شاب درزي انتقاماً لضحايا قصف السويدياء.³⁶ بعد ذلك استدعى الضباط الرئيس شكري القوتلي من منفاه في القاهرة ونصبوه رئيساً على سوريا فيما احتفظوا بمعظم السلطة في أيديهم وتوزّعوا الولاء بين مصر والسعودية من جهة والعراق من جهة أخرى، فوالى الضباط القوميون العرب والبعثيون مصر والسعودية فيما والى الضباط القوميون الاجتماعيون العراق ووقف الشيوعيون موقفاً محايداً حتى العام 1955 حين بدأوا بتأييد مصر بقيادة جمال عبد الناصر نتيجة تقاربه بعد العام 1955 مع السوفيات. واستمر بالتالي الصراع على سوريا.³⁷

مرحلة الحسم

شكّلت المرحلة الممتدة بين عامي 1955 و1958 مرحلة حاسمة من تاريخ سوريا. فخلال هذه الفترة كانت مصر قد أصبحت تحت سلطة جمال عبد الناصر الذي كان قد قاد انقلاباً ضد الملكية في العام 1952 تلاه إعلان الجمهورية في العام 1953 واختيار محمد نجيب رئيساً لها فيما أصبح عبد الناصر رئيساً للوزراء. وفي آذار مارس 1954 استطاع عبد الناصر حسم الصراع لصالحه في مواجهة محمد نجيب المدعوم من الإخوان المسلمين وباقي الأحزاب المصرية والتي كانت تحاول كسب دعم الولايات المتحدة، فيما كان عبد الناصر يسعى لاعتماد سياسة مستقلة عن القوى الكبرى والتي ترجمها لاحقاً في مساهمته في تأسيس دول عدم الانحياز. هذا جعله يواجه المشاريع

³⁶ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 216 - 223.

³⁷ راجع جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا، بيروت: دار المطبوعات، 2011، الفصل السادس.

الأميركية البريطانية لإقامة حلف عسكري في الشرق الأوسط تحت مسمى حلف بغداد، إذ كان هذا الحلف الذي ضمّ تركيا وإيران والعراق وباكستان إضافة إلى بريطانيا قد اعتمد بغداد مقراً له. وقد تمكن عبد الناصر من توقيع اتفاق مع بريطانيا يقضي بجلاء قواتها عن منطقة قناة السويس على أن تم هذا الانسحاب في أوائل العام 1956 بعد احتلال دام سبعة عقود. وفي مواجهة الدعم الأمريكي البريطاني لإسرائيل وتكرارها اعتداءاتها ضد مصر فلقد لجأ عبد الناصر إلى الاتحاد السوفياتي لشراء السلاح فكانت صفقة السلاح التشيكية في العام 1955، حيث زوّدت موسكو الجيش المصري بالسلاح الحديث عبر تشيكوسلوفاكيا. إضافة إلى ذلك دعم عبد الناصر حركات التحرر في العالم الثالث ضد القوتين الاستعمارييتين فرنسا وبريطانيا. وقد أدّى ذلك إلى غضب هاتين القوتين بالإضافة إلى الولايات المتحدة عليه. فدفعت البنك الدولي في العام 1956 إلى رفض الطلب المصري بالحصول على قرض لتمويل مشروع السد العالي في أسوان. وقد رد عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس في 26 تموز يوليو 1956.

هذا المسار الذي اتخذه عبد الناصر جعله على طرفي نقيض مع الهاشميين في العراق ورئيس وزرائهم نوري السعيد الموالي لبريطانيا والغرب. وقد انعكس ذلك استعاراً للصراع على النفوذ على سوريا بين العراق ومصر، وصداماً بين وحدات وضباط الجيش السوري بين موالٍ لمصر من بين الضباط القوميين والبعثيين من جهة وبين موالٍ للعراق في صفوف الضباط القوميين الاجتماعيين من جهة أخرى. وفي العام 1955 انحاز الضباط الشيوعيون إلى الضباط القوميين العرب في الجيش السوري نتيجة التقارب بين الاتحاد السوفياتي بقيادة نيكيتا خروتشيف ومصر بقيادة عبد الناصر. في هذا الإطار جرت حادثة اغتيال العقيد عدنان المالكي الموالي للبعث في 22 نيسان أبريل 1955. وقد اتهم القوميون الاجتماعيون بتنفيذ الاغتيال ما أدّى إلى موجة اعتقال وتنكيل بحقهم وملاحقة ضباطهم وأبرزهم العقيد غسان جديد، وكان من أبرز ضباط الجيش السوري القوميين الاجتماعيين وأكثرهم نفوذهم. بعد ذلك سيطر الضباط القوميون العرب والبعثيون والشيوعيون على الجيش السوري. وقد لعب هؤلاء الضباط دوراً كبيراً في دعم مصر أثناء العدوان الثلاثي الذي نفذته بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضدها في 29 تشرين الأول أكتوبر 1956. وكان عبد الحميد السراج من أبرز هؤلاء الضباط. وبنتيجة النصر الكبير الذي حققه عبد الناصر على العدوان الثلاثي وتحولّه الرمز الأبرز للقومية العربية في الأمة العربية جمعاء، وخوفاً على سوريا من أن تقع تحت النفوذ الهاشمي العراقي، وفي ظل التهديدات التركية باجتياح سوريا، ذهب وفد من الضباط السوريين إلى مصر في شباط فبراير 1958 مطالبين عبد الناصر بإقامة وحدة مع سوريا. وقد قبل عبد الناصر هذا الطلب

مشترطاً حل جميع الأحزاب في سوريا على أن يكون هو رئيس الجمهورية العربية المتحدة المؤلفة من مصر وسوريا وأن يكون القائد البعثي أكرم الحوراني نائباً للرئيس.

الدساتير السورية حتى عام 1958

خلال فترة الانتداب ومن ثم مرحلة الاستقلال الأولى حتى العام 1958 صدرت دساتير سوريا عدة. لكن من المهم أن نذكر أولاً دستور المملكة السورية الذي صدر قبل أيام قليلة من اجتياح غورو لسوريا. وقد صدر هذا الدستور في 13 تموز يوليو 1920 باسم دستور المملكة السورية العربية ومن مواده:

المادة الأولى: إن حكومة المملكة السورية العربية حكومة ملكية مدنية نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين الملك الإسلام .

المادة الرابعة: ينحصر مُلك المملكة السورية في الأكبر فالأكبر من أبناء الملك فيصل الأول .

المادة الثانية عشرة: لا يجوز التعذيب وإيقاع الأذى على أحد بسبب ما .

المادة الثالثة عشرة: لا يجوز التعرّض لحرية المعتقدات والديانات، ولا منع الحفلات الدينية من الطوائف، على ألا تخل بالأمن العام أو تمس بشعائر الأديان والمذاهب الأخرى .

المادة التاسعة عشرة: المطبوعات حرّة ضمن دائرة القانون، ولا يجوز تفتيشها ومعاينتها قبل الطبع .

المادة الخامسة والعشرون: لا تجوز محاكمة أحد إلا في الحالات التي يعينها القانون.³⁸

أما أول دستور صدر في مرحلة الانتداب فلقد كان دستور العام 1928 في ظل المندوب السامي على لبنان وسوريا هنري بونسو الذي أراد تهدئة الأوضاع بسوريا بعد ضرب الانتداب للثورة السورية الكبرى، فأعلن عن قيام حكومة مؤقتة للبلاد بقيادة الشيخ تاج الدين الحسيني وشكّل

³⁸ <http://emediatc.com>

PublicFiles/File/%D8%AF%D8%B3%D8%AA%D9%88%D8%B1%D8%A7%D9%84%D9%
D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%2085%D9%85%D9%84%D9%83%D8%A9%
B1%D9%8A%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%
pdf.201920D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%85%20A9%

جمعية تأسيسية في آذار مارس لصياغة دستور للبلاد. وقد انتخبت الجمعية هاشم الأتاسي رئيساً لسوريا فيما انتخبت إبراهيم هنانو رئيساً للجنة الدستور التي ضمت 27 عضواً. وبعد أسابيع من العمل الدؤوب تمت صياغة الدستور إلا أن سلطات الانتداب اعترضت على عدد من المواد فيه التي عدتها معادية لفرنسا وانتقاصاً من سلطات الانتداب. وبنتيجة احتجاج الوطنيين السوريين قام المندوب السامي بتعليق اجتماعات اللجنة الدستورية لثلاثة أشهر تلاها تأجيل آخر إلى أن قام بونسو بإضافة المادة 116 على الدستور وبها تم تعليق المواد الدستورية التي تدعو إلى استقلال سوريا. وعند إجراء انتخابات تشريعية في العام 1932، وبعد إعلان النتائج رفض النواب السوريون قسّم اليمين أمام الدستور المعدل فرنسياً ما دفع بالمندوب السامي إلى حل المجلس وتعليق الدستور حتى العام 1936 حين تمّ التفاوض بين الكتلة الوطنية والحكومة الفرنسية على اتفاقية تقضي بمنح سوريا الاستقلال. ومن مواد هذا الدستور:

1- يقيم الدستور دولة ذات نظام للحكم جمهوري نيابي، ويُسْتَلْهِم من الدستور الفرنسي لعام 1875 .

2- يكفل الدستور حقوق الطوائف الدينية المختلفة .

3- يتولى مجلس النواب المنتخب من الشعب بالاقتراع العام السري السلطة التشريعية، وينتخب رئيس الجمهورية بالاقتراع السري .

4- مدة ولاية رئيس الجمهورية خمس سنوات، ولا تجوز إعادة انتخابه إلا بعد انقضاء خمس سنوات على رئاسته.³⁹

وفي العام 1949، وبعد انقلاب حسني الزعيم، تم تأليف لجنة دستورية من سبعة أعضاء لوضع دستور جديد للبلاد، إلا أن انقلابين آخرين وقعا في تلك الفترة ولم تصدر اللجنة مسودة الدستور الجديد إلا في العام 1950 ومن مواده:

المادة الأولى: سوريا جمهورية عربية ديمقراطية نيابية ذات سيادة تامة. وهي وحدة سياسية لا تتجزأ ولا يجوز التخلي عن جزء من أراضيها والشعب السوري جزء من الأمة العربية .

المادة الثانية: السيادة للشعب، لا يجوز لفرد أو جماعة ادعاؤها. تقوم السيادة على مبدأ حكم الشعب بالشعب وللشعب. يمارس الشعب السيادة ضمن الأشكال والحدود المقررة في الدستور .

³⁹[/constitutions-in-syria/https://idraksy.net](https://idraksy.net/constitutions-in-syria/)

المادة الثالثة: دين رئيس الجمهورية الإسلام. الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع. حرية الاعتقاد مصونة. والدولة تحترم جميع الأديان السماوية. وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها على ألا يخل ذلك بالنظام العام. الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية .

المادة الرابعة عشرة: تكفل الدولة حرية الرأي ولكل سوري أن يُعرب بحرية عن رأيه بالقول والكتابة والتصوير وسائر وسائل التعبير. لا يؤاخذ فرد على آرائه إلا إذا تجاوز الحدود المعينة في القانون .

المادة الخامسة عشرة: الصحافة والطباعة حرّتان ضمن حدود القانون. لا يجوز تعطيل الصحف ولا إلغاء امتيازها إلا وفقا لأحكام القانون. يجوز في حالة إعلان الأحكام العرفية أو الطوارئ أن يفرض القانون على الصحف والنشرات والمؤلفات والإذاعة رقابة محدودة في الأمور التي تتصل بالسلامة العامة وأغراض الدفاع الوطني. ينظم القانون أسلوب المراقبة على موارد الصحف .

المادة الثامنة عشرة: للسوريين حق تأليف أحزاب سياسية على أن تكون غاياتها مشروعة ووسائلها سلمية وذات نظم ديمقراطية. ينظم القانون طريقة إخبار السلطات الإدارية بتأليف الأحزاب ومراقبة مواردها .

المادة الحادية والعشرون: الملكية عامة وخاصة، للدولة والأشخاص الاعتبارية وآلاف الأفراد تملك الأموال ضمن حدود القانون. الملكية الخاصة مصونة، ويعين القانون كيفية حيازتها والتصرف بها بحيث تؤدي وظيفتها الاجتماعية .

المادة الثامنة والثلاثون: الناخبون والناخبات هم السوريون والسوريات الذين أمّوا الثامنة عشرة من عمرهم .

المادة الحادية والسبعون: ينتخب رئيس الجمهورية من قبل مجلس النواب بالتصويت السري . ويجب أن يفوز بأكثرية ثلثي مجموع النواب. فإن لم تحصل أعيد الانتخاب ويُكتفى بالأكثرية المطلقة. فإن لم تحصل أعيد ثالثة ويُكتفى بالأكثرية النسبية .

المادة الثانية والسبعون: يُشترط في من يُنتخب لرئاسة الجمهورية أن يكون سوريا منذ عشر سنوات. حائزا لشروط الترشيح للنيابة. متما الأربعين من عمره. مدة رئاسة الجمهورية خمس سنوات كاملة تبدأ منذ انتخاب الرئيس. ولا يجوز تجديدها إلا بعد مرور خمس سنوات كاملة على انتهاء رئاسته .

المادة السادسة والثمانون: رئيس الجمهورية مسؤول في حالتي خرق الدستور والخيانة العظمى . وهو مسؤول أيضا عن الجرائم العادية. لا يُحاكم رئيس الجمهورية إلا أمام المحكمة العليا. لا يجوز البحث في إحالة رئيس الجمهورية إلى المحكمة العليا إلا إذا تقدم ربع أعضاء مجلس النواب بطلب

خطي معلل إلى رئاسة المجلس. يُحال الطلب قبل البحث فيه إلى اللجنتين الدستورية والقضائية مجتمعتين، وتقدّم اللجنتان تقريرهما خلال ثلاثة أيام منذ إحالة الطلب إليهما. تعين جلسة خاصة لمناقشة طلب الإحالة ولا يجوز أن يبحث فيها أمر آخر. لا تجوز إحالة رئيس الجمهورية إلى المحكمة العليا في جميع الحالات إلا بموافقة أكثرية مجموع النواب المطلقة. عند إحالة رئيس الجمهورية إلى المحكمة العليا تعتبر سدة الرئاسة خالية حتى تُصدر هذه المحكمة قرارها. **المادة الرابعة بعد المائة: القضاء سلطة مستقلة.**

المادة الخامسة بعد المائة: قضاة الحكم مستقلون لا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون. شرف القضاة وضميرهم وتجرّدهم ضمان لحقوق الناس وحرياتهم. **المادة الثامنة بعد المائة: يمارس القضاء في الدولة المحكمة العليا. محكمة التمييز. المحاكم الأخرى.**⁴⁰

لكن في أواخر العام 1951 قام الرجل القوي في سوريا والحاكم الفعلي فيها بانقلاب عسكري أطاح به خصومه وقرّر أن يصبح هو رئيساً للبلاد وألا يكتفي بممارسة السلطة من الكواليس. وقد شكل لجنة دستورية قامت بوضع دستور جديد عبر تعديل دستور العام 1950 وقامت بتنصيب الشيشكلي رئيساً في صيف العام 1950.⁴¹

⁴⁰ -dustour.org/media-

library/Publications_Syria/Syrian_constitution_1950_Arabic.pdf.

⁴¹ -http://dustour.org/media-library/publications_syria/syrian_constitution_-1950-

arabic.pdf

الفصل الثاني

لبنان 1920 – 1958

شهد القرن التاسع عشر انطلاق الثورة الصناعية وانتشرت في أوروبا الغربية، خصوصاً في بريطانيا وفرنسا، المصانع، وبدأت هذه الرأسمالية بالانتشار وبدأت تربط باقي أنحاء العالم بها وانطلقت دورة الإنتاج الرأسمالي والذي أدّى إلى استلحاق اقتصادات باقي المناطق في العالم بالغرب الرأسمالي. وقد أدّى هذا منذ بدايات القرن التاسع عشر إلى ربط اقتصاد جبل لبنان بالمركتالية الفرنسية. وكان جبل لبنان قد ارتبط بالمركتالية الفرنسية منذ القرن الثامن عشر بعد توسّع إنتاج الحرير فيه وتصديره إلى مصانع ليون في فرنسا. وهذا أدّى إلى ربط اقتصاد جبل لبنان بليون وأدّى إلى عملية تحول اقتصادي اجتماعي. وقد تعزز التغلغل الرأسمالي في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وشهد ارتفاعاً في المديونية العثمانية لصالح الرأسمال الغربي، خصوصاً الرأسمال الفرنسي. وفي مصر، أدّى التغلغل الرأسمالي الأوروبي المتمثل بالقروض الغربية لمصر إلى حالة اضطراب زادت وتيرتها في ظل الخديوي سعيد وبعده الخديوي إسماعيل والتي أدّت في ما بعد إلى إفلاس الدولة المصرية وخضوعها تحت الهيمنة الأوروبية وتحديدًا البريطانية والفرنسية. وأيضاً الدولة العثمانية تحوّلت إلى أكبر مدين للرأسمال الفرنسي والدولة الفرنسية تدينها بفوائد عالية وفي الوقت نفسه أدّى هذا إلى سقوط الدولة العثمانية تحت المديونية، وفي المحصلة أوجد عملية تأثير على المجتمعات ومن ضمنها مجتمع جبل لبنان. ففي جبل لبنان كان التحول قد بدأ في عهد بشير الثاني من ضرب للإقطاع في جنوب جبل لبنان الذي كان أغلبه إقطاعاً درزياً، ولكن أيضاً تأثر الإقطاع في شمال لبنان مثل بيت الخازن وحبش والدحاح. وقد بدأت الكنيسة المارونية في ذلك الوقت ببلورة دورها كمؤسسة مستقلة عن الإقطاع ولو نسبياً. وهذا انعكس بمراسلات البطارقة بدءاً من يوسف حبش فصاعداً. أما في جنوب جبل لبنان فقد تمّ ضرب الإقطاع وقام الأمير بشير بالاستيلاء على أملاكهم وتأجيرها إلى فلاحين ليشتغلوا فيها لصالح الأمير.

التحولات في القرن 19

في العام 1838 وقّعت الدولة العثمانية اتفاقية للتجارة الحرة مع بريطانيا العظمى عرفت ببالتا ليمان وتمّ بموجبها فتح الأسواق العثمانية امام البضائع البريطانية.⁴² في المقابل ضغطت بريطانيا على القوى الأوروبية ومن ضمنها فرنسا للضغط على محمد علي باشا لیسحب قواته من بلاد الشام. وفي العام 1840، وبعد إجبار محمد علي باشا على الخروج من بلاد الشام، وبعد نفي المير بشير الثاني إلى مالطا ظهرت مشكلة ملكية الأرض بعد عودة المقاطعية الدروز إلى الشوف ومطالبتهم باستعادة الأراضي التي أخذت منهم وأعطيت للفلاحين. وقد كان هذا أحد أهم العوامل في تفجر الأحداث الطائفية في جبل لبنان في العام 1841. وبالتالي كان أحد جوانب هذا الصراع هو البعد الطبقي، لكن كانت له أيضا جوانب أخرى منها تدخل القوى الخارجية لأننا تحدثنا عن التسابق الاستعماري في منطقة شرق آسيا وأدى إلى غلبة بريطانيا وحرب آلفيون ودخولها إلى الصين وكانت هونغ كونغ هي القاعدة لدخول البريطانيين إلى الصين.⁴³ أما في منطقتنا فوجدت فرنسا نفسها متأخرة في السباق فأتت للتعويض عن ذلك بحكم العلاقات التي ربطتها مع العثمانيين منذ القرن السادس عشر والقرن السابع عشر. وكان عدد من الطوائف المشرقية كالكلدان والموارنة والروم الكاثوليك قد ارتبطوا بعلاقة وثيقة مع فرنسا منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر.⁴⁴ وكان الموارنة يشكلون غالبية سكان جبل لبنان بنسبة 70% من السكان، فبالتالي تأتي تحت ذريعة حماية المسيحيين وتبدأ بالتدخل كدولة رعية. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر تعززت العلاقة الاقتصادية التجارية بين فرنسا وبلاد الشام، خصوصاً في حكم محمد علي باشا لهذه البلاد بين عامي 1831 و1840.⁴⁵ في المقابل فلقد نظرت الدولة العثمانية بعين الريبة إلى هذا التدخل الفرنسي. لكن الدولة العثمانية لم يكن عندها قدرة على مواجهة فرنسا لأسباب عدة منها التحولات التي أضعفت الدولة العثمانية إلى الرأسمال الفرنسي إلى المديونية ومنها العلاقة التي جمعت الكنيسة المارونية وفرنسا وروما. فبالتالي فإن الدولة العثمانية سعت للاعتماد على الإقطاع الدرزي والذي كان ولاؤه تاريخياً للدولة التي تحكم دمشق بالدرجة الأولى هذه من ناحية، أما من ناحية ثانية فلقد سارع البريطانيون إلى انتزاع حصّة لهم في جبل لبنان عبر دعمهم للدروز. وبدأ التنافس على هذا الأساس والذي أدّى إلى إنشاء نظام القائمقاميتين إحداهما مسيحية شمال

⁴² سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، القاهرة: دار الشروق، 2009، ص. 222.

⁴³ Chi Kwan Mark, China and the World since 1945, London: Routledge, 2011, 1.

⁴⁴ فيليب حتي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحالي، بيروت: دار الثقافة، 1978، ص. 482 - 483.

⁴⁵ راجع قاسم سمحات، محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام 1804 - 1850، بيروت: دار المواسم، 2016.

طريق الشام والأخرى مختلطة ويحكمها قائمقام درزي جنوب طريق الشام. أما الروس فحاولوا أن يكونوا رعاة للأرثوذكس، ولكن لم يحالفهم الحظ كثيرا لأنهم في تلك الفترة لم يكونوا يملكون أسطولا يتحدّى الأسطول الفرنسي بالإضافة إلى أن روسيا كانت ما تزال قائمة على إقطاع وليس على نظام رأسمالي حديث، ولذلك لم تستطع أن تدخل وتتغلغل في الدولة العثمانية، بالطريقة التي تغلغل فيها الفرنسيون والبريطانيون. وقد أدّت محاولات الروس لمنافسة النفوذ الفرنسي المتصاعد في الدولة العثمانية إلى حرب القرم في العام 1856 والتي انتهت بهزيمة الدولة الروسية في مواجهة تحالف ضمّ فرنسا وبريطانيا والدولة العثمانية. ومنذ نشأة الدولة العثمانية ارتبطت مصالح طائفة الروم الأرثوذكس بالدرجة الأولى بالسلطنة العثمانية فقد كان لهم وضع مميز، بالتدخل والتنافس الغربي على النفوذ في منطقتنا، حيث هنا ستقام القائمقاميتان فيأتي رعاة الموازنة وهم الفرنسيون وحاول النمساويين أن يكونوا رعاة للروم الكاثوليك، ولكن كانت مصالحهم الاقتصادية بالدرجة الأولى مع فرنسا أما الدروز فكانوا بين العثمانيين والبريطانيين. وقد أدّت التحولات الدولية والإقليمية بالإضافة إلى انفتاح الأسواق المحلية أمام الصناعات الأوروبية إلى أزمة اقتصادية في الداخل تفجّرت من 1857 صراعات متعددة الأوجه. فلو اطلعنا على أرشيف بكركي نجد صراعا بين إقطاع آل الخازن وآل حبيش، إذ أرادوا استرداد نفوذهم في منطقة كسروان تحديدا وبين بيت أبي اللمع والمقاطعيين الدروز في جنوب جبل لبنان لاسترداد نفوذهم وهيبته من ناحية ثانية. أصبح هناك صراع بين الموازنة والروم كما جرى في منطقة بسكنتا أو أجزاء من الكورة، ومن ناحية ثالثة تفجّر صراع بين زغرتا وبشري، وهو الأساس صراع على ملكية الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى ذلك أصبح هناك صراع داخل الأكليروس في المجمع. ما أدّى إلى مرحلة من مراحل تفجّر ثورة العامية بقيادة طانيوس شاهين ويوسف الشنتيرة، فتمردوا على سلطة آل الخازن في كسروان وحبيش في غزير. وانتشرت الثورة (ثورة الفلاحين) وعصبها الأساسي منطقة كسروان وغزير وامتدّت بشكل محدود نحو جبيل والمتن. وقد انتهت هذه الأحداث بمذبحة ارتكبت بحق الفلاحين الموازنة على يد الإقطاع الدرزي في العام 1860. وبنتيجة تدخل القوى الخارجية فرض نظام المتصرفية على جبل لبنان برعاية الدول الخمس الكبرى وهي انكلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والدولة العثمانية على أن يُعيّن متصرف من مسيحيي السلطنة الكاثوليك على رأس إدارة المتصرفية يعاونه مجلس من 12 عضوا: 2 أرثوذكس و4 موازنة و3 دروز وواحد سني وواحد شيعي، أما المتصرف فيكون مسيحيا كاثوليكيا ومن خارج جبل لبنان.⁴⁶

⁴⁶ أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت: المكتبة البولسية، 1987، ص.ص. 19 - 39.

على المستوى الاقتصادي والاجتماعي فما مرفأ بيروت كمرفأ بديل عن صيدا وطرابلس ليكون الوساطة بين رأس المال الفرنسي والداخل الشامي. بدأ الرأسمال الفرنسي يتوسّع في بيروت كصلة وصل مع الداخل الشامي، وبالتالي مع حلول عام 1860 أصبحت هناك هجرة من الريف إلى المدينة وتضخم حجم عدد السكان، فأصبح 60 ألفاً، ومع بداية القرن العشرين أصبح عدد سكان بيروت حوالي مئة وعشرين ألفاً. وقد اختيرت بيروت من قبل الفرنسيين لأنها بعيدة عن المراكز الاقتصادية التقليدية في صيدا وطرابلس وهي تتوسّط المنطقة المنتجة للحرير أي جبل لبنان، ولأنه تمّ استحداث أسواق جديدة مع التحولات التي كان قد قام بها محمد علي باشا في الداخل الشامي في النصف الأول من القرن التاسع عشر.⁴⁷ والنخب الصيداوية لم تكن بعيدة عن الاستفادة من بيروت، لأن بيروت كانت تابعة لولاية صيدا. ومن ناحية ثانية فإن النخب الصيداوية كانت لها علاقات مع فرنسا. وقد أدّى هذا إلى ضرب دور طرابلس كمرفأ على الساحل الشرقي للمتوسط وتوسّع ميناء بيروت. وإضافة إلى ذلك بدأ التنافس بين الإرساليات الفرنسية والإنجلوسكسونية واليسوعية، ففي شمال لبنان كثرت إرساليات الجزويت أما في جنوب جبل لبنان فكانت الإرساليات الإنجلوسكسونية، ولأن بريطانيا لم تكن تهتم بتثقيف شعوب المستعمرات فاهتمت بالأمر الإرساليات الأميركية. وكان قد بدأ التبشير البروتستانتي منذ بداية القرن التاسع عشر، وأول بعثة وصلت إلى لبنان قادمة من الولايات المتحدة كانت في العام 1819. وقد وجدت البعثة رعاية من الإقطاع الدرزي وعداء مارونيا كاثوليكيا، وهذا ما حفزها لتأسيس مدرسة لها في عبيه في جنوب جبل لبنان. وقد أسست البعثة البروتستانتية عام 1866 الكلية الإنجيلية السورية والتي أصبح اسمها في الحرب العالمية الأولى الجامعة الأميركية في بيروت. وبعد عشرين عاماً قام الآباء اليسوعيون بتأسيس الجامعة اليسوعية والتي بدأت كلية طب، وكانت الكثافة الأكبر في جبل لبنان والساحل اللبناني للمدارس الإرسالية الفرنسية.

وقد شكل نظام المتصرفية منزلة بين منزلتين، هو شبه حكم ذاتي موسّع في جبل لبنان، دخل عبر منطقة الرعاية الخارجية لمجموعات وطوائف لبنانية. وقد أطلق نظام المتصرفية الصيغة الطائفية التي ستحكم لبنان حتى يومنا هذا، خصوصاً مع بروز الدور المستقل للكنيسة المارونية، خصوصاً مع "بولس مسعد" وهو أول بطرك من أصول الفلاحين في تاريخ الكنيسة المارونية، وقدرة الكنيسة على أن تصبح مرجعاً مع كل التناقضات داخل الطائفة المسيحية المارونية. وكان مجتمع جبل لبنان في ذلك الوقت قد تمّ دمج في بوتقة اقتصادية واحدة وكان يمتدّ من الكورة شمالاً حتى جزيّن جنوباً وغالبيته من الموارنة بين 60% - 70%، والدروز يشكلون ثاني أكبر حجم يضاف إليهم

⁴⁷ راجع سمير قصير، تاريخ بيروت، بيروت: دار النهار، 1995

الأرثوذكس والكاثوليك، بالإضافة إلى السّنة والشيعة، فجبل لبنان لم يكن يشمل بيروت ولا الشوف وصيدا وجبل عامل وطرابلس والبقاع أو الشمال، كما أن الأحجام لم تعكس حجم الطائفة فقط، بل قدرتها الاقتصادية أيضاً.⁴⁸ فالكاثوليك كانت أعدادهم قليلة إلا أنهم امتلكوا إمكانيات وقوة اقتصادية تفوق ما لغيرهم، منهم العائلات التجارية التي ارتبطت بوكالات تجارية من فرنسا وإلى الآن تتمتع هذه الأسر بوضع اقتصادي مميّز في النظام الاقتصادي اللبناني بالإضافة إلى ذلك في بُعد الرعاية الخارجية. أما الدروز والذين كانوا قد أصبحوا أقلية عديدة بالمقارنة مع الموارد فإنهم احتلوا دوراً أكبر من حجمهم الديمغرافي نتيجة الرعاية العثمانية البريطانية، ونالوا ثلاثة ممثلين في مقابل أربعة أعضاء للأكثرية المارونية التي نالت 4 ممثلين في مجلس المتصرفية، والأرثوذكس نالوا صوتين في المجلس ولهم ثقل وازن في الكورة وأدّى ذلك إلى أن يسود المنطق الطائفي. أما المتصرف فكان من مسيحيي السلطنة العثمانية، ولكن من خارج جبل لبنان. وبسبب وجود رقابة من السلطة المركزية على هذا الكيان الغريب الذي أرادته العثمانيون بدعم من البريطانيين، ضغط الفرنسيون لكي يكون المتصرّف من الكاثوليك في السلطنة ودام هذا النظام ستة عقود وانتهى رسمياً عام 1915.

كان متصرف جبل لبنان من مسيحيي السلطة من خارج منطقة الجبل، لذا فلقد كان من الصعب عليه أن يمارس سلطاته من دون رضى سكان الجبل الذين كانوا لا يزالون تحت تأثير الولاء للمقاطعية. وفي الوقت نفسه كان هؤلاء المقاطعية قد فقدوا دورهم التقليدي بحكم الإصلاحات التي دخلت في الدولة العثمانية والتي أنهت عصر الإقطاع وأدخلت الدولة والمجتمع عصر الرأسمالية الماركنتالية. لذا فلقد وجد داوود باشا، أول متصرف يعين على جبل لبنان، أنه لن يتمكن من ممارسة مهامه ما لم يسترض المقاطعية المحليين الذي استعان بهم ليكونوا واسطة العلاقة بينه وبين السكان، وهكذا نشأت المحسوبية في جبل لبنان ومن ثم في دولة لبنان الكبير والتي ستميّز النظام السياسي والاجتماعي لهذا الكيان.⁴⁹ وقد ترافق عصر المتصرفية مع أول أزمة اقتصادية تضرب بعمق اقتصاد جبل لبنان، خصوصاً في آخر عقدين من القرن التاسع عشر. ففي تلك الفترة كانت فرنسا قد احتلت الهند الصينية واستطاعت الحصول على مصدر للحريز أرخص وأكثر جودة من الحريز اللبناني. وقد أدّى هذا إلى تحول المصانع الفرنسية للاعتماد على الحريز الآسيوي على حساب الحريز اللبناني. وكان اقتصاد جبل لبنان قد تحوّل إلى إنتاج سلعة واحدة والارتباط كلياً على التصدير إلى المصانع الفرنسية منذ القرن الثامن عشر. هذا أدّى إلى موجات

⁴⁸ أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت: المكتبة البولسية، 1987، ص. 39 - 47.

⁴⁹ Kamal Salibi, A Modern History of Lebanon, 114 - 115.

هجرة كثيفة من جبل لبنان باتجاه العالم الجديد أي أميركا اللاتينية ومن ثم الشمالية. في هذا الوقت كانت الإرساليات الأجنبية تخرج آلاف الطلاب التي ستهاجر إلى مصر لتعمل في الإدارة وتشكل مع طليان ويونان وغيرهم طبقة كوبرادورية حاكمة فوق المجتمع المصري وتعمل في خدمة الاحتلال البريطاني لمصر الذي فرض عام 1882. وساهم المهاجرون الشوام بتكوين الصحافة المصرية والعربية كجريدة الأهرام المصرية "بشارة وسليم تقلا" إضافة إلى ذلك "جورج أبيض" مؤسس المسرح الحديث وملحنين وفنانين وكان هناك بوادر لحركة فكرية. وبدأ المهاجرون يرسلون الأموال إلى ذويهم واعتمد لبنان على أموال الاغتراب، وهذا أساس لفهم التطورات في وقت لاحق. وشرع هؤلاء المهاجرون بإرسالهم الأموال إلى ذويهم ليشكلوا قطاعا اقتصاديا قائما بحد ذاته، وقد وظفت هذه الأموال بالعقارات. وهذا عزز قطاع المضاربات العقارية.

الحرب العالمية الأولى وأثرها

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت الدولة العثمانية تنازع. وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان همّ السلطان عبد الحميد الذي تسلم الدولة في ظروف صعبة جدا على أثر هزيمة كبرى ضد الروس خسر فيها العثمانيون رومانيا وصربيا والجبل الأسود والنمسا والهرسك ولم يبقَ من ممتلكات الدولة العثمانية في البلقان إلا إستانبول وجوارها ومقدونيا وألبانيا وقد شكّل ذلك كارثة على الدولة العثمانية. واحتل الفرنسيون الجزائر 1830-1870 حيث استقر الوضع لهم في الجزائر. وفي العام 1882 كان الفرنسيون والبريطانيون اتفقوا على اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية في شمال أفريقيا. فرنسا كانت تضع نصب عينيها السيطرة على المغرب وتونس حتى ليبيا، لكن بقيت ليبيا كحاجز بين النفوذ الفرنسي والبريطاني فيما سيطرت بريطانيا على مصر. رأى عبد الحميد تفكك الدولة العثمانية الأمر الذي دفعه للاستفادة من صعود الدولة الألمانية لمواجهة الفرنسيين والبريطانيين. فألمانيا التي عجزت على أن تكون قوة بحرية لتتصدى للهيمنة البريطانية قررت عبر سكة الحديد أن تصل إلى طريق الهند عبر برلين - بغداد. رأى السلطان عبد الحميد الثاني أن هذه السكة ستكون الطريق لإنقاذ السلطنة من الزوال التام. فأخذ إجراءات عدة أولها إنشاء سكك الحديد خصوصاً خط الحجاز للوصول إلى المناطق النائية، وثانيها مواجهة الإرساليات الأجنبية بتأسيس المدارس الحكومية العسكرية التي عرفت بالرشدية والحميدية، وثالثها التقارب مع ألمانيا التي نصحت باستخدام العامل الديني للتأثير بالسكان المسلمين في المستعمرات البريطانية والفرنسية والروسية. في المقابل، ظهرت القومية العربية كنتيجة لعوامل عدة في تلك الفترة من ضمنها توسع النظام الاقتصادي الرأسمالي والتحديث في الدولة العثمانية.

وقد وجد البريطانيون في القومية العربية عاملاً يمكن أن يلعب دوراً فاعلاً ضد دعوة الأُسَلمة التي كان السلطان عبد الحميد قد بدأ ينادي بها، لكن هذه القومية العربية كانت قد غلفت أيضاً بغلاف ديني حين نادى بأن تكون الخلافة الإسلامية عربية. بالتوازي مع ذلك ظهرت في بلاد الشام حركة وعي سوريا كان من أعلامها آنذاك الدكتور خليل سعادة والذي سيلعب ابنه انطون فيما بعد دوراً بارزاً فيها. كذلك ظهرت دعوة للقومية اللبنانية تحديداً في أوائل القرن العشرين من خلال اكتشافات في التاريخ تم إسقاطها على الحاضر. في تلك الفترة اشتد التنافس بين القوى الاستعمارية ما دفع بها إلى الحرب العالمية التي اندلعت عام 1914. وخلالها حدثت أحداث جسام انتهت خلالها نظام المتصرفية فأقي جمال باشا قائد الجيش الرابع ليحكم سوريا ولبنان خلال الحرب ويتخذها منطلقاً له لاحتلال مصر وانتزاعها من أيدي البريطانيين.

انهيار الدولة العثمانية وأثره على لبنان

في العام 1918 كانت الدولة العثمانية وألمانيا والنمسا قد هزمت في الحرب العالمية الأولى، وكان أحد أهم العوامل في ذلك هو دخول الولايات المتحدة في الحرب ما قلب الموازين لصالح الحلفاء، وبالتالي تفككت الدولة العثمانية. وكانت هنالك مشاريع مطروحة لتقسيم الدولة العثمانية من ضمنها سايكس بيكو بين البريطانيين والفرنسيين ويقضي بأن تنتدب فرنسا على لبنان وسوريا وأن تنال بريطانيا العراق والأردن وفلسطين التي كان وزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور قد وعد اليهود بإقامة وطن قومي لهم فيها فيما عُرف بوعده بلفور. وقد تضاربت الاتفاقات بين بريطانيا وفرنسا مع الوعود التي منحتها بريطانيا للثورة العربية الكبرى بزعامة الشريف حسين بإقامة دولة عربية في منطقة المشرق العربي والجزيرة العربية. وكانت طلائع الجيش الشريفى أو جيش الثورة العربية الكبرى قد دخلت دمشق في أيلول 1918 وكان ذلك أيضاً بدعم إنكليزي لأن البريطانيين كانوا يريدون فرض أمر واقع يؤدي إلى إخراج فرنسا من منطقة المشرق العربي، ولم يكن بمقدور البريطانيين أن يتراجعوا عن اتفاقهم مع فرنسا إلا في حالة واحدة، وهي إيجاد قوة فعلية تسيطر على بلاد الشام وتعلن عن رغبتها بأن تكون حليفة لبريطانيا. وكانت القوات العربية قد لعبت دوراً رئيسياً بضرب الجيش العثماني من الخلف ما سهّل هجوم اللنبي في العام 1917 على فلسطين انطلاقاً من مصر.

وبعد دخول الجيش الشريفى دمشق تلاه وصول فيصل ابن الشريف حسين الذي ألف حكومة مؤقتة وأرسل موفدين له لرفع علمه على سرايا بيروت، إلا أن الفرنسيين قاموا بإنزال في المدينة وكامل منطقة الساحل ونزعوا راية الشريف فيصل وأعلنوا عدم اعترافهم به وطالبوا بالانتداب على

لبنان وسوريا كما نصّ اتفاق سياكس بيكو مع البريطانيين. وقد دام حكم فيصل لسوريا عامين حاول خلالها التوصل إلى تسوية مع الفرنسيين مستفيدا من الدعم البريطاني له. لكن مع حلول صيف العام 1920 كان الفرنسيون قد توصلوا إلى تسوية مع مصطفى كمال أتاتورك أعطوه فيها منطقة كيليكيا التي تشكل الريف الشمالي لمدينة حلب، كذلك كانوا قد اتفقوا مع البريطانيين على إعطائهم الموصل الغنية بالنفط لقاء وقف البريطانيين دعمهم لفيصل. وبذلك باتت الطريق مفتوحة للفرنسيين لفرض إرادتهم على سوريا. وفي تموز يوليو 1920 توجه الجيش الفرنسي بناء على أوامر الجنرال غورو وخاض معركة ميسلون ضد الجيش السوري. وقد استشهد في المعركة وزير الدفاع السوري يوسف العظمة وقتل مئات من جيشه ودخل غورو دمشق فارضا الانتداب الفرنسي على سوريا. وفي أيلول سبتمبر 1920 أعلن قيام دولة لبنان الكبير بعد ضمّ منطقة جبل عامل والبقاع وسهل عكار وطرابلس وبيروت وصيدا إلى جبل لبنان.⁵⁰

مرحلة الانتداب

كانت بيروت قد تحوّلت مركزا ماليا إقليميا منذ نهاية القرن التاسع عشر، وقد تعزّز هذا الدور في ظل الانتداب الفرنسي. وقد برز في تلك المرحلة ميشال شيحا، مالك ومدير مصرف فرعون وشيحا، والصناعي والرأسمالي اللبناني شارل قرم. كذلك ظهرت المزاجية بين المال والسياسة عبر صلة النسب التي ربطت الأول ببشارة الخوري والثاني باميل ادة وقد كانا من أبرز سياسيي مرحلة الانتداب. وكان شيحا وقرم قد نظرا للأمة اللبنانية. وفي مرحلة الانتداب أيضا تشكلت بيروقراطية الدولة من محامين متخرجين من الجامعات الفرنسية واليسوعية وهما اميل ادة وبشارة الخوري اللذان تحالفا مع الرأسمال المالي كما ورد آنفا. وبذلك نشأت النخبة التي ستسخر الدولة لخدمة الأوليغارشية اللبنانية المكوّنة من عائلات دمشقية أو حلبية نزحت إلى بيروت مثل الصحناوي وفتال وخباز وغيرها.⁵¹ في المقابل رفض وجهاء مدن الساحل مثل آل كرامي في طرابلس وآل سلام في بيروت وآل الصلح في صيدا التعامل مع الكيان اللبناني وتمسكوا بمطالبهم بالانضمام إلى سوريا. وقد عقدوا عددا من المؤتمرات سُمّيت بمؤتمرات الساحل لإعلان موقفهم هذا. وخلال فترة الانتداب أرسيت الصيغة الطائفية للحكم بعد اختيار أعضاء مجلس النواب على أساس طائفي وفقا لمعادلة 6 نواب مسيحيين لكل 5 نواب مسلمين. وفي العام 1926 أعلنت الجمهورية اللبنانية وفقا لدستور

⁵⁰ Kamal Salibi, p.p. 163 – 165.

⁵¹ Fawwaz Traboulsi, A Modern History of Lebanon, london: Pluto Press, p.p. 2007, 91 – 92.

أرسى فصل السلطات على ان يكون هنالك رئيس للجمهورية ومجلس وزراء ومجلسا نواب وشيوخ، وبعد عام تمّ دمج مجلس الشيوخ مع مجلس النواب واختير شارل دباس الأرثوذكسي الموالي لفرنسا رئيساً للجمهورية لثلاث سنوات وتمّ التجديد له لولاية ثانية عام 1929 وحتى عام 1932. ومن ثمّ تمّ تعديل الدستور بحيث يصبح لمدة ست سنوات لمرة واحدة فقط. خلال هذه الفترة قامت ثنائية بين سلطة المندوب السامي التي كانت شبه مطلقة، ورئيس الجمهورية، وكان الأول هو الأمر النهائي عملياً فعندما يصبح هناك خلاف على الرئيس هو الذي يختار الرئيس، وفي الوقت نفسه كانت صلاحيات رئيس الجمهورية معدومة في ظل وجود فيتو المندوب السامي، فأول رئيس للجمهورية شارل دباس.⁵² وعند انتهاء ولاية دباس عام 1932 تنافس اميل ادة وبشارة الخوري على منصب رئاسة الجمهورية. وكانت بكركي تحبذ الخوري فقام ادة بمناورة أعلن خلالها أنه مستعد لدعم ترشيح الشيخ محمد الجسر لرئاسة الجمهورية، فحصلت أزمة أدّت بالمندوب السامي إلى تعليق الانتخابات وفرض ادة رئيساً للوزارة. وبعد فترة تمّ تعيين بشارة الخوري رئيس وزراء، ليعود إميل ادة ويخلفه في المنصب.

وفي تلك الفترة كان هناك نضال من الزعمات التقليدية في سوريا والتي تنتمي إلى الطبقة البرجوازية التجارية الشامية والبرجوازية التجارية الحلبية للاستقلال عن فرنسا، وقد تكتّل هؤلاء الوجهاء بكتلة سُمّيت بالكتلة الوطنية وكان من أعلامها عبد الرحمن الشهنندر وجميل مردم بك وبشارة القوتلي وفارس الخوري وغيرهم. في عام 1937 ارتضت الكتلة الوطنية السورية التوصل إلى تسوية مع السلطات الفرنسية تقضي بقبولها باستقلال لبنان لقاء توحيد سوريا في دولة مركزية عاصمتها دمشق ومنحها الاستقلال بعد مرحلة انتقالية. وكانت حكومة اشتراكية قد وصلت إلى السلطة في فرنسا برئاسة ليون بلوم. وكانت هذه الحكومة أكثر ميلاً لسماع مطالب النخب الوطنية في البلدان المحكومة من قبل فرنسا، كما أنها كانت محتاجة للتوصل إلى تسوية مع المستعمرات لتتركز أنظارتها ناحية الخطر الصاعد في ألمانيا بعد تولي النازيين بزعامة أدولف هتلر الحكم فيها.

هذا أدّى بالزعامات السنية في لبنان إلى القبول بالتعامل مع الكيان اللبناني، باستثناء عبد الحميد كرامي الذي بقي مصرّاً على موقفه بالوحدة مع سوريا. ورغم توقيع الاتفاقية إلا أن مجلس النواب الفرنسي لم يصدق عليها وأسقط في يد النخب السورية واللبنانية التي جاهرت بمعارضتها للانتداب فقام المندوب السامي بتعليق الدستور وفرض اميل ادة رئيساً للجمهورية وعين عبد الحميد الأحذب رئيساً للوزراء لاكتساب ولاء السنة وأهل طرابلس، خصوصاً أنه كان الوحيد من الزعامات

Fawwaz Traboulsi, A Modern History of Lebanon, london: Pluto Press, 2007, p. 90 ⁵²

السنية الذي ارتضى التعاون مع سلطات الانتداب.⁵³ وفي العام 1937 تم إصدار مرسوم تشكيل المجلس الإسلامي وتعيين مفتٍ للجمهورية اللبنانية بمرسوم من رئيس الجمهورية بالتشاور مع الزعامات الإسلامية. وكان الشيعة في هذه الفترة ما زالوا ملحقين بهذا المجلس وليس لهم كيان مستقل. وقد شكل هذا المجلس بوتقة للتعبير عن مصالح النخب المركنتالية المسلمة في مدن الساحل بالدرجة الأولى.⁵⁴ وهكذا أصبح للبنان رئيس دولة ماروني، ورئيس وزراء سني، ولإرضاء الزعامات التقليدية الشيعة أعطيت رئاسة مجلس النواب للشيعة.⁵⁵ وقد توالى على المنصب زعامات تقليدية من البقاع والجنوب فكانت ثنائية أحمد بيك الأسعد وصبري حمادي حتى الستينيات من القرن الماضي. ويُعتبر الميثاق الوطني اللبناني الذي أقر شفهايا بين بشارة الخوري ورياض الصلح عملياً ملاءمة مصالح بين البرجوازية المركنتالية المسيحية من جهة وجزء من البرجوازية المركنتالية المسلمة من جهة أخرى، وتوزيعاً للنفوذ بين نخبة مسيحية ذات هوى وولاء غربي ونخبة مسلمة ذات هوى وولاء لأقوى قوة عربية أو إسلامية.

في حزيران يونيو 1940 دخلت القوات الألمانية إلى العاصمة الفرنسية باريس وفرضت صلحاً مهيناً على حكومة الماريشال بيتان الذي وجد نفسه وحكومته مضطرين إلى ترك باريس والاستقرار في مدينة فيشي. وفي ربيع العام 1941 تمكّن التيار المناهض للنفوذ البريطاني في العراق من إطاحة حكومة نوري السعيد وتسمية رشيد عالي الكيلاني المعروف بعداؤه لهم رئيساً للحكومة. وكانت هذه ثالث مرة يتولى فيها الكيلاني رئاسة الوزارة بعد العام 1933 والعام 1940. وكان قد ولد لعائلة من وجهاء مدينة بعقوبة في محافظة ديالى. وقد ارتبط الكيلاني بعلاقة قوية بالملك غازي وأصبح رئيساً للديوان الملكي بعد تبوء هذا الأخير سدة العرش. وفي أيار مايو من ذلك العام كان التيار المناهض لبريطانيا قد تشجع للتمرد ضد هيمنتها على العراق نتيجة تقدّم قوات الماريشال رومل في شمال أفريقيا باتجاه مصر وتهديده بوضوله قناة السويس ومنطقة الشرق الأدنى. فقام هذا الفريق بدعم الكيلاني الذي شكّل حكومة من عقداً كانوا معروفين بإيمانهم بالقومية العربية وبالمعاداة لبريطانيا وكانوا برئاسة العقيد صلاح الدين الصباغ وهو من أصل لبناني من مدينة صيدا، والعقداً فهمي سعيد وكامل شبيب ويونس السبعواوي ومحمود سلمان. وكان هؤلاء على اتصال بمفتي القدس الحاج أمين الحسيني الذي كان قد لجأ إلى ألمانيا هرباً من قوات الاحتلال البريطانية والصهيونية في فلسطين وأنشأ إذاعة ناطقة بالعربية في برلين. وقد بدأ الكيلاني بإصدار البيانات

⁵³ Fawwaz Traboulsi, A Modern History of Lebanon, London: Pluto Press, 2007, p.p. 101 – 103.

⁵⁴ Firoo, Inventing Lebanon, Nationalism and the State Under the Mandate, London: I.B. Tauris. 2003

p.p. 77 – 79, 127, 151 – 15

⁵⁵ علي فتوني، تاريخ لبنان الطائفي، بيروت: الفارابي، 2013، ص.ص. 110 – 112.

الداعية للعرب كافة بالثورة على القوى الأجنبية بريطانيا وغيرها من القوى الاستعمارية المهيمنة على الدول العربية ثم قام بعزل الأمير عبد الله الذي لاذ بالفرار هو والسعيد. ثم أصدر الكيلاني قرارا يطالب القوات البريطانية بالانسحاب من قواعدها في العراق.

ردا على ذلك قامت القوات البريطانية بإنزال قواتها في الكويت ومن ثم تقدّمت باتجاه البصرة، فأصدرت حكومة الكيلاني قرارا يدين بريطانيا ويهدّدها باتخاذ خطوات ردعية ضد قواتها ما اعتبر بمثابة إعلان حرب، لكن بريطانيا قامت بإنزال جوي في قاعدة الحَبّانية الجوية القريبة من بغداد ومن ثم فك الحصار عن القاعدة والتقدم باتجاه العاصمة بغداد. وقد فشل الجيش العراقي بصد القوات البريطانية فلاذ الكيلاني بالفرار إلى المملكة العربية السعودية حيث بقي هناك حتى ثورة العام 1958، فيما لاذ بقية الضباط بالفرار إلى سوريا التي كانت تحت انتداب حكومة فيشي ومنها إلى ألمانيا.

هذه الأحداث دفعت بالبريطانيين إلى الإعداد لحملة لانتزاع لبنان وسوريا من أيدي حكومة فيشي التي كانت قد سمحت للطائرات الألمانية ان تستخدم المطارات في لبنان وسوريا للانطلاق نحو العراق ومعاونة رشيد عالي الكيلاني ضد البريطانيين. ولتشريع تحرّكهم ضد حليفهم السابق، استعان البريطانيون بقوات فرنسا الحرة بقيادة الجنرال شارل ديغول اللاجئ في بريطانيا لتشكيل رأس حربة الهجوم الذي انطلق من فلسطين باتجاه لبنان وسوريا. وفي صيف العام 1941 كانت القوات البريطانية قد طردت قوات فيشي من لبنان وسوريا وأمنت ظهر قواتها في مصر التي كانت تواجه القوات الألمانية بقيادة المارشال رومل في العلمين. وقد عيّنت بريطانيا الجنرال سيرز مندوبا ساميا لها في لبنان وسوريا وكان معاديا للفرنسيين، فضغط على حكومة فرنسا الحرة لإصدار وعد بمنح الاستقلال للبنان وسوريا وهو ما نقّذه الجنرال كاترو ممثل فرنسا الحرة في لبنان وسوريا.⁵⁶ إلا أن الفرنسيين ماطلوا في منح البلدين الاستقلال حتى كانت تطورات صيف العام 1943 والتي ستكون حاسمة في هذا الاتجاه.

الأحزاب اللبنانية في مرحلة الانتداب

خلال مرحلة الثلاثينيات ظهرت أحزاب جديدة على الساحة اللبنانية. إضافة إلى الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث والأخوان المسلمين، فلقد ظهر على الساحة حزب الاتحاد الدستوري برئاسة بشارة الخوري، وهو الحزب الذي سيُعرّف بالكتلة الدستورية. وقد

⁵⁶ Fawwaz Traboulsi, A Modern History of Lebanon, london: Pluto Press, 2007, p.p.104 – 105.

أسس الحزب رسميا في العام 1934 وقد شكل مظلة لتقارب الخوري مع زعامات مسلمة على رأسها رياض الصلح لينادي في أوائل الأربعينيات باستقلال لبنان عن الانتداب الفرنسي. وقد أصبح هذا الحزب الذي كان في جوهره إطارا فضفاضاً لنخب سياسية عابرة للطوائف حزبا حاكما خلال فترة رئاسة بشارة الخوري بين عامي 1943 و1952، ليضعف بعدها هذا الحزب عقب استقالة الخوري. وفي مواجهة هذا الحزب تشكل حزب حول الرئيس إميل إدة، وهو الزعيم الذي كان الأكثر شعبية على الساحة المسيحية خلال فترة الانتداب. وكان نخب مؤيدة لإدة قد اجتمعت حوله عقب خسارته للانتخابات في مواجهة بشارة الخوري في العام 1943. وقد نادى هذا الحزب بالقومية اللبنانية ولم يلعب دورا في الحياة السياسية اللبنانية الا بعد وفاة إدة وتبوء ابنه ريمون زعامة الحزب عام 1949. وقد تميّزت الكتلة بمعارضتها لرؤساء الجمهورية المتعاقبين على الحكم منذ بشارة الخوري وحتى يومنا هذا.

وإن كان حزبا الكتلة الدستورية والكتلة الوطنية قد عبّرا عن مصالح الطبقة العليا في المجتمع اللبناني، فإن حزبي الكتائب اللبنانية والنجادة قد استندا في صعودهما على الطبقة الوسطى، فيما تميّزت أيديولوجيتهما بنزوعها نحو الاستقطاب الطائفي. فلقد تأسس حزب الكتائب اللبنانية بزعامة بيار الجميل في العام 1936 عقب حضوره فعاليات أولمبياد ألمانيا. وقد تأثر الجميل بالآفكار الفاشية لبنيتو موسوليني وحاول تطبيقها على لبنان مناديا بقومية لبنانية تعود إلى الفينيقيين. وقد اعتمد حزب الكتائب بالدرجة الأولى على الطبقة الوسطى الدنيا في ضاحية الأشرفية ذات الغالبية المسيحية، وعلى فقراء الريف المسيحي النازحين إلى المدن.

وفي الساحة السنية تأسس حزب النجادة كحزب موازٍ للكتائب، لكن في الساحة السنية. ووفقا لصفحة الحزب، فلقد تأسس الحزب على يد محيي الدين النصولي في العام 1933 والذي كان أيضا متأثرا بالآفكار الفاشية لموسوليني. وقد عبر النصولي عن تأييده للنازية والفاشية في مقالاته التي كان ينشرها في جريدة بيروت التابعة للحزب. وقد تميّزت أفكار الحزب بالمناداة بالوحدة العربية وفقا للنموذج الألماني النازي وهو ما عبر عنه شعاره "العروبة فوق كل شيء" والذي كان صدى لشعار الألمان، "ألمانيا فوق الجميع".

في الوقت نفسه فلقد شكلت أحزاب الشيوعي والقومي الاجتماعي والبعث أطرا عابرة للطوائف ما جعل سلطات الانتداب والسلطات الطائفية اللبنانية تناصبها العداء. وكما سبق وذكرنا في الفصل السابق، فلقد كان الحزب الشيوعي من أبرز هذه الأحزاب وقد تأسس في بلدة الحدث اللبنانية على يد نقابيين كانوا يناضلون من أجل حقوق العمال وتأثروا بالثورة البولشفية. وقد أعلن تأسيسه رسميا في العام 1924 وانتخب النقابي فؤاد الشمالي كأول أمين عام له. وقد ارتبط الحزب بشكل

عضوي بالحزب الشيوعي السوفياتي وكان يتلقى تعليماته منه في معظم قضاياها الرئيسية. وسرعان ما لاقى الحزب تأييدا من قبل المثقفين المنحدرين من أصول ريفية وفي أوساط العمال المتحدرين من فئات ريفية جاءت إلى المدن للعمل. وفي العام 1933 كان فؤاد الشمالي قد أُبعد عن الحزب بتأثير من موسكو بعد إطاحة راعيه غريغوري زينوفييف ورفيقه ليف كامينيف على يد ستالين. وقد خلفه في منصب الأمين العام للحزب الشيوعي في لبنان وسوريا خالد بكداش الذي سيلعب الدور الرئيس في قيادة الحزب لثلاثة عقود تالية. وبكداش ينتمي لعائلة كردية دمشقية، وقد ولد في العام 1912 وانتسب إلى الحزب الشيوعي في العام 1930. وقد ترجم ألمانيفستو الشيوعي إلى اللغة العربية ومثّل الشيوعيين العرب في اجتماعات الكومنترن في العام 1935. وفي العام 1937 أسس جريدة صوت الشعب لتكون ناطقة باسم الحزب الشيوعي. وقد لعب بكداش دورا بارزا في الثلاثينيات والأربعينيات في مواجهة سلطات الانتداب، ثم كان للحزب الشيوعي دور كبير في النضالات العمالية والنقابية في كل من سوريا ولبنان خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي.⁵⁷

أما الحزب السوري القومي الاجتماعي فلقد كان أُسس في لبنان على يد انطون سعادة، وهو من مواليد الشوير في منطقة المتن الشمالي. وقد آمن سعادة بوحدة بلاد الشام بحدودها الطبيعية أي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وشبه جزيرة سيناء ومنطقة كيليكيا في جنوب تركيا بالإضافة إلى جزيرة قبرص. وفي وقت لاحق وجد سعادة تكاملا بيئيا بين بلاد الشام والعراق الذي اعتبره أيضا جزءا من الأمة السورية أو الهلال الخصيب. وقد ناضل الحزب في الثلاثينيات ضد الانتداب الفرنسي ودخل مؤسسه وقائده انطون سعادة مرات عدة إلى السجن بتهم مناهضة الانتداب إلى حين نفيه إلى البرازيل في العام 1938 والتي عاد منها بعد تسع سنوات. ولم تتوافق عقيدة الحزب مع الكثيرين من معتنقي الفكر القومي العربي ما أدّى لنشوء صراع فكري حاد، حول مفهوم الأمة والعروبة، حيث اعتبر سعادة أن سوريا هي أمة تامة وإحدى الأمم العربية وهناك ما يميّزها عن باقي هذه الأمم. كذلك كان الحزب حادا في معاداته للطائفية السياسية خصوصا في لبنان واعتبرها عائقا أمام وحدة الأمة، كما اعتبر أن الإسلام والمسيحية هما تعبيران حضاريان من نتاج الهوية الحضارية للأمة السورية. وقد لاقى الحزب تأييدا في صفوف الفئات الريفية والطبقة الوسطى في المدن، خصوصا

⁵⁷ راجع ل. س. أيوب، الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، بيروت: دار الحرية، 1959.

في بيروت وجبل لبنان وجبال العلويين وجبل العرب في سوريا. وخلال الثلاثينيات والأربعينيات كان الحزب السوري القومي الاجتماعي على تنافس حاداً مع الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان.⁵⁸

أما الحزب الرابع فكان حزب البعث الذي تم تأسيسه من قبل أستاذين دمشقيين درساً في السوربون في فرنسا خلال الثلاثينيات، هما ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. وقد كان الإثنان ينتميان إلى الطبقة الوسطى العليا الدمشقية وقد تأثرا بالتيار العروبي الذي كان في أوج صعوده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وعند عودتهما إلى دمشق بدءا يدعوان إلى فكرتهما بين تلاميذهما في المدارس التي علما فيها. وكانت دعوتهما لإنشاء حزب يعتمد النموذج اللينيني للمنظمات الحزبية نتيجة شعورهما بالتحدي الناجم عن توسع شعبية الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي، فيما كانت العروبة تياراً لا تنظيم يؤطر صفوفه. وقد بقي الأستاذان يدعوان لفكرتهما حتى كان التأسيس الرسمي للحزب في العام 1947. وبالتوازي مع جهودهما كان هنالك محام من مدينة حماه هو أكرم الحوراني وكان قد بدأ نضاله في الثلاثينيات من القرن الماضي أثناء دراسته للحقوق، وقد انضم لفترة وجيزة إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي إلا أنه تركه بعد ذلك نتيجة مواقف الحزب تجاه العروبة. وكان نضال الحوراني في حماه بالدرجة الأولى ضد تسلط التجار وطبقة الآغوات على الفقراء والفلاحين، فأسس لذلك الغرض حزبا هو الحزب العربي الاشتراكي وخاض نضالا ضدهم وضد سلطات الانتداب وتمكّن بدعم فقراء حماه وريفها من أن يحدث خرقا ويصبح نائبا في البرلمان السوري في العام 1943. وقد تواصل مع ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار في أوائل الخمسينيات حيث وحدوا حزبي البعث والعربي الاشتراكي ليصبح الحزب باسم البعث العربي الاشتراكي في سنة 1954. وقد لقيت الأحزاب الثلاثة هوى في نفوس ضباط الجيش المتحدرين من أولاد وجهاء الريف ومن الطبقة الوسطى في المدن السورية. وكانت هذه الطبقة قد بدأ يصعد دورها خلال الأربعينيات وبدأت تصطدم بمصالحها بمصالح طبقة كبار التجار والوجهاء في المدن والتي سيطرت على الحياة السياسية خلال النصف الأول من القرن العشرين.⁵⁹ ولقد استقطب حزب البعث عددا من نخب الطبقة الوسطى المتحدرين من الريف.

⁵⁸ راجع، أحمد سام الأحمد، الحزب السوري القومي الاجتماعي: 1932 - 1962 دراسة تاريخية، بيروت: دار ومكتبة التراث الادبي، 2014.

⁵⁹ راجع شبلي العيسمي، حزب البعث العربي الاشتراكي: مرحلة الأربعينيات التأسيسية 1940 - 1949، بيروت: دار الطليعة، 1980 ومصطفى دندشلي، حزب البعث العربي الاشتراكي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

وأخيراً، فلقد كان حزب الأخوان المسلمين من الأحزاب التي ستتشكل في سوريا بالتوازي مع تشكل الحزب في مصر، إلا أنه في سوريا لن يلعب دوراً بارزاً قبل منتصف الستينيات من القرن الماضي. وقد تأسس الحزب في سوريا في الثلاثينيات في البيئات المحافظة في دمشق وحلب وحماة وحمص، وكان مصطفى السباعي أول مراقب عام له بين عامي 1945 و1964. وفي العام 1964 خلفه في المنصب كمراقب عام الدكتور عصام العطار وذلك حتى عام 1973. وقد أقرّ الحزب ثلاث مؤسسات تحكم عمله وهي مجلس شورى ينتخب المراقب العام ويقر القيادة التي يختارها هذا المراقب العام إضافة إلى الخطط والسياسات، إضافة إلى المراقب العام وأعضاء قيادته الذين يتولون شؤون الجماعة، ومحكمة عليا حزبية تفصل في النزاعات التي تنشأ في صفوف الجماعة. ولم تتوسع قاعدة تأثير الجماعة خلال الفترة الممتدة من الثلاثينيات وحتى السبعينيات من القرن الماضي بنتيجة احتلال الساحة السياسية من قبل الأحزاب التي ذكرتها آنفاً. وقد استقطب الحزب عدداً قليلاً من الأعضاء في لبنان في مدن طرابلس وبيروت وصيدا.

وفي هذه الفترة أيضاً تشكل الحزب التقدمي الاشتراكي لكن كحزب يدور حول الزعامة الإقطاعية لكمال جنبلاط. وقد تأسس الحزب في كانون الثاني يناير 1949 ونادى باشتراكية إنسانية على الطراز المثالي السان سيموني الفرنسي. وكان من مؤسسيه أعضاء من مختلف الطوائف مثل فريد جبران وعبدالله العلايلي وجورج حنا وفؤاد رزق، إلا أنه شكل أداة في يد الزعيم الإقطاعي كمال جنبلاط الذي حاول استخدام النخب التي انضوت في الحزب كإطار لتدعيم زعامته في نظام طائفي كان الدروز يتبوأون فيه المرتبة الرابعة في ترتيب الطوائف.

عهد بشارة الخوري

شكّل عهد الرئيس بشارة الخوري المرحلة التأسيسية لانطلاق لبنان كمركز للخدمات المالية في منطقة الشرق الأوسط على حساب قطاعي الزراعة والصناعة، ما عزز بنية الاقتصاد الريعي في البلاد وتركيز الثروة في أيدي قلة قليلة تعيش في المدن، خصوصاً في العاصمة بيروت على حساب أبناء الريف الذين سيُقدر لهم العيش في الفقر والعوز ما سيدفعهم للنزوح إلى المدن وتشكيل عامل متفجّر في الدولة في وقت لاحق.⁶⁰ وكان قد انتخب رئيساً للجمهورية في 21 أيلول سبتمبر 1943 بدعم من المندوب السامي البريطاني على حساب غريمه اميل ادة المدعوم من فرنسا الحرة.

⁶⁰ Carolyn Gates, The Historical Role of Political Economy in the Development of Modern Lebanon,

Beirut: Center for Lebanese Studies, September, 1989, p.p. 19 – 21.

وقد اختار الخوري رياض الصلح شريكا له في الحكم بعدما عيّنه رئيسا للوزراء. وفي 11 تشرين الثاني نوفمبر قام الخوري والصلح بإلغاء المواد التي تمنح الانتداب الفرنسي الحق بإدارة البلاد ما أثار غضب المندوب السامي الفرنسي الذي أمر باعتقالهما مع عدد كبير من وزرائهما والنواب ونقلهم جميعا إلى قلعة راشيا الوادي. لكن ذلك أدّى إلى اندلاع التظاهرات وضد سلطات الاحتلال وإلى توجيه المندوب السامي البريطاني تهديدات إلى المندوب الفرنسي ما جعله يرضخ ويطلقهم جميعا ويقبل بالأمر الواقع في 22 تشرين الثاني نوفمبر 1943 الذي أصبح تاريخ استقلال لبنان عن فرنسا. وقد أرسى الخوري والصلح الميثاق الوطني الذي يتمّ بموجبه تقاسم السلطة بين الزعامات المسيحية والإسلامية. وقد اتفق في الميثاق الشفهي على أن يكون رئيس الجمهورية مارونيا ورئيس مجلس الوزراء سنيا ورئيس مجلس النواب شيعيا، وأن ينتخب النواب على أساس 6 مسيحيين مقابل خمسة مسلمين وأن يتم تقاسم وظائف الدرجة الأولى في الدولة طائفيا.⁶¹ وقد عكس الميثاق أيضا توازنا دوليا بين الفرنسيين من جهة والبريطانيين من جهة أخرى مع الاعتراف لهاشمي العراق بنفوذ في لبنان.

وقد تميّز عهد بشاره الخوري بالفساد وواجه تحديات إقليمية كان أهمها حرب فلسطين وتداعيات أزمة الجُمُيزة التي دفعت زعيم الحزب القومي لإعلان الثورة على الحكومة اللبنانية في مطلع حزيران العام 1949. ففي 14 أيار مايو 1948 أعلنت بريطانيا انتهاء انتدابها على فلسطين وسحب كامل قواتها منها وسرعان ما أعلن المجلس اليهودي الصهيوني في تل أبيب قيام دولة إسرائيل مع حلول منتصف ليل ذلك اليوم. وقد سارعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي إلى الاعتراف بهذه الدولة. في المقابل قامت جيوش عدد من الدول العربية هي سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر والمملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى جيش من المتطوّعين يقودهم الضابط فوزي القاوقجي بالهجوم ضد الصهاينة في محاولة لمنع سقوط فلسطين في أيديهم. وقد تشكّلت الجيوش العربية من 10 آلاف جندي مصري و5 آلاف جندي أردني وألفي جندي سوري وثلاثة آلاف جندي عراقي و500 جندي لبناني وبضع مئات من المتطوّعين السوريين بمجموع نحو 30 ألف جندي. في المقابل كانت قوات الهاجناه والشتيرن وغيرها من الميليشيات المسلحة الصهيونية تعدّ نحو خمسين ألف جندي، انضم إليهم عدد مماثل من المتطوّعين اليهود ليصبح عدد الجنود الصهاينة نحو مئة ألف. وعلى الرغم من ذلك فلقد تقدمت الجيوش العربية في معظم الجبهات في بداية الحرب لحين إعلان هدنة منتصف الصيف التي بدأ بعدها الميزان يميل إلى صالح الصهاينة. ومع حلول آذار مارس 1949 كانت العصابات الصهيونية قد احتلت سبعين في المئة من أراضي فلسطين داخل الخط

⁶¹ 106 – 108. Fawwaz Traboulsi, A Modern History of Lebanon, london: Pluto Press, 2007, p.

الأخضر باستثناء الضفة الغربية وغزة. ولقد شكل ذلك بداية تراكم عناصر أزمة في لبنان بعد توافد مئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيه وأراضي الدول العربية المجاورة لفلسطين ومن ضمنها سوريا والأردن.⁶²

أحدثت نكبة فلسطين صدمة في المجتمعات العربية، خصوصاً تلك المجاورة لفلسطين ومن ضمنها لبنان. وقد كان لهذه النكبة دور كبير في الثورة التي سيقوم به الحزب السوري القومي الاجتماعي بزعامة أنطون سعادة. وكان الحزب السوري القومي الاجتماعي قد أسس في لبنان على يد أنطون سعادة، وهو من مواليد الشوير في منطقة المتن الشمالي. وقد آمن سعادة بوحدة بلاد الشام بحدودها الطبيعية اي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وشبه جزيرة سيناء ومنطقة كيليكيا في جنوب تركيا بالإضافة إلى جزيرة قبرص. وفي وقت لاحق وجد سعادة تكاملاً بين بلاد الشام والعراق الذي اعتبره أيضاً جزءاً من الأمة السورية أو الهلال الخصيب. وقد ناضل الحزب في الثلاثينيات ضد الانتداب الفرنسي ودخل مؤسسه وقائده أنطون سعادة مرات عدة إلى السجن بتهمة مناهضة الانتداب إلى حين نفيه إلى البرازيل في العام 1938 والتي عاد منها بعد تسع سنوات. وفي بداياته عادى الحزب الفكر القومي العربي بحدة لكنه راجع أفكاره في أواخر الأربعينيات واعتبر ان سوريا هي امة من الامم العربية رغم ما يميزها عن باقي هذه الامم. كذلك كان الحزب حاداً في معاداته للطائفية السياسية خصوصاً في لبنان واعتبرها عائقاً امام وحدة الامة، كما اعتبر ان الإسلام والمسيحية هما تعبيران حضاريان من نتاج الهوية الحضارية للأمة الورية. وقد لاقى الحزب تأييداً في صفوف الفئات الريفية والطبقة الوسطى في المدن وخصوصاً في بيروت وجبل لبنان وجيل العلويين وجبل العرب في سوريا. وخلال الثلاثينيات والأربعينيات كان الحزب السوري القومي الاجتماعي على تنافس حاد مع الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. وكان سعادة قد عاد من الأرجنتين إلى لبنان في 2 آذار مارس 1947 بعد جلاء سلطات الانتداب التي كانت قد أصدرت مذكرة توقيف بحقه في العام 1938 وإلى جانب عوامل عدة منها استشراف سعادة اندلاع حرب عالمية واحتدام الصراع في المشرق جعلته يتخذ خيار المغترب القسري إلى أميركا اللاتينية. وقد شارك متطوعون من الحزب في حرب فلسطين، وبعد النكبة بدأ سعادة يدعو إلى ثورة قومية شاملة فتكثفت الصدامات بين القوميين الاجتماعيين والسلطات اللبنانية وصولاً إلى اتهامه بمحاولة الانقلاب على نظام الحكم في البلاد. فذهب وعدد من أنصاره إلى سوريا التي كانت قد وقعت تحت حكم حسني الزعيم. وكان سعادة يعتقد أن الزعيم يناصر القضية القومية الاجتماعية، وهو ما كان ينطبق عليه في الأسابيع الأولى من حكمه، إلا أنه عاد وانقلب على هذا النهج وتواصل مع

⁶² وليد الخالدي، خمسون عاماً على حرب 1948: أولى الحروب العربية - الصهيونية، بيروت: دار النهار، 1998.

السلطات اللبنانية وسلّم إليهم سعادته في 7 تموز يوليو 1949 فسارعت السلطات اللبنانية إلى إعدامه بأمر من الرئيسين بشاره الخوري ورياض الصلح وذلك فجر 8 تموز يوليو 1949. وقد ثار عناصر من الحزب السوري القومي الاجتماعي لإعدام زعيمهم عبر اغتيال رياض الصلح في الأردن في 16 تموز يوليو 1951 في الذكرى الثانية لإعدام سعادته.⁶³

وكان بشاره الخوري قد زوّر انتخابات العام 1949 بما أدّى إلى وصول نواب يؤيدونه بدرجة كبيرة ما مكّنه من تعديل الدستور والتمديد لنفسه لولاية ثانية. لكن في صيف العام 1952 بدأ الرئيس بشاره الخوري يواجه معارضة داخلية قوية من قبل تكتل ضمّ كميل شمعون وكمال جنبلاط وعددا كبيرا من القيادات المسلمة في البلاد بذريعة مكافحة الفساد الذي استشرى في عهده، إلا أن البعد الرئيسي للحركة المعارضة للخوري كانت الرغبة الإنكليزية - الهاشمية بتصفية النفوذ الفرنسي نهائياً في لبنان واستبداله بنفوذ بريطاني، في الوقت الذي كانت لندن تريد بسط هيمنتها الكاملة على الشرق الأوسط تحسباً لدخول الأميركيين على الخط والتي كانت قد تجلّت بالانقلابات والانقلابات المضادة التي كانت قد وقعت في سوريا والتي كانت في جزء منها تنافساً أميركياً بريطانياً على الشرق الأوسط، وفي الجزء الآخر تنافساً بين هاشميين العراق ومصر على النفوذ في منطقة المشرق. وبنتيجة ذلك اضطر الرئيس بشاره الخوري إلى تقديم استقالته في منتصف ولايته الثانية والتقاعد من السياسة.⁶⁴

كميل شمعون

شكّل وصول كميل شمعون إلى السلطة في لبنان تدعيماً للنفوذ البريطاني على حساب النفوذ الفرنسي، خصوصاً أن شمعون كان معروفاً بولائه للإنكليز، لأنه درس في بريطانيا وكانت لوالده ممر شمعون علاقات وطيدة بالقنصل العام البريطاني منذ بدايات القرن العشرين. وكان شمعون بدأ حياته السياسية في العام 1938 بعد تعيينه وزيراً للمال خلال عهد الرئيس اميل إدة. وفي حكومة الاستقلال التي تشكلت في أيلول سبتمبر 1943 عيّن شمعون وزيراً للبريد والبرق، وشغل عامي 1946 و1947 منصب وزير المال مرة أخرى، وفي العام 1947 أصبح وزيراً للداخلية حتى عام 1948. وقد تمّ اختياره كرمز للمعارضة للخوري في العام 1952 نتيجة علاقاته الوطيدة بالبريطانيين وبهاشميين العراق. وقد تميّز عهده بتدعيم دور لبنان كمركز مالي وتجاري في الشرق الأوسط

⁶³ Fawwaz Traboulsi, A Modern History of Lebanon, p. 115.

⁶⁴ Fawwaz Traboulsi, p.p. 123 - 127.

وكواسطة للعلاقات التجارية بين الغرب الأوروبي والمنطقة العربية. كذلك تميّز عهده بتقارب كبير مع البريطانيين وهاشميين العراق الذين كانوا قد بدأوا يدعون لقيام حلف في منطقة الشرق الأوسط تحت مسمّى حلف بغداد يضمّ إلى العراق كلا من تركيا وإيران وباكستان، ويسعى إلى ضم باقي الدول العربية بالإضافة إلى إسرائيل، حتى تضمن بريطانيا هيمنتها على الشرق الأوسط، وفي الوقت نفسه يضمن الغرب أن تصبح المنطقة جزءاً من استراتيجيته الجديدة لتطويق الاتحاد السوفياتي وحلفائه ومنعهم من الوصول إلى شرق البحر المتوسط.

في تلك الفترة كانت المنطقة العربية تشهد تحولات كبرى خصوصاً بين عامي 1955 و1958. فخلال هذه الفترة كانت مصر قد أصبحت تحت سلطة جمال عبد الناصر الذي كان قد قاد انقلاباً ضد الملكية في العام 1952 تلاه إعلان الجمهورية في العام 1953 واختيار محمد نجيب رئيساً لها فيما أصبح عبد الناصر رئيساً للوزراء. وفي آذار مارس 1954 استطاع عبد الناصر حسم الصراع لصالحه في مواجهة محمد نجيب المدعوم من الإخوان المسلمين وباقي الأحزاب المصرية والتي كانت تحاول كسب دعم الولايات المتحدة، فيما كان عبد الناصر يسعى لاعتماد سياسة مستقلة عن القوى الكبرى والتي ترجمها لاحقاً في مساهمته في تأسيس دول عدم الانحياز. هذا جعله يواجه المشاريع الأميركية البريطانية لإقامة حلف عسكري في الشرق الأوسط تحت مسمّى حلف بغداد، إذ كان هذا الحلف الذي ضمّ تركيا وإيران والعراق وباكستان إضافة إلى بريطانيا قد اعتمد بغداد مقراً له. وقد تمكّن عبد الناصر من توقيع اتفاق مع بريطانيا يقضي بجلاء قواتها عن منطقة قناة السويس حتى تمّ هذا الانسحاب في أوائل العام 1956 بعد احتلال دام سبعة عقود. وفي مواجهة الدعم الأميركي البريطاني لإسرائيل وتكرارها اعتداءاتها ضد مصر فلقد لجأ عبد الناصر إلى الاتحاد السوفياتي لشراء السلاح فكانت صفقة السلاح التشيكية في العام 1955، حيث زوّدت موسكو الجيش المصري بالسلاح الحديث عبر تشيكوسلوفاكيا. إضافة إلى ذلك دعم عبد الناصر حركات التحرر في العالم الثالث ضد القوتين الاستعماريّتين فرنسا وبريطانيا. وقد أدّى ذلك إلى غضب هاتين القوتين بالإضافة إلى الولايات المتحدة عليه. فدفعت البنك الدولي في العام 1956 إلى رفض الطلب المصري بالحصول على قرض لتمويل مشروع السد العالي في أسوان. وقد ردّ عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس في 26 تموز يوليو 1956.

هذا المسار الذي اتخذه عبد الناصر جعله على طرفي نقيض مع الهاشميين في العراق ورئيس وزرائهم نوري السعيد الموالي لبريطانيا والغرب. وقد انعكس ذلك استعاراً للصراع على النفوذ على سوريا بين العراق ومصر، وصداماً بين وحدات وضباط الجيش السوري بين موالٍ لمصر من بين الضباط القوميين والبعثيين من جهة وبين موالٍ للعراق في صفوف الضباط القوميين الاجتماعيين

من جهة أخرى. وفي العام 1955 انحاز الضباط الشيوعيون إلى الضباط القوميين في الجيش السوري نتيجة التقارب بين الاتحاد السوفياتي بقيادة نيكيتا خروتشيف ومصر بقيادة عبد الناصر. في هذا الإطار جرت حادثة اغتيال العقيد عدنان المالكي الموالي للبعث في 22 نيسان أبريل 1955. وقد اتهم القوميون الاجتماعيون بتنفيذ الاغتيال ما أدّى إلى موجة اعتقال وتنكيل بحقهم وملاحقة ضباطهم وأبرزهم العقيد غسان جديد، وكان من أبرز ضباط الجيش السوري القوميين الاجتماعيين وأكثرهم نفوذاً. بعد ذلك سيطر الضباط القوميون العرب والبعثيون والشيوعيون على الجيش السوري. وقد لعب هؤلاء الضباط دوراً كبيراً في دعم مصر أثناء العدوان الثلاثي الذي نفذته بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضدها في 29 تشرين الأول أكتوبر 1956، وكان عبد الحميد السراج من أبرز هؤلاء الضباط. وبنتيجة النصر الكبير الذي حققه عبد الناصر على العدوان الثلاثي وتحولّه الرمز الأبرز للقومية العربية في الأمة العربية جمعاء، وخوفاً على سوريا من أن تقع تحت النفوذ الهاشمي العراقي، وفي ظل التهديدات التركية باجتياح سوريا، ذهب وفد من الضباط السوريين إلى مصر في شباط فبراير 1958 مطالبين عبد الناصر بإقامة وحدة مع سوريا. وقد قبل عبد الناصر هذا الطلب مشروطاً حلّ جميع الأحزاب في سوريا على أن يكون هو رئيس الجمهورية العربية المتحدة المؤلفة من مصر وسوريا وأن يكون القائد البعثي أكرم الحوراني نائباً للرئيس.

بنتيجة هذه التحولات والتقارب الكبير بين شمعون وهاشمي العراق وبريطانيا، كان مقدراً للبنان الرسمي أن يكون على طرفي نقيض مع مصر بزعامة عبد الناصر. وقد شجّع انتصار عبد الناصر في حرب السويس عام 1956 العناصر المؤيدة للقومية العربية والمعارضة لكميل شمعون وتوجهاته على المجاهرة بمعارضته في لبنان. وقد تفاقمت الأزمة اللبنانية عقب الانتخابات النيابية التي أقامها كميل شمعون في العام 1957 والتي أسقط فيها معظم خصومه من الزعامات التقليدية مثل ريمون إدة في جبيل وآل فرنجية في زغرتا وكمال جنبلاط في الشوف وغيرهم. وبعد أسابيع قليلة على الوحدة السورية المصرية في شباط فبراير 1958 اندلعت المواجهات بين معارضي الرئيس ومؤيديه على خلفية اغتيال الصحافي نسيب المتني المعارض لشمعون، وقد تحوّلت الأحداث طائفية بين غالبية المسلمين من جهة وغالبية المسيحيين من جهة أخرى. وفي 14 تموز يوليو 1958، وعقب إطاحتهاشمي العراق على يد القوميين واليساريين في العراق، فقد شمعون دعامة كبيرة لحكمه وخشي على نفسه من أن يلقي المصير نفسه فطلب المساعدة الأميركية. وقد سارعت الولايات المتحدة بقيادة الرئيس دوايت أيزنهاور إلى إرسال قوات إلى لبنان في 15 تموز يوليو 1958، وقد شارك في العملية نحو 15 ألف جندي أميركي نزلوا في بيروت واحتلوا المطار وعدداً من النقاط الاستراتيجية في المدينة. وقد ساهم التدخل الأميركي من جهة وتدخل عبد الناصر من جهة أخرى

إلى الوصول إلى تسوية بين الأطراف المتصارعة قضى باستقالة كميل شمعون وانتخاب قائد الجيش فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية. وكان شهاب قد بدأ بإجراء اتصالات مع الأميركيين. في المقابل دعم عبد الناصر رشيد كرامي، ابن عبد الحميد كرامي الزعيم الطرابلسي الراحل الذي كان معروفاً بمعارضته لقيام الكيان اللبناني والمؤيد للقومية العربية، واعتبر كرامي ممثلاً للنفوذ المصري في لبنان في عهد شهاب وخلفه شارل حلو.⁶⁵

الدستور اللبناني

على صعيد الدستور اللبناني فكانت سلطات الانتداب أصدرت دستوراً للجمهورية اللبنانية في العام 1926 بالتعاون مع النخب السياسية في البلاد. وقد اعتمد لبنان على هذا الدستور حتى يومنا هذا مع تعديلات آتية ارتبطت مرات بتعديل المادة 49 من الدستور لاتاحة المجال أمام قائد الجيش فؤاد شهاب في العام 1958 وقائد الجيش العماد اميل لحود في العام 1998 وقائد الجيش العماد ميشال سليمان في العام 2008 للترشح إلى الانتخابات الرئاسية. إضافة إلى تعديلات دائمة ارتبطت في العام 1943 بإزالة المواد المرتبطة بصلاحيات سلطات الانتداب وذلك بغية حصول لبنان على الاستقلال الكامل عن فرنسا، وتعديلات الطائف في العام 1989 بغية إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية. ومن مواد هذا الدستور:

- مادة 1 المعدلة بتاريخ 9 - 11 - 1943: لبنان دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ وسيادة تامة. أما حدوده فهي التي تحده حالياً: من مصب النهر الكبير على خط يرافق مجرى النهر إلى نقطة اجتماعه بوادي خالد الصابّ فيه شمالاً على علو جسر القمر. بقرى معيصرة - : خط القمحة الفاصل بين وادي خالد ووادي نهر العاصي (أورنت) ماراً شرقاً ربعة - هيت - ابش - فيضان على علو قريتي برينا ومطربا، وهذا الخط يستمر بحدود قضاء بعلبك الشمالية من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية الشرقية ثم حدود أقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا الشرقية. جنوباً: حدود قضاء صور ومرجعيون الجنوبية الحالية. البحر المتوسط غرباً.
- 2- المادة لا يجوز التخلي عن أحد أقسام الأراضي اللبنانية أو التنازل عنه .
- 3- المادة لا يجوز تعديل حدود المناطق الدارية إل بموجب قانون .
- 4- المادة لبنان الكبير جمهورية عاصمته بيروت .

⁶⁵ Fawaz Trabulsi, A History of Modern Lebanon, London: Pluto Press, 2007, p.p. 134 - 136.

المادة 5 المعدلة بتاريخ 7 - 12 - 1943: العلم اللبناني أحمر فأبيض فأحمر أقساماً أفقية تتوسط الأرزة القسم الأبيض بلون أخضر، أما حجم القسم. وأما الأرزة فهي في الوسط يلمس رأسها القسم الأحمر، والأبيض فيساوي حجم القسمين الأحمرين معا لثلث حجم القسم البيض العلوي، وتلمس قاعدتها القسم الأحمر السفلي ويكون حجم الأرزة موازياً لثلث حجم القسم الأبيض.

- المادة 6: إن الجنسية اللبنانية وطريقة اكتسابها وحفظها وفقدانها تحدد بمقتضى القانون.

- المادة 7: كل اللبنانيين سواء أمام القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دونما فرق بينهم .

- المادة 8: الحرية الشخصية مصونة وفي حمى القانون ولا يمكن أن يقبض على أحد أو يحبس أو يوقف إلا وفقاً لحكم القانون ولا يمكن تحديد جرم أو تعيين عقوبة إلا بمقتضى القانون .

- المادة 9: حرية الاعتقاد مطلقة والدولة بتأديتها فروض الإجلال لله تعالى تحترم جميع الأديان والمذاهب وتكفل حرية إقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها على أن لا يكون في ذلك إخلال في النظام العام وهي تضمن للأهلين على اختلاف مللهم احترام نظام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية.

- المادة 10: التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافي الآداب أو يتعرّض لكرامة أحد الأديان أو المذاهب، ولا يمكن للأنظمة العامة أن تمسّ حقوق الطوائف من جهة إنشاء مدارسها الخاصة، على أن تسير في ذلك وفقاً للأنظمة التي تصدرها الدولة في شأن المعارف العمومية.

- المادة 11 المعدلة بتاريخ 9 - 11 - 1943: اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية. أما اللغة الفرنسية فتحدد الأحوال التي تستعمل بها بموجب قانون.

- المادة 12: لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة لا ميزة لأحد على آخر إلا من حيث الاستحقاق والجدارة، حسب الشروط التي ينص عليها القانون. وسيوضع نظام خاص يضمن حقوق الموظفين في الدوائر التي ينتمون إليها.

الباب الثاني: السلطات

الفصل الأول

أحكام عامة

المادة 16: تتولى السلطة المشتركة هيئة واحدة هي مجلس النواب.

المادة 17: تناط السلطة الإجرائية بمجلس الوزراء.

المادة 18: لمجلس النواب ومجلس الوزراء حق اقتراح القوانين. ولا ينشر قانون ما لم يُقرّه مجلس النواب.⁶⁶

⁶⁶ راجع نص الدستور اللبناني على موقع رئاسة الجمهورية اللبنانية

<http://www.presidency.gov.lb/Arabic/LebaneseSystem/Documents/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B3%D8%AA%D9%88%D8%B1%20%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%A8%D9%86%D8%A7%D9%86%D9%8A.pdf>

الفصل الثالث

العراق 1920 – 1958

منذ العام 1917 سقط جنوب العراق ووسطه تحت الاحتلال البريطاني. ولقد ساهمت ممارسات الاحتلال البريطاني إضافة إلى ظروف الحرب، ناهيك عن آمال العراقيين بالتحرّر من الهيمنة البريطانية إلى اندلاع ثورة العشرين. وقد اندلعت هذه الثورة في آذار مارس 1920 عندما اندلعت مظاهرات في بغداد ما لبثت أن انتشرت في مختلف أنحاء العراق.⁶⁷ وقد ساهم في اندلاع الثورة دور الضباط العراقيين في حكومة فيصل في سوريا والذين كانوا يريدون من البريطانيين تنفيذ وعودهم للعرب بممالك مستقلة، إضافة إلى الدعاية الأتاتورية التي كانت تدعو الضباط العرب إلى الثورة على قوات الاحتلال البريطاني والفرنسي. أما كيف تحوّلت الثورة ثورة مسلحة؟ فيعود ذلك إلى حادثة حصلت في حزيران 1920 حين أعلنت عشيرة الضوالم التمرد على البريطانيين، فقام الحاكم البريطاني على منطقة الرميثة باستدعاء شيخ القبيلة شعلان أبو الجون إلى السراي الحكومي وقام بتوقيفه، فقام أفراد من قبيلته بمهاجمة السراي الحكومي حيث جرى تحرير شيخ القبيلة.⁶⁸ وقد أدّى هذا إلى اندلاع الثورة المسلحة في منطقة الرميثة حيث جرت معارك عدة مع القوات البريطانية أهمها البوحسان والعارضيات الأولى والثانية. وقد تمّ قصف الرميثة بالطائرات. وفي 11 تموز حصل اجتماع بين العشائر وتقرر إعلان الثورة وتوجّهت قوات من قبائل آل فتلة وآل إبراهيم وآل شبل والغزليات لمحاصرة بلدة أبو صخير. وفي 17 تموز يوليو جرت محاولة فاشلة لإعلان وقف إطلاق النار، إلا أنها فشلت وتواصل القتال وانتشر في مختلف أنحاء منطقة الفرات الأوسط.⁶⁹

ثورة العشرين

ولقد كانت معركة الخضر ومعركة البواخر من أهم المعارك في منطقة السماوة. إذ قامت العشائر بمهاجمة محطة قطار الخضر أثناء انسحاب القوات البريطانية إلى الناصرية ما أدّى إلى وقوع

⁶⁷ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 21.

⁶⁸ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 24.

⁶⁹ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 63.

خسائر كبيرة بينهم. أما معركة البواخر التي تنسب إلى خمسة قوارب انطلقت من مدينة الناصرية لنجدة الحامية البريطانية في السماوة. ودارت معارك طاحنة أدت إلى وصول ثلاث بواخر فقط إلى مدينة السماوة في حين تضرّر مركب بريطاني وتمّ أسر آخر من قبل الثوار بمن فيه. وقد تطلب الأمر أشهراً عدة من القوات البريطانية للسيطرة على السماوة في منتصف تشرين الأول أكتوبر. في الوقت نفسه انتشرت الثورة إلى كربلاء في 25 تموز يوليو حيث تشكلت هيئة وطنية لإدارة المدينة بعد عزل حاكمها البريطاني. وكان سبق ذلك اندلاع الثورة في النجف التي انسحب منها الحاكم البريطاني من دون قتال. وفي آب انتقلت الثورة إلى ديالى وبعدها عمّت الثورة مختلف أنحاء العراق. ولن تستطيع القوات البريطانية إعادة بسط سيطرتها على البلاد إلا بعد جهود عسكرية كبيرة وجرائم ارتكبتها أدت إلى سقوط عشرات ألوف القتلى والجرحى.

أما أسباب فشل ثورة العشرين فمتعددة. فلم يكن لدى الثوار موارد كافية أو عتاد حربي يمكن أن يضاهاه السلاح الإنكليزي، ناهيك عن امتلاك البريطانيين القوة الجوية. وهي كانت آخر صيحات العصر التكنولوجي آنذاك، وطول فترة الثورة وبدائية الأساليب القتالية للثوار. إضافة إلى ذلك فلقد كان الزخم الأساسي للثورة في منطقة الفرات الأوسط ما سهّل على الإنكليز حصارها، خصوصاً أنه لم تكن هنالك قيادة موحدة للثورة. ورغم ذلك فلقد كبّدت الثورة الاحتلال البريطاني خسائر جسيمة راوحت بين 500 وألف قتيل بريطاني وهندي في القوات البريطانية، فيما تمّ إنهاك القوات الجوية البريطانية التي حققت 4000 ساعة طيران وإغارة على الثوار وألقت 97 طنّاً من المتفجرات عليهم وأطلقت نحو 200000 طلقة فيما بلغت خسائرها تسعة قتلى وسقوط 11 طائرة. وقد بلغ مجموع أكلاف قمع الثورة 40 مليون باوند استرليني ما أضاف أعباء إضافية على الخزينة البريطانية التي كانت تعاني نتيجة تبعات الحرب العالمية الأولى.⁷⁰ هذا دفع بوزير المستعمرات البريطانية وينستون تشرشل إلى الاقتناع بضرورة قيام حكومة محلية في العراق وغيرها من المناطق المنتدبة في الشرق الأوسط.⁷¹ ما نتج عنه عقد مؤتمر القاهرة في آذار مارس 1921 لإعادة ترتيب أوضاع البلدان الخاضعة للهيمنة البريطانية. وبالنسبة للعراقيين فلقد كانت ثورة العشرين هي الثورة المؤسسة للهوية الوطنية العراقية الحديثة.

⁷⁰ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 24.

⁷¹ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 21.

مؤتمر القاهرة وتبعاته

في آذار مارس 1921 اجتمع وزير المستعمرات البريطاني وينستون تشرشل مع أكثر من أربعين من كبار الموظفين في الخارجية البريطانية وحكومة الهند لبحث مستقبل المستعمرات وسبل إبقائها تحت السيطرة بأقل الأكاليف الممكنة، خصوصاً بعد الثورات التي واجهتها في مصر في العام 1919 والعراق في العام 1920 وفي فلسطين، وفي غيرها من المناطق، في ظل قرار الحكومة البريطانية بتسريح مئات آلاف الجنود الذين كانوا مجندين منذ بداية الحرب العالمية الأولى. كان هذا القرار ناتجاً عن الأعباء الكبيرة التي تحمّلتها الخزينة البريطانية خلال الحرب وبعدها نتيجة المجهود الحربي ونتيجة الأكاليف العالية لمحاولة فرضها الحكم المباشر على المستعمرات والمناطق المنتدبة. من هنا كان قرار المؤتمرين بالتوقف عن ممارسة الحكم المباشر في هذه المناطق وعهدها إلى نخب محلية موالية لبريطانيا لتحكم هذه المناطق والبلدان وتضمن ولاءها للتاج بأقل الأكاليف الممكنة على البريطانيين.⁷² وقد قرّر المؤتمر منح مصر استقلالاً "صورياً" بدءاً من العام 1922 وإعلان العراق ملكية تحت حكم الملك فيصل تعويضاً عن خسارته عرش سوريا، ونتيجة علاقات فيصل مع الضباط العراقيين السابقين في الجيش العثماني الذين لعبوا دوراً في ثورة العشرين، والذين سبق لهم وقاتلوا إلى جانب فيصل أثناء الثورة العربية الكبرى.⁷³ وقد ساهم في اي لورنس إلى حد بعيد برفع أسهم فيصل لدى تشرشل ما ساهم إلى حد كبير في تسميته ملكاً على العراق وهو ما جرى تأكيده في آب 1921 في بغداد.⁷⁴

ما أن سمي فيصل ملكاً على العراق حتى بدأت الجهود لفرض الواقع الجديد في العراق. وبعد مرحلة انتقالية من ثلاث سنوات تمّ تشكيل لجنة دستورية أعدت مسودة دستور تم بموجبه منح الملك سلطات مطلقة. وقد قرر الدستور أن يكون نظام الحكم ملكياً دستورياً يقوم على سيادة الملك وعلى نظام برلماني يتشكل من مجلسين واحد للنواب وآخر للأعيان. وفيما يُنتخب الأول من الشعب فإن الثاني يُعين من قبل الملك. وقد انتخب أول مرة في العام 1925 وعقد اتفاقات عدة كانت أهمها اتفاقية العام 1930 التي ربطت العراق ببريطانيا عضواً، رغم أن الأخيرة وعدت بمنحه الاستقلال في العام 1932.⁷⁵ ووفقاً لهذه المعاهدة فإن العراق كان ملزماً بالتشاور مع بريطانيا في كل ما يتعلق بالعلاقات الخارجية والدفاعية وحتى إدارة المسائل المتعلقة بالأمن

David Fromkin, A Peace to end all Peace, ⁷²

Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 24 – 26. ⁷³

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p.p. 64 – 65. ⁷⁴

Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 25. ⁷⁵

الداخلي. وللحقيقة فإنه لم يكن للوطنيين العراقيين الكثير من الخيارات إلا القبول بالشروط البريطانية، خصوصاً أن ميزان القوى لم يكن في صالحهم وأن بريطانيا كانت تعتمد سياسة الجزرة والعصا والمتمثلة بتهنيد الإدارة وربط العراق بحكومة الهند البريطانية.⁷⁶ والجدير ذكره أن الملك فيصل أحيط بأنواع عدة من النخب، من جهة الوجهاء البغداديين في وسط العراق ورجال الدين في جنوب العراق والزعماء العشائريين في شمال العراق وأبرزهم الملا مصطفى البرزاني، وضباط الجيش العراقي الذين كانوا قد تخرجوا من الكليات العسكرية العثمانية والذين كانوا قد قاتلوا إلى جانب فيصل خلال الثورة العربية الكبرى وكان أبرزهم نوري السعيد.

عهد الملك غازي

في أيلول سبتمبر 1933 توفي الملك فيصل فخلفه في الحكم ابنه الملك غازي.⁷⁷ وكان غازي قد ولد في العام 1912 وتربى في كنف جده الشريف حسين فيما كان والده يقود قوات الثورة العربية التي قدّر لها أن تدخل الشام عقب هزيمة الدولة العثمانية. وقد سُمّي ولياً للعهد في العام 1924 قبل أن يتولى العرش بعد وفاة والده. ويُحكى أن الملك غازي كان ذا ميول قومية عربية وكان متأثراً بأفكار ساطع الحصري الذي كان في عداد فريق والده في دمشق ومن ثم في العراق، وقد ساهم في تعليم الملك غازي عندما التحق بأبيه في بغداد. وقد شهد عهده الذي استمرّ فقط ست سنوات صراعاً مريعاً بين تيارين، أحدهما كان مؤيداً للبقاء تحت مظلة النفوذ البريطاني وقد سُمّي بالتيار المدني، أما التيار الآخر وغالبية من ضباط الجيش فلقد كان يدعو إلى التقارب مع ألمانيا النازية للتخلص من النفوذ البريطاني في العراق. وكان الملك غازي يميل إلى التيار الثاني.⁷⁸ وفي العام 1936، وفي خضم الصراع بين التيارين الأنفي الذكر دعم الملك غازي سراً أول انقلاب عسكري في تاريخ العالم العربي ضد حكومة ياسين الهاشمي. وكان بطل الانقلاب الفريق الركن بكر صدقي الذي كان ذا ميول قومية عربية قوية رغم أنه ولد كردياً.⁷⁹

وكان بكر صدقي ضابطاً في الجيش العثماني، التحق بالثورة العربية الكبرى ثم بالملك فيصل في العراق. وقد كان له دور في قمع ثورة الآشوريين في العام 1933، وخلال قمع انتفاضة عشائر الفرات

⁷⁶ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 66.

⁷⁷ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 40.

⁷⁸ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 43.

⁷⁹ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p.p. 69 – 70.

الأوسط في العام 1935 وفي مواجهة انتفاضة البارزانيين في جبال كردستان. وقد وثق علاقته خلال فترة حكم الملك غازي بوزير الداخلية حكمت سليمان الذي كان قومياً عربياً أيضاً، رغم أنه من أصل تركماني. وخلال حكومة الفريق ياسين الهاشمي الثانية كان الصراع على أشده بين المعارضة والحكومة. وكان سليمان هو مَنْ يتزأس هذه المعارضة. وقد تمكَّن سليمان من إقناع صدقي بقيادة الانقلاب، فأقنع العقيد محمد علي جواد وهو الطيار الخاص للملك غازي والفريق عبد اللطيف نوري وهو قائد الفرقة الأولى في الجيش العراقي إضافة إلى آخرين بدعمه لإطاحة الهاشمي، وهو ما تم لهم في تشرين الأول أكتوبر من العام 1936، وكان الهاشمي خارج البلاد فلجأ إلى دمشق، حيث توفي بعد شهرين. وقد حاول وزير الدفاع جعفر العسكري وهو صهر نوري السعيد المقرب من الإنكليز إعاقَة الانقلاب إلا أنه أثناء توجهه إلى لقاء بكر صدقي قام مرافقو الأخير بتجريدَه من سلاحه الشخصي ومرافقيه ثم قاموا بإعدامه. وعندما وصل الخبر إلى نوري السعيد باشا سارع إلى اللجوء إلى السفارة البريطانية حيث ساهم السفير البريطاني بتسفيره خارج العراق. وبهذا الانقلاب مالت الكفة إلى الفريق المناهض لبريطانيا في العراق.⁸⁰

تمَّ تشكيل حكومة برئاسة حكمت سليمان فيما تولى بكر صدقي رئاسة أركان الجيش العراقي بدلاً من الفريق طه الهاشمي. وفي شباط فبراير 1937 نظمت انتخابات نيابية أدَّت إلى وصول مؤيدين للحكومة إلى سدة البرلمان. وكان بكر صدقي هو الحاكم الفعلي للبلاد وكان يدفع باتجاه تقارب مع ألمانيا النازية ما حدا بالبريطانيين إلى السعي للتخلص منه. وفي آب أغسطس 1937 كان بكر صدقي في طريقه إلى تركيا لحضور المناورات العسكرية هناك، وقد توقفت طائرته التي انطلقت من بغداد في الموصل وكان برفقته قائد القوة الجوية العراقية محمد علي جواد. وأثناء استراحته في مقهى مطار الموصل بينما كان يتم تجهيز طائرته لمعاودة رحلتها تقدم العريف عبد الله التلعفري منهم وفي يده مسدسه فأطلق النار على بكر صدقي ومحمد علي جواد وأرداهما قتيلين.⁸¹ وأثناء التحقيق معه اعترف التلعفري بأن من حرَّضه على فعلته كان الضابط محمود هندي الذي لاذ بالفرار.⁸² وقد أفادت التحقيقات بتورط العقيد فهمي سعيد والضابط محمود خورشيد بالمؤامرة وسط شبهات بتورط الاستخبارات البريطانية في الحادث. وقد مهَّد اغتيال بكر صدقي لتراجع نفوذ حكمت سليمان الذي أُجبر على الاستقالة من الحكومة وحُكم بالسجن لخمس سنوات ما ساهم في عودة نوري السعيد إلى الواجهة وتعيينه رئيساً للوزراء في بداية العام 1938. وفي

⁸⁰ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 46.

⁸¹ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 49.

⁸² Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 70.

نيسان أبريل 1939 قتل الملك غازي في حادث سيارة وسط شبهات بأن يكون البريطانيون هم مَن دبر الحادث للتخلص من الملك الذي كان يسعى للتقرب من الألمان،⁸³ فيما كانت بريطانيا تتحضر للحرب مع أدولف هتلر.⁸⁴ وقد خلفه ابنه فيصل الذي كان لا يزال طفلاً على العرش، فيما تم تعيين شقيق زوجته الأمير عبد الله وصياً على العرش، علماً أنه كان من المقربين جداً من البريطانيين. وعقب اندلاع الحرب العالمية الثانية في أيلول سبتمبر 1939 قام الأمير عبد الله ونوري السعيد بقطع العلاقات مع ألمانيا بضغط من البريطانيين وبتسخير العراق لخدمة المجهود الحربي البريطاني.⁸⁵ في المقابل تزعم قائد الجيش الفريق أول حسين فوزي المعارضة لنوري السعيد فيما قاد رشيد عالي الكيلاني المعارضة البرلمانية ضده.

ثورة الكيلاني

في العام 1941 تمكن التيار المناهض للنفوذ البريطاني في العراق من إطاحة حكومة نوري السعيد وتسمية رشيد عالي الكيلاني المعروف بعدائه لهم رئيساً للحكومة. وكانت هذه ثالث مرة يتولى فيها الكيلاني رئاسة الوزارة بعد العام 1933 والعام 1940.⁸⁶ وكان قد ولد لعائلة من وجهاء مدينة بعقوبة في محافظة ديالى. وقد ارتبط الكيلاني بعلاقة قوية بالملك غازي وأصبح رئيساً للديوان الملكي بعد تبوء هذا الأخير سدة العرش. وفي أيار مايو من ذلك العام كان التيار المناهض لبريطانيا قد تشجّع للتمرد على هيمنتها على العراق نتيجة تقدم قوات الماريشال رومل في شمال أفريقيا باتجاه مصر وتهديده بالوصول لقناة السويس ومنطقة الشرق الأدنى. فقام هذا الفريق بدعم الكيلاني الذي شكل حكومة من عقداً كانوا معروفين بإيمانهم بالقومية العربية وبالمعاداة لبريطانيا وكانوا برئاسة العقيد صلاح الدين الصباغ وهو من أصل لبناني من مدينة صيدا، والعقداً فهمي سعيد وكامل شبيب ويونس السبعراوي ومحمود سلمان. وكان هؤلاء على اتصال بمفتي القدس الحاج أمين الحسيني الذي كان قد لجأ إلى ألمانيا هرباً من قوات الاحتلال البريطانية والصهيونية في فلسطين وأنشأ إذاعة ناطقة بالعربية في برلين. وقد بدأ الكيلاني بإصدار البيانات الداعية للعرب كافة بالثورة على القوى الاستعمارية المهيمنة على الدول العربية، بريطانيا وغيرها. ومن ثم قام

⁸³ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 50.

⁸⁴ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 70.

⁸⁵ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 51.

⁸⁶ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 71.

بعزل الأمير عبد الله الذي لاذ بالفرار هو والسعيد. ثم أصدر الكيلاني قراراً يطالب القوات البريطانية بالانسحاب من قواعدها في العراق.⁸⁷

رداً على ذلك قامت القوات البريطانية بإنزال قواتها في الكويت ومن ثم تقدمت باتجاه البصرة، فأصدرت حكومة الكيلاني قراراً يدين بريطانيا ويهددها باتخاذ خطوات ردعية ضد قواتها ما اعتبر بمثابة إعلان حرب، لكن بريطانيا قامت بإنزال جوي في قاعدة الحبانية الجوية القريبة من بغداد ومن ثم فك الحصار عن القاعدة والتقدم باتجاه العاصمة بغداد. وقد فشل الجيش العراقي بصد القوات البريطانية، فلذا الكيلاني بالفرار إلى المملكة العربية السعودية حيث بقي هناك حتى ثورة العام 1958، فيما لاذ بقية الضباط بالفرار إلى سوريا التي كانت تحت انتداب حكومة فيشي ومنها إلى ألمانيا.⁸⁸ وقد مهد هذا إلى عودة الوصي الأمير عبد الإله إلى سدة العرش وعودة نوري السعيد إلى رئاسة الوزارة لمعظم الفترة التي امتدت حتى العام 1958. في هذا الوقت أعاد البريطانيون هيمنتهم المطلقة على العراق.⁸⁹

العراق وفلسطين

منذ العشرينيات كان العراق داعماً للقضية الفلسطينية بكونها جزءاً من القضية العربية الجامعة. وكان الضباط العراقيون من أشد الداعمين لهذه القضية وقد تجلّى ذلك في مواقفهم خلال ثورة 1936 - 1939، وخلال ثورة رشيد عالي الكيلاني التي تمّت بالتنسيق مع مفتي القدس الحاج أمين الحسيني. وقد استمرّ هذا الدعم خلال الأربعينيات من القرن الماضي وصولاً لحرب فلسطين في العام 1948. وكانت العصابات الصهيونية قد أخذت زخماً كبيراً بعد الحرب العالمية الثانية، إذ توافد إلى فلسطين عشرات ألوف المهاجرين اليهود من أوروبا بعد نجاتهم من المحارق النازية. كذلك توافدت إليها عشرات الوف المقاتلين اليهود من ذوي الخبرة الذين خاضوا ميادين القتال الحديث في الجيوش السوفياتية والأميركية والبريطانية التي حاربت ألمانيا النازية خلال الحرب. إضافة إلى ذلك فلقد استفادت العصابات الصهيونية من خروج الولايات المتحدة كمنتصر أول من الحرب والقوة العالمية الأولى في العالم، علماً أنها كانت من أكثر الدول الداعمة للمشروع الصهيوني منذ بداياته، وكان أحد أسباب ذلك تركيز النفوذ الصهيوني بدرجة كبيرة في الولايات المتحدة وتحديداً

⁸⁷ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 54 – 55.

⁸⁸ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 55.

⁸⁹ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 71.

في دوائر المال في نيويورك. في المقابل كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني الداعم أيضاً للحركة الصهيونية، إضافة إلى كون معظم الدول العربية في ذلك الوقت تحت هذا الانتداب أو تحت السيطرة البريطانية، مثل العراق والأردن ومصر والسودان ودول الخليج وحتى سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي 29 تشرين الثاني نوفمبر وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين وتحويل القدس. وفيما رحّب الصهاينة بالمشروع فإن الدول العربية ومعظم القوى في مجتمعاتها رفضته باستثناء الأحزاب الشيوعية التي وافقت على القرار بتأثير من موسكو.⁹⁰ هذا أدى إلى تصاعد حدة المواجهات بين الفلسطينيين والعرب من جهة والعصابات الصهيونية وجيش الاحتلال البريطاني من جهة أخرى. وكانت بريطانيا العظمى قررت إنهاء انتدابها على فلسطين في 15 أيار مايو 1948، فاستغلت الحركة الصهيونية ذلك للإعلان عن قيام دولة إسرائيل بعد مشاورات أجراها ممثل الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة موشيه شاريت مع الإدارة الأميركية. وفي 26 أيار مايو من ذلك العام أعلن قيام الجيش الإسرائيلي عبر دمج العصابات الصهيونية فيه. رداً على ذلك قامت القوات المسلحة العربية بدخول فلسطين لنجدة أهلها وقد تألفت القوات الأساسية في البداية من 10000 جندي مصري دخلوا فلسطين من جهة النقب وبئر سبع وغزة، ونحو 5000 جندي أردني عبروا نهر الأردن باتجاه الضفة الغربية، فيما حلت القوات العراقية ثالثة من حيث الحجم إذ بلغ تعدادها 2500 جندي، فيما بلغ تعداد القوة السورية التي هاجمت من منطقة الجليل نحو ألفي جندي، وشارك لبنان بـ 500 مقاتل. في المقابل بلغ تعداد القوات الصهيونية نحو 60000 مقاتل ارتفع عددهم فيما بعد إلى 110 آلاف مقاتل أي ثلاثة أضعاف القوات العربية مجتمعة.⁹¹ خلال الحرب تمكّن الجيش العراقي من تحقيق عدد من الإنجازات الميدانية أهمها تحرير مدينة جنين من عصابات الهاغاناه بعد معارك شرسة، ومن ثم اتجه نحو حيفا وحاصرها وبدأ الاستعداد لتحريرها من الصهاينة حين أتمه أوامر من القيادة السياسية في بغداد بوقف القتال والقبول بالهدنة،⁹² وهو ما مهد لاحقاً إلى هزيمة الجيش العراقي والقوات العربية مجتمعة في ما عُرف بنكبة فلسطين والتي أدّت إلى خسارة 80 في المئة من مساحتها لصالح العصابات الصهيونية وإلى تهجير نحو مليون فلسطيني من أرضهم إلى البلدان المجاورة ومن ثم إلى مختلف أقطار العالم.

⁹⁰ وليد الخالدي، خمسون عاماً على تقسيم فلسطين، ص.ص. 90 - 93.

⁹¹ وليد الخالدي، خمسون عاماً على حرب 1948: أولى الحروب العربية - الصهيونية، بيروت: دار النهار، 1998، ص.ص. 39 - 50.

⁹² Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 66.

حلف بغداد

شكلت نكبة فلسطين ضربة قوية للعرب وأصبحت مثار سخط من قبل ضباط الجيوش العربية على السياسيين، خصوصاً أن هؤلاء حاولوا إلقاء تبعة الفشل على الجيوش العربية لتبرير قبولهم بتسويات عرضت عليهم من قبل القوتين البريطانية والأميركية للقبول بحل القضية الفلسطينية بما يخدم الأهداف الصهيونية. وكان من نتيجة ذلك حصول سلسلة انقلابات في سوريا بين عامي 1949 و1951، تبعها انقلاب في مصر في العام 1952 بقيادة العقيد جمال عبد الناصر.⁹³ ولم يكن العراق بعيداً عن هذه الظاهرة إلا أن الجيش العراقي كان لا يزال يعاني من الضربات التي تلقاها على يد البريطانيين والملكية بعد العام 1941 ما جعلهم عاجزين عن التحرك في ظل القبضة البريطانية القوية في البلاد. في هذا الوقت كانت الحرب الباردة قد بدأت منذ العام 1946 بين الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية من جهة والاتحاد السوفياتي وكتلة الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية من جهة أخرى. وبناء على ذلك، وبلاستناد إلى نظريات الاحتواء لقلب أوراسيا التي أطلقها الاستراتيجي البريطاني هالفورد ماكيندر وطوّرها عالم الجغرافيا السياسية نيكولاس سبيكمان،⁹⁴ فلقد أطلقت الولايات المتحدة حلف شمال الأطلسي في العام 1949 لمنع الاتحاد السوفياتي وحلفائه من النفاذ إلى المحيط الأطلسي.⁹⁵ وقد أطلقت حلفاً مشابهاً في جنوب شرق آسيا لمنع الاتحاد السوفياتي من أن تكون له إطلالة على طرق الملاحة في المحيط الهادئ. ولاستكمال عملية التطويق هذه تمهيداً لضرب الاتحاد السوفياتي قامت الولايات المتحدة وبريطانيا بتطوير فكرة إنشاء حلف عسكري في منطقة الشرق الأوسط وذلك لمنع الاتحاد السوفياتي من الوصول إلى محيط الهندي.⁹⁶

وكانت تركيا وباكستان قد وقعتا اتفاقاً للتعاون العسكري المشترك في شباط فبراير 1954 يهدف إلى مواجهة التهديدات السوفياتية. في هذا الوقت كان رئيس الحكومة العراقية نوري السعيد قد ضغط في القمة العربية لتبني مفهوم الأمن الجماعي ومنه انطلق للترويج لفكرة حلف عسكري في منطقة الشرق الأوسط لمواجهة الخطر الشيوعي. وفي 24 شباط فبراير وقع العراق اتفاقاً عسكرياً

M.E. Yapp, *The Near East since the First World War: A History to 1995*, Edinburgh, Longman, 1996, ⁹³ p.p. 212 - 214.

Halford Mackinder: *The Geographical Pivot of History*, *the geographical journal*, Vol. 170, no 4, ⁹⁴ December 1904, p.p. 298 - 300.

Nicholas Spykman, *America's Strategy in World Politics-The United States and the Balance of Power*, و New Brunswick, Transaction Publishers, 2008

⁹⁵ راجع جمال واكيم، أوراسيا والغرب والهيمنة على الشرق الأوسط، بيروت: ابعاد، 2016.

⁹⁶ Phebe Marr, *The Modern History of Iraq*, Boulder: Westview Press, 2012, p. 74.

مع تركيا أطلق عليه حلف بغداد، وقد انضمت إليه لاحقاً كلٌّ من إيران وباكستان. وكان الحلف يمتد من بحر إيجة في شرق المتوسط مروراً بهضبة الأناضول وبلاد ما بين النهرين والهضبة الإيرانية باتجاه جبال الهندو كوش الفاصلة بين باكستان وأفغانستان. لذلك فلقد كان هذا الحلف بحاجة إلى عمق استراتيجي يتمثل بضم الدول العربية وإسرائيل إليه. ونتيجة الأهمية التي أوليت للدور العربي في الحلف تمّ تعيين العراقي عوني الخالدي كأول أمين عام له من عام 1955 وحتى كانون الأول ديسمبر 1958 حين خرج العراق من الحلف بعد ثورة تموز يوليو ضد الملكية وتغيير اسم الحلف إلى الحلف المركزي أو الستتو. وكانت سوريا ومصر أبرز المعترضين على الحلف، لأنهما كانتا تعتبران أن الأولوية هي لمواجهة الخطر الإسرائيلي على حدودهما، إضافة إلى اعتبارهما أن الحلف ما هو إلا محاولة لتجديد الهيمنة الاستعمارية على الدول العربية بأشكال أخرى.⁹⁷

وكمقدمة لذلك كان على الولايات المتحدة أن تحلّ الصراع العربي الإسرائيلي. من هنا جاءت مبادرة جونستون الشهيرة. وكان الرئيس الأميركي المنتخب عام 1953 دوايت أيزنهاور قد فكّر بطريقة لحل الصراع العربي الإسرائيلي وأرسل موفداً خاصاً به إلى الشرق الأوسط هو رئيس مؤسسة كارنيجي للسلام جوزيف جونسون للتباحث مع القادة العرب والإسرائيليين للتوصل إلى اتفاق حول الموضوع. وكانت الجبهتان المصرية والسورية مع إسرائيل لا تزالان تشهدان مواجهات عبر الحدود بين الفدائيين والصهاينة، فيما كان اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات يعيشون أوضاعاً مزرية. وقد تضمّن المشروع حل قضية اللاجئين بإعطائهم تعويضات مالية، ومنحهم أراضي ليستوطنوا فيها بشبه جزيرة سيناء، والتعويض على مصر بمنحها طريقاً برياً يصلها بالأردن، والسماح لبعض اللاجئين بالعودة إلى أراضيهم ضمن سياسة للشمّل بعد موافقة الإسرائيليين على الشخص الطالب للعودة. وقد تعثّر المشروع بسبب المعارضة الشعبية له إضافة إلى معارضة القيادتين المصرية والسورية. وقد سجل حوار طريف بين جوستون وعبد الناصر حين عرض الأول أن يتم إنشاء جسر فوق النقب يصل مصر بالأردن ويمر تحته طريق يسمح للإسرائيليين بالتنقل بين بئر سبع ومرفأ أم الرشراش والمعروف في الكيان الصهيوني بإيلات. فلقد سأل عبد الناصر جونستون ماذا سيجري إذا أحسّ مصري بالحاجة للتبؤل وفعل ذلك على سيارة إسرائيلية مارة من تحت الجسر، فهل تندلع الحرب عندها؟ وقد سُمّي ذلك بالـ "بي بي ديبلوماسي" أو دبلوماسيّة التبؤل.⁹⁸

⁹⁷ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 75.

⁹⁸ راجع محمد حسنين هيكل، ملفات السويس: حرب الثلاثين عاماً، القاهرة: دار الشروق، 1996.

أزمة السويس

في هذا الوقت كان عبد الناصر يتبع سياسة تريد الاستقلال عن القوى الغربية، وتدعو إلى الحياد في الحرب الباردة بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية. وقد تجلّى ذلك في مشاركته في تنظيم وإعداد المؤتمر الذي عقد في باندونغ في إندونيسيا في العام 1954. وقد أعلن معارضته للانضمام لحلف بغداد لأنه كان يرى فيه تجديداً للتبعية للغرب بأشكال أخرى. هذا دفع بريطانيا والولايات المتحدة إلى تشجيع إسرائيل على رفع وتيرة اعتداءاتها ضد مصر والتي تمثلت بالهجوم على مركز الشرطة المصري في العام 1955 في قطاع غزة ومقتل العشرات منهم على أيدي الجيش الإسرائيلي. هذا دفع بعبد الناصر إلى البحث عن مصدر جديد للسلاح بسبب الحظر المفروض من الغرب على تسليح العرب. فأتجه إلى الاتحاد السوفياتي الذي وافق على إعطاء السلاح لمصر عبر تشيكوسلوفاكيا، وقد عرفت الصفقة باسم صفقة السلاح التشيكية. وقد أصيب القادة الغربيون وعلى رأسهم الولايات المتحدة ووزير خارجيتها جون فوستر دالاس ورئيس الوزراء البريطاني انتوني ايدن ورئيس الوزراء الفرنسي غيه موليه بالجنون نتيجة الصفقة، لأنها كانت تعطي مصر قوة عسكرية كبيرة كما أنها كانت تمنح الاتحاد السوفياتي موطأ قدم في الشرق الأوسط وأفريقيا. في هذا الوقت كان عبد الناصر يفاوض البريطانيين على انسحاب قواتهم من مصر ومن منطقة قناة السويس وهو ما تمّ له في أوائل العام 1956. كما أن عبد الناصر كان يدعم حركات التحرّر في تونس والجزائر والمغرب وهو ما أدّى إلى استقلال تونس والمغرب في العام 1956 وإلى تصاعد الثورة الجزائرية التي كانت قد انطلقت في العام 1954.⁹⁹

نتيجة السياسات الاستقلالية التي اعتمدها عبد الناصر فقامت الولايات المتحدة وبريطانيا بالضغط على البنك الدولي لسحب عرضه بتمويل مشروع السد العالي الذي كانت مصر تزمع إنشائه على نهر النيل في أسوان. ردّ عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس في 26 تموز يوليو 1956. هذا دفع بريطانيا وفرنسا وإسرائيل إلى التفكير بطريقة للتخلص من عبد الناصر، وكان نوري السعيد يدعم هذا المسعى، وقد نقل عنه أنه كان في لندن على مائدة العشاء مع انتوني ايدن عندما سمع بإعلان عبد الناصر قرار التأميم، ف ضرب بيده على الطاولة مخاطباً ايدن: "عليكم أن تضربوا بقوة وأن تضربوا الآن وإلا فإن عبد الناصر سيطيح بنا جميعاً". وكانت أهداف بريطانيا واضحة في ضرب عبد الناصر، إذ إنها كانت ترى فيه تهديداً لنفوذه في الشرق الأوسط ولهيمنتها على طرق المواصلات بين شرق المتوسط والمحيط الهندي. أما إسرائيل فكانت ترى فيه تهديداً لها على حدودها

⁹⁹ Yapp, p.p. 402 – 410

الجنوبية، فيما كانت فرنسا تريد التخلص منه بسبب دعمه لحركات التحرر في أفريقيا وعلى رأسها الثورة الجزائرية. هذا دفع بالقوى هذه إلى عقد اجتماعات سرية في مدينة سيفرز الفرنسية بين 22 و24 تشرين الأول أكتوبر 1956 بمشاركة من رئيس الوزراء الإسرائيلي دافيد بن غوريون ورئيس الوزراء الفرنسي غيه موليه ووزير الخارجية البريطاني سلوين لويد، إضافة إلى وزراء الدفاع ورؤساء أركان الجيوش في الدول الثلاث. وقد أقرت الاجتماعات خطة لغزو مصر تقوم بمهاجمة إسرائيل لمصر بالقرب من قناة السويس، فتنفذ بريطانيا وفرنسا من ذلك ذريعة للطلب من مصر وإسرائيل إخلاء منطقة قناة السويس حتى تقوم قوات الدولتين بالإنزال هناك وتأمين الملاحة الدولية تحت طائلة التهديد باستخدام القوة ضد مصر إذا رفضت الانصياع للإملاءات البريطانية. وكانت القوى الثلاث تتوقع أن تقوم ثورة داخلية ضد عبد الناصر تطيح به من الحكم.¹⁰⁰

في المقابل كان جمال عبد الناصر يتوقع أن تقوم بريطانيا بتوجيه ضربة عسكرية لمصر بعد تأميمه قناة السويس. لكنه كان يتوقع ذلك خلال المئة يوم التي تلي تأميمه القناة على أن ينتفي هذا الاحتمال بعد ذلك. لكن عبد الناصر لم يتوقع أن تشارك إسرائيل مباشرة في العدوان، لأنه كان يعتقد أن بريطانيا ستسعى لثلا تظهر أمام العالم العربي كمتآمر مع إسرائيل ضده. في 29 تشرين الأول أكتوبر 1956 هاجمت إسرائيل مصر على طول خط الحدود الفاصل بينهما وقامت بإنزال فرقتي مظليين في مرتفعات سيناء المعروفة بمنطقة الممرات والتي تبعد بين عشرين وخمسين كيلومتراً عن قناة السويس من جهة الشرق. بعد ذلك قامت بريطانيا وفرنسا بتوجيه إنذار إلى مصر بوجوب إخلاء منطقة قناة السويس بعمق عشرة كيلومترات من جانبي القناة وهو ما رفضه عبد الناصر. هنا ووفقاً للخطة الموضوعة سلفاً بدأت الطائرات الحربية البريطانية والفرنسية التي انطلقت من حاملات طائرات البلدين بقصف المطارات المصرية ومراكز القيادة والسيطرة العسكرية والمرافق الاقتصادية في مصر، ثم بدأت قوات البلدين بالإنزال في منطقة القناة وتقدمت لاحتلال مدينة بور سعيد. إلا أن القوات المهاجمة لم تستطع التقدم جنوباً لتسيطر على منطقة القناة وفق الخطة المرسومة كما أنهما لم تتمكنا من التقدم إلى القاهرة لإجبار عبد الناصر على التخلي عن السلطة. في المقابل فلقد اجتاحت العالم العربي والغربي موجة تظاهرات واحتجاجات هاجمت المصالح البريطانية والفرنسية. وقد وقف الاتحاد السوفياتي في موقف الداعم لمصر فيما وقفت الولايات المتحدة في موقف الغاضب على حلفائها الغربيين الذين تجرأوا على التصرف من دون مشاورتها. كل هذه العوامل أدت إلى فشل أهداف العدوان وإلى وقفه بعد صدور قرار عن مجلس الأمن في السابع من تشرين الثاني نوفمبر لوقف إطلاق النار. وبنتيجة ذلك خرج عبد الناصر

زعيماً للعالم العربي وتم توجيه ضربة قاصمة للنفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق الأوسط وللدور الهاشمي ولنوري السعيد.¹⁰¹

ثورة تموز يوليو 1958

أدت التطورات التي رافقت وتلت أزمة السويس إلى إضعاف نفوذ البريطانيين ونوري السعيد في منطقة الشرق الأوسط. وقد شجع ذلك العناصر الوطنية في العراق، خصوصاً في الجيش العراقي إلى إعادة تفعيل نشاطهم ضد الملكية في العراق. وقد عادت النقمة لتستعر في صفوف الضباط العراقيين عقب نكبة فلسطين في العام 1948 إضافة إلى سياسة الانضمام إلى الأحلاف الغربية التي اعتمدها نوري السعيد، وتردي الأوضاع الاقتصادية داخل العراق في ظل هيمنة الشركات البريطانية على مختلف مرافق البلاد ومن ضمنها قطاع النفط. وقد شجّع نجاح جمال عبد الناصر بإطاحة الحكم الملكي في مصر الضباط العراقيين على معاودة نشاطهم السري داخل الجيش العراقي ضد الملكية الهاشمية. وكان عدد من الضباط قد شكلوا عقب النكبة تنظيمًا عرف باسم تنظيم الضباط الوطنيين في أواخر العام 1949. وكان الرائد رفعت الحاج سري هو قائد هذا التنظيم الذي بدأ يتواصل مع مجموعات مماثلة في الجيش، وأصبحت الاجتماعات دورية ومنظمة وكانت تجمع ضباطاً من مشارب قومية وشيعية وحتى إسلامية. وقد قام هذا التنظيم مرات عدة بوضع خطط للانقلاب، لكنها أوقفت أو أجهضت لسبب أو لآخر. وقد تنبّه نوري السعيد إلى وجود هذا التنظيم في صيف العام 1956 فقامت لجنة تحقيق عسكرية بالتحقيق مع العقيد رفعت الحاج سري والعقيد عبد الوهاب أمين والمقدم صالح عبد المجيد السامرائي والمقدم إسماعيل العارف، ورغم أنه لم تثبت عليهم أي شبهة إلا أن السعيد قرّر نقلهم بعيداً عن وحداتهم وعن الجيش عبر تعيينهم ملحقين عسكريين خارج العراق.¹⁰²

لم يؤد إبعاد الضباط الآنفى الذكر إلا إلى تأجيل الانقلاب على الملكية في العراق، فقد قفز إلى واجهة التنظيم العقيد عبد السلام عارف. وكان عارف قد انضم إلى الجيش العراقي في العام 1938 وشارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني وقد نقل إلى البصرة بعد إطاحة الكيلاني وبقي هناك حتى العام 1944. وفي العام 1948 شارك في حرب فلسطين وبعد مشاركته في دورات عسكرية عدة تمّ ضمّه إلى

¹⁰¹ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 76.

¹⁰² Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 83 – 84.

التنظيم السري للضباط في العام 1957. عندها اقترح عارف على أعضاء التنظيم ضم قائد اللواء 19 في الجيش العقيد عبد الكريم قاسم الذي كان صديقه منذ العام 1938 عندما كانا تلميذين في الكلية الحربية. وقد توثقت علاقتهما خلال حرب فلسطين التي شاركا فيها. وبما أن عبد الكريم قاسم كان الأعلى رتبة بين الضباط الأعضاء في التنظيم فلقد اقترح عارف أن يكون قاسم هو رئيس التنظيم مؤقتاً لحين عودة الرئيس الأصيل للتنظيم الفريق نجيب الربيعي الذي كان قد أبعد من قبل الحكومة إلى وحدة عسكرية نائية عن بغداد. في أوائل تموز يوليو 1958 كانت الأوامر قد صدرت إلى وحدات من الجيش العراقي من ضمنها اللواء العشرون الذي يقوده عبد السلام عارف بالتحرك نحو الأردن بذريعة مواجهة التهديدات الإسرائيلية. وكانت وحدة هاشمية قد أعلنت قبل أشهر عدة لمواجهة الوحدة السورية - المصرية التي كانت قد أعلنت في شباط فبراير 1958. هنا رأى قاسم وعارف أنه يمكنهما أن يستغلا الموقف للإطاحة بالملكية تحت ستار أن تحرك القوات هو في إطار الانتقال إلى الأردن. وقد قام عارف وقاسم بالتواصل مع عبد الناصر طالبين منه التنسيق معهم إلا أن هذا الأخير نصحهم بالقيام بحركتهم وحدهم حتى لا تفسر حركتهم بأنها عمل استخباري من مصر ضد العراق. إلا أن عبد الناصر وعدهم بتقديم كل الدعم لهم في مواجهة أي محاولة للتدخل البريطاني أو الغربي ضدهم.

وفي صبيحة 14 تموز يوليو 1958 قام عبد السلام عارف بعزل قادة الوحدات المشكوك في ولائهم واحتجزهم وعين بدلاً منهم ضباطاً موالين له ثم بدأ بالتحرك للسيطرة على مقر قيادة الجيش العراقي ووزارة الدفاع ومعسكري الرشيد والشوش، إضافة إلى مؤسسة الهاتف والإذاعة والقصر الملكي وقصر نوري السعيد. وقد سارع عبد السلام عارف شخصياً إلى دار الإذاعة للإعلان عن إطاحة الملكية الهاشمية وإعلان الجمهورية العراقية.¹⁰³ في هذا الوقت كانت قوة من الموالين لعارف تقتحم قصر الملك فيصل الثاني وتطلب منه الاستسلام، فاستجاب الملك الشاب وخرج برفقة خاله وخالته وجدته وزوجة خاله وعدد من أفراد الأسرة المالكة إلى الحديقة فسارع أحد الجنود إلى إطلاق النار عليهم وقتلهم جميعاً.¹⁰⁴ وقد يكون خلف القرار الخوف من قيام بريطانيا بالتدخل وإعادة الملكية إلى العراق كما حدث في العام 1941. في الوقت نفسه كان نوري السعيد قد فرّ من قصره متنكراً بلباس امرأة ولجأ إلى قصر صديقه التاجر الثري محمود الاسترابادي في الكاظمية كما فعل في السابق خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني. لكن عبد السلام عارف أعلن مكافأة مالية لمن يقوم بإدلاء معلومات عن السعيد، فحاول في 15 تموز يوليو الخروج من منزل صديقه والتوجه بسيارة

¹⁰³ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 84 – 85.

¹⁰⁴ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 85.

إلى الحدود الأردنية إلا أن عدداً من المارة كشفوا أمره وأبلغوا عنه فقامت قوة من الجيش بتطويقه وأطلقت النار عليه وأردته قتيلاً. وفي روايات أخرى قيل إن نوري السعيد انتحر بمسدسه الخاص بعدما وجد نفسه محاصراً وخوفاً من أن يتم تعذيبه والتنكيل به.¹⁰⁵

أحدثت الثورة العراقية انقلاباً كبيراً في الموازين الإقليمية في الشرق الأوسط، فلقد أطاحت الهاشميين الذين شكلوا عماد النفوذ البريطاني في المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى. كما أن الثورة وجهت ضربة قاصمة لحلف بغداد وسياسة الأحلاف التي اعتمدها الغرب في المنطقة، إضافة إلى أنها صعدت من نفوذ جمال عبد الناصر ومن خلفه حليفه الجديد الاتحاد السوفياتي. وقد تفجّر غضب القوى الغربية فأرسلت الولايات المتحدة قوات من الأسطول السادس للنزول في بيروت تحت ذريعة منع تمدد الشيوعية، فيما أرسلت بريطانيا قوات مظلية إلى الأردن لمنع انهيار النظام الملكي الهاشمي فيه. في المقابل فلقد أعلن عبد الناصر دعمه للثورة العراقية واعتبر أن أي عدوان تتعرض له سيكون بمثابة عدوان مباشر على الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا). كذلك رحّب الاتحاد السوفياتي بقيادة نيكيتا خروتشيف بالثورة العراقية وأعلن استعداد بلاده للتعاون معها في كافة المجالات.

دستور العراق أثناء الحكم الملكي

في العام 1925 صدر الدستور العراقي الأول أثناء الحكم الملكي وتميّز بالقيم الليبرالية التي حملها بتأثير من الاحتلال البريطاني وجاء فيه:

المادة الأولى يُسمّى هذا القانون (القانون الأساسي العراقي) وأحكامه نافذة في جميع أنحاء المملكة العراقية.

المادة الثانية: العراق دولة ذات سيادة مستقلة حرة. ملكها لا يتجزأ، ولا يتنازل عن شيء منه، وحكومته ملكية وراثية، وشكلها نيابي.

المادة الثالثة: تعتبر مدينة بغداد عاصمة العراق، ويجوز عند الضرورة اتخاذ غيرها عاصمة بقانون.

¹⁰⁵ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 85.

المادة الرابعة: يكون العلم العراقي على الشكل والأبعاد الآتية:

طوله ضعفا عرضه ويقسم أفقياً إلى ثلاثة ألوان متساوية ومتوازية، أعلاها الأسود فالأبيض فالأخضر، على أن يحتوي على شبه منحرف أحمر من جهة السارية تكون قاعدته العظمى مساوية لعرض العلم، والقاعدة الصغرى مساوية لعرض اللون الأبيض، وارتفاعه ربع طول العلم، وفي وسطه كوكبان أبيضان ذوا سبعة أضلاع يكونان على وضع عمودي يوازي السارية. أما أوضاع العلم وشعار الدولة وشاراتها ورتبها فتعين بقوانين خاصة.

المادة الخامسة: تعين الجنسية العراقية، وتكتسب، وتُفقد، وفقاً لأحكام قانون خاص.

المادة السادسة: لا فرق بين العراقيين في الحقوق أمام القانون، وإن اختلفوا في القومية، والدين، واللغة.

المادة السابعة: الحرية الشخصية مصونة لجميع سكان العراق من التعرّض والتدخل، ولا يجوز القبض على أحدهم، أو توقيفه، أو معاقبته، أو إجباره على تبديل مسكنه، أو تعريضه لقيود، أو إجباره على الخدمة في القوات المسلحة إلا بمقتضى القانون، أما التعذيب، ونفي العراقيين إلى خارج المملكة العراقية، فممنوع بتاتاً.

المادة الثامنة: المساكن مصونة من التعرّض، ولا يجوز دخولها، والتحري فيها، إلا في الأحوال والطرائق التي يعينها القانون.

المادة التاسعة: لا يُمنع أحد من مراجعة المحاكم، ولا يُجبر على مراجعة محكمة غير المحكمة المختصة بقضيته إلا بمقتضى القانون.

المادة العاشرة: حقوق التملك مصونة، فلا يجوز فرض القيود الإجبارية، ولا حجز الأموال والأموال، ولا مصادرة المواد الممنوعة، إلا بمقتضى القانون. أما السخرة المجانية، والمصادرة العامة للأموال المنقولة وغير المنقولة، فممنوعة بتاتاً. ولا يُنزع ملك أحد إلا لأجل النفع العام في الأحوال وبالطريقة التي يُعينها القانون، وبشرط التعويض عنه تعويضاً عادلاً.

المادة الحادية عشرة: لا تُفرض ضريبة إلا بمقتضى قانون تشمل أحكامه جميع الصنوف.

المادة الثانية عشرة: للعراقيين حرية إبداء الرأي، والنشر، والاجتماع، وتأليف الجمعيات والانضمام إليها، ضمن حدود القانون.

المادة الثالثة عشرة: الإسلام دين الدولة الرسمي، وحرية القيام بشعائره المألوفة في العراق على اختلاف مذاهبه محترمة لا تُمسّ، وتُضمن لجميع ساكني البلاد حرية الاعتقاد التامة، وحرية القيام بشعائر العبادة، وفقاً لعاداتهم ما لم تكن مخلة بالأمن والنظام، وما لم تنافِ الآداب العامة.

المادة الرابعة عشرة: للعراقيين الحق في رفع عرائض الشكوى، واللوائح في الأمور المتعلقة بأشخاصهم، أو بالأمور العامة، إلى الملك، ومجلس الأمة، والسلطات العامة، وبالطريقة وفي الأحوال التي يعيّننها القانون.

المادة الخامسة عشرة: تكون جميع المراسلات البريدية والبرقية، والتلفونية، مكتومة ومصونة من كل مراقبة وتوقيف، إلا في الأحوال والطرائق التي يعيّننها القانون.

المادة السادسة عشرة: للطوائف المختلفة حق تأسيس المدارس لتعليم أفرادها بلغاتها الخاصة، والاحتفاظ بها على أن يكون ذلك موافقاً للمناهج العامة التي تُعيّن قانوناً.

المادة السابعة عشرة: العربية هي اللغة الرسمية سوى ما يُنص عليه بقانون خاص.

المادة الثامنة عشرة: العراقيون متساوون في التمتع بحقوقهم، وأداء واجباتهم، ويعهد إليهم وحدهم بوظائف الحكومة بدون تمييز، كل حسب اقتداره وأهليّته، ولا يُستخدم في وظائف الحكومة غير العراقيين إلا في الأحوال الاستثنائية التي تُعيّن بقانون خاص.

ويستثنى من ذلك الأجانب الذين يجب أو يجوز استخدامهم بموجب المعاهدات والمقاولات.¹⁰⁶

¹⁰⁶ راجع القانون الاساسي العراقي لعام 1925 على موقع المحكمة الدستورية العراقية /<https://www.hjc.iq/view.86/>

الفصل الرابع

فلسطين والأردن 1920 – 1958

سيرتبط تاريخ الأردن وفلسطين في القرن العشرين بالنضال ضد الحركة الصهيونية التي كانت قد بلورت مشروعها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كحركة قومية يهودية متطرفة، والتي كانت قد أزمعت إقامة وطن قومي لليهود في العالم على أرض فلسطين. وقد توافقت مشاريع الحركة الصهيونية مع الأهداف الجيوسياسية لدولتين عظميين بالدرجة الأولى هما بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأميركية. وسيشكل العالم الانغلو سكسوني بالدرجة الأولى والغربي بالدرجة الثانية الدعامة الأساسية للمشروع الصهيوني في منطقة الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن التاريخ الرسمي للحركة الصهيونية يبدأ في العام 1897 مع عقد مؤتمر بازل بقيادة مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل، إلا أن مجموعات صهيونية كانت قد تشكلت في وقت سابق على ذلك التاريخ وبدأت بإنشاء مستوطنات في منطقة الجليل في فلسطين بدءاً من العام 1870. والجدير ذكره أن الحركة الصهيونية وجدت جذورها في حركة الإصلاح الدينية البروتستانتية في أوروبا في القرن السادس عشر والتي سعت في تحديها لسلطة الكنيسة الكاثوليكية أن تعود إلى الانجيل والتوراة وتنظر إليهما لا على أنهما كتابان دينيان يعتمدان نصاً رمزياً بل على أنهما كتابا تاريخ للشعب اليهودي الذي بدأ اليهود وغير اليهود ينظرون إليه لا على أنه دين لأقوام متعددة بل على أنه شعب واحد تشتت في مختلف أصقاع الأرض ويجب أن يعود إلى فلسطين.

نشوء الحركة الصهيونية

وقد سبق وظهرت حركات بين اليهود تدعو "ألى العودة إلى أرض الميعاد" منذ القرن السابع عشر. ففي العام 1648 قام يهودي من رعايا السلطنة العثمانية اسمه شبطاي زئيفي بزعم أنه المسيح المخلص الذي سيُعيد اليهود إلى أرض الميعاد. وقد أدّت حركة زئيفي إلى بلبلة كبيرة في صفوف يهود السلطنة واليهود الأوروبيين الذين بدأوا ببيع ما يملكونه والتوجّه إلى فلسطين. وقد انتهت هذه الحركة حين احتجّ كهنة الطائفة اليهودية وحاخامتها أمام السلطان مراد الرابع الذي استقدم

شبطاي زئيفي وهدده بفرض الحد اليهودي عليه، كما كانت تقتضي أحكام النظام المالي. عندها أشهر زئيفي إسلامه واتخذ اسماً آخر. والجدير ذكره أن حركة زئيفي توافقت مع اشتداد حملة محاكم التفتيش في أوروبا وخصوصاً في إسبانيا والتي أدت إلى تصفية الوجود اليهودي والعربي المسلم نهائياً من إسبانيا. وفي العام 1868 قام اليهودي اليميني يهوذا بن شالوم بقيادة حشد كبير من اليهود اليمينيين للهجرة من اليمن والاستقرار في فلسطين. وقد سجل في ذلك الوقت هجرة يهود جزائريين وكازاخستانيين إلى فلسطين. والجدير ذكره أنه في جميع هذه الحالات كانت المناطق والبلدان التي يأتي منها اليهود باتجاه فلسطين عرضة لأزمات عميقة. ففي ذلك الوقت كانت اليمن عرضة لصراع بريطاني عثماني أثر سلباً على حركة التجارة فيها والحياة الاقتصادية بشكل عام. أما في الجزائر فكانت البلاد تعاني نتيجة توسع عمليات الاستعمار والاستيطان الفرنسي، وهو الحال نفسه الذي كان سائداً في كازاخستان التي كانت تشهد محاولات روسية حثيثة لاحتلالها والسيطرة عليها.¹⁰⁷

والجدير ذكره أن عماد الحركة الصهيونية سيكون في البداية يهود أوروبا الذين كانوا يعانون من مختلف أنواع الاضطهاد منذ العصور الوسطى على يد الكنيسة الكاثوليكية والممالك الأوروبية المختلفة. وقد تعمقت حركة اضطهاد اليهود في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حيث أجبر اليهود في مدينة البندقية على العيش في حي خاص بهم مفصول عن باقي المدينة عُرف بالغيتو. وخلال القرن السادس عشر، وبعد سقوط الأندلس في يد ملكي قشتالة واراغون إيزابيلا وفرديناند تعمق اضطهاد اليهود خصوصاً بعد تأسيس محاكم التفتيش التي كانت تسعى لتنصير اليهود بالقوة، وقد امتدت هذه الحركة إلى إيطاليا التي شهدت أيضاً اضطهاداً ممنهجاً لليهود. لكن يهود أوروبا سيجدون بيئة حاضنة لهم بدءاً من القرن السادس عشر في شمال أوروبا خصوصاً في ظل انتشار الحركة البروتستانتية لسببين، الأول هو اعتماد البروتستانتية في انتشارها على المراكز التجارية والمالية التي نشأت في تلك المنطقة نتيجة ازدهار حركة التجارة في البلطيق، وعداء البروتستانتية للكنيسة الكاثوليكية والبابا الذين كانا يديران عملية اضطهاد اليهود. وقد وجدت البورجوازية الأوروبية الناشئة في اليهود الأثرياء حليفاً لهم خصوصاً لتاريخهم الطويل في تعاطي شؤون الصياغة والمال. والجدير ذكره أن عصر الأنوار الأوروبي في القرن الثامن عشر سيساهم في صعود حركة تنويرية بين اليهود دعت إلى التمرد على سلطة الحاخامات على المجتمعات اليهودية وإلى تحرير اليهود من الغيتو ودمجهم في المجتمعات الأوروبية. وقد دعت

¹⁰⁷ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة في الصراع العربي - الصهيوني: جذور الصراع وقوانينه الضابطة 1799 - 1949، بيروت: مركز دراسات لوحدة العربية، 2008، ص.ص. 97 - 106.

حركة التنوير اليهودية هذه بالهسكالا. وكان أول بلد أوروبي يعترف بحقوق لليهود مساوية لباقي المواطنين هو فرنسا في ظل الثورة التي كانت قد قلبت نظام الحكم الملكي في العام 1789 لتعترف بحقوق اليهود بالمواطنة في العام 1791. وستنتظر بريطانيا حتى العام 1856 لتعترف بالحقوق الكاملة في المواطنة لليهود وتتبعها ألمانيا في العام 1871.

لكن نهاية القرن العشرين ستشهد ركوداً سيضرب أوروبا وسيمتدّ حتى الحرب العالمية الأولى. وقد ترافق هذا الركود مع ترسيخ الكيانات القومية التي استندت إلى مفهوم الدولة الأمة في أوروبا والتي ستؤدي إلى إعادة تشكيل مفهوم الهوية على أساس قومي ووطني. وقد ترافقت هذه الحركة مع اكتشافات علمية جغرافية وبيولوجية كان أبرزها إطلاق العالم داروين نظريته حول ارتقاء الأجناس والتي يعتبر فيها أن الأجناس تنشأ وتتطور عبر التكيف مع المتغيرات البيئية وتموت حين لا تستطيع التكيف. وقد تأثر الكثير من علماء العلوم الإنسانية وتحديدًا علماء الاجتماع الذين كانوا قد أطلقوا اختصاص علم الاجتماع في أواخر ذلك القرن بطروحات داروين واعتبروها تنطبق على "الأعراق البشرية"، وبالتالي فلقد اعتبروا أن التمايز بين الشعوب هو تمايز عرقي يعكس درجات من التطور، وبالتالي فلقد قاموا بإسقاط العرق على الشعوب التي اعتبروها أعراقاً مختلفة. وبالتالي فلقد اعتبر الشعب الفرنسي والألماني والبريطاني وغيرها شعوباً تتحدر من أعراق "متطورة" نتيجة التطور الذي حققته في مجال الاقتصاد والعلوم والأهم السيطرة على الشعوب الأخرى التي اعتبرت شعوباً أقل تطوراً عرقياً ما يُبرّر الهيمنة عليها. وقد تم إسقاط هذا البعد على اليهود الذين اعتبروا عرقاً سامياً مختلفاً عن الأعراق الأوروبية من الأصل "الهندو أوروبي". وقد أصبح هذا مصدراً جديداً للتمييز تجلّى أكثر ما تجلّى في قضية الظلم الذي تعرّض له الضابط الفرنسي اليهودي دريفوس الذي حوكم بتهمة التجسس لصالح ألمانيا قبل أن تثبت براءته. وقد أدّى هذا إلى موجة استنكار عامة في أوروبا وإلى صدمة في أوساط اليهود المتنوّرين الذين ما عادوا ينادون بالاندماج بالمجتمعات التي يعيشون فيها بل بدأوا بالمطالبة بأن يكون لهم وطن قومي. وبما أنهم استندوا إلى التوراة لا على أساس أنه كتاب ديني بل على أساس أنه وثيقة تاريخية فلقد شكلت فلسطين محور المشروع الصهيوني بصفتها أرض الميعاد التي طرد منها اليهود.

في هذا الوقت في أوروبا الشرقية كانت الإمبراطورية الروسية تشهد بدايات التغلغل الرأسمالي فيها وبدايات تصدع النظام الإقطاعي التقليدي الذي يتمحور حول الملكية والنبلاء الروس والكنيسة الأرثوذكسية. وكان عماد هذا التحول هو طبقة بورجوازية ناشئة في المدن تعتمد على التجارة والصناعة التي كانت في بداياتها في الإمبراطورية الروسية. وقد وجد اليهود في هذه الطبقة

البورجوازية الناشئة حليفاً طبيعياً لهم بحكم تعاطيهم التاريخي بقضايا الصياغة والمال، وقد أصبحت الطبقة البورجوازية في المدن هي عماد التمرد على المجتمع التقليدي الروسي المتشكل من الملكية والإقطاع والكنيسة الأرثوذكسية، وقد عبرت حركات التمرد عن نفسها بتيارات قومية واشتراكية ستنتشر بالدرجة الأولى في مدينتي موسكو وسانت بطرسبورغ. وبما أن اليهود كانوا جزءاً من حركة التمرد الاجتماعية هذه فلقد انضم كثيرون منهم إلى الحركات القومية الليبرالية والاشتراكية ما يفسّر أن كثيرين من قادة الثورة الليبرالية التي حدثت ضد القيصرية في شباط فبراير 1917 ومن ثم الثورة البولشفية في تشرين الثاني نوفمبر 1917 كانوا من اليهود. بنتيجة ذلك فلقد تحوّلت محاولات قمع حركات التمرد الاجتماعية هذه من قبل السلطات القيصرية إلى حملة عنصرية منظمة من اضطهاد اليهود طبعت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر في الإمبراطورية الروسية ما سيؤدي إلى هجرة يهودية واسعة منها باتجاه ألمانيا والنمسا في وسط أوروبا ما سيساهم لاحقاً في نشوء الحركات الفاشية المعادية لليهود في هذين البلدين.

لاقت المجموعات الصهيونية عطفاً في العالم الغربي منذ نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر خصوصاً في فرنسا في ظل الثورة الفرنسية، حيث كان الإمبراطور نابليون بونابارت أول من فكر في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. لكن بعد أربعة عقود كانت بريطانيا ستحوّل إلى القوة الاستعمارية الأولى الداعمة لفكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد ترافق ذلك مع حركة الإحياء البروتستانتي في العالم الانغلو ساكسوني والتي شهدت صعوداً جديداً للأصولية البروتستانتية في بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا، والتي كانت ستركز على البعد النصي للإنجيل والتوراة والنظر إليهما على أنهما يشكلان وثيقة تاريخية لا نصاً دينياً رمزياً. وقد نتج عن ذلك في العام 1838 افتتاح قنصلية بريطانية في القدس، تلاها في العام 1839 إرسال كنيسة اسكتلندا لبعثة إلى القدس لتحري أحوال اليهود هناك. وقد أصدرت البعثة توصية إلى ملوك أوروبا للعمل على "إعادة اليهود" إلى فلسطين. وقد كثرت المراسلات خلال القرن التاسع عشر بين مجلس اللوردات والحكومة البريطانية من جهة والقنصلية البريطانية في القدس من جهة أخرى وتمحورت حول إعادة اليهود إلى فلسطين. وفي العام 1877 كتب اللورد ديزرايلي وهو لورد يهودي سيصبح أول رئيس وزراء يهودي لبريطانيا بأن المسألة اليهودية ترتبط بعودة اليهود إلى فلسطين وأنه خلال خمسين سنة يجب العمل على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يتجمع فيه نحو مليون يهودي وذلك تحت حماية بريطانيا العظمى.

في أواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر مؤل أثرياء يهود من عائلتي روتشيلد ومونتيفوري إقامة أول مستوطنة يهودية لمهاجرين روس في الجليل في فلسطين. وقد لاقى هؤلاء اليهود معارضة شديدة من الطائفة اليهودية الحريدية التي كانت تعيش في القدس لسبب ديني هو اعتبارها أن عودة اليهود إلى فلسطين لا يجب أن تتم قبل ظهور المسيح المخلص من ناحية ولأسباب اقتصادية تعود إلى اعتماد هذه الطائفة الفقيرة على المساعدات التي كانت تأتيها من أوروبا وخوفها من تحويل هذه المساعدات إلى المستوطنين اليهود. بالتوازي مع ذلك فلقد ظهرت حركة بين يهود شمال أفريقيا المسمون السفارديم للهجرة إلى فلسطين وذلك بتمويل من أثرياء يهود مغاربة، وذلك منذ بدايات القرن التاسع عشر باتجاه مدينة يافا في فلسطين حيث اختلطت مع يهود أتوا من شرق أوروبا. وفي العام 1878 تأسست أولى المستوطنات الكبيرة في فلسطين في بتاح تيكفا وروش بينا. في العام 1882 نفذت السلطات القيصريّة حملة منظمة ضد اليهود في روسيا ما أدى إلى هرب مئات الآلاف منهم من أراضي الإمبراطورية وقد وصلت أعداد من هؤلاء اليهود إلى يافا إلا أنهم واجهوا ضائقة اقتصادية دفعت معظمهم إلى الرحيل عن أرض فلسطين إلى الولايات المتحدة، إلا أن من بقي من هؤلاء المهاجرين أسس مستعمرة أو مستوطنة ريشون ليتزيون ومستوطنة زيوخرون ياكوف. وفي الوقت نفسه بدأ مهاجر يهودي من أوروبا الشرقية هو اليعازار بن يهودا بالعمل على تحديث اللغة العبرية لتصبح لغة المستوطنين اليهود في الأراضي الفلسطينية. ومع نهاية القرن التاسع عشر كان تعداد سكان فلسطين نحو ست مئة ألف نسمة من المسلمين والمسيحيين وعدد من اليهود من نحو 60 ألف يهودي.¹⁰⁸

مع نهاية القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية في مرحلة من الضعف الشديد، وكانت قد فقدت ولاياتها في شمال أفريقيا باستثناء ليبيا، إضافة إلى فقدانها معظم ولاياتها في البلقان باستثناء ألبانيا ومقدونيا وتراقيا، ومعظم ولاياتها في القوقاز باستثناء أرمينيا، إضافة إلى فقدانها سيطرتها العملية منذ زمن طويل على مشيخات الخليج ومنطقة نجد. وكان الجميع يتحدث عن قرب اختفاء هذه الدولة عن الخريطة. وكانت الدولة العثمانية التي باتت تقتصر آنذاك على ألبانيا ومقدونيا وتراقيا والأناضول وأرمينيا والهلل والخصيب والحجاز واليمن الشمالي تعاني من أزمة اقتصادية خانقة ومديونية عالية لصالح فرنسا بالدرجة الأولى وأيضاً لصالح بريطانيا. وكانت أجهزة الدولة نفسها تدار من قبل أجانب إذ كان سلاح البحرية يدار من قبل ضباط إنكليز فيما كان جهاز الشرطة يُدار من قبل ضباط فرنسيين، أما الجيش فكان بقيادة ضباط ألمان. في ظل هذه

¹⁰⁸ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص. 210.

الظروف وجدت المجموعات الصهيونية فرصة لعقد مؤتمرها في بازل في العام 1897 مع إعلانها النية لإظهار نياتها بتوطين اليهود في أرض فلسطين وإقامة وطن قومي لهم هناك. وقد لعب الصحافي اليهودي النمساوي تيودور هرتزل دوراً رئيسياً في عقد المؤتمر. وكان هرتزل صحافياً تأثر كثيراً بقضية الضابط الفرنسي دريفوس ما جعله مقتنعاً بضرورة أن يكون لليهود وطن قومي خاص بهم. لذا فلقد أصدر كتابه "الدولة اليهودية" في العام 1896 اتبعه بكتاب آخر بعنوان "الأرض القديمة الجديدة" في العام 1902. وقد اعتبر هرتزل في كتابه الأول أن قضية دريفوس هي التي أقتنعت به ضرورة أن يكون لليهود كيان خاص بهم لأن المجتمعات الغربية لن تقبل بهم أبداً.¹⁰⁹ وفي العام 1897 كان مؤتمر بازل في سويسرا قد عقد وصدر عنه مقررات تضمنت:

- إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.
- دعم المستوطنات الزراعية اليهودية في فلسطين إضافة إلى دعم الحرفيين والصناعيين اليهود.
- تدعيم الوعي بالهوية الوطنية اليهودية.
- السعي لإقناع الحكومات المختلفة بالأهداف الصهيونية بغية تحقيق الهدف بإقامة وطن قومي يهودي.

وقد أقرّت هيكلياً للمنظمة الصهيونية مع تنظيم اجتماعات سنوية لمتابعة جدول الأعمال الذي كان يعدل كل عام.¹¹⁰

ما أن أنهى تيودور هرتزل كتابه مؤلفه الأول حتى لاقى تأييداً من دوائر يهودية مختلفة حول العالم كان من ضمنها تأييد مهاجر بولندي إلى الدولة العثمانية هو الكونت فيليب ميكال نيولينسكي الذي سعى لتنظيم لقاء بين هرتزل والسلطان عبد الحميد، إلا أن هذا اللقاء لن يحصل قبل خمس سنوات من ذلك التاريخ، إلا أن الكونت تمكن من الاستحصال لهرتزل على وسام من رتبة فارس من السلطان العثماني. وقد التقى هرتزل في العام 1896 بالصدر الأعظم العثماني وعرض عليه منح فلسطين لليهود في مقابل تسوية ديون الدولة العثمانية للدول الغربية، وقد كرّر عرضه هذا للسلطان عبد الحميد شخصياً في العام 1901 إلا أن السلطان رفض. هذا دفع بهرتزل إلى

¹⁰⁹ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 106 - 108.

¹¹⁰ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 155 - 158.

البحث عن بديل في القارة الأميركية وفي أفريقيا حيث ظهرت اوغندة كوجهة محتملة لليهود لإقامة دولتهم هناك، إلا أن هذا الخيار لم يلق تأييداً من معظم الدوائر الصهيونية التي كانت لا تزال تتحيز الفرص للاستئثار بفلسطين.¹¹¹

التحولات في الدولة العثمانية وعلى الصعيد الدولي

في العام 1905 وقعت ثورة في الإمبراطورية الروسية بعد الهزائم التي مُنيت بها على يد اليابان في العام السابق. لكن السلطات القيصرية تمكنت من قمع هذه الثورة واتبعتها بموجة اضطهاد لليهود الذين انضوى كثيرون منهم في صفوف الثورة ضد السلطات القيصرية. هذا أدى إلى موجة هجرة جديدة من أراضي الإمبراطورية الروسية باتجاه وسط أوروبا وغربها. وقد اتجه جزء من هؤلاء اليهود إلى أرض فلسطين وقد أسس عدد من هؤلاء اليهود المهاجرين بلدة سموها تل أبيب، فيما أسس آخرون الجامعة العبرية في القدس إضافة إلى عدد من المدارس. وفي العام 1909 تأسست أول مستوطنة تعاونية في الجليل بالقرب من طبرية هي كيبوتز ديغانيا. وقد تأثرت جماعة الهجرة الثانية بالمثل الاشتراكية نتيجة احتكاكهم بالتيارات الماركسية في روسيا ما جعلهم يعتمدون نماذج اشتراكية في المستوطنات الزراعية التي أقاموها. في هذا الوقت كان هرتزل قد توفي وخلفه في زعامة الحركة الصهيونية الدكتور في الكيمياء حاييم وايزمان.

في العام 1914 اندلعت الحرب العالمية الأولى، وقد اختارت الدولة العثمانية التي كانت قد أضحت تحت حكم جمعية الاتحاد والترقي بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد، أن تنضم إلى ألمانيا والنمسا في حربهما ضد بريطانيا وفرنسا والإمبراطورية الروسية. وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد اختارت اعتماد مشروع قومي طوراني عنصري ما أدى إلى تعميق الحركة الاستقلالية بين السكان العرب في الإمبراطورية والذين كانت قد بدأت تتغلغل في صفوفهم الأفكار القومية العربية. القومية العربية ترجع بدايتها كتيار سياسي إلى العام 1798، تاريخ حملة نابليون بونابرت على مصر. والتي كان لها كبير الأثر في زعزعة ثقة المسلمين بنظامهم السياسي لأول مرة، حيث تعرّفوا عن طريقها إلى أفكار وقيم جديدة لم يعرفوها من قبل. وكان القرن الثامن عشر بداية تفقه وترجع الإمبراطورية العثمانية وضعفها، خاصة على المستوى العسكري، بعد أن نجحت في ما سبق في الدفاع وحماية الأراضي الإسلامية ضد الأطماع التوسعية للغرب، الأمر الذي دفع بالنخب الفكرية

¹¹¹ عوني فرسخ، التحدي والاتساجبة، ص.ص. 108 - 109.

والسياسية فيها إلى أن تكون واعية لهذه التطورات، وأن الوقت قد حان لبدء التغيير. وترجع بدايات محاولات التجدد العثماني إلى القرن الثامن عشر، حيث عملت الحكومات العثمانية على إيجاد طرق وحلول تستطيع من خلالها استعادة تفوقها وقوتها العسكرية للوقوف في وجه الأطماع الغربية، وذلك من خلال البعثات العسكرية التي أوفدتها إلى أوروبا. إلا أن هذه البعثات لم تحقق الغاية المرجوة منها، وذلك بسبب نُدرتها واقتصارها على النخب العسكرية. وقد ساهمت حملة نابليون في تعرّف العرب المصريين على القيم الغربية من خلال اتصالهم المباشر معهم، مثل: المساواة والحرية والتي كان لها دور في جذب العلماء إلى هذه الأفكار، وفتحت المدارس والأكاديميات التي جاءت متوافقة مع المنهج الفرنسي. وكانت هذه هي أهداف الحملة، التي صرّح عنها بونابرت.

وبعد بونابرت، تسلّم مقاليد الحكم في مصر محمد علي باشا، حيث عمل على استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية، وذلك عن طريق أخذ موافقة المصريين وتأييدهم له، وبنى شعاراته على ضرورة استقلال البلدان العربية من الحكم العثماني. وانتشر بعدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الشعور بالقومية العربية وبشكل خاص في سوريا، وذلك لعوامل عدة. وكان التطور الذي حصل في مجالي الثقافة والتاريخ بالغ الأثر في جعل العرب يفخرون بهويتهم العربية. كما أن الضعف الذي أصاب جسم الإمبراطورية العثمانية وتراجع هيمنتها، كان سبباً في انتشار القيم الغربية، بالإضافة إلى الأفكار القومية التي انتشرت أيضاً وسط الشعوب الواقعة تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية. فضلاً عن الدور المهم للمسيحيين العرب في عملية إحياء الهوية العربية والمحافظة عليها. وفي العام 1908، زاد التأييد والانتشار للقومية العربية على إثر حادثة انقلاب "جمعية الاتحاد والترقي" التركية، التي كانت سبباً في عودة العمل بالدستور الذي سبق وأصدره من قبل السلطان عبدالحميد في العام 1876، وبموجبه تولّت "جمعية الاتحاد والترقي" مقاليد السلطة. وقد ازداد التأييد لفكرة القومية العربية، بسبب السياسات التي انتهجتها "جمعية الاتحاد والترقي"، حيث عمدت إلى فرض الهوية التركية على جميع الشعوب التي تقع تحت سيطرتها، وبشكل خاص بعد الهزائم التي مُنيت بها في منطقة البلقان عامي 1912-1913، والتي كانت سبباً في إحداث ردة فعل في الأوساط القومية التركية ودفعها إلى المحافظة على ما بقي من الإمبراطورية العثمانية. لكن، سياسة "التريك" هذه، كانت دافعاً قوياً للعرب لاتخاذ موقف معارض وقوي

ضدها، فعملوا على تنظيم أنفسهم ضمن هيئات اجتماعية ومجموعات، طالبت بعضٌ منها بالحكم الذاتي، والبعض الآخر طالب بالاستقلال التام عن الحكم العثماني.¹¹²

عملت الحرب العالمية الأولى في الإسهام في فتح مرحلة جديدة في ما يتعلق بتاريخ القومية العربية. وكانت فترة حكم جمال باشا "الحاكم العسكري العثماني" في سوريا، سبباً في تعزيز فكرة الحركة القومية العربية.¹¹³ لذا قام البريطانيون والفرنسيون بالتعاون مع ناشطين ومفكرين عرب، في إعداد ثورة وتنظيمها في سوريا، حيث كان يفترض قيامها مع حدوث غزو فرنسي - إنكليزي لمنطقة الساحل السوري. لكنها فشلت بسبب قيام جمال باشا بالعمل على نقل القوات العربية إلى شبه جزيرة "غاليبولي"، بالإضافة إلى اتخاذه تدابير.¹¹⁴ الأمر الذي كان سبباً في إشعال فتيل الثورة في منطقة الحجاز في العاشر من يوليو/تموز سنة 1916، بقيادة حاكم مكة الشريف حسين.¹¹⁵

تمكّن الشريف حسين والقوميون العرب وبالتعاون مع الحلفاء من أن يسيطروا سيطرتهم على جميع الأراضي العربية التي كانت واقعة سابقاً تحت النفوذ العثماني. لكن الأمر لم يتوقف هنا، فسرعان ما نشب صراعٌ وخلاف مصالح بين الفرنسيين والبريطانيين من ناحية، وبين الشريف حسين من ناحية أخرى، يُضاف إليها الصراع القائم بين البريطانيين والفرنسيين في ما بينهم على تقاسم مناطق النفوذ، الأمر الذي حال دون تحقيق القوميّين العرب حلمهم في إقامة دولتهم القومية ضمن الأراضي العربية التي كانت واقعة تحت الحكم العثماني.¹¹⁶ لكن العرب لم يوافقوا على ما أصاب بلدانهم من تجزئة وتقسيم، فظلت شريحة كبرى منهم تتطلع إلى إقامة دولة موحدة.¹¹⁷ ونرجع هنا إلى ما قاله جون كوتسكي عن "الحدود التي نجمت عن الاستعمار والتي اتخذت شكل

Laurens, Henry: *l'Orient Arabe, Arabisme et Islamisme de 1798 à 1945*, Armand Colin, Paris, 2000. ¹¹²
p.132

¹¹³ المصدر نفسه ص. 133.

Tibawi: *A Modern History of Syria*, Macmillan St Martin, 1st edition, London, 1969, p.231. ¹¹⁴

¹¹⁵ قدرى قلججي، الثورة العربية الكبرى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 1993 ص. 229

¹¹⁶ بين عامي 1918 و1920 خاض السوريون نضالاً ضد المطامع الفرنسية والبريطانية ولغرض إرادتهم بإقامة مملكة عربية بقيادة الملك فيصل. وقد انتهى هذا النضال بمعركة ميسلون واحتلال الفرنسيين دمشق في يوليو من العام 1920.

Ajami, Fouad: *The End of Pan Arabism*, Foreign Affairs, vol 11, No 2, 1978/9, p.335. ¹¹⁷

دول قومية بالمعنى القانوني، ولكن ليس بمعنى الأوطان". الأمر الذي أدّى إلى قيام ما يُعرَف بـ "القومية الإدارية".¹¹⁸

ما إن انتزعت سوريا من السلطنة العثمانية حتى سارع الأمير فيصل إلى فرض حكمه على دمشق، مطالباً بمملكة تضم بلاد الشام كاملة، تكون عاصمتها دمشق، على أن تشمل ولاية حلب ودير الزور ودمشق إضافة إلى جبل لبنان وفلسطين. وتمكّن فيصل، في البداية، من تحقيق معظم أهدافه باستثناء فرض حكمه على لبنان وفلسطين، إذ منعه الفرنسيون من مدّ سلطته إلى جبل لبنان ومنطقتي بيروت وطرابلس في حين حال البريطانيون دون بسط سلطته على فلسطين. وبما أن الحرب انتهت، بات الفرنسيون يطمحون إلى نيل حصتهم من غنائم الحرب في المشرق. ووفقاً لاتفاق سايكس - بيكو، شمل النفوذ الفرنسي ما سيُعرف لاحقاً بلبنان الكبير وسوريا وكيليكي وولاية الموصل، شمال العراق. بعد ذلك تخلى الفرنسيون عن كيليكي لمصطفى كمال وعن الموصل للبريطانيين، ليكتفوا بلبنان وسوريا، ورفضوا الاعتراف بحكومة فيصل. ومع حلول تموز/يوليو 1920 اجتاحت دمشق وفرضوا الانتداب على لبنان وسوريا.¹¹⁹ وما إن احتل الفرنسيون سوريا حتى بدأوا بفرض تصوراتهم لخريطتها السياسية الجديدة. وقد اعتمدت السياسة الفرنسية على تعزيز وضع المسيحيين كحلفاء وشركاء اقتصاديين في المنطقة. وحدّد هذا تصوّرهم لسوريا على أنها مجتمع مشرّم بحسب المجموعات الطائفية، فقسموها بالتالي دويلات عدة، فأنشأوا دولة جبل الدروز في منطقة جبل حوران، ودولة علوية على الساحل لمنع السنة من الوصول إلى المتوسط، ودولتين سنيّتين واحدة في دمشق وأخرى في حلب، بهدف خدمة سياستهم الاستعمارية القائمة على مبدأ فرق تسد.¹²⁰ وحاول الفرنسيون إثارة النعرات الطائفية عقب احتلالهم سوريا لتبرير وجودهم فيها وانتدابهم عليها.¹²¹

¹¹⁸ كلوتسكي كما ورد في Bassam Tibi, *Arab Nationalism, a critical enquiry*, Tr. par Marion Farouk-Shiyett et Peter Sniggett, MacMillan Press, London, 1981, p.19.

¹¹⁹ Zeine Zeine, *the struggle for Arab Independence*, Beirut: Khayat, 1960.

¹²⁰ نصري الصايغ: عبد الحميد كرامي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص. 121 - 120

¹²¹ Michael Province: *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism*, Austin: University of Texas Press, 2005. P. 17.

الحركة الصهيونية والحرب العالمية الأولى

على أعتاب الحرب العالمية الأولى كانت الحركة الصهيونية قد حققت انتشاراً واسعاً في صفوف التجمّعات اليهودية في العالم. وكانت الدوائر الصهيونية قد تعرّزت خصوصاً في الولايات المتحدة التي لجأ إليها أثرياء اليهود ووظفوا أموالهم في القطاع المصري هناك وصولاً إلى السيطرة عليه. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى أبدى زعماء الصهيونية العالمية استعدادهم لمساعدة من يدعم طموحاتهم في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين. وبما أن ألمانيا والنمسا كانتا متحالفتين مع الدولة العثمانية التي كان سلطانها قد رفض إعطاء هرتزل فلسطين، فلقد مال الصهاينة إلى صف الحلفاء وعززوا علاقاتهم بكبار المسؤولين الفرنسيين والبريطانيين والأميركيين، وكان من أبرز هؤلاء اللورد آرثر بلفور الذي سيصدر وعده الشهير للصهاينة بإعطائهم فلسطين في رسالة أبرق بها إلى اللورد روتشيلد في 2 تشرين الثاني نوفمبر 1917. وقد جاء في الرسالة أن:

«تتظر حكومة صاحبة الجلالة بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر».¹²²

وقد جاء الوعد الشهير بعد أسابيع قليلة من اختراق الجنرال اللنبي دفاعات الجيش العثماني في العريش واحتلاله مدينة القدس. وكان أحد أسباب صدور القرار، إضافة إلى تعاطف اللورد بلفور والقيادات البريطانية مع الحركة الصهيونية، هو مكافأة الصهاينة في الولايات المتحدة على الدور الذي لعبوه في إقناع واشنطن بالدخول في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء.

فلسطين تحت الانتداب البريطاني

في أواخر العام 1918 كانت الدولة العثمانية قد هُزمت وبركان صراع قد بدأ بين العرب من جهة والبريطانيين والفرنسيين من جهة أخرى. وكان الأمير فيصل بن الحسين قد احتلّ دمشق بقواته وأرسل بيارقه إلى بيروت. لكن الفرنسيين الذين كانوا قد أنزلوا قواتهم على الساحل اللبناني

¹²² عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 248 - 249.

عرقلوا مساعي فيصل لفرض سلطته على لبنان. بعد أشهر قليلة في بداية العام 1919 عقد المؤتمر السوري العام الذي أعلن سوريا بما فيها سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وكيليكيّا مملكة بقيادة فيصل الذي اختير ملكاً عليها. لكن فرنسا رفضت مقرّرات المؤتمر مطالبة بالحصة التي اتفقت عليها مع بريطانيا في سوريا ولبنان. هذا دفع بفيصل إلى التوجه لفرنسا لحضور جلسات مؤتمر فرساي، إلا أن الفرنسيين منعوه من ذلك، فتوجه إلى لندن حيث التقى بمسؤولين بريطانيين نصحوه بالتفاهم مع الحركة الصهيونية لتسهيل مطالبه في ما يتعلق بمملكته. هنا كان اللقاء مع زعيم الحركة الصهيونية حاييم وايزمان واتفاقه معه على الاعتراف بمطالب الصهاينة في فلسطين في مقابل مساعدته في مطالبه في سوريا. وقد أبقى فيصل هذا الاتفاق سراً عن حكومته في سوريا. وفي ما يلي نص البيان العربي:

إن الأمير فيصل ممثّل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها والدكتور حاييم وايزمان ممثّل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنه، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي ويتحقّق أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما الوطنية هو في اتخاذ أقصى ما يمكن من التعاون سبيل تقدّم الدولة العربية وفلسطين ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي بينهما فقد اتفقا على المواد التالية:

- 1- يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين أقصى النيات الحسنة والتفاهم المخلص. وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس ويحتفظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول في بلد كل منهما.
- 2- تُحدد بعد إتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين.
- 3- عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة 1917.

- 4- يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة. ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي.

5- يجب أن لا يسنَّ نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأي طريقة ما في ممارسة الحرية الدينية، ويجب أن يسمح على الدوام أيضاً بحرية ممارسة العقيدة الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفضيل ويجب أن لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

6- إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين.

7- تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وأن تقدّم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وأن تقدّم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية في البلاد.

8- يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملوا بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الأمور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح.

9- كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يُحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم.

وقع في لندن، إنجلترا في اليوم الثالث من شهر جانفي سنة 1919.¹²³

في هذا الوقت كانت الحركة الصهيونية تستغلّ تعاطف سلطات الاحتلال البريطاني في فلسطين معها لإقامة أمر واقع يسهل مهمتها في طرد السكان العرب من فلسطين وإقامة وطن قومي يهودي على أرضها.¹²⁴ وكان تعيين هيرت صامويل كأول مندوب سامٍ على فلسطين، وهو المعروف بتأييده للحركة الصهيونية، يأتي في سياق رغبة الحكومة البريطانية في دعم الحركة الصهيونية في فرض أمر واقع في فلسطين يؤدي إلى إقامة وطن قومي يهودي فيها.¹²⁵ وفي أواخر العام 1921 عقد المؤتمر الصهيوني العام في كارلسباد في تشيكوسلوفاكيا بحضور 450 مندوباً من مختلف أنحاء العالم يمثلون نحو 800 ألف عضو في المنظمة الصهيونية. وقد تم انتخاب حاييم وايزمان رئيساً للمنظمة الصهيونية اعترافاً له بجهوده للاستحصال على وعد بلفور من الحكومة البريطانية. وبعد أشهر قليلة اعترفت عصبة الأمم بالمنظمة الصهيونية وتبنت برنامجها لإقامة وطن

¹²³ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 277 - 278.

¹²⁴ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 289 - 290.

¹²⁵ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 321 - 323.

قومي لليهود في فلسطين.¹²⁶ وفي العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن الماضي تكثفت الهجرة اليهودية باتجاه فلسطين نتيجة الأزمات الاقتصادية التي عصفت بألمانيا وأوروبا الشرقية ومن ثم نتيجة صعود الحركة النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا ومعاداتهما لليهود وتحميلهما لهم المسؤولية في هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

الحركة الوطنية الفلسطينية

في الوقت الذي كانت الحركة الصهيونية تحقق تقدماً تلو الآخر في سبيل تحقيق مشروعها في انتزاع فلسطين من يد أهلها العرب، فلقد وعى شعب فلسطين مخاطر هذا المشروع على مستقبلهم، فواجهوه منذ بداياته. وستنقسم مراحل النضال الفلسطيني ضد الحركة الصهيونية في النصف الأول من القرن العشرين إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى وتمتد منذ الاحتلال البريطاني لفلسطين وحتى العام 1936، والمرحلة الثانية والتي شهدت ثورة مسلحة في فلسطين وامتدت لثلاث سنوات حتى العام 1939، ثم المرحلة الثالثة والتي امتدت منذ العام 1939 وحتى النكبة التي شهدت ضياع معظم أرض فلسطين وتأسيس الصهاينة لدولة إسرائيل. وقد تميّزت هذه المرحلة بتبوء قيادات تقليدية مقاليد الزعامة الفلسطينية وعلى رأسها المفتي أمين الحسيني ومعه قادة من آل الحسيني وسلامة وغيرهم.

وقد ولد المفتي أمين الحسيني في العام 1895 في القدس لعائلة الحسيني الشهيرة التي تعود بنسبها إلى الإمام علي صهر النبي محمد والتي درج أفرادها على تبوء المناصب الإدارية والدينية في القدس. وقد تلقى تعليمه الأساسي في المدينة، حيث درس العلوم الدينية والتحق بمدرسة الفرير الإرسالية الفرنسية ليتقن اللغة الفرنسية قبل الانتقال إلى مصر، حيث تابع دروسه في الأزهر الشريف ثم في مؤسسة دار الدعوة والإرشاد الدينية الشهيرة التي كان قد أسسها الداعية الإسلامي الشهير رشيد رضا. وخلال الحرب العالمية الأولى التحق الحاج أمين الحسيني بالجيش العثماني وقاتل في صفوفه لأشهر عدة قبل عودته إلى القدس بسبب مرض ألم به. وعند اندلاع الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين انشق عن الجيش العثماني والتحق بالجيش الشريف الذي كان يقاتل إلى جانب البريطانيين ضد العثمانيين. وبعد سقوط القدس وفلسطين تحت الاحتلال البريطاني وإعلان وعد بلفور تزعم الحاج أمين الحسيني حركة المقاومة للمشروع البريطاني الصهيوني. ففي العام 1918 كان من أبرز الدعاة والمشاركين في المؤتمر العربي الفلسطيني الأول

¹²⁶ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 291 - 296.

الذي دعا إلى مقاومة المشروع الصهيوني في فلسطين.¹²⁷ وقد نظم وقاد التظاهرات الفلسطينية ضد الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني بدءاً من العام 1920 فأصدرت السلطات البريطانية قراراً باعتقاله، لكن الشباب الفلسطينيين هاجموا القافلة وتمكنوا من إطلاق سراح الحاج الحسيني الذي فرّ إلى سوريا وحكم بالسجن غيابياً لخمس عشرة عاماً.¹²⁸ لكن بعد أشهر قليلة صدر عفو عنه فعاد إلى القدس وما هي إلا أسابيع قليلة حتى توفي شقيقه الذي كان مفتياً للقدس فتّم انتخاب الحاج أمين الحسيني خلفاً له كمفتٍ للقدس والديار الفلسطينية. وسيصدّر المفتي الحاج أمين الحسيني النضال ضد الحركة الصهيونية طوال العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي.

ثورة العام 1936

مع بداية الثلاثينيات تفاقمت مشكلة الهجرة اليهودية إلى فلسطين نتيجة الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالولايات المتحدة وأوروبا الغربية ما جعلهما غير قادرتين على استيعاب هجرات جديدة إليهما فحُرم يهود أوروبا الشرقية من القدرة على الهجرة إلى هناك. وفي الوقت نفسه أدّت الأزمة الاقتصادية إلى مشاكل عرقية في شرق أوروبا ووسطها وإلى صعود النازية التي كانت تعادي اليهود وتحملهم مسؤولية الأزمات كافة ما جعل عشرات الآلاف من اليهود يهربون باتجاه فلسطين، حيث لاقوا ترحيباً من سلطات الانتداب على حساب أهل فلسطين.¹²⁹ وقد أثرت الأزمة الاقتصادية أيضاً على البلدان الواقعة تحت الحكم الأوروبي ومنها فلسطين التي تفاقم وضع البطالة فيها، خصوصاً في صفوف العمال العرب في ظل هجرة كثيفة من الريف إلى المدينة. وقد ترافق ذلك مع تصاعد دور الحركات الوطنية في البلدان العربية الخاضعة للسيطرة الفرنسية والبريطانية، خصوصاً في سوريا ولبنان التي تمكن قادتهما من توقيع اتفاقية مع سلطات الانتداب الفرنسي ينال بموجبها البلدان استقلالهما بعد مرحلة انتقالية. وقد شجّع ذلك القادة الفلسطينيين على تصعيد حركتهم ضد سلطات الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية الاستيطانية في فلسطين. وقد بدأت المظاهرات تنطلق بدءاً من العام 1935 ضد سلطات الانتداب وسياستها الرامية إلى تمكين الصهاينة من الإمساك بمفاصل الاقتصاد الفلسطيني من مؤسسات عامة وشركات كهرباء

¹²⁷ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، 306 - 309.

¹²⁸ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص. 312 - 314.

¹²⁹ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص. 441 - 445.

وماء وغيرها من مفاصل السلطة، ووقف أعمال تملك الصهاينة للأراضي العامة والمشاعية وتشكيل سلطة وطنية فلسطينية تمثل العرب الذين يشكلون الغالبية الساحقة من السكان.¹³⁰ وقد تصاعدت الحركة وصولاً إلى إعلان الإضراب العام في فلسطين وتشكيل لجنة عليا فلسطينية بقيادة المفتي الحاج أمين الحسيني والتي ستصبح لاحقاً الهيئة العربية العليا. وقد ضمت اللجنة وجهاء العائلات المقدسية مثل أحمد حلمي عبد الباقي والدكتور فخري الخالدي وراغب النشاشيبي والحاج يعقوب الغصين وعوني عبد الهادي والفرد روك ويعقوب فراج وعبد اللطيف صلاح وفؤاد سابا وجمال الحسيني. وما لبثت الحركة التي بدأت سلمية أن تحولت ثورة مسلحة شهدت هجمات على مراكز الشرطة البريطانية والجنود البريطانيين وثكناتهم ومكاتب موظفي الانتداب والمستوطنات الصهيونية وغيرها.

ففي أواخر نيسان أبريل 1936 تداعى عدد من الشبان في نابلس لتشكيل لجنة قومية للدعوة مجدداً للإضراب على أن يستمر حتى تستجيب السلطات البريطانية لكافة المطالب الوطنية الفلسطينية. وفي 25 نيسان أبريل التقت المجموعة بالحاج أمين الحسيني وأخذت مباركتها لمشروعها، وما لبثت الثورة أن عمّت كافة المدن والقرى الفلسطينية. وقد بدأ الإضراب في مدينة يافا والتي كانت أبرز مدينة اقتصادية وإدارية في فلسطين آنذاك. وقد تمثلت المطالب الفلسطينية بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومنع انتقال ملكية الأرض إلى اليهود وتشكيل حكومة وطنية فلسطينية تمثيلية. وقد استمر الإضراب لستة أشهر وأدى إلى شلل كامل في النشاطات الاقتصادية الصناعية والتجارية والزراعية والمواصلات كافة، إضافة إلى الامتناع عن دفع الضرائب لسلطات الانتداب.¹³¹ وما لبث الإضراب أن أخذ شكل ثورة مسلحة مع تشكيل مجموعات مسلحة من قبل الثوار ومهاجمتهم لثكنات ومقار وأفراد الجنود البريطانيين والميليشيات الصهيونية، علماً أن بدايات العام كانت قد شهدت تشكيل مجموعة بقيادة الشيخ عز الدين القسام إلا أنه استشهد في أول مواجهة عسكرية مع السلطات البريطانية، لكن مجموعته بقيت تناضل تحت قيادة فرحان السعدي. وقد بلغ عدد الثوار الآلاف، وبدأ متطوعون عرب يتوافدون إلى فلسطين للقتال إلى جانب الثوار كان أبرزهم الضابط الشهير فوزي القاوقجي الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني وقاتل في هذا الجيش حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم كان له دور في الثورة السورية الكبرى حين قاد مجموعات من الثوار في منطقة حماة ضد الانتداب الفرنسي وذلك في العام 1925 قبل أن يأتي إلى فلسطين في صيف العام 1936 لتنظيم المقاومة المسلحة ضد السلطات البريطانية بدعوة من الحاج

¹³⁰ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 525 - 528.

¹³¹ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 529 - 541.

أمين الحسيني. وقد أصبح القاوقجي هو القائد العام للثورة. وقد كبد الثوار القوات البريطانية مئات القتلى والجرحى إضافة إلى مئات القتلى والجرحى من الصهاينة في مقابل سقوط نحو 800 شهيد منهم ونحو ألفي جريح. كذلك بلغت الخسائر الاقتصادية لسلطات الانتداب نحو 4 ملايين جنيه استرليني ما يُعدّ مبلغاً ضخماً نسبة لأسعار تلك الأيام.¹³² هذا دفع بالحكومة البريطانية إلى إرسال لجنة لتقصي الحقائق برئاسة اللورد بيل وقد وعدت اللجنة بالاستجابة لكافة المطالب العربية. وقد ضغطت السلطات البريطانية على الحكام العرب في المملكة العربية السعودية والعراق واليمن وشرق الأردن لتوجيه نداء إلى قيادة الثوار بالقبول بوقف الإضراب؛ وهو ما جرى. فاستجاب قادة الهيئة العربية العليا معتقدين بأن البريطانيين استجابوا لمطالبهم.¹³³

بعد توقف الإضراب قامت لجنة بيل بعملية تقصُّ للحقائق في فلسطين انتهت بعدها في حزيران يونيو 1927 إلى توصية رفعتها للحكومة البريطانية تدعو إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين واحدة يهودية وأخرى عربية مع إبقاء الأماكن المقدسة ومدينة يافا تحت الانتداب البريطاني.¹³⁴ هذا أدّى إلى إثارة غضب العرب الذين اندفعوا إلى الشوارع في موجة سخط عارمة ستؤدي مجدداً إلى اندلاع الثورة المسلحة في أيلول سبتمبر 1927. ففي 26 أيلول سبتمبر 1937 قامت مجموعة القسم باغتيال حاكم منطقة الجليل لويس يولاند اندروز، وكان الحادث أول استهداف لموظف بهذه الرتبة العالية لسلطات الانتداب. وكانت هذه السلطات تنتظر تأججاً للثورة بعد التوصيات التي أصدرتها لجنة بيل فقامت بُعيد أيام قليلة بحل الهيئة العربية العليا وإلقاء القبض على بعض أفرادها ونفيهم إلى جزر سيشيل، ومحاولة اعتقال المفتي أمين الحسيني الذي تمكّن من الفرار إلى لبنان، وإقالته من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وإصدار الأوامر للقطعات المسلحة البريطانية باللجوء إلى القمع الشديد ضد الثوار والحركة الوطنية الفلسطينية.¹³⁵ في المقابل أعاد الثوار تنظيم أنفسهم في مجموعات عديدة وبدأوا يهاجمون القوات البريطانية والصهيونية، وعمّت الثورة كافة الأراضي الفلسطينية. وتمكّن الثوار من تشكيل لجان إدارية لإدارة المناطق التي يسيطرون عليها. وقد شكّلت في لبنان وسوريا لجان دعم للثوار في فلسطين تحت إشراف المفتي أمين الحسيني نفسه. وقد استمرت الثورة إلى أيار مايو 1939 وأجبرت الحكومة البريطانية على إعلان الكتاب الأبيض وإعلان عدها بمنح فلسطين الاستقلال خلال فترة عشرة أعوام. وقد تضمن الكتاب الأبيض

¹³² عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 542 - 551.

¹³³ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 563 - 574.

¹³⁴ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 575 - 583.

¹³⁵ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 614 - 618.

التخلي عن فكرة تقسيم فلسطين والقبول بإقامة حكم موحد فيها للعرب واليهود يتم تمثيلهم فيه وفقاً للنسبة المئوية للسكان وتقليص الهجرة اليهودية إلى 10000 في العام على أن تربط بالموافقة العربية. وكانت بريطانيا بحاجة لمهادنة الثوار نتيجة تحسبها لصعود نفوذ أدولف هتلر في ألمانيا وتساعد احتمالات الحرب في أوروبا.¹³⁶ وقد عدّ الكتاب الأبيض أكبر انتكاسة تتعرض لها الحركة الصهيونية منذ بداياتها.¹³⁷ لكن ما هي إلا أشهر قليلة واندلعت الحرب العالمية الثانية وتولى وينستون تشرشل المؤيد للحركة الصهيونية رئاسة الوزارة في بريطانيا. وما ان بدأ مهامه حتى أعلن تراجع بريطانيا عن التزامها بالكتاب الأبيض.¹³⁸

بنتيجة الأكلاف التي تكبدتها الشعب الفلسطيني خلال ثورته الكبرى، ونتيجة قبول قياداته بالتسوية التي طرحتها بريطانيا عبر الكتاب الأبيض، إضافة إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية ودخول المناطق الخاضعة للسيطرة البريطانية في ظل الأحكام العرفية، فلقدت هممت الثورة في فلسطين فيما انتقل الحاج أمين الحسيني إلى ساحات أخرى يناضل منها من أجل القضية الفلسطينية. فمع انطلاق الحرب العالمية الثانية قررت السلطات الفرنسية اعتقاله لاشتباهاها بوجود علاقات بينه وبين ألمانيا النازية. فانتقل المفتي إلى العراق حيث بقي هناك حتى تاريخ اندلاع ثورة رشيد عالي الكيلاني التي كان له دور في إطلاقها وتنسيق الدعم الألماني لها عبر سوريا ولبنان اللذين كانا قد وقعا تحت سلطة نظام فيشي الفرنسي المتعاون مع الاحتلال الألماني لفرنسا. وبنتيجة فشل الثورة في العراق انتقل إلى طهران لينتقل منها سراً إلى تركيا فألمانيا، حيث التقى مع الزعيم الألماني أدولف هتلر وكبار المسؤولين في ألمانيا النازية. وقد اعتبر المفتي أن تقدم قوات المحور في الحرب العالمية الثانية ممكن أن يدعم نضال العرب من أجل نيل الاستقلال عن الاستعمار البريطاني والفرنسي الذي كان يهيمن على الدول العربية منذ نهاية القرن التاسع عشر، كما يدعم نضال الشعب الفلسطيني ضد الحركة الصهيونية المدعومة من الاستعمارين البريطاني والفرنسي. وبنتيجة لقاءه مع قائد الاستخبارات الألمانية هينريك هيملر تقرّر تنظيم قوات عربية ومسلمة لتقاتل إلى جانب قوات المحور وتشكّل في ما بعد نواة جيش التحرير الذي يجب أن يحرر الديار الفلسطينية، واستصدار اعتراف من دول المحور بحق الدول العربية بالاستقلال، وتأسيس إذاعة باللغة العربية من برلين توجّه إلى الشعوب العربية لتحفيزها على الثورة لنيل الاستقلال. ومن قبيل سقوط برلين بيد السوفييات في نهاية الحرب العالمية الثانية تمكّن المفتي من الهرب إلى باريس،

¹³⁶ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص.ص. 658 - 664.

¹³⁷ وليد الخالدي، خمسون عاماً على تقسيم فلسطين، بيروت: دار النهار، 1998، ص.ص. 11 - 19.

¹³⁸ وليد الخالدي، خمسون عاماً على تقسيم فلسطين، ص.ص. 27 - 28.

حيث اعتقل لأيام إلا أنه تمكّن من الفرار بمساعدة مجنّدين مغاربة في الجيش الفرنسي ووصل إلى القاهرة، بحيث عاش متخفياً لأشهر قبل أن يتمكن في العام 1947 من مقابلة الملك فاروق الذي منحه الحصانة من الملاحقة البريطانية. ومن القاهرة بدأ المفتي جهوده مجدداً لتجنيد المتطوّعين لإرسالهم إلى فلسطين للقتال ضد المنظمات الصهيونية والسلطات البريطانية.

حرب فلسطين

ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى نقضت بريطانيا العظمى كل ما كانت قد تعهّدت به للعرب وعادت إلى سياساتها الأولى بدعم الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين، ما أججّ النضال العربي الفلسطيني ضد سلطات الانتداب والحركة الصهيونية. ومنذ بدايات العام 1947 بدأت المواجهات تتصاعد بين الفلسطينيين من جهة والقوات البريطانية والصهيونية من جهة أخرى. وكان متطوّعون من مختلف الأقطار العربية المجاورة لفلسطين قد أخذوا يتدفقون لمساعدة الفلسطينيين في نضالهم. وفي أواخر العام 1947 كانت سلطات الانتداب البريطاني تنوي الانسحاب من فلسطين نتيجة مواجهتها أزمة اقتصادية خانقة جعلتها تختار تقليص دورها في العالم. وبنتيجة الدعم الذي كانت تلقاه الحركة الصهيونية من قطبي العالم الجديدين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، فلقد شعرت الحركة الصهيونية أنه بإمكانها دفع برنامجها قدماً في فلسطين. وفي 29 تشرين الثاني نوفمبر 1947 صوّت الجمعية العامة للأمم المتحدة، وهي المنظمة التي تشكلت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية لتخلف منظمة عصبة الأمم، على قرار تقسيم فلسطين بغالبية 33 صوتاً ومعارضة 13 دولة معظمها دول عربية وإسلامية، إضافة إلى امتناع 10 دول عن التصويت. وبموجب قرار التقسيم منح العرب الفلسطينيون 42 بالمئة من أرض فلسطين في مقابل 58 بالمئة لليهود، على أن تبقى القدس وبيت لحم تحت وصاية دولية. ويُعدّ القرار عودة إلى توصية لجنة بيل البريطانية في العام 1937 بتقسيم فلسطين والتي كان قد رفضها العرب. وبعد صدور التقسيم تصاعدت عمليات الفدائيين العرب ضد البريطانيين والصهاينة في فلسطين. وفي العالم العربي عارضت جميع القوى والأحزاب العربية

قرار التقسيم باستثناء الشيوعيين العرب الذين وافقوا عليه بضغط من الاتحاد السوفياتي فكان سبباً لانشقاقات حصلت في صفوفهم.¹³⁹

مع حلول ربيع العام 1948 كانت بريطانيا تنهياً لإنهاء انتدابها في فلسطين، وكان العرب يصعدون من مقاومتهم، فيما كان الصهاينة يتحضرون لإعلان دولة إسرائيل. وقد اعلنت السلطات البريطانية أنها ستنتهي انتدابها على فلسطين وتسحب جميع قواتها من هذا البلد في يوم 15 أيار مايو 1948. هنا قام المجلس اليهودي الصهيوني بعقد جلسة له في تل أبيب أعلن بموجبها قيام دولة إسرائيل مع حلول منتصف ليلة 14 - 15 أيار مايو. وقد كان هذا القرار يلقي تأييداً أميركياً مسبقاً، إذ جرى التوافق عليه بين ممثل الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة موشي شاريت وإدارة الرئيس هاري ترومان. وقد سارعت الولايات المتحدة إلى الاعتراف بدولة إسرائيل فور إعلان قيامها، فيما اعترف بها الاتحاد السوفياتي بعد ثلاثة أيام. وقد امتنعت الحركة الصهيونية عن إعلان حدود للدولة لنيتها توسيع رقعتها عبر شن حروب توسعية. في المقابل، فإن الدول العربية التي كانت قد نالت استقلالها وهي مصر والأردن والعراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية أرسلت قوات للقتال ضد الحركة الصهيونية. وقد بلغت القوات العربية 10 آلاف جندي مصري والقوات الأردنية نحو 5000 جندي والعراق نحو 3000 جندي وسوريا نحو 2000 جندي فيما شارك لبنان بقوة بلغت نحو ألف جندي والقوة السعودية وبلغت نحو 3000 جندي. يضاف إلى هؤلاء جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي والذي تشكل من بضعة آلاف من المتطوعين. وبذلك يكون مجموع القوات العربية لا يتجاوز ثلاثين ألف جندي. في المقابل فلقد بلغ عدد جنود منظمة صهيونية وحدها نحو 45000 جندي يضاف إليهم نحو 2000 جندي لمنظمة البالمخ، اضيف اليهم نحو 30 ألف مجند من يهود فلسطين و20 ألف مجند استجلبوا من أوروبا ليلبغ عدد القوات الصهيونية نحو 110 آلاف جندي أي ما يوازي ثلاثة أضعاف القوات العربية.¹⁴⁰

بدأت الحرب في اليوم التالي لانسحاب القوات البريطانية من فلسطين عبر تقدّم الجيش المصري من جهة الجنوب والجيش الأردني مسنوداً بالجيش العراقي من جهة الشرق والجيش السوري واللبناني من جهة الشمال مسنودين بجيش الإنقاذ بقيادة القاوقجي. وقد تمكّنت هذه الجيوش في البداية من تحقيق تقدّم في مختلف الميادين على الرغم من التفوق العددي للصهاينة. ففي الجنوب تمكنت القوات المصرية من التوغل في النقب ومحاصرة مستوطنتي كفرادوم ونيريم

¹³⁹ وليد الخالدي، خمسون عاماً على تقسيم فلسطين، ص.ص. 90 - 93.

¹⁴⁰ وليد الخالدي، خمسون عاماً على حرب 1948: أولى الحروب العربية - الصهيونية، بيروت: دار النهار، 1998، ص.ص. 39 -

والتمركز في غزة والانطلاق نحو عسقلان. وكان مركز قيادة القوات المصرية في الفلوجة، حيث خاض العقيد جمال عبد الناصر معارك ضارية ضد الصهاينة. وعلى الجبهة الشرقية خاض الجيش الأردني الذي كان أقل عدداً من الجيش المصري، ولكنه كان أكثر تنظيماً وتسليحاً، معارك ضارية في باب الواد واللطرون وجنين وانتصر فيها جميعها بمساعدة من الجيش العراقي الذي كان له الفضل الأكبر بتحرير جنين من الصهاينة. وفيما كان الجيش المصري يتقدم شمالاً باتجاه تل أبيب صدر قرار عن مجلس الأمن الدولي بفرض هدنة في فلسطين ومنع توريد الأسلحة لأي من الأطراف المتحاربة.¹⁴¹ وفيما التزمت الجيوش العربية بقرار الهدنة إلا أن القوات الصهيونية استفادت منها لإعادة تجميع قواتها وتهريب متطوعين أوروبيين للقتال في صفوفها إضافة إلى تهريب كميات ضخمة من السلاح والعتاد العسكري، خصوصاً الطائرات من المخازن الأوروبية. وفي تموز يوليو خرقت القوات الصهيونية قرار الهدنة واستأنفت القتال ضد القوات العربية فتمكنت من دفع الجيش المصري جنوباً ومحاصرة قيادته في الفلوجة، كما تمكنت من شن هجوم معاكس ضد القوات العراقية والأردنية في الشرق والقوات السورية واللبنانية في منطقة الجليل. ومع حلول كانون الثاني يناير 1949 صدر قرار الهدنة الثاني بعد أن تمكنت القوات الصهيونية من الاستيلاء على 80 بالمئة من فلسطين باستثناء الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة. وقد شكل ذلك هزيمة للعرب عرفت بالنكبة.¹⁴² ولقد كانت هنالك أسباب عدة لهذه النكبة. فلقد كان المناخ الدولي ما بعد الحرب العالمية الثانية متعاطفاً مع الحركة الصهيونية خصوصاً من قبل الولايات المتحدة والقوى الغربية الحليفة لها، وعدم اهتمام الاتحاد السوفياتي في المنطقة العربية. إضافة إلى ذلك فلقد كانت الحركة الصهيونية تلقى دعماً من الدوائر المالية العالمية فيما كانت الدول العربية لا تزال تترجح تحت هيمنة النفوذ البريطاني أو الفرنسي. وقد كان التفوق العددي والتسليحي يميل بشدة لصالح الصهاينة خلافاً للفكرة التي رسخها الصهاينة أنفسهم بخلاف ذلك. وقد عانت الجيوش العربية من عدم وضوح القرار السياسي من جهة ومن أوجه قصور عسكرية من جهة أخرى. ففيما عانى الجيش المصري من ضعف بالتنظيم والقيادة فلقد كان معظم قادة الجيش الأردني من البريطانيين وعلى رأسهم قائد الجيش جون غلوب باشا. كل هذه العوامل شكلت مسببات للنكبة التي أدت إلى خسارة الجزء الأكبر من فلسطين. وبنتيجة النكبة تم تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين من قراهم ومدنهم ليعيشوا في مخيمات لجوء في قطاع غزة والضفة الغربية والأردن وسوريا ولبنان.

¹⁴¹ وليد الخالدي، خمسون عاماً على حرب 1948، ص.ص. 53 - 66.

¹⁴² وليد الخالدي، خمسون عاماً على حرب 1948، ص.ص. 91 - 102.

أدت النكبة إلى ضياع 80 بالمئة من فلسطين التي ستقام على أرضها دولة إسرائيل، كما أدت إلى تشتيت معظم الشعب الفلسطيني على مخيمات لجوء في قطاع غزة والأردن والضفة الغربية والأردن وسوريا ولبنان. وسيقع قطاع غزة تحت الإدارة المصرية حتى حرب العام 1967. أما الضفة الغربية والقدس الشرقية فستلحقان بالمملكة الأردنية الهاشمية التي كانت قد أعلنت قبل أعوام من النكبة. وكان شرق الأردن قد شكّل حتى نهاية الحرب العالمية الأولى امتداداً لولاية دمشق العثمانية، خصوصاً في قسمه الشمالي. وعقب انهيار الدولة العثمانية فلقد وقع الأردن ضمن المنطقة المخصصة للانتداب البريطاني إضافة للعراق وفلسطين. لكن في بدايات العام 1921 كانت بذور الثورة تنضج في سوريا، خصوصاً في منطقة جبل العرب ضد الانتداب الفرنسي الذي كان قد فرض على سوريا في تموز يوليو 1920، فاعتبر الأمير عبد الله بن الشريف حسين، الذي كان قد فقد فرصته في حكم العراق كما كان مقرراً بعد أن قرر البريطانيون وضع أخيه فيصل الذي كان قد فقد للتوّ عرش سوريا كملك على العراق، اعتبر أن الفرصة سانحة له ليطالب لنفسه بعرش سوريا. فجمع حشداً من القبائل الحجازية المناصرة له واتجه بها إلى عمان قاصداً الوصول إلى دمشق. لكن القوات البريطانية المرابطة هناك منعتته من التقدم باتجاه سوريا وأبقتة في عمان. وفي العام 1927 أجريت أول انتخابات تشريعية في الأردن. وفي العام 1946 نال الأردن استقلاله ليتحول من إمارة إلى مملكة باسم المملكة الأردنية الهاشمية ويختار الملك عبد الله الأول ملكاً عليها. وبنتيجة حرب فلسطين اعتبر الملك عبد الله متواطئاً على ضياع فلسطين فتم اغتياله في 20 تموز يوليو 1951 بعد أدائه الصلاة في المسجد الأقصى. وقد اتهم العقيد في الجيش الأردني عبد الله التل بتنظيم مؤامرة الاغتيال وحُكم عليه بالإعدام غيابياً بعد هربه إلى مصر. كما اتهم المفتي أمين الحسيني بالتحريض على اغتيال الملك عبد الله. وقد تولى العرش من بعده نجله طلال الذي اتهم بالجنون فأودع مصحة عقلية ليتولى العرش من بعده نجله الحسين بن طلال في أوائل العام 1952. وقد خضع الأردن للنفوذ البريطاني المباشر حتى العام 1956 حين قام الملك حسين بن طلال بعزل جون غلوب باشا من قيادة الجيش الأردني بضغط من التيار القومي العربي في الأردن الذي كان يلقي دعماً من جمال عبد الناصر. وفي العام 1958، وبنتيجة الثورة العراقية ضد الهاشمين أرسلت بريطانيا قوات مظلية إلى الأردن لدعم الملك في مواجهة العناصر الوطنية المدعومة من عبد الناصر فيما كان لبنان يشهد إنزالاً أميركياً لمنع عبد الناصر من إدخال هذا البلد في دائرة نفوذه.

أحزاب فلسطين

خلال فترة الانتداب، وحتى تاريخ النكبة تصدّرت الساحة السياسية في فلسطين عائلات تقليدية كعائلات الحسيني والنشاشيبي، إلا أن الساحة الفلسطينية شهدت نشوء الحركة الشيوعية الفلسطينية في العام 1919 عندما تشكل حزب العمال الاشتراكي في فلسطين من عناصر يهودية انشقت عن الحزب الصهيوني "يوغالي تسيون" أو عمال صهيون ودعت إلى القطيعة مع الحركة الصهيونية بصفتها حركة فاشية قومية. وقد انضم حزب العمال الاشتراكي الفلسطيني الذي استقطب عمالاً عرباً أيضاً إلى حركة الكومنترن التي أطلقتها موسكو لتكون مظلة للأحزاب الشيوعية في العالم. ولقد اعتمد الحزب الماركسية اللينينية كعقيدة رسمية للحزب وتميّز الجيل الأول من قياداته بأنه كان من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا الذين تأثروا بالأفكار الصهيونية، لذلك أقام الحزب علاقات مع الحركة الصهيونية واستفاد من ذلك لتوسيع قاعدته في صفوف العمال اليهود. وفي العام 1922 حدث انشقاق في الحزب أدّى إلى نشوء الحزب الشيوعي في فلسطين بقيادة جوزيف برزيليالي والحزب الشيوعي الفلسطيني بقيادة حاييم أورباخ. لكن في العام التالي تم توحيد الحزبين واعترف بالحركة القومية العربية كحركة معادية للاستعمار البريطاني ودعا إلى تأييدها. وقد تخلى الحزب عن تأييده للصهيونية بصفتها حركة تقدمية واعتبرها حركة قومية تعبّر عن مصالح البورجوازية اليهودية. وكان من نتيجة ذلك دعوة الحزب إلى زيادة عدد أفراد الحزب من العرب في ما عرف بتعريب الحزب وإقامة جبهة عمالية تضم العمال العرب واليهود إضافة إلى إقامة جبهة معادية للامبريالية. وقد جرى ذلك بضغط من الكومنترن الذي كان يؤيد تعريب الحزب إلا أن العملية تمّت عرقلتها من قبل الأمين العام للحزب حاييم أورباخ الذي كان ذا ميول صهيونية. وقد دفع ذلك بالكومنترن إلى تغيير قيادة الحزب ودعم وصول رضوان الحلو إلى الأمانة العامة للحزب في العام 1934، وكان أول عربي يتبوأ هذا المنصب في الحزب. وخلال الحرب العالمية الثانية أيد الحزب السوفيات في حربهم ضد ألمانيا النازية، وخلال الحرب وتهيؤ الصهاينة للسيطرة على فلسطين زادت حدة الاستقطاب داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني بين أعضائه العرب وأعضائه اليهود فخرج الأعضاء العرب منه وألفوا عصبة التحرر الوطني لتكون حزب الشيوعيين العرب الفلسطينيين. وكان ثلاثة من العرب هم اميل حبيبي ويعقوب العرماني وعبد الله البندك من أبرز قيادات العصبة، إذ نادوا بحزب يدعو إلى حركة تحرر عربية ويكون في عضويتها يهود، على أن تكون معادية للصهيونية. وقد أصدرت العصبة أول بيان لها في أوائل العام 1944 ومن ثم أصدرت جريدتها "الاتحاد" في أيار مايو 1944 لتكون ناطقاً باسم العمال العرب. وقد ارتكبت

العصبة خطيئة الموافقة على قرار تقسيم فلسطين وكانت إلى جانب الشيوعيين العرب الطرف الوحيد في العالم العربي الذي وافق على قرار التقسيم. وقد أدّى هذا إلى إدانة الشيوعيين العرب وابتعاد قسم كبير من الجماهير العربية عنهم وإلى انقسامات في صفوفهم. وبعد النكبة توحدت فروع عصبة التحرر الوطني التي بقيت في الأجزاء التي احتلها الصهاينة من فلسطين مع الحزب الشيوعي الفلسطيني لتعلن قيام الحزب الشيوعي الإسرائيلي. أما الشيوعيون الفلسطينيون في الضفة الغربية فلقد اجتمعوا مع نظرائهم الأردنيين ليشكلوا الحزب الشيوعي الأردني، لكنه بقي حزباً ضعيفاً جداً ولم يلعب دوراً يذكر في الحياة السياسية الأردنية.¹⁴³

ولقد كان هنالك وجود لبعض العناصر للحزب السوري القومي الاجتماعي في الأردن، إلا أنه كذلك لم يلعب دوراً بارزاً في الحياة السياسية الأردنية على خلاف حزب البعث العربي الاشتراكي والأخوان المسلمين. ويعتبر حزب البعث في الأردن أول فروع الحزب خارج سوريا وقد حضر أردنيون المؤتمر التأسيسي للحزب في سوريا وكان من أبرز قياداته حمدي الساكت ومحمد البشير وامين شقير واحمد المساعدة. وقد كان البعثيون في الأردن معارضين للملك حسين لذلك حاول موازنتهم ومواجهتهم وغيرهم من القوميين بدعم الإخوان المسلمين. وقد نشأت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن في العام 1945 بمبادرة من جماعة الإخوان في مصر. وقد تم الامر على يد عبد اللطيف أبو قورة الذي تواصل مع المرشد العام للإخوان في مصر حسن البنا. وقد أنشأت الجماعة الكلية العلمية الإسلامية في عمان وانضمت إلى رابطة العالم الإسلامية، وقد شارك أخوان الأردن كمتطوعين في حرب فلسطين 1948 واستشهد من بينهم عدد من المتطوعين. وبنتيجة خصومة الإخوان المسلمين في مصر مع عبد الناصر أيد أخوان الأردن خصمه العاهل الأردني الملك حسين وتمتعوا بذلك بتسهيلات كبيرة في العمل على الساحة السياسية. وقد استمرت فترة الوفاق مع العاهل الأردني إلى العام 1989 واستفادت الجماعة بذلك من الأردن كقاعدة لأعمالها العدائية ضد سوريا خلال السبعينيات والثمانينيات.¹⁴⁴

¹⁴³ راجع الياس مرقص، تاريخ الأحزاب الشيوعية في العالم العربي، بيروت: دار الطليعة، 1964.

¹⁴⁴ راجع الإخوان المسلمون في الأردن.. من أركان المملكة الهاشمية إلى أعداء للنظام؟ الشروق 25 أكتوبر 2017.

الدستور الأردني

وكان دستور أردني قد صدر خلال عهد الملك طلال عقب اغتيال والده الملك عبد الله، وفيه:

مادة 1: المملكة الأردنية الهاشمية دولة عربية مستقلة ذات سيادة ملكها لا يتجزأ ولا يتنازل عن شيء منه، والشعب الأردني جزء من الأمة العربية ونظام الحكم فيها نيابي ملكي وراثي.

مادة 2: الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها.

مادة 3: مدينة عمان عاصمة الدولة ويجوز نقلها إلى مكان آخر بقانون.

مادة 4 : تكون الراية الأردنية على الشكل والمقاييس التالية: طولها ضعف عرضها وتقسم أفقياً إلى ثلاث قطع متساوية متوازية، العليا منها سوداء والوسطى بيضاء والسفلى خضراء، يوضع عليها من ناحية السارية مثلث قائم أحمر قاعدته مساوية لعرض الراية وارتفاعه مساوٍ لنصف طولها وفي هذا المثلث كوكب أبيض سباعي الأشعة مساحته مما يمكن أن تستوعبه دائرة قطرها واحد من أربعة عشر من طول الراية وهو موضوع بحيث يكون وسطه عند نقطة تقاطع الخطوط بين زوايا المثلث وبحيث يكون المحور المار من أحد الرؤوس موازياً لقاعدة هذا المثلث.

مادة 5: الجنسية الأردنية تحدّد بقانون.

مادة 6: الأردنيون أمام القانون سواء لا تمييز بينهم في الحقوق والواجبات وإن اختلفوا في العرق أو اللغة أو الدين. تكفل الدولة العمل والتعليم ضمن حدود إمكانياتها وتكفل الطمأنينة وتكافؤ الفرص لجميع الأردنيين.

مادة 7: الحرية الشخصية مصونة.

مادة 8: لا يجوز أن يوقف أحد أو يحبس إلا وفق أحكام القانون.

مادة 9: لا يجوز إبعاد أردني من ديار المملكة. لا يجوز أن يُحظر على أردني الإقامة في جهة ما ولا أن يلزم بالإقامة في مكان معين إلا في الأحوال المبينة في القانون.

مادة 11: لا يُستملك ملك أحد إلا للمنفعة العامة وفي مقابل تعويض عادل حسبما يعين في القانون.

مادة 17: للأردنيين الحق في مخاطبة السلطات العامة في ما ينوبهم من أمور شخصية أو في ما له صلة بالشؤون العامة بالكيفية والشروط التي يعينها القانون.

مادة 18: تعتبر جميع المراسلات البريدية والبرقية والمخاطبات الهاتفية سرية فلا تخضع للمراقبة أو التوقيف إلا في الأحوال المعينة في القانون.

مادة 19: يحق للجماعات تأسيس مدارسها والقيام عليها لتعليم أفرادها على أن تراعي الأحكام العامة المنصوص عليها في القانون وتخضع لرقابة الحكومة في برامجها وتوجيهها.

مادة 20: التعليم الابتدائي إلزامي للأردنيين وهو مجاني في مدارس الحكومة.

مادة 21: 1- لا يسلم اللاجئون السياسيون بسبب مبادئهم السياسية أو دفاعهم عن الحرية. 2- تحدد الاتفاقات الدولية والقوانين أصول تسليم المجرمين العاديين.

مادة 22: 1- لكل أردني حق في تولي المناصب العامة بالشروط المعينة والأنظمة والقوانين أو. 2- التعيين للوظائف العامة من دائمة ومؤقتة في الدولة والإدارات الملحقة بها والبلديات يكون على أساس الكفاءات والمؤهلات.¹⁴⁵

¹⁴⁵ راجع الدستور الاردني على موقع وزارة الداخلية الأردنية.

http://www.moi.gov.jo/EchoBusV3.0/SystemAssets/PDFs/AR/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B3%D8%AA%D9%88%D8%B1%20%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B1%D8%AF%D9%86%D9%8A%20%D9%88%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D9%8A%D9%84%D8%A7%D8%AA%D9%87_0.pdf

الجزء الثاني 1958 – 1970

الفصل الأول

سوريا 1958 – 1970

ما أن انتصر جمال عبد الناصر ضد أركان العدوان الثلاثي في العام 1956 وتعرّضت فرنسا وبريطانيا إلى ضربة قاصمة في منطقة الشرق الأوسط، حتى أعلن الرئيس الأميري دوايت أيزنهاور عن مبدئه القائم على "محاربة الشيوعية" والتدخل في "مناطق الفراغ" لمنع انتشارها. إضافة إلى ذلك فلقد أدّى النصر الذي حققه عبد الناصر والذي حوّل رمزاً لكل قوى التحرر في العالمين العربي والأفريقي، إلى خشية العائلة السعودية الحاكمة في شبه الجزيرة العربية على استقرار حكمها، خصوصاً أن معظم معارضي حكم الاسرة باتوا ينظرون إلى عبد الناصر كنموذج يحتذى للتغيير في المملكة. هذا جعل الملك سعود بن عبد العزيز يناصبه العداء بعدما كان متحالفاً معه في مواجهة الهاشميين. بل إن الحدّ وصل به إلى التحالف مع خصومه السابقين، أي الهاشميين، ضد جمال عبد الناصر. وقد حاول سعود اغتيال عبد الناصر مراراً، وقد ارسل شيكاً بملايين الدولارات إلى عبد الحميد السراج حتى يقوم بإسقاط طائرة عبد الناصر إلا أن السراج كشف الخطة لعبد الناصر وسلّمه الشيك. هذا دفع بالملك سعود إلى أن يسعى لتشجيع معارضي عبد الناصر في سوريا على الانقلاب ضده، وقد تضافرت جهوده مع جهود أخرى كانت تقوم بها الولايات المتحدة، إضافة إلى معارضة الحزب الشيوعي السوري والحزب السوري القومي الاجتماعي للوحدة.¹⁴⁶

الوحدة السورية المصرية

وكانت الوحدة قد أعلنت بين مصر وسوريا في 22 شباط فبراير بعد توقيع ميثاق في هذا الشأن بين الرئيس المصري جمال عبد الناصر والرئيس السوري شكري القوتلي. وكان وفد من الضباط السوريين على رأسهم أمين الحافظ قد زاروا مصر سراً في أوائل كانون الثاني يناير 1958 وطالبوا ببقاء عبد الناصر عارضين عليه الوحدة بين البلدين. وقد جاءت الزيارة في ظل تهديدات تركية متصاعدة لسوريا باجتياحها بعد رفضها الانضمام لحلف بغداد. وقد رضي عبد الناصر هذه الوحدة بعد تردّد نتيجة خوفه من المشاكل التي ستصاحب إعلان الوحدة والمعارضة التي يمكن أن تلقاها من الداخل

¹⁴⁶ جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا، بيروت: المطبوعات للنشر، 2013، ص.ص. 112 - 115.

السوري أو من الأطراف الإقليمية والدولية. لكن في الوقت نفسه كان عبد الناصر يريد أن تكون سوريا تحت نفوذه في إطار تنافسه مع العراق وتركيا والمملكة العربية السعودية على النفوذ في المشرق العربي. لذلك فلقد ارتضى عبد الناصر القبول بالوحدة على شرط حل الأحزاب في سوريا كما كان الحال في مصر، ومنع تدخل الضباط في السياسة، وتوحيد برلماني البلدين وهو ما تمّ في العام 1960.¹⁴⁷ وقد تم تعيين القيادي البعثي أكرم الحوراني نائباً للرئيس، إلا أنه سرعان ما دبّ الخلاف بين قياديي حزب البعث الحوراني وميشيل عفلق وصالح الدين البيطار من جهة وعبد الناصر من جهة أخرى. فلقد كان البعثيون يتصورون أن الوحدة مع مصر ستجعلهم يصبحون الحزب الحاكم في مصر وسوريا، فيما كان عبد الناصر يعارض فكرة الأحزاب ويعتبرها عقبة في وجه وحدة الدولة ومسوغاً للتدخل الخارجي، بناء على تجربته في مصر، وبناء على ما شهدته من انقسام في سوريا نتيجة تعدد الأحزاب وتعدد ولاءاتها بين القوى الإقليمية والدولية. إضافة إلى ذلك فإن قيادة البعث لم تكن على علم بزيارة وفد الضباط إلى مصر وبالتالي فلقد فوجئت بالعرض الذي تقدّم به هؤلاء الضباط إلى عبد الناصر وموافقته على الوحدة. ولم يكن القادة المدنيون في البعث قبلين ضمناً بهذه الوحدة، خصوصاً أنهم كانوا يعتبرونها تدعيماً لنفوذ الضباط الناصريين في الجيش على حسابهم، إلا أنهم لم يكونوا يجرؤون على المجاهرة بنياتهم، خصوصاً أنهم كانوا يُعلنون شعار الوحدة في جميع خطاباتهم السابقة. وفي أواخر العام 1959 ظهر الخلاف إلى العلن بين البعثيين وخصوصاً الحوراني وبين عبد الناصر، ففاجأ الأول الجميع بتقدمه استقالته وهربه إلى لبنان، حيث بدأ بشنّ هجوم عنيف على دولة الوحدة.¹⁴⁸

وقد شكلت الوحدة انقلاباً كبيراً في الموازين الإقليمية والدولية ما جعل عدداً كبيراً من القوى تتكتل ضدها أولها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إضافة إلى المملكة العربية السعودية والملك الأردني الحسين بن طلال وهاشميين العراق. لكن في صيف عام 1958 حصل انقلاب عسكري أطاح بالأسرة الهاشمية الحاكمة في العراق واستبدلها بنظام عسكري ميّال للوحدة، أقله لحين إطاحة عبد السلام عارف المؤيد للوحدة بين العراق وسوريا ومصر وعبد الكريم قاسم المعارض لها. ففي صبيحة 14 تموز يوليو 1958 قام عبد السلام عارف بعزل قادة الوحدات المشكوك بولائهم واحتجزهم وعين بدلاً منهم ضباطاً موالين له ثم بدأ بالتحرك للسيطرة على مقر قيادة الجيش العراق ووزارة الدفاع ومعسكري الرشيد والوشوش إضافة إلى مؤسسة الهاتف والإذاعة والقصر الملكي وقصر نوري السعيد. وقد سارع عبد السلام عارف شخصياً إلى دار الإذاعة للإعلان عن إطاحة الملكية الهاشمية

¹⁴⁷ جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا، ص.ص. 116 - 118.

¹⁴⁸ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 257 - 265.

وإعلان الجمهورية العراقية. في هذا الوقت كانت قوة من الموالين لعارف تقتحم قصر الملك فيصل الثاني وتطلب منه الاستسلام، فاستجاب الملك الشاب وخرج برفقة خاله وخالته وجدته وزوجة خاله وعدد من أفراد الأسرة المالكة إلى الحديقة فسارع أحد الجنود إلى إطلاق النار عليهم وقتلهم جميعاً. وقد يكون خلف القرار الخوف من قيام بريطانيا بالتدخل وإعادة الملكية إلى العراق كما حدث في العام 1941. في الوقت نفسه كان نوري السعيد قد فرّ من قصره متنكراً بلباس امرأة ولجأ إلى قصر صديقه التاجر الثري محمود الاسترابادي في الكاظمية، كما فعل في السابق خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني. لكن عبد السلام عارف أعلن مكافأة مالية لمن يقوم بإدلاء معلومات عن السعيد فحاول في 15 تموز يوليو الخروج من منزل صديقه والتوجّه بسيارة إلى الحدود الأردنية إلا أن عدداً من المارة كشف أمره وأبلغ عنه فقامت قوة من الجيش بتطويقه وأطلقت النار عليه وأردته قتيلاً. وفي روايات أخرى قيل إن نوري السعيد انتحر بمسدسه الخاص بعدما وجد نفسه محاصراً وخوفاً من أن يتم تعذيبه والتنكيل به.¹⁴⁹

أحدثت الثورة العراقية انقلاباً كبيراً في الموازين الإقليمية في الشرق الأوسط، فلقد أطاحت الهاشميين الذين شكلوا عماد النفوذ البريطاني في المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى. كما أن الثورة وجهت ضربة قاصمة لحلف بغداد وسياسة الأحلاف التي اعتمدها الغرب في المنطقة، إضافة إلى أنها صعدت من نفوذ جمال عبد الناصر ومن خلفه حليفه الجديد الاتحاد السوفياتي. وقد تفجّر غضب القوى الغربية فأرسلت الولايات المتحدة قوات من الأسطول السادس للنزول في بيروت تحت ذريعة منع تمديد الشيوعية، فيما أرسلت بريطانيا قوات مظلية إلى الأردن لمنع انهيار النظام الملكي الهاشمي فيه. في المقابل فلقد أعلن عبد الناصر دعمه للثورة العراقية واعتبر أن أيّ عدوان تتعرّض له سيكون بمثابة عدوان مباشر على الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا). كذلك رحّب الاتحاد السوفياتي بقيادة نيكيتا خروتشيف بالثورة العراقية وأعلن استعداد بلاده للتعاون معها في كافة المجالات.¹⁵⁰ وكان عبد السلام عارف ينوي ضم العراق إلى دولة الوحدة إلا أن قاسم عارضها بضغوط من الحزب الشيوعي العراقي الذي تأثر بموقف زعيم الحزب الشيوعي السوري خالد بكداش المعارض للوحدة.

¹⁴⁹ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 85.

¹⁵⁰ جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا، ص.ص. 215 - 219.

سوريا.. الوحدة والانفصال

لم تنش الوحدة طويلاً نتيجة المعارضة الكبيرة التي لقيتها من القوى الإقليمية والدولية ومن القوى السورية المحلية. فلقد كان الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي معارضين للوحدة. وبعد الوحدة أعلن حزب البعث معارضته لها نتيجة خيبة أمله من أن يتحوّل إلى الحزب الحاكم. ناهيك عن معارضة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين والإقليميين لهذه الوحدة، وحتى معارضة الاتحاد السوفياتي وحلفائه لها. إلا أن العامل الحاسم الذي قرر مصيرها وأنها كانت الإجراءات الاقتصادية التي قام بها جمال عبد الناصر في سوريا والتي أضرت بالدرجة الأولى بمصالح النخب الدمشقية التي كانت أهم عنصر مؤيد للوحدة مع مصر. فلقد أراد عبد الناصر منح الطبقات الريفية الفقيرة، خصوصاً الفلاحين حقوقاً مساوية للحقوق التي حصل عليها الفلاح المصري في ظل ثورة يوليو، فقام عبد الناصر بإصلاح زراعي حدّد فيه الملكية الزراعية وأعطى مساحات شاسعة للفلاحين المدقعين بالفقر. وقد أضّر هذا الإجراء بمصالح البورجوازية الشامية العليا التي كانت تمتلك غالبية الأراضي الزراعية، بل والقرى في مناطق الغوطة وريف دمشق. كما أضّر ذلك بمصالح الطبقة البورجوازية العليا وطبقة الوجهاء في حمص وحماه وحلب. كذلك فلقد كان عبد الناصر قد خاب أمله من لعب البورجوازية المصرية لدور في عملية التنمية الاقتصادية، بل إن هذه البورجوازية كانت قد بدأت تلعب دوراً في استقطاب عناصر معادية للثورة في مصر ما دفعه إلى القيام بالإجراءات الاشتراكية في العام 1960 في مصر. وقد نقل عبد الناصر هذه التجربة إلى سوريا وقام بسلسلة تأميمات كبرى أضرت بمصالح الطبقة البورجوازية السورية. هنا لم يكن غريباً أن يكون ضابطان من أبناء العائلات السورية البورجوازية والمالكة للأراضي الزراعية هما عبد الكريم النحلاوي وحيدر الكزبري من قاما بالانقلاب على دولة الوحدة.¹⁵¹

وقد ولد عبد الكريم النحلاوي لأسرة دمشقية في العام 1926 ووصل إلى رتبة عقيد خلال مرحلة الوحدة، وكان ضمناً يؤيد الأخوان المسلمين وقد عيّن خلال مرحلة الوحدة نائباً لمدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر الذي كان قد عيّن كنائب لعبد الناصر بعد استقالة أكرم الحوراني وهربه إلى لبنان. وقد أتاح مركز النحلاوي حرية الحركة له والتنسيق بين مختلف ضباط القطاعات المعارضين للوحدة ومن أبرزهم حيدر الكزبري قائد قوات البادية والذي كان على علاقة وثيقة بالعاقل الأردني الحسين بن طلال. وقد تمكّن هذان الضابطان من قيادة الانقلاب في صبيحة 28 أيلول

¹⁵¹ جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا، ص.ص. 120 - 121.

سبتمبر 1961 في حركة فجائية وتمكّنوا من محاصرة عبد الحكيم عامر في مقرّه، فأرسل عبد الناصر قوة جوية إلى اللاذقية لتحريره وفي النهاية توصل إلى تسوية مع الانقلابيين تقضي بتحرير عامر في مقابل عدم تدخل مصر عسكرياً ضد الانفصاليين.

في اليوم التالي للانفصال تمّ تشكيل حكومة انتقالية برئاسة مأمون الكزبري، شقيق حيدر الكزبري وعضوية أفراد ينتمي معظمهم إلى طبقة الوجهاء وطبقة البورجوازية السورية، فتشكّلت الوزارة من ليون زمريا وزيراً للمالية والتموين وفرحان الجندلي وزيراً للصحة والإسعاف العام وعزة النص وزيراً للتربية، والتعليم والإرشاد، وعدنان القوتلي وزيراً للداخلية، وأمين ناظيف وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي، وعوض بركات وزيراً للاقتصاد والصناعة، وفؤاد عادل وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل، وأحمد محمد سلطان وزيراً للعدل والأوقاف، ونعمان الأزهرى وزيراً للتخطيط والشؤون البلدية والقروية وعبد الرحمن حورية وزيراً للأشغال العامة والمواصلات، ومصطفى البارودي وزيراً للإعلام وسعيد السيد وزيراً للإصلاح الزراعي. وقد نظمت الحكومة الانتقالية انتخابات رئاسية فاز فيها ناظم القدسي فيما اختير معروف الدواليبي رئيساً للحكومة. وقد صدرت مقررات عدة عن الحكم الجديد في سوريا أهمها إلغاء قانون العمل الذي كان قد أصدره جمال عبد الناصر ويمنح فيه العمال حقوقاً كبيرة، والعودة للعمل بقانون العمل القديم الذي ينحاز لصالح رب العمل. كذلك فلقد ألغى الحكم الانفصالي القرارات الاشتراكية التي أصدرها عبد الناصر وأعاد المصانع والمؤسسات التي أمت إلى مالكيها، إضافة إلى إلغاء الكثير من مفاعيل الإصلاح الزراعي التي قام بها عبد الناصر ومن ضمنها إلغاء قرار منح الجنسية لآلاف الفلاحين الكرد في شمال سوريا لغرض انتزاع الأراضي الزراعية التي منحت لهم بموجب قانون الإصلاح الزراعي.¹⁵²

البعث في السلطة

لم يدم الانفصال لأكثر من عام ونصف إذ إنه في صبيحة الثامن من آذار 1963 قام ضباط بعثيون وناصريون بالانقلاب على الانفصاليين وألقوا بالقبض على عبد الكريم النحلاوي وقرروا نفيه إلى ألمانيا، ثم أعلنوا عزمهم البدء بمحادثات وحدة ثلاثية مع مصر والعراق. وسبق للضباط البعثيين والناصريين أن أطاحوا بقاسم في شباط / فبراير من العام 1963. وقد اجتمعت عوامل عدة، ساعدت في إسقاط عبد الكريم قاسم، وذلك في بداية العام 1963. أبرزها:

¹⁵² كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 283 - 291.

- التوتر الذي أصاب علاقته مع الحزب الشيوعي، والمتأني من خوف الزعيم العراقي وقلقه على نفوذه وسلطته، الأمر الذي أدّى إلى تراجع نسبة المؤيدين له ضمن الحزب، وذلك برغم بقاء قيادات الحزب على ولائها له.

- في أيلول/ سبتمبر من العام 1961، حدث الانفصال بين سوريا ومصر، الأمر الذي أدّى إلى إزالة التوتر والتشنج بين الضباط القوميين المعروفين بولائهم لعبد الناصر، وبين المعارضين له الذين جاهره بالعداء، وذلك إثر خلافه مع نائبه في سوريا خلال فترة الوحدة، القيادي البعثي أكرم الحوراني، الذي قدّم استقالته في سنة 1959. وهذا ما جعل التعاون بينهم من أجل تنسيق وتوحيد جهودهم ممكناً. وانطلقت في صباح الثامن من شباط/ فبراير من العام 1963، عدد كبير من السيارات التي كان يستقلها ضباطٌ قوميون، قادمون من معسكر الوشواش ومتجهون إلى منطقة أبو غريب، حيث كانت وجهتهم الكتيبة الرابعة المدرعة في الجيش، الواقعة تحت سيطرة الضباط البعثيين، والتي ستكون ركناً أساسياً في الانقلاب ضد قاسم. حيث قامت دبابات الكتيبة الرابعة بحصار جميع المقار الحكومية، خصوصاً مبنى وزارة الدفاع ومبنى الإذاعة الواقع في منطقة الصالحية، وذلك من أجل بث بيان الانقلاب. الذي كان خاطفاً ومفاجئاً، حيث تمّ بنجاح عزل قاسم عن جميع مناصريه، وخصوصاً الشيوعيين منهم، بعدها ألقي القبض عليه وبرفقته عدد من معاونيه، وذلك في التاسع من شباط/ فبراير في مبنى وزارة الدفاع، ليتم بعدها نقله إلى مقر الإذاعة والتلفزيون حيث تجمّعت قيادة الانقلاب، التي أقامت لقاسم محكمة ثورية سريعة، تمّ إثرها تنفيذ حكم الإعدام به. وقام الشيوعيون بمحاولة الدفاع عن قاسم، من خلال نزول المسلحين إلى الشارع، الأمر الذي أدّى إلى اشتباكهم مع البعثيين على مدى أيام عدة، لكن، الجيش تمكّن من فرض سيطرته عليهم والقضاء على تمردهم. وعُدّ ذلك ضربة موجعة للاتحاد السوفياتي ولنفوذهم في المنطقة، فقد كان قاسم حليفاً لهم. وقام الضباط القوميون بعد احتجاز قاسم ونقله إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون، بالاتصال مع عارف الذي كان تحت الإقامة الجبرية، وقام وفد منهم بمرافقته إلى مقر الإذاعة والتلفزيون حتى يتمكن من حضور محاكمة قاسم. وهناك قام عارف جاهداً بمحاولة التوسط لدى لضباط من أجل العفو عنه، إلا أن محاولته باءت بالفشل، حيث أصروا على تنفيذ حكم الإعدام به. ثم بعدها تمّ اختيار عارف ليكون رئيساً للجمهورية، فيما يتولى أحمد حسن البكر زعيم حزب البعث منصب نائب الرئيس.

وكان تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي - فرع العراق، في بدايات الخمسينيات، وذلك نتيجة لتأثير من البعثيين السوريين.

وفي العام 1953، كانت بداية ظهور الحزب وللمرة الأولى إلى العلن، حيث جرى انتخاب أول قيادة قطرية للحزب، والتي تكوّنت من: محمد سعيد الأسود وفخري ياسين قدوري وجعفر قاسم حمودي وشمس الدين كاظم وفؤاد الركابي الذي تم انتخابه أميناً للسر، وهو يُعدّ منصباً مساوياً لمنصب الأمين العام للحزب. وكانت للحزب نشاطات عدة منها: رفضه الحكم الملكي، ومشاركته في ثورة عام 1958، ليكون شريكاً في أول حكومة بعد انتهاء الثورة. كما وقف الحزب إلى جانب عارف ومقديماً له كل الدعم المطلوب، وفضله على قاسم، حيث قام بمعارضته، وذلك لأن قاسم أراد التفرد بالحكم، معتمداً بذلك على الحزب الشيوعي كركن أساسي في السلطة. حيث عمد إلى إبعاد البعثيين عن مقاليد السلطة، وذلك بعد إسقاطه عارف، ثم بعدها شارك الحزب في الثورة التي قام بها الشواف، لكنّ أعضائه تعرّضوا للتنكيل الذي مارسه ضدهم قاسم والشيوعيون، كما تمّت ملاحقة أعضائه، إثرها قام الحزب بتنظيم محاولة لاغتيال قاسم - كما تمّ ذكره آنفاً - والتي باءت بالفشل، وذلك في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1959. كما لعب الحزب دوراً مهماً ورئيسياً في عملية إسقاط قاسم، وذلك في العام 1963، الذي قبل أن يتقاسم الحكم مع الضباط الناصريين المعروفين بولائهم لعبد الناصر، بالإضافة إلى قبوله بتسمية عبد السلام عارف رئيساً للعراق، والذي كان معروفاً بقربه من الزعيم المصري، في حين يتولى منصب نائب الرئيس زعيم الحزب أحمد حسن البكر.

لكن الخلاف ما لبث أن وقع بين الضباط الناصريين وعارف من ناحية، والضباط البعثيين من ناحية أخرى. وذلك بسبب عزم البعثيين وإصرارهم على إعدام قاسم، وقيامهم بالتنكيل بالشيوعيين، الأمر الذي عمل عارف جاهداً لمُنعه. ولكن السبب الرئيس يعود إلى قيام البعثيين العراقيين والسوريين على وضع العراقيل أمام محادثات الوحدة الثلاثية، التي سبق وأن دعا عبد الناصر إليها مع كل من العراق وسوريا، وذلك بعد إسقاط قاسم في العراق، في شهر شباط/فبراير من العام 1963، ثم حدث بعده الانقلاب الذي قام به البعثيون والضباط الناصريون في سوريا ضد نظام الانفصال، وذلك في شهر آذار/مارس من العام نفسه. وإثره سارع عارف في 18 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1963، بإطاحة البعثيين وإبعادهم عن مقاليد الحكم، وفي مقدّمتهم أحمد حسن البكر نائبه، وذلك ضمن حركة أسماها بالحركة التصحيحية. فقد كان يخشى أن يقوم البعثيون بإطاحة ه كما فعلوا في سوريا، وذلك عندما أقدم الحافظ على إطاحة الناصريين في شهر تموز/يوليو من العام 1963. كان الحافظ متسلماً منصب وزير الداخلية، وتشارك في الحكم الناصريون والبعثيون على حد سواء، وكان لؤي الأتاسي رئيساً للجمهورية، الذي عُرف عنه قربه للناصريين الذين عقدوا الآمال عليه في أن يكون عوناً ودعماً لهم في عملية إعادة الوحدة بين سوريا ومصر.

إلا أنه بعد توليه منصبه أخذ يتلکأ في تحقيق ذلك نتيجة الضغوط التي مارسها البعثيون عليه. وفي 18 تموز/ يوليو 1963 نظم الناصريون محاولة انقلاب بقيادة العقيد جاسم علوان، إلا أن المحاولة فشلت. فقام الحافظ بالتنكيل بالضباط الناصريين وقتل واعتقل العشرات منهم من ضمنهم قائد الانقلاب. بعد ذلك عزل الرئيس الأتاسي وتولى هو السلطة مباشرة. وبنتيجة ذلك ساءت العلاقات مع مصر وأنهيت محادثات الوحدة الثلاثية بين العراق وسوريا ومصر. وقد بقي الحافظ في السلطة حتى شباط فبراير 1963 حين تمت إطاحة ه وبالجنح اليميني في حزب البعث ومن ضمنه المؤسسون ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني من السلطة على يد صلاح جديد وحافظ الأسد. وقد حكم الثنائي جديد - الأسد سوريا حتى العام 1970 لحين استئثار حافظ الأسد بالسلطة في العام 1970. وفي حين كان صلاح جديد ذا نزعة يسارية نادى بتطبيق إجراءات اشتراكية صارمة وتأميم الشركات الكبرى والقطاع الخاص لصالح الدولة، فإن حافظ الأسد تقرب من تجار دمشق وتعهد بالمحافظة على مصالحهم ما أعطاه في النهاية أفضلية على جديد في الصراع على السلطة. وقد أدى الانقلاب على الحافظ وعفلق والبيطار والحوراني إلى إحداث شرخ كبير بين البعث السوري والبعث العراقي كان من نتائجه عداء سيدوم لعقود بين العراق وسوريا.¹⁵³

المناخ الدولي والإقليمي وحرب 1967

تزامنت الأحداث التي وقعت في سوريا، مع حدوث تحولات وتغييرات جذرية حصلت على مستوى النظام الإقليمي من جهة، وعلى مستوى النظام العالمي وتوازناته من جهة أخرى. فحتى العام 1965، كان باستطاعة جمال عبد الناصر اللعب على التناقضات العديدة الموجودة بين الشرق والغرب، وذلك من أجل أن يبني قوة مصر، ويعزز من مكانتها الإقليمية والدولية. لكن، مع بداية عام 1965، بدأ الوضع يتغير، نتيجة لعوامل عدة، كان أبرزها: أزمة الصواريخ الكوبية التي حدثت في العام 1962، وإثرها اقتنعت قيادات عليا ونافذة في الاتحاد السوفياتي، بضرورة العمل على خفض حدة التوتر الحاصل مع الولايات المتحدة. حيث قام ليونيد بريجنيف بإسقاط الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشيف في شهر تشرين الأول/ اكتوبر من العام 1964، وكان بريجنيف يرى أنه يتوجب على الاتحاد السوفياتي الالتزام بالبنود التي أرساها وتم الاتفاق عليها في مؤتمر يالطا

¹⁵³ كمال ديب، سورية في التاريخ، ص.ص. 307 - 312. وجمال واكيم، صراع القوى الكبرى، ص.ص. 119 - 122.

وذلك في عام 1945، وأن تكتفي موسكو بنفوذها على دول الكتلة الاشتراكية، الأمر الذي جعل دعمها محدوداً للدول القريبة منها، خصوصاً في دول العالم الثالث والشرق الأوسط. كما أن اغتيال جون كينيدي في شهر تشرين الثاني من العام 1963، أعطى دفعاً لتقدم تيار المحافظين الجدد وبالتالي صعوده في الولايات المتحدة الأميركية، حيث كانوا يطمحون إلى بناء إمبراطورية عالمية تُشكل قوة عظمى. كما عمل هؤلاء إلى إسقاط كل الأنظمة التي لا تقدّم فروض ولأئها إلى واشنطن.

في الوقت ذاته عمل فيصل بن عبد العزيز على إطاحة أخيه سعود عن عرش حكم المملكة العربية السعودية، وبذلك يكون قد أغلق فصل صراع واقتتال الإخوة على السلطة. هذا الصراع الذي انطلقت شرارته منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي، وذلك بسبب محاولات سعود الدائمة والرامية إلى إبعاد أخوته عن تسلم مقاليد الحكم. وقد ساعده في ذلك كون جد فيصل لأمه كان زعيم المشايخ الوهابيين، هذا الأمر دفع بالمؤسسة الدينية في السعودية لأن تدعم وتُساند وصول فيصل إلى تسلم الحكم. الذي عمل بمجرد تسلمه السلطة على تقديم كل الدعم لمنظمة الأخوان المسلمين الموجودين في جميع الدول العربية والإسلامية، وذلك بغية تدعيم وتمكين النفوذ السعودي من ناحية، والوقوف في وجه المد المتزايد للتيار القومي واليساري وصعودهما في العالم العربي من ناحية أخرى. وهو أي فيصل لم يكتفِ بذلك، بل عمل على إقامة المؤتمر الإسلامي الذي أراده بديلاً عن جامعة الدول العربية لكونها تُشكل امتداداً للنفوذ المصري، وقد استشعرت القاهرة بالضغوط التي مارسها عليها الإدارة الأميركية منذ بداية العام 1965، وذلك حين قامت بإفشال محاولة تمرد كان الأخوان المسلمون قد نظموها بدعم من واشنطن والرياض. كما عملت الولايات المتحدة في العام 1967، بتقديم كل الدعم لإسرائيل أثناء عدوانها على الأردن ومصر وسوريا، وكان نتيجتها أن قامت إسرائيل باحتلال غزة والجولان والضفة الغربية وسيناء.

نكسة 1967

في الوقت الذي كانت فيه الصراعات العربية تتفاقم وتتصاعد، كانت إسرائيل والولايات المتحدة تعملان من خلفهما وتحركان المؤتمرات من أجل توجيه ضربة موجعة للدول العربية التقدمية واليسارية، وكل ذلك كان يتم بالاتفاق مع المملكة العربية السعودية التي قدمت لهما كل الدعم المطلوب. ومنذ عام 1960، عملت إسرائيل على زيادة التوتر وتصعيده مع الدول العربية، وذلك بسبب قيامها على تحويل مياه نهر الأردن، في المقابل لم تستطع جامعة الدول العربية فعل أي

شيء ووقفت عاجرة أمام هذا الوضع. ومع بداية عام 1967، زادت حدة التوترات بين إسرائيل والدول العربية. حيث قام رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول في أوائل شهر أيار/مايو، بالعمل على تصعيد لهجته، كما هدد باجتياح دمشق بحجة وضع حد للعمليات الفدائية الفلسطينية التي كانوا يقومون بها عبر الحدود وذلك منذ بداية العام 1965. وقد حدثت إثرها مواجهات عدة، بين الجيش الإسرائيلي من ناحية، وبين الجيشين الأردني والسوري من ناحية أخرى. كما قام الجيش الإسرائيلي في 14 أيار/مايو من العام 1967، وممناسبة الذكرى 19 لقيام دولة إسرائيل، بإجراء عرض عسكري في مدينة القدس الغربية، مخالفاً بذلك كل الأعراف والقوانين والمواثيق الدولية التي أكدت ودعت إلى تدويل قضية مدينة القدس، وبالتالي جعلها مدينة منزوعة السلاح.

كما أعلن عبدالناصر، وبرغم وجود خلافات كبيرة بينه وبين البعث السوري، أنه في حال حدوث أي عدوان على سوريا من قبل إسرائيل، ستقوم مصر بالرد بعملية عسكرية ضد إسرائيل. كما جاءت زيارة محمد فوزي رئيس الأركان في الجيش المصري لسوريا، رداً على العرض العسكري الذي قام به الجيش الإسرائيلي، وكان الغرض من الزيارة هو العمل على تنسيق عسكري بين مصر وسوريا للوقوف في وجه التهديدات الإسرائيلية والتصدي لها. وعملت مصر في 15 أيار على حشد قواتها في منطقة سيناء، في الوقت نفسه تقدم المندوب السوري في الأمم المتحدة بمذكرة احتجاج إلى مجلس الأمن الدولي بسبب التهديد والتصعيد الإسرائيلي المستمر لسوريا. وبعدها بيومين أي في 17 أيار قامت مصر بالطلب من مجلس الأمن بالعمل على سحب القوات الدولية المتمركزة في منطقة سيناء منذ العام 1956. كما تحدثت معلومات عن قيام إسرائيل بحشد قواتها في منطقة النقب، ليكون مستعداً لمواجهة الجيش المصري، في الوقت نفسه قام الأسطول الأميري السادس بالتوجه إلى شرق المتوسط من أجل مراقبة التصعيد العسكري الحاصل في تلك المنطقة. وللتضييق على الملاحاة الإسرائيلية قام عبدالناصر بإغلاق مضيق تيران وذلك في 22 أيار، الأمر الذي اعتبرته تل أبيب إعلان حرب، وهذا أيضاً ما نفاه المندوب المصري في مجلس الأمن، وذلك في جلسة 29 أيار، من أن مصر لن تقوم بأية خطوات استفزازية أو حربية ضد إسرائيل. في الوقت ذاته عمل العراق على نقل وحدات إلى الجبهة السورية لتكون سنداً لها في وجه أي تحرك عسكري إسرائيلي محتمل.

لكن، الأحداث تسارعت بعد ذلك، حيث شنت طائرات حربية إسرائيلية، في صباح 5 حزيران/يونيو من العام 1967، غارات على المطارات المصرية، كان نتيجتها تدمير 80% من الأسطول الجوي الحربي المصري، ثم قامت بعدها بتدمير معظم الأسطول العسكري الجوي الأردني المتمركز في المطارات الأردنية، ثم لتنتقل بعد ذلك إلى تحطيم 70% من الأسطول الجوي العسكري السوري. وبذلك استطاعت إسرائيل من تحقيق فوز كبير على القوات العربية التي كانت مكشوفة تماماً لها.

حيث قامت المدرعات الإسرائيلية باجتياح سيناء، وقد تصدّى لها الجيش المصري في البداية، لكن مع غياب التغطية الجوية المصرية، استطاع الطيران الإسرائيلي تدمير المدرعات ووحدات المشاة المصرية، الأمر الذي أدّى إلى هزيمتها. ومما زاد الأمر سوءاً القرار الذي اتخذته عبدالحكيم عامر قائد الجيش المصري، بالانسحاب الذي تم بصورة عشوائية ودون تنظيم، وكانت نتيجته انهيار الدفاعات المصرية، وزيادة الخسائر المصرية التي قام الطيران الإسرائيلي بضربها أثناء عملية الانسحاب. وفي التاسع من شهر حزيران، كانت شبه جزيرة سيناء وحتى الضفة الشرقية لقناة السويس واقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي، الذي حوّل مساره لمواجهة الجيشين السوري والأردني.

بدأت القوات الأردنية في 6 حزيران/يونيو بضرب الجيش الإسرائيلي المتمركز على امتداد الخط الفاصل بين منطقة الضفة الغربية وأراضي 1948، وفي المساء كان الجيش الإسرائيلي قد فرض سيطرته على كامل مدينة القدس، ثم بدأ بعدها بالتوسّع فرضاً سيطرته على منطقة الضفة الغربية وصولاً إلى منطقة نهر الأردن. بعدها عملت إسرائيل على توجيه أنظارها إلى منطقة الجولان في سوريا والمطلّ أيضاً على سهل الحولة. عملت سوريا في ذلك الوقت بالاكتماء بضرب المستعمرات الإسرائيلية، دون دخول قواتها للأراضي الفلسطينية المحتلة، فقد ظنت قياداتها أن مدة الحرب بين الجيش المصري والإسرائيلي ستطول، مما يعطيها الوقت الكافي من أجل تدعيم قواتها استعداداً للمواجهة مع الجيش الإسرائيلي. لكن الأمور جرت على غير المتوقع، خصوصاً بعد احتلال إسرائيل في 9 حزيران شبه جزيرة سيناء، والتي إثرها أخذت القيادة الإسرائيلية قراراً بفرض سيطرتها على الجولان واحتلاله، حيث قام سلاح الجو الإسرائيلي بقصف المواقع السورية التي لا تحظى بدفاع جوي، ترافق ذلك مع اجتياح الجيش الإسرائيلي للهضبة وتصدّ غير منظم للجيش السوري للهجمات الإسرائيلية، كانت نتيجتها سقوط الدفاعات السورية في صباح 10 حزيران، واحتلال الجيش الإسرائيلي لهضبة الجولان ومدينة القنيطرة. وهكذا خرجت إسرائيل منتصرة بعد أن وجهت ضربة ثلاثية موجعة لجيوش مصر والأردن وسوريا، وموجبها احتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء التي تعادل مساحتها ضعف حجم مساحة فلسطين، كما احتلت غزة والضفة الغربية، وكذلك هضبة الجولان ذات الموقع الاستراتيجي والغنية بالموارد المائية الجوفية. أما بالنسبة لخسائر الحرب، فقد بلغت خسائر إسرائيل في هذه الحرب 1000 قتيل و5000 جريح، أما خسائر الجيش المصري فقد بلغت 10000 قتيل، و5000 أسير، في المقابل بلغت خسائر الجيش الأردني 6000 قتيل، و3000 جريح و500 جندي أسير، فيما بلغت خسائر الجيش السوري 1000 قتيل، و400 جندي أسير.¹⁵⁴

¹⁵⁴ راجع محمد حسنين هيكل، الانفجار: حرب الثلاثين عاماً، القاهرة: الشروق، 1990.

ونتيجة لهذه الحرب التي وصفت بالنكسة، تكون الدول التقدمية العربية، قد مُنيت بضربة موجعة، خصوصاً أن سوريا ومصر كانتا من أكبر المتضررين من هذه الحرب.¹⁵⁵ وأصبحت إسرائيل للغالبية من العرب أمراً واقعاً فرض عليهم أن يتعاملوا معها ويتقبلوها.¹⁵⁶ وهذا ما فعلته خصوصاً دول الطوق، - طبعاً باستثناء سوريا - التي وافقت على القرار رقم 242، الذي يطلب من إسرائيل أن تنسحب من الأراضي التي قامت باحتلالها في العام 1967، مقابل الاعتراف بإسرائيل والتوقيع على اتفاقيات سلام معها. وكان من نتيجة الهزيمة في الحرب في سوريا إلى وجود نظريتين:

- **الأولى:** قادها صلاح جديد، والتي رأت أن الهزيمة كان سببها مؤامرة إمبريالية دُبّرت وحيكت خيوطها بالتنسيق والتعاون مع "الأنظمة الرجعية العربية". في الوقت نفسه رأى هذا الموقف أن على سوريا إعادة بناء قوتها، وذلك عبر قيامها بثورة اشتراكية مماثلة تماماً للنموذج السوفييتي، مع الانحياز التام والكامل إلى جانب معسكر الدول الاشتراكية.¹⁵⁷

- **الثانية:** قادها حافظ الأسد وزير الدفاع السوري، الذي أرجع الهزيمة في الحرب إلى الانقسامات الداخلية ضمن صفوف الشعب السوري، وإلى الصراعات والخلافات العربية، وبناء عليها دعا الأسد إلى ضرورة حلّ المشكلات الداخلية بين أبناء الشعب السوري، وإلى العمل على تقارب وجهات النظر بين جميع الدول العربية، وذلك ضمن إطار التضامن العربي، من أجل توحيد كافة الجهود وتوظيفها وتوحيدها ليتمّ بعدها تحرير كامل الأراضي المحتلة عام 1967.¹⁵⁸

أما على مستوى القضية الفلسطينية، فقد أدّت نكسة حزيران عام 1967، إلى صعود وظهور الفصائل الفدائية المسلحة، وفي مقدّمتها: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وحركة فتح، كما تراجعت نسبة المصادقية التي تمتعت بها القيادة المدنية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية،

¹⁵⁵ Maclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham; المصدر ما قبله ص. 246

¹⁵⁶ Van Dam, Nikolas; *The Struggle for Power in Syria, Sectarianism, Regionalism and Tribalism in Politics, 1961-1978*, Groom Helm limited, London, 1979, p.84.

¹⁵⁷ المصدر نفسه

¹⁵⁸ محمد زهير دياب، الموقف السوري من التسوية السلمية للنزاع العربي الإسرائيلي، مجلة الدراسات الفلسطينية عدد 9 شتاء 1992، ص.ص. 86-87.

والتي تأسست في العام 1964، وكان يمثلها أحمد الشقيري.¹⁵⁹ وقد زاد تأييد هذه الفصائل، خاصة بعد معركة الكرامة في العام 1968، والتي خاضوها ضد القوات الإسرائيلية. والتي عملت في ما بعد على تدعيم نفوذها ضمن مؤسسات وهيئات "منظمة التحرير"، الأمر الذي مهّد الطريق أمام ياسر عرفات زعيم فتح في العام 1969، ليتسلّم رئاسة اللجنة التنفيذية للمنظمة، وذلك خلفاً للشقيري. لكن عرفات وبحجة المحافظة على وحدة القرار الوطني الفلسطيني والمستقل، وذلك وفق ما ورد في الميثاق الموقع بين حركة فتح ومنظمة التحرير، عمل على التفرد باتخاذ القرارات السياسية لمنظمة التحرير. الأمر الذي أدّى إلى حدوث صدام وخلاف بينه وبين القيادة الأردنية من جهة، وبينه وبين القيادتين اللبنانية والسورية من جهة أخرى، فقد وجدت ان تركز الفدائيين على أراضيها خطر عليها حيث باتوا يأسسون دولة داخل الدولة. في الوقت ذاته سعت الدول العربية إلى لعب دور مهم على الساحة الإقليمية، وخصوصاً سوريا التي سعت لانتزاع دور يقوي نفوذها على الساحة الفلسطينية، وذلك في إطار موقفها الشرعي في قضية الصراع العربي - الإسرائيلي. هذا الأمر ساعد في بروز نجم ياسر عرفات المدعوم من مصر والسعودية في العام 1969.¹⁶⁰

دساتير عقد الستينيات

بنتيجة الوحدة مع مصر ألغي الدستور السوري واعتمد دستور موحد للجمهورية العربية المتحدة المكوّنة من إقليم شمالي هو سوريا وإقليم جنوبي هو مصر. لكن بعد الانفصال في العام 1961 صدر دستور سُمّي بدستور الانفصال وهو في حقيقته الدستور السوري لعام 1950. وبعد انقلاب البعث وسيطرته على السلطة صدر دستور جديد لسوريا في العام 1964 والذي أقر مبدأ قيادة الحزب الواحد وهو حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم. وبعد الانقلاب الذي قاده الجناح اليساري في الحزب بقيادة صلاح جديد على ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار صدر قرار عن القيادة القطرية لحزب البعث عدّ بمثابة دستور للبلاد. وقد تمّ اعتماد توزيع السلطات بين:

Laurens Henry ; *Le retour des exilés, la lutte pour la Palestine de 1869 à 1997* , Robert Laffont, Paris ¹⁵⁹
1998, p.941.

¹⁶⁰ هنري لورنس، المصدر نفسه، ص. 945

1 - السلطة السياسية: وتمثلها القيادة القطرية نفسها. وهي التي تعين رئيس الدولة ورئيس الوزراء والوزراء، ولها قبول استقالتهم وإقالتهم .

2 - السلطة الإدارية: ويمثلها رئيس الدولة ومجلس الوزراء. وهي تساهم في التشريع؛ حيث تصدر المراسيم التشريعية بتوقيع رئيس الدولة، بعد إقرارها في مجلس الوزراء.

أما رئيس الدولة فهو الأمين العام للقيادة القطرية، وهو صلة الوصل بين السلطتين السياسية والإدارية.

وفي أواخر العام 1969 صدر دستور استثنائي بعد المؤتمر القطري الرابع لحزب البعث، لكن لم يعمل بهذا الدستور طويلاً نتيجة قيام الحركة التصحيحية ووصول حافظ الأسد إلى الحكم ومسارحته إلى إصدار دستور مؤقت في أوائل العام 1971 ليتم بموجبه انتخابه رئيساً للجمهورية.

الفصل الثاني

لبنان 1958 – 1970

في عام 1956، مُنيت بريطانيا وفرنسا بهزيمة موجعة في الشرق الأوسط، وذلك بسبب خسارتها الحرب وانتصار عبدالناصر على العدوان الثلاثي (بريطانيا، فرنسا، إسرائيل)، الأمر الذي دفع بالرئيس الأميري دوايت أيزنهاور إلى الإعلان عن هدفه في "محاربة الشيوعية"، بالإضافة إلى تدخله في "مناطق الفراغ" حتى يضع حداً لانتشارها. فوز عبدالناصر حوَّله قدوة ورمزاً على امتداد الوطن العربي والأفريقي، خصوصاً لقوى التحرر، لكن، هذا الفوز أثار خشية وقلق الأسرة الحاكمة في السعودية على ضمان واستمرارية حكمها، خاصة أن معارضيه جعلوا من عبدالناصر قدوة ونموذج يُحتذى من أجل إحداث تغيير في السعودية. مما دفع بالملك سعود بن عبدالعزيز بعد أن كان حليفاً مع عبدالناصر ضد الهاشميين، أن يتخذ موقفاً مغايراً ويناصبه العداء. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وضع يده بيد خصومه الهاشميين وتحالف معهم ضده، كما حاول الملك سعود أكثر من مرة، اغتيال عبدالناصر، بواسطة عبدالحميد السراج، حيث قام بإرسال شيكاً له بقيمة ملايين الدولارات، وذلك من أجل أن يُسقط الطائرة التي تُقل عبدالناصر، إلا أن السراج رفض وأخبر عبدالناصر بخطة الملك سعود وسلَّمه الشيك. ورداً على ذلك عمل الملك سعود في سوريا على تشجيع ودعم معارضي عبدالناصر من أجل الانقلاب ضده، والتقى الجهد الذي قام به الملك سعود، مع المساعي المبذولة من قِبَل الولايات المتحدة الأميركية، ورفض الحزب السوري القومي الاجتماعي، والحزب الشيوعي السوري قيام الوحدة بين سوريا ومصر.

التطورات الإقليمية والدولية

الوحدة بين سوريا ومصر، تَمتَّ في 22 شباط، إثر توقيع اتفاقية بهذا الخصوص بين كلٍّ من الرئيسين شكري القوتلي وعبدالناصر. وقبل توقيع هذه الاتفاقية، في أوائل شهر كانون الثاني من العام 1958، قام وفد مؤلف من ضباط سوريين في مقدمتهم أمين الحافظ، بزيارة سرية إلى مصر، حيث عرضوا على عبدالناصر قيام وحدة بين مصر وسوريا. هذه الزيارة أتت في وقت كانت تتعرَّض سوريا فيه

لتهديدات تركية بشن حرب عليها، بسبب موقفها الراض للانضمام لـ "حلف بغداد". وقَبِلَ عبد الناصر بقيام وحدة بين البلدين، ولكن بعد تردد شديد، بسبب خشيته من المشكلات التي سترافق إعلان قيام الوحدة، مع وجود معارضين لها سواء في الداخل السوري، أو معارضين من الدول الإقليمية والعالمية. في الوقت نفسه كان لعبد الناصر الرغبة في بسط نفوذه على سوريا، وذلك ظل تنافسه مع السعودية والعراق وتركيا على مناطق النفوذ في منطقة المشرق العربي. لذلك وافق عبد الناصر على قيام الوحدة، ولكن بشرط أن تُحل جميع الأحزاب المتمركزة في سوريا، كما هو الحال في مصر، بالإضافة إلى ذلك يمنع على الضباط التدخل في الشؤون السياسية، كما يتم العمل على توحيد برلماني البلدين وهذا التوحيد تم في العام 1960.¹⁶¹ وبناء على ذلك عُيِّن أكرم الحوراني القيادي البعثي في منصب نائب الرئيس. لكن ما لبث أن شَبَّ خلاف ونزاع بين قياديي حزب البعث، صلاح الدين البيطار، وميشيل عفلق، والحوراني من ناحية، وعبد الناصر من ناحية أخرى. حيث كان البعثيون يرون أن قيام الوحدة بين سوريا ومصر سيساهم في جعلهم الحزب الحاكم في البلدين، على خلاف عبد الناصر حيث كان يُعارض فكرة قيام الأحزاب التي كانت من وجهة نظره عقبة تُعرقل وحدة الدولة، وتفتح الباب للتدخل الخارجي، ورأيه هذا جاء نتيجة تجربته التي عايشها في مصر، وأيضاً ما مرت به سوريا من حالات انقسام بسبب تعدد الأحزاب، التي تدين بولائها إلى الأطراف الإقليمية والدولية. كما أن قيادة البعث لم تكن تعلم بالزيارة السرية التي قام بها وفد من الضباط السوريين إلى مصر، مما سبب لهم مفاجأة إثر عرض هؤلاء الضباط على عبد الناصر قيام الوحدة ومن ثم موافقته عليها. في الوقت نفسه اشتداد المعارضة الضمنية للقادة المدنيين في حزب البعث لهذه الوحدة، فقد رأوا فيها ترسيخاً لسيطرة الضباط الناصريين ونفوذهم في الجيش، كل ذلك على حسابهم. ولم تكن لهم الجرأة في الإفصاح عن نياتهم، خاصة أنهم في كل خطاباتهم السابقة يرفعون شعار الوحدة. لكن ما لبث هذا الخلاف أن بلغ الذروة وظهر إلى العلن، وذلك في أواخر العام 1959، وخاصة بين عبد الناصر والحوراني، الذي فاجأ الجميع بتقديم استقالته، وفرَّ إلى لبنان حيث اتخذ منه منبراً لشن هجماته العنيفة والشديدة على دولة الوحدة.

¹⁶¹ جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا، ص.ص. 116 - 118.

الوحدة وتبعاتها الإقليمية

كان لقيام الوحدة بين مصر وسوريا ارتدادات كُبرى، إذ أدّت إلى حدوث خلل في موازين القوى الإقليمية والدولية، مما جعلها تتحالف ضدها، وفي مقدمتهم: الولايات المتحدة الأميركية، وفرنسا، وبريطانيا، وهاشميي العراق، والمملك الأردني الحسين بن طلال، والسعودية. لكن لم تسر بشكل جيد، ففي العراق حدث انقلاب عسكري، وذلك في صيف عام 1958، كانت نتيجته سقوط الأسرة الهاشمية، التي استبدلت بنظام وحكم عسكري يميل إلى الوحدة، على الأقل حتى فترة إسقاط عبدالسلام عارف الذي كان من مؤيدي فكرة قيام الوحدة بين العراق ومصر وسوريا، وعبدالكريم قاسم الذي كان رافضاً لها. بعد ذلك أقدم عبدالسلام عارف في صباح 14 تموز/يوليو من العام 1958، على عزل قادة الوحدات الذين شكّ بأمر ولأثمهم، وتمّ احتجاجهم، كما عمل على تعيين ضباط بدلاء عنهم معروفين بولائهم له، بعدها سارع إلى فرض سيطرته على مبنى قيادة الجيش العراقي، وعلى وزارة الدفاع، بالإضافة إلى معسكري الرشيد والوشوش، كما عمل على وضع يد سلطته على مبنى الإذاعة والقصر الملكي إضافة إلى قصر نوري السعيد، ومؤسسة الهاتف. كما عمل عبدالسلام عارف في مبنى الإذاعة على إصدار بيان يعلن فيه إطاحة الأسرة الملكية الهاشمية وإعلان قيام الجمهورية العراقية. في الوقت نفسه كان الموالون لعارف يحاصرون قصر الملك فيصل الثاني، حيث اقتحموه وطلبوا منه الاستسلام، فوافق الملك الشاب على الاستسلام، وخرج بناء على ذلك من القصر إلى الحديقة برفقة خالته وخاله، وزوجة خاله وجدته، بالإضافة إلى بعض من أفراد الأسرة الهاشمية المالكة، لكن، قام أحد الجنود بإطلاق النار عليهم فأرداهم جميعاً. وقد جاء هذا التصرف نتيجة الخوف من أن تتدخل بريطانيا كما فعلت في العام 1941، وتُعيد الحكم الملكي إلى العراق. أما نوري السعيد، فقد تنكر بثياب امرأة، وهرب من قصره إلى قصر محمود الاسترابادي صديقه التاجر الثري في منطقة الكاظمية، كما فعل في ما مضى خلال فترة ثورة رشيد عالي الكيلاني. خلال هذا الوقت أعلن عبدالسلام عارف عن مكافأة مادية لمن يقدم معلومات عن مكان تمرکز السعيد، الذي حاول الخروج من بيت صديقه في 15 تموز/يوليو، متوجهاً إلى الحدود الأردنية بواسطة سيارة، لكن بعض المارة تعرفوا إليه وأبلغوا عنه، وعلى الفور سارعت قوة من الجيش بفرض حصار عليه، حيث أطلقت عليه النار وقتلته. وفي رواية أخرى، ذُكر أن نوري السعيد أقدم

على الانتحار بواسطة مسدسه الخاص، بعد أن شعر بأنه محاصر، وخشية من أن يتم إلقاء القبض عليه وتعذيبه.¹⁶²

كان للثورة العراقية تأثير كبير في تبدل موازين القوى الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط، حيث أسقطت حكم الهاشميين الذين كانوا يُشكلون ركناً أساسياً من النفوذ البريطاني ومركزهم في المنطقة، وذلك منذ الحرب العالمية الأولى، كما أصابت الثورة "حلف بغداد" في مقتل، وضربة موجعة لسياسة الأحلاف التي انتهجها الغرب في المنطقة، كما عملت على صعود نجم الرئيس عبدالناصر، إضافة إلى الاتحاد السوفياتي حليفه الجديد. الأمر الذي أثار غضب القوى الغربية، فعملت واشنطن على إرسال قوات من الأسطول السادس الذي نزل في بيروت، بحجة الحد من تمدد الشيوعية. كما سارعت بريطانيا إلى إرسال قواتها المظلية إلى الأردن، من أجل حماية النظام الملكي الهاشمي فيها ومنع انهياره. في الجانب الآخر وقف عبدالناصر إلى جانب الثورة العراقية وباركها وأعلن دعمه لها، من خلال تصريحه أن أي محاولة عدوان عليها ستكون بمثابة حرب مباشرة على الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا). كما قام الاتحاد السوفياتي بقيادة نيكيتا خروتشيف بالترحيب بالثورة العراقية، ودعمها من خلال إقامة اتفاقيات تعاون بين البلدين في جميع المجالات.¹⁶³ وكانت رغبة عارف بانضمام العراق إلى دولة الوحدة، التي عارض فكرتها قاسم وبشدة، وذلك نتيجة ضغوط من الحزب الشيوعي، فقد تأثر بموقف خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري، الذي كان رافضاً فكرة قيام الوحدة.

أما بالنسبة إلى لبنان فقد عدّ حكم فؤاد شهاب بداية عهد جديد يُكتب في تاريخ الجمهورية اللبنانية والنظام، وذلك بين عامي 1958 و1964. ولد فؤاد شهاب في العام 1902، والده الأمير عبد الله شهاب ابن حفيد الشقيق الأكبر للأمير بشير الشهابي، الذي كان يحكم منطقة جبل لبنان وذلك بين عامي 1788 و1840. في العام 1907، هاجر والده فانقطعت أخباره ولم يُعرف عنه شيء، فقامت أمه بديعة حبيش وأخواله بتولي مهام تربيته مع أخويه فريد وشكيب. في العام 1916، وليقوم بمساعدة عائلته عمل فؤاد شهاب على الالتحاق بسراي جونية، بعدها في العام 1919، التحق بالجيش الفرنسي من أجل أداء الخدمة العسكرية، وفي العام 1921، دخل الكلية العسكرية الفرنسية في مدينة حمص، حيث تخرّج منها برتبة ملازم أول، وذلك في العام 1923. وفي هذه الأثناء تعرّف إلى ابنة ضابط فرنسي كانت وحدته تعمل في لبنان، هذه الفتاة تُدعى روز رينيه بواتيو،

¹⁶² Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 85.

¹⁶³ جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا، ص.ص. 115 - 119.

والتي تزوّجها سنة 1926. بعدها تمّت ترقّيته لرتبة نقيب وذلك في العام 1929، ثم تسلّم بعدها بعام قيادة كُتّة راشيا. وتمّت في العام 1937، ترقّيته إلى رتبة مقدم في جيش الشرق الفرنسي. كما تمّ تعيينه بعد ذلك قائداً للفرقة اللبنانية التابعة للقوات الفرنسية في الشرق، إثر وقوع سوريا ولبنان تحت النفوذ الفرنسي والبريطاني في صيف العام 1941. بعدها رُقّي شهاب إلى رتبة عقيد في العام 1944، وعندما حصل الاتفاق بين الحكومتين الفرنسية واللبنانية في العام 1946، والذي يقضي بموجبه التحاق الفرقة اللبنانية التي كانت تحت قيادة فؤاد شهاب بالحكومة الوطنية، فأصبح فؤاد شهاب قائداً للجيش اللبناني الذي سيعمل شهاب على تأسيسه من جديد. وبعد تقديم الرئيس بشارة الخوري استقالته في شهر أيلول/ سبتمبر من العام 1952، تمّ تشكيل حكومة عسكرية ترأسها فؤاد شهاب، عملت على تنظيم وإجراء انتخابات رئاسية، رعت انتخاب كميل شمعون رئيساً للجمهورية اللبنانية. وقد زادت هذه الحادثة من رصيد شهاب، وذلك لارتفاعه عن تولي زمام الحكم مع أنه كان باستطاعته أن يفعل ذلك وبكل سهولة. وفي ربيع عام 1958، وقع خلاف كبير بين الرئيس شمعون ومؤيديه من ناحية ومعارضيه من ناحية أخرى، مما دفع بشهاب إلى العمل على تحييد الجيش عن هذه الأزمة، وهذه الخطوة نالت تأييداً واستحساناً من القوى الإقليمية والدولية، وعندما تمّ حل الخلاف والوصول إلى تسوية، تقدّم الرئيس كميل شمعون في صيف ذلك العام باستقالته، وذلك قبل انتهاء مدة ولايته ليُنتخب بعدها شهاب خلفاً له.¹⁶⁴

رموز العهد الجديد

ترافق عهد شهاب مع تراجع نفوذ بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط عقب فشلها الذريع خلال العدوان الثلاثي على مصر، وبروز دور الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في العالم وفي المنطقة العربية. كذلك ترافق عهد شهاب مع أفول نجم الهاشميين في العراق الذين كان قد أُطيح بهم في العام 1958، وبروز نجم جمال عبد الناصر ومعه النفوذ المصري في المنطقة العربية، إضافة إلى بروز دور المملكة العربية السعودية كمنافس إقليمي لعبد الناصر. وقد أثر ذلك على لبنان الذي شهد أفول نجم آل الصلح الذين هيمنوا على الساحة السياسية المسلمة لعقدين من الزمن وصعود نجم رشيد كرامي، حليف عبد الناصر، خلال الستينيات من القرن الماضي وتوليّه منصب رئاسة الحكومة معظم مرحلتي فؤاد شهاب وشارل حلو. إضافة إلى ذلك فلقد برز في تلك الفترة حزب

¹⁶⁴ راجع باسم الجسر، فؤاد شهاب، بيروت: بيسان، 1998.

الكتائب كحزب مسيحي حليف للسلطة الجديدة، فيما برز الزعيم الدرزي كمال جنبلاط كحليف "مسلم" للسلطة والذي أنشأ علاقات مع مصر ومع الاتحاد السوفياتي وتبنى شعارات يسارية وجمع حوله العديد من المجموعات والأحزاب ذات الطابع اليساري وغير المرخص لها. وقد شكلت مرحلة شهاب محاولة موازنة هذه الأطراف السياسية بغية فرض الاستقرار في البلاد.

ورشيد كرامي هو ابن عبد الحميد كرامي، الزعيم الطرابلسي الذي عارض قيام دولة لبنان الكبير ولم يقبل بالأمر الواقع إلا بعد قبول الزعامات الشامية بالتسوية مع الفرنسيين. وقد عرفت في عبد الحميد كرامي نزعته العروبية القوية وتفضيله علاقات قوية مع الشام. وقد ورث رشيد، وهو الابن البكر لعبد الحميد، هذا التوجّه عن أبيه. وكان رشيد قد ولد في العام 1921، وخلافاً لمعظم أعضاء نادي النخبة اللبنانية في ذلك الوقت والذين كانوا يدرسون الحقوق في الجامعات الفرنسية والجامعة اليسوعية في بيروت، فإن رشيد كرامي تابع دراسته للحقوق في القاهرة خلال الأربعينيات من القرن الماضي ثم مارس المحاماة في طرابلس. وفي العام 1951 انتخب رشيد نائباً عن طرابلس في الانتخابات الفرعية التي أجريت لملء الفراغ الذي نجم عن وفاة والده. ثم عين في ذلك العام وزيراً للعدل في حكومة حسين العويني. وفي العام 1953 عين وزيراً للاقتصاد في حكومة عبد الله اليافي. وفي العام 1955 أصبح كرامي رئيساً للحكومة لأول مرة في حياته، لكنه أقيل من قبل شمعون في أواخر العام 1956 نتيجة خلافهما حول الموقف الذي كان على لبنان اتخاذه خلال أزمة السويس. ففيما كان شمعون مؤيداً للبريطانيين ضمناً في عدوانهم على مصر، فلقد كان كرامي مؤيداً بقوة لمصر. هذا الموقف جعله ينال حظوة جمال عبد الناصر الذي دعم صعود نجمه خلال المرحلة الشهابية في لبنان. وقد شكّل كرامي أول حكومة في عهد فؤاد شهاب والتي استمرت لسنتين، استقال بعدها نتيجة تصاعد المعارضة لحكم شهاب من قبل شمعون وحلفائه ليعود ويشكل الحكومة في العام 1961 وتستمر حتى نهاية عهد شهاب في العام 1964. وبذلك يكون كرامي قد تولّى رئاسة الحكومة لخمس سنوات من أصل ست خلال عهد شهاب. وقد شكل كرامي حكومة شارل حلو الثانية عام 1965 ليستقيل في العام 1966، لكن أعيدت تسميته رئيساً لحكومة أخرى في العام نفسه ليستمرّ في الحكم حتى العام 1968. ثم شكل حكومة أخرى في العام 1969 وحتى نهاية عهد شارل حلو عام 1970.¹⁶⁵

أما الرجل الثاني الذي سبرز نجمه في تلك المرحلة كإحدى أدوات السلطة الجديدة فهو بيار الجميل، مؤسس حزب الكتائب اللبنانية الذي سيتحوّل في عهد شهاب من حزب مغموّر إلى حزب

¹⁶⁵ راجع جورج فرسخ، رشيد كرامي، بيروت: شركة المطبوعات، 2016.

رئيسي في لبنان. وقد ولد بيار الجميل في بكفيا في العام 1905. وفي العام 1914 اضطر للانتقال مع عائلته وعائلة عمه إلى مصر هرباً من السلطات العثمانية التي اكتشفت علاقات لوالد بيار الجميل بالقنصلية الفرنسية وتخطيطه مع آخرين للثورة على الحكم العثماني. وقد بقيت عائلة الجميل في مصر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد تابع بيار الجميل دراسته في المدارس اليسوعية وتخرج من الكلية الطبية الفرنسية حاملاً شهادة في الصيدلة. وفي العام 1936 شارك بيار الجميل في أولمبياد ميونيخ وتأثر كثيراً بمنجزات النازية الألمانية والفاشية الإيطالية فعاد إلى لبنان وأسس حزب الكتائب اللبنانية والذي استوحى اسمه الأول من كتائب موسوليني الفاشية. وقد كان معه في التأسيس شارل حلو الذي أصبح لاحقاً رئيساً للبنان، وشفيق ناصيف، واميل يارد وجورج نقاش. وبنتيجة ميوله الفاشية قررت سلطات الانتداب الفرنسي منع الحزب في العام 1937 فبدأ ينشط في مواجهة الانتداب وشارك لاحقاً في المظاهرات المطالبة باستقلال لبنان في العام 1943. وقد كان لحزب الكتائب يد في افتعال النزاع مع القوميين الاجتماعيين في العام 1949 بإيعاز من السلطات اللبنانية والتي أدت إلى ملاحقة القوميين ثم إعدام انطون سعاده في العام نفسه. وقد عرفت عن الحزب اتصالاته المبكرة بإسرائيل منذ الأربعينيات من القرن الماضي، كما عرفت عنه نزعته المسيحية المتعصبة. وقد شارك الحزب في القتال مع شمعون ضد خصومه خلال أزمة 1958 إلا أن الجميل وشمعون اختلفا معظم فترة الشهابية في الستينيات وحتى العام 1968 نتيجة مساندة الجميل للعهد الجديد ومعارضة شمعون له. وقد أصبح الجميل وزيراً في أول حكومة شكلها عمر كرامي في عهد شهاب ليصبح حزب الكتائب دعامة للعهد في مواجهة مناوئيه على الساحة المسيحية.¹⁶⁶

وأخيراً فلقد كان كمال جنبلاط هو الشخصية الثالثة التي سيرز دورها المحوري خلال عهد فؤاد شهاب وبعده. وكمال جنبلاط من مواليد المختارة عام 1917، وكان في الرابعة من عمره حين تم اغتيال والده فؤاد جنبلاط على يد معارضين لسلطات الانتداب الفرنسي لشبهة تعامل فؤاد جنبلاط مع هذه السلطات. وقد درس جنبلاط في مدرسة عينطورة - المتن الأعلى، ثم تابع دراسة المحاماة في الجامعة اليسوعية. وبعد فترة قصيرة من تدرّجه في مكتب الرئيس اميل ادة تحوّل جنبلاط إلى السياسة وأصبح نائباً في البرلمان اللبناني عن منطقة الشوف في العام 1943 خلفاً لعمه حكمت جنبلاط الذي توفي في ظروف غامضة. وقد تبنى جنبلاط أفكاراً اشتراكية مثالية للمفكر الفرنسي تيلارد دي شاردان كما كان له نزعات تأثرت بالفلسفة الهندوسية. وقد كان لأمه نظيرة جنبلاط تأثير كبير عليه. وفي العام 1949 أسس جنبلاط الحزب التقدمي الاشتراكي الذي أصبح واجهة لزعامته

¹⁶⁶ راجع رفيق غانم، بيار الجميل: قائد ومؤسسة، بيروت: حزب الكتائب اللبنانية، 1987.

التي بقيت تقليدية وغلّفت بمظهر عصري. وقد أسس الجبهة الاشتراكية التقدمية في العام 1952 التي ضمت عدداً كبيراً من معارضي الرئيس بشارة الخوري والتي ساهمت في إيصال كميل شمعون إلى سدة الرئاسة. لكن جنبلاط سيفترق عن شمعون في العام 1957 بعد مساهمة الأخير في إسقاطه في الانتخابات النيابية في إطار سعيه للتخلّص من نفوذ الأسر الإقطاعية. وقد انتقل جنبلاط إلى صفوف معارضي شمعون وبدأ ينسج علاقات مع مصر بقيادة عبد الناصر وبالاتحاد السوفياتي. وقد أمّله هذا للعب دور رئيسي في عهد شهاب الذي كان يبحث عن حلفاء في الساحة المسلمة في مواجهة الزعماء المسلمين التقليديين في إطار محاولته تهميشهم عن السلطة والدولة. وقد أصبح جنبلاط أيضاً وزيراً في أول حكومة يؤلفها رشيد كرامي في عهد شهاب في العام 1958.¹⁶⁷

عهد شهاب وحلو

ما إن تولى شهاب السلطة حتى سعى لتقليم أظافر المقاطعية اللبنانية وتحييدهم قدر الإمكان عن السلطة. ولذلك فلقد أصدر خلال عهده سلسلة قرارات كان من شأنها تحصين الإدارة العامة وأجهزة الدولة نسبياً من تدخلات الوجهاء التقليديين فكان إنشاء مجلس الخدمة المدنية الذي كان يهدف إلى اختيار موظفين كفوئين بمعزل عن ولاءاتهم السياسية ليتبوؤوا المناصب الإدارية، كما أنشأ ديوان المحاسبة ليراقب عمل الإدارات العامة ويشرف على المناقصات والتلزيّمات في الدولة بمعزل عن تدخلات المقاطعية التقليديين. وقد عزّز في عهده دور المدرسة الرسمية حتى تساهم في تعليم أولاد الطبقات الوسطى والفقيرة ولا يبقى التعليم حكراً على نخبة ثرية، كما عزز دور الجامعة اللبنانية لتساهم في تعليم وتخريج كوادر من أبناء الطبقات الوسطى والفقيرة والذي سيكون له أثر كبير في ظهور نخب في الستينيات والسبعينيات من أصل فقير لتتبوأ صدارة المشهد السياسي. إضافة إلى ذلك سعى شهاب إلى تنمية مناطق الريف الزراعي في لبنان والذي كان قد بدأ يعاني كثيراً في عهدي سلفيه الخوري وشمعون نتيجة السياسات التي شجعت القطاعين السياحي والمالي على حساب القطاعين الزراعي والصناعي ما ساهم في تركيز الثروة في يد قلة قليلة من اللبنانيين وإفقار غالبية الشعب الذي كان الريف يشكل نسبة ستين بالمئة منه في ذلك الوقت. ولهذا السبب أنشأ شهاب المشروع الأخضر الذي كان من مهامه تقديم الدعم المالي والإرشاد للمزارعين لتحسين إنتاجيتهم وإيجاد أسواق لمنتجاتهم. وقد اعتمد شهاب في تلك السياسات على

¹⁶⁷ راجع إيغور تيموفيف، كمال جنبلاط الرجل والاسطورة، بيروت: دار النهار، 2000

التوصيات التي قدمها لويس جوزيف لوبري من مؤسسة الأبحاث والتطوير والتنمية الفرنسية ايرفيد بعد قيامه بتنظيم بعثة أجرت دراسة معمقة لبنية الاقتصاد اللبناني الاجتماعية وأوجه القصور فيها وقدمت توصياتها التي اعتمد شهاب جزءاً منها وفقاً لما تقدّم. وقد أرسى شهاب أيضاً مفهوم المناصفة بين المسلمين والمسيحيين في التوظيف ووسع عدد مقاعد مجلس النواب اللبناني ليصبح 99 عضواً. وقد وجد شهاب صعوبة في الدفع قدماً بإصلاحاته الداخلية نتيجة معارضة الأسر الإقطاعية التقليدية ما دفعه إلى الاستقالة في العام 1960، إلا أنه عاد عن استقالته بعد تأكيد الولايات المتحدة وعبد الناصر دعمهما له فحاول الاعتماد على الجيش بالدرجة الأولى كقوة وأداة لتنفيذ سياساته، وهو ما عزز من دور ضباط الشعبة الثانية خلال عهده وعهد خلفه شارل حلو.¹⁶⁸

وقد شهد عصر شهاب محاولة اعتماد سياسة متوازنة بين الولايات المتحدة من جهة ومصر بقيادة جمال عبد الناصر من جهة أخرى. وقد ساهم ذلك في ترسيخ الاستقرار السياسي في البلاد طوال عهده ولم تعكره إلا محاولة الانقلاب التي قام بها ضباط في الجيش اللبناني ينتمون إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي. وكان الحزب قد تلقى سلسلة ضربات موجعة في لبنان بعد إعدام سعادته عام 1949 وفي سوريا عقب التنكيل بأعضائه بذريعة اتهامهم بقتل الضابط البعثي عدنان المالكي والتي وصلت حد سجن زوجة زعيمه جولييت المير. وعقب استقالة شمعون بدأ الحزب يتعرّض لمضايقات من قبل الدولة اللبنانية نتيجة دعمه لشمعون خلال أزمة 1958. وفي أواخر العام 1961 اعتقدت قيادة الحزب أن الطرف بات موافقاً لقلب الوضع في لبنان، خصوصاً بعد الانقلاب الذي وقع في سوريا والذي أدّى إلى الانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة وقيام نظام في سوريا معادٍ لمصر وتحالف الملك الأردني الحسين بن طلال الهاشمي مع المملكة العربية السعودية ضد عبد الناصر. وفي يوم رأس السنة الميلادية في 31 كانون الأول ديسمبر 1961، استغلّ القوميون الاحتفالات برأس السنة ليبدأوا تحركهم. وكانت الخطة تستند إلى قيام قائد كتيبة الدبابات في الجيش النقيب فؤاد عوض باحتلال مقر الإذاعة اللبنانية على أن تتوجّه وحدات أخرى إلى صربا لاعتقال رئيس الجمهورية وهو في منزله واعتقال قائد الجيش وقيادات عسكرية أخرى بالتوازي مع تحرك القوميون للسيطرة على الشارع. لكن النقيب سامي الخطيب، الذي كان على علاقة وطيدة بأجهزة الاستخبارات المصرية، والذي كان على علاقة أيضاً بضباط الشعبة الثانية العسكرية، والذي كان قد استمال أحد السوريين القوميين الاجتماعيين الذي أبلغه بالخطة، عمل

على تنبيه شهاب وقيادة الجيش، ما مكنها من التحرك لإفشال الانقلاب. وقد تمكّن القوميون في البداية من تحرير الضابط القومي المعتقل شوقي خير الله واعتقلوا رئيس الأركان العميد يوسف شمييط وقائد منطقة بيروت عبد القادر شهاب والمدير العام للأمن العام المقدم توفيق جلبوط، والزعيم ميشال نوفل قائد قوى الأمن الداخلي إلا أنهم فشلوا باعتقال شهاب وقائد الجيش. وعند توجّه فرقة المدرعات إلى وزارة الدفاع فوجئت بالخطيب والعقيد انطوان سعد والعقيد اسكندر غانم وعدد آخر من الضباط وقد تحضروا لمقاومة الانقلابيين وقد جرى تبادل إطلاق النار، في الوقت الذي كانت فرقة الحرس الجمهوري المتمركزة في صربا قد توجهت إلى وزارة الدفاع. عندها أسقط في يد الانقلابيين الذين بدأوا يواجهون مشكلات مع الضباط الأقل رتبة في وحداتهم لرفضهم تنفيذ الأوامر بإطلاق النار على الوحدات الموالية لشهاب. عندها جرى الإطباق على فرقة النقيب عوض التي استسلمت للقوات الموالية لشهاب. ويعود سبب فشل الانقلاب إلى ما تم ذكره آنفاً إضافة إلى دعم الولايات المتحدة لشهاب وأيضاً إلى دعم عبد الناصر له، خصوصاً أنه كان لا يزال الزعيم العربي الأبرز على الرغم من النكسة التي تلقاها في سوريا.

في أيلول سبتمبر 1964 رفض شهاب تعديل الدستور ليُتاح له تولي رئاسة الجمهورية لولاية ثانية، لكنه دعم انتخاب من اعتبره وفيّاً لمبادئه ونهجه وهو شارل حلو. وكان شارل حلو ولد في العام 1913 ودرس المحاماة في الجامعة اليسوعية وتدرّج في مكتب الرئيس بترو طراد في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي. كما عمل في الصحافة الفرنسية اللبنانية في جريدة لوجور وجريدة لوكليز دو جور ومجلة افورماسيون، كما كان من مؤسسي حزب الكتائب اللبنانية مع بيار الجميل إلا أنه استقال من الحزب بعد فترة وجيزة من التأسيس. وقد عين سفيراً للبنان بين عامي 1946 و1949 وانتخب نائباً لبيروت عام 1951 وأصبح وزيراً للخارجية في حكومة عبد الله اليافي في آخر سنة من عهد بشارة الخوري. وفي العام 1954 عين وزيراً للصحة في وزارة سامي الصلح، ووزيراً للاقتصاد في حكومة رشيد كرامي عام 1957، ووزيراً للتربية الوطنية عام 1964. وفي آب أغسطس 1964 انتخب شارل حلو رئيساً بغالبية 92 صوتاً مقابل خمسة أصوات لمنافسه بيار الجميل. وقد مثّل عهد حلو استمراراً لعهد شهاب لجهة اعتماد سياسة متوازنة بين الولايات المتحدة من جهة ومصر من جهة أخرى، ولجهة تدعيم الدولة المركزية في مواجهة الإقطاع التقليدي، إلا أنه كان سيواجه جملة متغيرات إقليمية ومحلية ستشكل عنصراً للتفجير في وقت لاحق، مثل الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967 والتي ستنتهي بهزيمة العرب وتوجيه ضربة لزعامة عبد الناصر، وصعود المقاومة الفلسطينية والتي ستساهم في زعزعة استقرار النظام الطائفي اللبناني، إضافة إلى

دخول لبنان طور الركود الاقتصادي الذي سيؤدي إلى تفجر الصراع الاجتماعي بين الفئات الريفية والفقيرة من جهة والنخبة المالية المسيطرة على الاقتصاد والدولة من جهة أخرى.

التحوّلات الدولية والإقليمية وحرب 1967

شهدت مرحلة الستينيات تحوّلات جذرية في التوازنات الإقليمية والدولية. فحتى العام 1965 كان بإمكان جمال عبد الناصر أن يلعب على التناقضات بين الشرق والغرب ليعزز مصر ويعزز من دورها الإقليمي والعالمي. لكن هذا الوضع بدأ بالتغيّر بدءاً من العام 1965. فأزمة الصواريخ الكوبية في العام 1962 أقنعت دوائر نافذة في الاتحاد السوفياتي بضرورة خفض حدّة التوتر مع الولايات المتحدة. هذا توجّب بإطاحة الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشيف في تشرين الأول أكتوبر 1964 من قبل ليونيد بريجنيف. وكان بريجنيف يعتقد بأنه من الأفضل للاتحاد السوفياتي أن يلتزم بالقواعد التي أرساها مؤتمر يالطا في العام 1945 لجهة اكتفاء موسكو بدائرة نفوذ تقتصر على دول الكتلة الاشتراكية ما جعلها تحدّ من دعمها للدول القريبة منها في الشرق الأوسط والعالم الثالث. في المقابل فإن اغتيال جون كينيدي في تشرين الثاني 1963 آذن بصعود تيار المحافظين الجدد في الولايات المتحدة والذي كان يطمح إلى إقامة إمبراطورية عالمية. وقد اندفع هؤلاء بعد ذلك لإطاحة أنظمة لا تقدّم الطاعة للولايات المتحدة.

في الوقت نفسه فلقد كان فيصل بن عبد العزيز قد أطاح أخيه سعود عن عرش المملكة العربية السعودية وأنهى صراع الأخوة على السلطة والذي اندلع منذ منتصف الخمسينيات من القرن الماضي نتيجة محاولات سعود إبعاد أخوته عن السلطة. وقد كان جد فيصل لأمه زعيم المشايخ الوهابيين ما جعل المؤسسة الدينية السعودية تدعم وصول فيصل إلى السلطة. وما أن استلم فيصل السلطة حتى بدأ يدعم الإخوان المسلمين في كافة الدول العربية والإسلامية كوسيلة لتدعيم النفوذ السعودي ومواجهة المد القومي واليساري في العالم العربي. كذلك أقام المؤتمر الإسلامي كوسيلة ليكون بديلاً عن جامعة الدول العربية التي كانت تمثل امتداداً لنفوذ مصر. وقد أحست مصر بهذه الضغوط الأميركية بدءاً من العام 1965 حين أفشلت محاولة تمرد نظمها الإخوان المسلمون بدعم من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. وفي العام 1967 دعمت الولايات المتحدة إسرائيل في عدوانها على مصر وسوريا والأردن والتي أدّت إلى احتلال إسرائيل لسيناء والضفة الغربية وغزة والجولان.

فيما كانت الصراعات العربية تطفو على السطح، كانت إسرائيل والولايات المتحدة من خلفها تتحضران لتوجيه ضربة للدول العربية التقدمية واليسارية، بدعم من المملكة العربية السعودية. وكانت إسرائيل قد بدأت تصعد التوتر مع الدول العربية منذ العام 1960 على خلفية تحويل مياه نهر الأردن، فيما وقفت جامعة الدول العربية عاجزة عن القيام بأي مجهود للحؤول دون ذلك. وقد تصاعد التوتر بين إسرائيل والدول العربية منذ بدايات العام 1967. وفي أوائل شهر أيار مايو صعد رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول من لهجته وهدد بالزحف على دمشق بذريعة مكافحة عمليات الفدائيين الفلسطينيين التي كانت قد انطلقت عبر الحدود منذ أوائل العام 1965. وبنتيجة هذه العمليات حدثت مواجهات عدة بين الجيشين السوري والأردني من جهة والجيش الإسرائيلي من جهة أخرى. وفي 14 أيار مايو 1967، ولمناسبة الذكرى 19 لقيام دولة إسرائيل أجرى الجيش الإسرائيلي عرضاً عسكرياً في القدس الغربية، خارجاً الأعراف والمواثيق الدولية التي تدعو لتدويل قضية القدس وجعلها منزوعة السلاح. في المقابل، وعلى الرغم من الخلافات الكبيرة بين عبد الناصر والبعث السوري فلقد أعلن الزعيم المصري أن أي تصعيد إسرائيلي في مواجهة سوريا سيواجه بعملية عسكرية تقوم بها مصر ضد إسرائيل. ورداً على العرض العسكري للجيش الإسرائيلي قام رئيس الأركان في الجيش المصري محمد فوزي بزيارة إلى سوريا لتنسيق الجهد العسكري بين البلدين لمواجهة التهديدات الإسرائيلية. وفي 15 أيار مايو بدأت مصر بحشد قواتها في سيناء فيما قدّم المندوب السوري في الأمم المتحدة مذكرة إلى مجلس الأمن الدولي يشكو فيها من التهديدات الإسرائيلية لبلاده. وفي 17 أيار مايو طلبت مصر من مجلس الأمن سحب القوات الدولية العاملة في سيناء منذ العام 1956. وقد رشحت معلومات عن حشد إسرائيل قواتها في النقب في مواجهة القوات المصرية فيما توجه الأسطول السادس الأميركي إلى شرق المتوسط لمراقبة الأعمال التصعيدية في المنطقة. وفي 22 أيار مايو أعلن عبد الناصر إغلاق مضيق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية ما اعتبرته إسرائيل إعلاناً لحالة الحرب، إلا أن المندوب المصري في مجلس الأمن أكد في جلسة 29 أيار مايو أن بلاده لن تكون البادئة بأي أعمال حربية ضد إسرائيل. في هذا الوقت كان العراق قد نقل وحدات إلى سوريا لتكون سنداً لها في مواجهة أي عملية عسكرية إسرائيلية.

في صباح الخامس من حزيران يونيو 1967 قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية بالإغارة على المطارات المصرية مدمرة ثمانين بالمئة من الأسطول الحربي المصري، بعد ذلك وجهت القوات الجوية الإسرائيلية أنظارها نحو المطارات الأردنية ودمرت معظم الأسطول الجوي الأردني لتقوم بعده بتدمير الأسطول الجوي السوري بنسبة 70 بالمئة. وبذلك حققت إسرائيل تفوقاً جويّاً كاسحاً على القوات العربية، ما مكّنها من مقاتلة الجيوش العربية وهي مكشوفة تماماً. بعد ذلك بدأت القوات

المدرعة الإسرائيلية بالهجوم في سيناء ضد القوات المصرية التي أبلت بلاء حسناً في البداية في صد التقدم الإسرائيلي، إلا أنه بسبب الغياب التام للإسناد الجوي تمّ استهداف الوحدات المصرية المدرعة ووحدات المشاة من قبل الطيران الإسرائيلي ما أدّى إلى كسر المقاومة المصرية. وما زاد في الطين بلة القرار الذي أصدره وزير الدفاع قائد الجيش المصري عبد الحكيم عامر بأمره بالانسحاب غير المنظم للقوات والذي أدّى إلى انهيار الدفاعات المصرية وإلى انسحاب عشوائي وغير منظم أدّى إلى مضاعفة الخسائر المصرية بسبب استهدافها أثناء انسحابها من قبل القوات الجوية الإسرائيلية. ومع حلول التاسع من حزيران يونيو كانت القوات الإسرائيلية قد احتلت شبه جزيرة سيناء بالكامل حتى الضفة الشرقية لقناة السويس ووجّهت أنظارها نحو القوات الأردنية والسورية.

في الضفة الغربية كان الجيش الأردني قد بدأ يقصف الحشود الإسرائيلية المتمركزة قبالة، وفي 6 حزيران يونيو بدأت القوات الإسرائيلية تهاجم القوات الأردنية على طول الخط الفاصل بين أراضي الـ 1948 والضفة الغربية. وبحلول مساء ذلك اليوم كانت القوات الإسرائيلية قد احتلت مدينة القدس بالكامل وبدأت بعد ذلك بتوسيع نطاق سيطرتها على الضفة الغربية وصولاً إلى نهر الأردن. بعد ذلك وجهت إسرائيل أنظارها نحو سوريا وعينها على الجولان المطل على سهل الحولة. وكانت سوريا اكتفت حتى ذلك الوقت بقصف المستعمرات السورية ولم تقم بتحريك وحداتها للتغلغل في الأراضي الفلسطينية المحتلة، خصوصاً أن القيادة السورية كانت تعتقد أن الحرب ستطول بين مصر وإسرائيل بما يمنحها وقتاً لتدعيم استعداداتها للمواجهة. لكن بعد سيطرة القوات الإسرائيلية على شبه جزيرة سيناء يوم 9 حزيران يونيو، قرّرت القيادة الإسرائيلية احتلال الجولان فبدأ الطيران الحربي الإسرائيلي بدكّ المواقع السورية التي كانت تفتقر إلى الدفاع الجوي، وفي الوقت نفسه بدأت القوات الإسرائيلية بالتغلغل في الهضبة في ظل دفاع سوري غير منظم. وفي صبيحة 10 حزيران يونيو كانت الدفاعات السورية قد انهارت وتمكّنت القوات الإسرائيلية من احتلال هضبة الجولان وصولاً إلى مدينة القنيطرة التي سقطت أيضاً تحت الاحتلال. وبنتيجة الحرب تمكّنت إسرائيل من توجيه ضربة قاصمة لثلاثة جيوش عربية لدول الطوق هي المصرية والأردنية والسورية، واحتلت شبه جزيرة سيناء التي تبلغ مساحتها ضعف مساحة فلسطين، إضافة إلى الضفة الغربية وغزة وهضبة الجولان الاستراتيجية والغنية بالمياه الجوفية. وقد تكبّدت إسرائيل في هذه العملية نحو ألف قتيل و5000 جريح، فيما بلغت الخسائر المصرية نحو 10000 قتيل وخمسة آلاف أسير،

وبلغت الخسائر الأردنية 6 آلاف قتيل وثلاثة آلاف جريح و500 أسير، فيما سقط ألف قتيل سوري وأسر نحو 400 جندي.¹⁶⁹

وبنتيجة النكسة تعرّضت الدول العربية التقدمية إلى ضربة كبيرة وكانت مصر وسوريا أكثر المتضررين.¹⁷⁰ وبالنسبة للكثير من العرب فإن إسرائيل باتت بالنسبة لهم واقعاً كان عليهم أن يتقبلوه. هذا جعل دول الطوق باستثناء سوريا تقبل بالقرار 242 والذي يدعو إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي التي احتلتها في العام 1967 في مقابل إقامة سلام معها والاعتراف بها. وقد أدّت الهزيمة في سوريا إلى صعود وجهتي نظر، كانت أولاهما بقيادة صلاح جديد، واعتبرت أن الهزيمة كانت نتيجة مؤامرة إمبريالية بالتنسيق مع "الأنظمة الرجعية العربية". كذلك رأت أنه على سوريا بناء قوتها عبر القيام بثورة اشتراكية وفقاً للنموذج السوفياتي والانحياز التام إلى معسكر الدول الاشتراكية.¹⁷¹ أما وجهة النظر الثانية فكانت بقيادة وزير الدفاع حافظ الأسد والذي رأى أن الهزيمة كانت نتيجة حتمية للصراعات بين العرب وللانقسامات الداخلية في سوريا. لذلك فلقد دعا الأسد إلى إجراء تسوية داخلية للنزاعات بين أطراف المجتمع السوري وإلى التقارب مع كافة الدول العربية في إطار التضامن العربي لتوحيد الجهود لتحرير الأراضي المحتلة عام 1967.¹⁷²

وفي ما يتعلق بالقضية الفلسطينية، فإن نكسة 1967 أدّت إلى صعود الفصائل الفدائية المسلحة وعلى رأسها حركة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وإلى تراجع مصداقية القيادة المدنية لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت قد أسست في العام 1964 والمتمثلة بأحمد الشقيري.¹⁷³ وقد اكتسبت هذه الفصائل رصيماً كبيراً عقب معركة الكرامة ضد القوات الإسرائيلية في العام 1968 وكرّست نفوذها في هيئات ومؤسسات منظمة التحرير ما مهد لتبوء زعيم فتح ياسر عرفات سدة رئاسة اللجنة التنفيذية للمنظمة خلفاً للشقيري في العام 1969. وقد نزح عرفات إلى التفرد بالقرار السياسي لمنظمة التحرير بذريعة الحفاظ على القرار الوطني الفلسطيني المستقل وفقاً لما

¹⁶⁹ محمد حسنين هيكل، الانفجار: حرب الثلاثين عاماً، القاهرة: الشروق، 1990.

¹⁷⁰ Maclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham; المصدر ما قبله ص. 246.

¹⁷¹ Van Dam, Nikolas; *The Struggle for Power in Syria, Sectarianism, Regionalism and Tribalism in Politics*, 1961-1978, Groom Helm limited, London, 1979, p.84.

¹⁷² محمد زهير دياب، الموقف السوري من التسوية السلمية للنزاع العربي الإسرائيلي، مجلة الدراسات الفلسطينية عدد 9 شتاء 1992 ص.ص. 86-87.

¹⁷³ Laurens Henry ; *Le retour des exilés, la lutte pour la Palestine de 1869 à 1997* , Robert Laffont, Paris 1998, p.941.

ورد في ميثاق فتح ومنظمة التحرير. وقد تسبّب ذلك بصدام بينه وبين القيادة الأردنية ومن بعدها السورية واللبنانية، التي وجدت أن الفدائيين على أرضها باتوا يشكلون دولة داخل الدولة. وفي الوقت نفسه كانت الدول العربية الطامحة إلى دور إقليمي ومن بينها سوريا تسعى لانتزاع نفوذ لها على الساحة الفلسطينية في إطار شرعنة موقفها في الصراع العربي الإسرائيلي. وقد ساهم ذلك بصعود نجم ياسر عرفات بدعم سعودي مصري في العام 1969.¹⁷⁴

ظهور المقاومة الفلسطينية

تمّ تأسيس "منظمة التحرير الفلسطينية" في شهر آذار/مارس من العام 1964، وذلك تطبيقاً والتزاماً بمقررات "المؤتمر العربي الفلسطيني الأول"، الذي تمّ عقده في القدس، وكذلك تنفيذاً لمقررات "القمة العربية"، التي اجتمعت في العام نفسه في مدينة القاهرة. حيث طلبت إنشاء منظمة تكون الممثل الرسمي للشعب الفلسطيني المتمركز في الأراضي المحتلة، وأيضاً الموجود في بلدان الشتات. وتمّ انتخاب أحمد الشقيري كأول رئيس لـ "منظمة التحرير الفلسطينية".¹⁷⁵ وجاء في البيان الأول للمنظمة:

"إيماناً بحق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه المقدس فلسطين، وتأكيذاً لحتمية معركة تحرير الجزء المغتصب منه وعزمه وإصراره على إبراز كيانه الثوري الفعال وتعبئة طاقاته وإمكاناته وقواه المادية والعسكرية والروحية، وتحقيقاً لأمنية أصيلة من أمان الأمة العربية ممثلة في قرارات جامعة الدول العربية ومؤتمر القمة العربي الأول.

نعلن بعد الاتكال على الله باسم المؤتمر العربي الفلسطيني الأول المنعقد بمدينة القدس في 28 أيار 1964.

1. قيام منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة معبئة لقوى الشعب العربي الفلسطيني لخوض معركة التحرير، ودرعاً لحقوق شعب فلسطين وأمانية، وطريقاً للنصر.
2. المصادقة على الميثاق القومي لمنظمة التحرير الفلسطينية وعدد بنوده 29 بنداً.

¹⁷⁴ هنري لورنس المصدر نفسه. ص. 945

¹⁷⁵ أحمد الشقيري، الجزيرة الوثائقية، 5 نيسان إبريل 2017.

3. المصادقة على النظام الأساسي وعدد بنوده 31 بنداً واللائحة الداخلية للمجلس الوطني والصندوق القومي الفلسطيني.
4. انتخاب السيد أحمد الشقيري رئيساً للجنة التنفيذية وتكليفه باختيار أعضاء اللجنة التنفيذية وعددهم 15 عضواً.
5. يصبح المؤتمر بكامل أعضائه، الـ 397 عضواً، "المجلس الوطني الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية".¹⁷⁶

بدأت الفصائل الفلسطينية المسلحة تأخذ دورها بالظهور أكثر بعد نكسة حزيران العام 1967، وتسلم في العام 1969، ياسر عرفات زعيم حركة فتح منصب رئيس اللجنة التنفيذية لـ"منظمة التحرير الفلسطينية". في مصر عام 1965، وبالتعاون مع أجهزة المخابرات المصرية، تم تأسيس "حركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح"، وذلك من قبل مجموعة من الشبان الفلسطينيين، وكان من بينهم ياسر عرفات، وقد كانوا سابقاً منتمين كأعضاء في جماعة الإخوان المسلمين. وتكوّنت المجموعة الأولى بالإضافة إلى ياسر عرفات من صلاح خلف الملقب أبو إياد و خليل الوزير الملقب أبو جهاد. كما انطوى تحت لواء "منظمة التحرير" أشخاص آخرون من الفصائل الفلسطينية، مثل: "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، "جبهة التحرير العربي" و"منظمة الصاعقة" و"الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" و"حزب الشعب الفلسطيني".¹⁷⁷ وقامت "منظمة التحرير" في العام 1968، بإصدار ميثاقها، الذي أكد ضرورة تحرير فلسطين، والعمل على تأسيس دولة فيها نظامها ديمقراطي، مع الالتزام بحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم. هذا وقد اتخذت قيادة المنظمة من الأردن مركزاً لها وذلك حتى العام 1970، حيث اضطرت إلى تركه والانتقال إلى لبنان، إثر أحداث "أيلول الأسود" التي وقعت مع الجيش الأردني. وقد شهد لبنان سابقاً صدامات جرت بين الفدائيين الفلسطينيين من جهة والجيش اللبناني من جهة أخرى، بسبب الاعتداءات الإسرائيلية على الأراضي اللبنانية، بحجة الرد على العمليات التي كان يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون. هذا الأمر دفع الرئيس عبدالناصر إلى التوصل إلى حل بهذا الشأن، وذلك من خلال التوقيع على "اتفاق القاهرة" في عام 1969، بين الفدائيين الفلسطينيين من ناحية، والسلطات اللبنانية من ناحية أخرى،

¹⁷⁶ منظمة التحرير الفلسطينية، الجزيرة الوثائقية، 3 تموز يوليو 2011.

¹⁷⁷ Kamal Salibi, Crossroads to Civil War,

من أجل العمل على تنظيم العمل الفدائي داخل الأراضي اللبنانية، والذي سيشكل لاحقاً أحد الأسباب التي ستؤدي إلى إشعال فتيل الحرب الأهلية اللبنانية في العام 1975.¹⁷⁸

تأثير العمل الفدائي على لبنان

كانت العمليات الفدائية الفلسطينية تُشكل عاملاً ضاعطاً قوياً على الوضع اللبناني. وتمّ العمل على دمج اللاجئين الفلسطينيين تحت لواء النظام اللبناني بطريقة غير منظمة ومشوّهة. حيث تمّ العمل على إعطاء الجنسية اللبنانية لمعظم المسيحيين الفلسطينيين، مع منح الجنسية لعدد مساوٍ لهم تقريباً من اللاجئين الفلسطينيين المسلمين، بالإضافة إلى تجنيس الفلسطينيين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى والغنية، فيما ظل الآلاف من الفقراء الفلسطينيين يقطنون في مخيمات منتشرة على امتداد الأراضي اللبنانية، وذلك في فترة الخمسينيات أثناء عهد الرئيس كميل شمعون. وقد شكل الفلسطينيون الفقراء يداً عاملة بأجر رخيص، خصوصاً في المصانع والمزارع اللبنانية. فنسبة اللاجئين الفلسطينيين المتمركزين ضمن المخيمات اللبنانية وصلت إلى 10% من إجمالي مجموع اللاجئين الفلسطينيين الذين تمّ تسجيلهم لدى "منظمة الأونروا"، كما بلغت نحو 11% من إجمالي سكان لبنان.

وبحسب الإحصائيات التي قامت بها "منظمة الأونروا" في العام 2003، وصل عدد الفلسطينيين المتمركزين ضمن الأراضي اللبنانية إلى نحو 400 ألف فلسطيني، حيث يقيم 220 ألف فلسطيني في المخيمات، التي يبلغ عددها 12 مخيماً، وهي: برج البراجنة، الرشيدية، نهر البارد، عين الحلوة، البص، مار الياس، ضبية، البداوي، شاتيلا، المية مية، ويفل (الجليل)، برج الشمالي.¹⁷⁹

وتجدر الإشارة هنا، إلى معاناة النظام السياسي والاقتصادي اللبناني، من مشكلات كثيرة وتشوّحات عميقة الجذور، وذلك منذ القرن التاسع عشر. حيث عُرف عن النظام اللبناني محسوبياته السياسية، والعلاقات الشخصية الزبائنية التي ربطت علاقة الفرد بنظام الدولة. بالإضافة إلى سيطرة بعض من الأسر التجارية على حركة الاقتصاد اللبناني، والتي ربطتها علاقات تجارية مع الشركات الفرنسية، حيث كانت وسيلة احتكار لهذه الشركات من خلال سيطرتها على الوضع الاقتصادي والاجتماعي اللبناني. تزامن ذلك مع تطوّر القطاع المصرفي، الذي ساهم في تدعيم القطاع المالي بالإضافة إلى

¹⁷⁸ المصدر نفسه.

¹⁷⁹ مي الزعبي، المخيمات الفلسطينية في لبنان، الجزيرة www.aljazeera.net

قطاع الخدمات في لبنان، وتم ذلك على حساب قطاعات أخرى، مثل: القطاع الصناعي والزراعي الذي بدوره سيكون سبباً في الستينيات إلى نزوح كثيف لسكان القرى باتجاه المدن، والذي سيكون عاملاً ضاغطاً إضافياً على الوضع اللبناني، خصوصاً أن هذه الهجرة قد بلغت 40 %، مما شكّل في ما بعد، عاملاً مساهماً في إشعال فتيل الحرب الأهلية اللبنانية.¹⁸⁰

الحلف الثلاثي

كانت حرب النكسة في العام 1967، ضربة موجعة لجمال عبد الناصر، والتي بالضرورة أثرت على تشكيلة التوازنات الموجودة على الساحة اللبنانية، والتي كانت مرتبطة دائماً بالتوازنات الموجودة على الساحة الإقليمية والدولية.¹⁸¹ وهذا الأمر شكّل دافعاً للأحزاب المسيحية أن تتحالف ضد الرئيس شارل حلو والفريق التابع لفؤاد شهاب بالحكم. كما عمل بيار الجميل رئيس حزب الكتائب على إعادة علاقته مع الرئيس كميل شمعون، وذلك بعد انقطاع دام عقد من الزمن، وبعد خروجه من الحكم، واتخاذ موقف معارض لحكم شهاب الذي كان يدعم "حزب الكتائب". وانضم إليهما ريمون إدة في صف معارضة الحكم الشهابي.

وكان ولد ريمون إدة في العام 1913، في مدينة الإسكندرية، وهو ابن اميل إدة الرئيس اللبناني الأسبق، وزعيم "حزب الكتلة الوطنية اللبنانية". وبعدها في العام 1949، تم انتخابه خلفاً لأبيه في رئاسة الحزب، وظل عميلاً لـ "حزب الكتلة الوطنية اللبنانية" حتى توفي في العام 2000. درس إدة المحاماة، ودخل البرلمان اللبناني كنائب في العام 1953، وظل نائباً منذ ذلك العام وحتى العام 1992. وعُرف عنه توجهه الاقتصادي الليبرالي، حيث اقترح "قانون السرية المصرفية"، والذي لا يزال معمولاً به ومطبقاً في لبنان حتى الآن. عُيّن كوزير في حكومات لبنانية عدة، كما رفض أن يُشارك في "الحرب الأهلية اللبنانية"، فتعرض على إثر موقفه هذا، إلى محاولات اغتيال عدة، وذلك من قبل "حزب الكتائب" في العام 1977، فترك لبنان، وانتقل إلى العيش في فرنسا وبقي هناك حتى وفاته في العام 2000. كان سبب معارضة الحلف الثلاثي لحكم شهاب، هو رفضهم للأنشطة التي

Tabitha Petran, The Struggle Over Lebanon, New York: Monthly Review Press, 1987, p.p. 16 -16, 56, ¹⁸⁰
.59 - 62, 126 - 128

Fawwaz Traboulsi, p.p. 144 - 145. ¹⁸¹

كانت تقوم بها "منظمة التحرير الفلسطينية" في لبنان، فقد كانوا دائماً يطالبون بضرورة تحديد لبنان عن النزاع العربي - الإسرائيلي.

ونالت أحزاب التحالف الثلاثي، 30 مقعداً من إجمالي المقاعد الـ 99 في "البرلمان اللبناني"، وذلك نتيجة للانتخابات النيابية التي جرت في ربيع العام 1968، في هذه الفترة تصاعدت حدة العمليات التي قام بها فدائيون فلسطينيون، ضد الكيان الصهيوني، وذلك انطلاقاً من الحدود اللبنانية، والتي رافقتها اعتداءات إسرائيلية على لبنان، الأمر الذي زاد من حدة التوتر بين "منظمة التحرير الفلسطينية" والسلطات اللبنانية.¹⁸² فقد عملت إسرائيل في العام 1969، على قصف مطار بيروت، الأمر الذي أدى إلى تدمير الطائرات المدنية، والتي كانت تابعة لشركة "طيران الشرق الأوسط اللبنانية". وعلى إثرها انطلقت في شوارع بيروت مظاهرات نظمها قوى يسارية وفلسطينية احتجاجاً ضد تقاعس لبنان في الرد على الاعتداءات الإسرائيلية، والتي كان نتائجها استقالة رشيد كرامي رئيس الحكومة اللبنانية. ونجحت الوساطات المصرية في الوصول إلى حل للخلاف الذي وقع بين الفلسطينيين والقيادة اللبنانية، وذلك من خلال التوقيع على "اتفاق القاهرة" بين قيادة "منظمة التحرير" ممثلة بالرئيس التنفيذي لـ "منظمة التحرير الفلسطينية" ياسر عرفات، وبين اميل البستاني قائد الجيش اللبناني، برعاية مصرية من قِبَل محمد فوزي وزير الدفاع المصري، هذه الاتفاقية نصت على:

- العمل على تشكيل لجان تهتم بالفلسطينيين داخل المخيمات.
- ضرورة التنسيق بين الفدائيين من جهة، وقيادة الأركان اللبنانية من جهة أخرى، وذلك من خلال إنشاء وحدة ارتباط بينهم.
- كما يتم السماح بتسهيل مرور المواد الطبية والتموينية وإيصالها إلى الفدائيين الفلسطينيين، الذين اختصر وجودهم العسكري في منطقة العرقوب الواقعة في جنوب لبنان.
- كما يستطيع الفلسطينيون المقيمون ضمن الأراضي لبنان من ممارسة حقهم في الانضمام والمشاركة في صفوف الثورة الفلسطينية.¹⁸³

¹⁸² Fawwaz Traboulsi, 152 - 154.

¹⁸³ Fawwaz Traboulsi, 154.

هذا الاتفاق صادق عليه بالموافقة كل من "حزب الأحرار" و"حزب الكتائب"، بينما رفضه ريمون إدة وعارضه، الأمر الذي أدّى إلى حدوث تصدّع وخلاف أصاب الحلف الثلاثي. ولكن، قبل بروز الخلاف والتصدع استطاع هذا الحلف من إلحاق الهزيمة بمشرح الشهابيين الياس سركيس لمنصب رئاسة الجمهورية اللبنانية وذلك في العام 1970، لصالح المرشح سليمان فرنجية، على إثر الانقسام والخلاف بين المرشحين، والذي حصل في كتلة كمال جنبلاط. وبذلك تم إنهاء نفوذ جمال عبد الناصر على الساحة اللبنانية، إيداناً بصعود تنافس على لبنان في فترة السبعينيات، بين "منظمة التحرير الفلسطينية" وسوريا والمملكة العربية السعودية.¹⁸⁴

وقبيل انتهاء ولاية شارل حلو أصدر وزير الداخلية كمال جنبلاط مرسوماً يشرع فيه عدداً كبيراً من الأحزاب وعلى رأسها الحزب الشيوعي اللبناني والحزب السوري القومي الاجتماعي، وحزب البعث العربي الاشتراكي بجناحيه السوري والعراقي، وحركة المرابطون الناصرية بزعامة إبراهيم قليلات، وعشرات الأحزاب التي حملت شعارات ناصرية وماركسية. وبذلك بات على الساحة اللبنانية، إضافة إلى الأحزاب التي ذكرتها سابقاً عشرات الأحزاب الجديدة كان من أبرزها منظمة العمل الشيوعي في لبنان، وهي ضمت محسن إبراهيم وأعضاء آخرين كانوا من عداد حركة القوميين العرب خلال الخمسينيات والستينيات واختاروا تبني الماركسية اللينينية كرد فعل على هزيمة 1967 واختاروا العمل كلبانين على الساحة اللبنانية فأسسوا منظماتهم بعد اندماجهم مع حركة لبنان الاشتراكي ومنظمة الاشتراكيين اللبنانيين وأخذوا ترخيصاً لمنظماتهم في العام 1970.¹⁸⁵

أما التنظيم الثاني الذي سيخرج إلى العلن فكان حركة الناصريين المستقلين المرابطون بزعامة إبراهيم قليلات. وكان قليلات من المفاتيح الانتخابية للزعيم البيروتي صائب سلام، إلا أنه بعد العام 1958 اتخذ منحى مستقلاً وشكّل مجموعة ناصرية، قيل إنها تمّت بالتنسيق مع السفير المصري في بيروت عبد الحميد غالب، وقام بعمليات عدة استهدفت خصوم مصر وعبد الناصر في لبنان كان من أبرزها اغتيال رئيس تحرير جريدة الحياة كامل مروة. وبعد محاكمته وتبرئته من القضية في العام 1967 شكل حركة المرابطون التي أخذت ترخيصها في العام 1970 ولعبت دوراً بارزاً في الحرب الأهلية، إضافة إلى دوره في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي حتى العام 1985.¹⁸⁶

¹⁸⁴ Kamal Salibi, Crossroads to Civil War,

¹⁸⁵ راجع موقع بيروت المساء - <http://beyrothel-massaa.com/tag/%D9%85%D9%86%D8%B8%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D9%88%D8%B9%D9%8A/>

¹⁸⁶ راجع موقع المرابطون <http://www.almourabitoun.com/>

وفي العام 1973 أعلن الزعيم الصيداوي معروف سعد عن تشكيل التنظيم الشعبي الناصري ليكون واجهة زعامته بعد هزيمته في الانتخابات التشريعية في العام 1972. وبعد اغتيال معروف سعد في العام 1975 واندلاع الحرب الأهلية تزعم الحزب النجل البكر لمعروف سعد مصطفى، وقد لعب دوراً بارزاً ضد الاحتلال الإسرائيلي لصيدا بين عامي 1982 و1985 ما دفع بقوات الاحتلال وعملائها إلى محاولة اغتياله بتفجير عبوة قرب منزله أدّت إلى فقدانه البصر واستشهاد ابنته ناتاشا. وبعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية كان سعد من المعارضين لرئيس الوزراء رفيق الحريري وبعد وفاته في العام 2002 تزعم التنظيم أخوه أسامة الذي نجح في أن يصبح نائباً في انتخابات العام 2018.¹⁸⁷ وإضافة إلى هذا التنظيم ظهرت عشرات الأحزاب الصغيرة خصوصاً في بيروت وطرابلس وكانت ممولة من الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات.

¹⁸⁷ راجع موقع التنظيم الشعبي الناصري <https://ar-ar.facebook.com/Nasserist.Popular.Party/>

الفصل الثالث

العراق 1958 – 1970

شكلت فترة حكم عبد الكريم قاسم بداية مرحلة جديدة من تاريخ العراق، انتهت معها الهيمنة البريطانية على البلاد والتي دامت أربعين عاماً، منذ سقوط العراق تحت الاحتلال البريطاني في العام 1917. كذلك فإن هذه المرحلة توافقت مع نهاية الحكم الهاشمي للبلاد الذي شكل الدعامة الأساسية للهيمنة البريطانية، لتبدأ بعدها مرحلة تنافس على كسب ود العراق ما بين قوى دولية أهمها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وإقليمية أهمها مصر والمملكة العربية السعودية. وبعد إطاحة الحكم الهاشمي تولى عبد الكريم قاسم مناصب رئيس وزراء العراق والقائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع بالوكالة حتى إطاحته في العام 1963.¹⁸⁸ وقد سارع قاسم وعارف إلى إصدار عدد كبير من القرارات التي أثرت بشكل جذري على العراق. فلقد قاما بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين وألغيا قرارات نزع الجنسية التي كانت تصدرها المحاكم العراقية أثناء الحكم الملكي على معارضي الحكم، وسمحاً بالحريات الحزبية، ولو إلى حين، وأصدرا دستوراً مؤقتاً في أواخر العام 1958، كما ألغيا نظام الإقطاع الذي كان قائماً في العراق منذ أيام الدولة العثمانية واعدت هيكلة نظام التعليم وأصدر قراراً بالإصلاح الزراعي الذي يمنح الأرض للفلاحين، وصدر قرار بانسحاب العراق من منطقة الجنيه الاسترليني. وفي وقت لاحق أصدر قاسم القانون رقم 60 لعام 1961 والذي انتزع بموجبه معظم حقول النفط من الشركات الأجنبية التي كانت تستأثر بالنفط العراقي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.¹⁸⁹ كما بدأ قاسم ببناء وحدات سكنية لذوي الدخل المحدود والموظفين، إضافة إلى مساكن الضباط ونشر المدارس والمستشفيات في جميع المحافظات والمدن العراقية. وكان من أهم قراراته قانون الأحوال الشخصية الذي أعطى المرأة بموجبه الكثير من الحقوق التي قربتها من المساواة مع الرجل.¹⁹⁰

¹⁸⁸ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, 86.

¹⁸⁹ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 98 – 102.

¹⁹⁰ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 81.

الأحزاب الفاعلة خلال الستينيات

بنتيجة الانقلاب على الملكية طفت على السطح أحزاب سياسية كانت قد تأسست منذ العشرينيات، لكنه لم يتسنَّ لها أن تلعب دوراً بارزاً على الساحة العراقية التي كانت حكرًا على الوجهاء من ملاك الأراضي خلال الحقبة الملكية. ومن أبرز هذه الأحزاب هو الحزب الشيوعي العراقي الذي تأسس في العشرينيات من القرن الماضي بالتوازي مع تأسيسه في كل من سوريا ولبنان. وقد ضُمَّت أولى الحلقات الحزبية محمد أحمد المدرس وعبد الله جدوع وحسين الرحال ومصطفى علي وعوني بكري صدقي، الذين أصدروا في العام 1924 مجلة الصحيفة التي كانت تصدر مرتين في الشهر. وقد ركّزت موضوعات المجلة على نبذ العنصرية والقومية وركزت على النضال الطبقي. وفي العام 1927 تشكلت خلية البصرة التي ضُمَّت زكريا الياس وعبد الحميد الخطيب وعبد الوهاب محمود وسامي نادر مصطفى، وبعدها بعام واحد تشكلت خلية الناصرية التي ضمت غالي زويد وأحمد جمال الدين ويوسف سلمان الشهير بفهد والذي سيلعب الدور الأبرز في الحزب حتى قتله على يد المخابرات العراقية في العام 1949 نتيجة التعذيب أثناء التحقيق معه.

في العام 1958 دعم الحزب ثورة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ضد الملكية، علماً أنه كانت تربط قاسم صلة قرابة بزعيم الحزب الشيوعي. وخلال حكم قاسم انحاز الحزب له خصوصاً في صراعه مع البعثيين والقوميين بزعامة عبد السلام عارف. وقد تضخم حجم عضوية الحزب ليصل إلى نحو ثلاثة ملايين عضو. وقد ساهم الحزب في حملات التنكيل التي شنها قاسم ضد خصومه، خصوصاً في الموصل وكركوك إثر محاولة انقلاب الشواف. وبعد الانقلاب البعثي القومي على قاسم في العام 1963 حصلت معارك شوارع بين الشيوعيين والقوميين والبعثيين أدّت إلى سقوط عشرات آلاف القتلى من الطرفين ليحظر بعدها الحزب وينتقل إلى العمل السري العسكري، خصوصاً انطلاقاً من المناطق الكردية في شمال العراق.¹⁹¹ وبعد الغزو الأميركي للعراق شارك الحزب الشيوعي في الإدارة المدنية التي شكلتها قوات الاحتلال الأميركي ثم في العملية السياسية، إلا أن وضعه كان قد ضعف كثيراً ولم يعد يتمتع بالقوة التي تمتع بها خلال فترة قاسم.

أما الحزب الثاني الذي سيلعب دوراً بارزاً بعد إطاحة الملكية فهو حزب البعث العربي الاشتراكي. وكان الحزب قد تأسس في سوريا وكان من أعضائه العراقيين سعدون حمادي، الذي بقي طوال

¹⁹¹ راجع موقع الحزب الشيوعي العراقي <http://www.iraqicp.com/>

تاريخ البعث رمزاً للحزب لأنه لم يدخل بصراعاته الداخلية، إلا أن فؤاد الركابي هو الذي أسسه في العراق في العام 1951. وقد دعا الحزب إلى الوحدة العربية وإلى إعادة إحياء الدولة العربية بناء على النموذج الذي قامت عليه خلال القرن الهجري الأول. وفي العام 1953 تشكلت قيادة قطرية للعراق ضمت إلى فؤاد الركابي كلاً من جعفر قاسم حمودي ومحمد سعيد الأسود وشمس الدين كاظم وفخري ياسين قدوري. وقد دعم الحزب ثورة قاسم وعارف في العام 1958 وشارك في أول حكومة بعد إطاحة الحكم الملكي إذ تولى فؤاد الركابي وزارة الإعمار. إلا أن البعث العراقي تعرّض للاضطهاد على يد قاسم بعد الخلاف الذي دبّ بينه وبين عارف. وقد شارك أعضاء من الحزب على رأسهم صدام حسين بمحاولة اغتيال عارف في العام 1961 رداً على قمعه لثورة الشواف وللبعثيين، ثم ساهم الحزب بإطاحة قاسم في العام 1963 وفي قمع الانتفاضة التي قادها الشيوعيون رداً على ذلك. وقد شارك البعث في السلطة في العراق وعيّن رئيسه أحمد حسن البكر نائباً لرئيس الجمهورية حتى أواخر العام 1963. إلا أن الخلاف دبّ بين البعث وعارف نتيجة عدم تأييد البعثيين الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق التي كان عارف داعماً لها، فأطاح عارف بالبعثيين واستفرد بالحكم حتى العام 1966 حين سقطت مروحيته في ما قيل إنه محاولة انقلاب بعثية ضده. ولم تنجح المحاولة البعثية إذ خلفه أخوه عبد الرحمن الذي أطيح بانقلاب البعث الذي قاده صدام حسين في العام 1968. وقد أصبح صدام حسين نائباً للرئيس والممسك الفعلي بالسلطة، فيما كان أحمد حسن البكر الرئيس للعراق حتى العام 1979.

وكان الخلاف قد دبّ مع الجناح السوري للبعث بعد انقلابه على مؤسس الحزب ميشيل عفلق في العام 1966. وفي العام 1971 أمر صدام حسين بقتل مؤسس الجناح العراقي للحزب فؤاد الركابي في السجن نتيجة خوفه من نفوذه داخل حزب البعث. وفي العام 1975 أعلن صدام حسين عن توجهاته اليمينية وتفضيله العلاقة مع الغرب على العلاقة مع الاتحاد السوفياتي فانفتح على شاه إيران وفرنسا حتى يكونا جسر العلاقة بينه وبين الغرب. هذا جعل المعارضة تكبر ضده داخل الحزب فقام بانقلاب ضد صدام مجموعة من العناصر القيادية الذي ظهروا في المحاكمة التلفزيونية الشهيرة التي أدّت إلى إعدام 22 من كبار القيادات البعثية العراقية بذريعة التحضير لانقلاب في العراق بالتنسيق مع الرئيس السوري حافظ الأسد، ثم تم عزل أحمد حسن البكر وتسلم صدام حسين مقاليد رئاسة الجمهورية العراقية حتى إطاحته والبعث على يد القوات الأميركية الغازية

في العام 2003. بعد ذلك أعلن الحاكم الأميركي للعراق بول بريمر حلّ حزب البعث العراقي الذي انتقل مجدداً للعمل السري.¹⁹²

أما الحزب الثالث الذي خرج إلى العلن خلال حكم عبد الكريم قاسم فلقد كان حزب الدعوة الإسلامية في جنوب العراق. وقد جاء إطلاق الحزب على يد بعض المرجعيات الشيعية الشابة رداً على انتشار التأييد للحزب الشيوعي العراقي في صفوف الشباب. وقد تأسست النواة الأولى لهذا الحزب في العام 1957 على يد العلامة الشاب محمد باقر الصدر، وكان العلامة اللبناني محمد حسين فضل الله من مؤسسي هذا الحزب، إذ كان يدرس وقتها في النجف الأشرف. وقد نادى الحزب بحكم إسلامي يحكمه مرجع ديني يكون بمثابة ولي فقيه يحكم في ظل غياب الإمام المهدي المنتظر. وقد لقي الحزب خلال الستينيات دعماً من القوميين والبعثيين بصفته الرد الأنجع في مواجهة الشيوعيين الذين كانوا الخصم الأساسي للقوميين في العراق. لكن بعد تسلّم البعث للسلطة في العام 1968، وبنتيجة تراجع التأييد بشكل كبير للشيوعيين نتيجة التنكيل الذي لحق بهم، وتوسّع القاعدة الجماهيرية لحزب الدعوة في جنوب العراق، تحوّل هذا الحزب إلى الخصم الرئيس للحكم البعثي أقله في جنوب العراق. وبنتيجة قيام حزب الدعوة بتظاهرات كبيرة في العام 1969 شنّ حزب البعث حملة اعتقال واسعة ضده. وفي العام 1974، وبنتيجة الشكوك في أن الحزب يلقي دعماً من شاه إيران صدر حكم قضائي بالإعدام بحق قيادات من الحزب. وفي العام 1977 أطلق حزب الدعوة انتفاضة صفر التي استهدفت بالاعتقال قيادات حزب البعث. فردّ حزب البعث الحاكم بحظر الحزب واعتقال قياداته. وقد زاد ضغط البعثيين على حزب الدعوة خصوصاً بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران وخشية الحكم في العراق من أن يحذو حزب الدعوة العراقي حذو الإيرانيين فأمر الرئيس العراقي صدام حسين بإعدام مؤسس الحزب محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى في نيسان أبريل 1980. وخلال الحرب العراقية الإيرانية قاتل أعضاء حزب الدعوة في صفوف الجيش الإيراني ضد الجيش العراقي. وفي أعقاب حرب الخليج الثانية عام 1991 قاموا بانتفاضة في جنوب العراق لإطاحة حكم صدام حسين بدعم أميركي، إلا أن الرئيس العراقي تمكّن من القضاء على الانتفاضة. وفي العام 2003 أيّد حزب الدعوة الغزو الأميركي للعراق وتمكنوا من الوصول إلى الحكم فيه عقب إطاحة البعث. ومنذ العام 2005 تعاقب أعضاء من حزب الدعوة على حكم العراق.¹⁹³

¹⁹² راجع موقع حزب البعث على فيسبوك <https://ar-ar.facebook.com/HzbAlbthAlraqy/>

¹⁹³ راجع موقع حزب الدعوة الإسلامية <http://www.al-daawa.org/main/>

إضافة إلى الأحزاب الثلاثة الآنفة الذكر ظهر في العراق حزبان كرديان رئيسيان. كان أول هذه الأحزاب الحزب الديمقراطي الكردستاني. وقد تأسس هذا الحزب في العام 1946 باسم الحزب الديمقراطي الكردي ليكون واجهة لزعامة الزعيم الانفصالي الكردي مصطفى البرزاني. وفي العام 1953 تغيّر اسم الحزب إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني مطالباً بالاستقلال عن العراق على أن يمر ذلك بفترة حكم فدرالي. وقد تولى هذا الحزب قيادة القتال ضد الحكم المركزي في بغداد طوال الستينيات والسبعينيات مروراً بتأييده الغزو الأميركي للعراق في العام 2003 وحتى يومنا هذا. ويتزعمه منذ أواخر السبعينيات نجل مصطفى البرزاني مسعود الذي عين حاكماً على إقليم كردستان العراق من قبل الأميركيين ولا يزال في منصبه إلى يومنا هذا.¹⁹⁴

أما الحزب الثاني الذي ظهر في كردستان العراق فلقد كان الاتحاد الوطني الكردستاني وقد تأسس على يد شخصيات من الطبقة الوسطى الكردية انشقت عن الحزب الديمقراطي الكردستاني في العام 1975، وكان في مقدمة هذه الشخصيات جلال الطالباني وبرهم صالح. وعلى الرغم من الشعارات اليسارية التي نادى بها هذا الحزب إلا أنه كان الأقرب إلى الأميركيين منذ الثمانينيات من القرن الماضي وحتى غزو العراق عام 2003 والتي لعب فيها الطالباني وصالح دوراً كبيراً للترويج لحملة تأييد للغزو، ما مكن زعيمه جلال الطالباني من أن يصبح رئيساً للعراق في ظل نظام المحاصصة الطائفية التي أقرها الأميركيون لعراق ما بعد صدام، ولينتخب زعيمه الآخر برهم صالح رئيساً للعراق في صيف العام 2018.¹⁹⁵

الصراعات في ظل قاسم

على الرغم من هذه الإنجازات إلا أن العراق وقع في ظل قاسم في خضم صراع بين القوميين العرب من جهة والشيوعيين من جهة أخرى، وكان قاسم أقرب إلى الآخرين فيما كان عارف أقرب إلى القوميين العرب.¹⁹⁶ ولقد انقسم هؤلاء أيضاً بين بعثيين وقوميين مقربين من جمال عبد الناصر، ولكن الشرخ بينهم لم يظهر إلى العلن إلا عقب إطاحة قاسم. وكان أحد أبعاد هذا الصراع هو

¹⁹⁴ راجع موقع الحزب الديمقراطي الكردستاني <http://www.kdp.info/>

¹⁹⁵ https://www.pukmedia.com/AR_BabetiLekchu.aspx?Babet=YNK&Nawnishan=%D8%A3.%D9%88.%D9%83

%83

¹⁹⁶ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 88.

صراع وقع بين جمال عبد الناصر من جهة والسوفييات بزعامة نيكيتا خروتشيف من جهة أخرى. فعلى الرغم من التقارب الذي حصل بين مصر والاتحاد السوفياتي عقب صفقة السلاح في العام 1955 والتي قام الاتحاد السوفياتي بموجبها بتسليح مصر عبر تشيكوسلوفاكيا، فيما عرف بصفقة الأسلحة التشيكية، وعلى الرغم من الدعم السوفياتي لمصر خلال أزمة السويس عام 1956 إلا أن قيام الوحدة بين مصر وسوريا جعل عبد الناصر يصطدم بالدرجة الأولى بالحزب الشيوعي السوري بزعامة خالد بكداش. وكان بكداش معادياً لقيام الوحدة مع مصر بسبب إصرار عبد الناصر على حل الأحزاب كشرط لقيام الوحدة بين مصر وسوريا، وبسبب معاداة بكداش للقومية العربية والتي لعبت فيها أصوله الكردية دوراً بارزاً في ذلك. كذلك كان لطموحات الاتحاد السوفياتي في بسط هيمنته على منطقة الشرق الأوسط ورفض عبد الناصر الانحياز للمعسكر الغربي أو الشرقي دور في هذا الصدام. ولقد أثر هذا الصراع سلباً على علاقات عبد الناصر بالسوفييات في أوائل الستينيات. وفي العراق كان قاسم ابن خالة زعيم الحزب الشيوعي العراقي الذي اتخذ موقفاً مؤيداً لشيوعي سوريا وللاتحاد السوفياتي. فأسهم ذلك في إيجاد شرخ مع القوميين العرب والبعثيين العراقيين والذي تفجّر خلافاً بين قاسم وعارف دفع الأول إلى إزاحة الأخير عن السلطة.¹⁹⁷ ففي 30 أيلول سبتمبر 1958 أصدر عبد الكريم قاسم قراراً بعزل عبد السلام عارف من منصبه كنائب لرئيس مجلس الوزراء وكوزير للداخلية، وعيّنه ملحقاً عسكرياً للعراق في ألمانيا الغربية، لكن بعد شهر من ذلك عاد عارف إلى العراق ما أثار ذعر قاسم الذي اتهمه بمحاولة اغتياله في 5 تشرين الثاني نوفمبر، بعد يوم واحد من عودته من العاصمة الألمانية الغربية بون، فاعتقله وأحاله إلى المحاكمة وأصدر بحقه حكماً بالإعدام في كانون الثاني يناير 1959، لكنه خفف الحكم بحقه إلى السجن مدى الحياة.¹⁹⁸

في هذا الوقت كانت هنالك ثورة تتحضر في الموصل ضد عبد الكريم قاسم من قبل ضباط قوميين بقيادة العقيد الركن عبد الوهاب الشواف. وكان الشواف قد انضم لحركة الضباط الأحرار في العام 1953 لكنه لم يكن ضمن الحلقة الضيقة التي قامت بالثورة في 14 تموز يوليو 1958. وفي اليوم نفسه الذي جرت فيه الثورة تم تعيينه حاكماً عسكرياً على العراق، إلا أنه عُزل في اليوم التالي وألغي المنصب من قبل عبد السلام عارف الذي عينه قائداً لحامية الموصل. وبعد إطاحة هذا الأخير حوّل الشواف الموصل إلى مركز للضباط القوميين المعارضين لحكم قاسم. وقد حاول عبد

¹⁹⁷ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p.p. 79 – 80.

¹⁹⁸ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 76.

الكريم قاسم بسط سيطرته على الموصل عبر تنظيم "مهرجان السلام" في المدينة بغية ضرب مجموعة الضباط القوميين. هذا دفع الشواف إلى إعلان التمرد على قاسم في آذار مارس 1959.¹⁹⁹ وقد شارك في حركة الشواف عدد من كبار الضباط العراقيين ذوي التوجه القومي مثل الزعيم الركن ناظم الطبقجلي والعقيد الركن عبد العزيز العقيلي والعقيد رفعت الحاج سري، والرئيس الطيار عارف عبد الرزاق والعقيد نعمان الكنعاني والمقدم الطيار محمد سبع والرئيس أول خليل إبراهيم وعدد كبير من الضباط القوميين الآخرين. وكانت الخطة تقضي بأن يعلن الشواف التمرد في الموصل بالتوازي مع تمرد ناظم الطبقجلي في شمال العراق على أن تتحرك القوات المتمردة بعد ذلك باتجاه معسكري الوشواش والهندسة في منطقة الرستمية ثم تسيطر على وزارة الدفاع على أن تقوم بعدها باعتقال قاسم وأنصاره وتجبرهم على الاستقالة ومغادرة العراق. وقد نسق الضباط المتمردون خطتهم مع قادة الأحزاب القومية وعلى رأسها القوميون العرب والبعثيون الذين كان من المطلوب منهم تنظيم تظاهرات في عدد من المدن بغية السيطرة على الأحياء ومنع أي حركة يمكن أن يقوم بها أنصار قاسم لإحباط التمرد. وكان رهان المتمردين على نجاح حركتهم واستبدال قاسم بالفريق الركن محمد نجيب الربيعي. لكن الطبقجلي تردّد في إعلان التمرد في المناطق الشمالية التي كانت تحت سيطرته عندما قام الشواف بإعلان التمرد في الموصل ما نتج عنه تركيز قاسم لجهوده في قمع الثورة في الموصل. وقد أمر قاسم بقصف الموصل بالطيران وهو ما لم يحسب الشواف حسابه، كما قامت القوات الموالية لقاسم باقتحام المدينة، حيث جرت معارك جرح خلالها الشواف فحاول أنصاره نقله إلى المستشفى، إلا أن أنصار قاسم اعترضوا موكبه وأردوه قتيلاً، فانهارت معنويات الضباط المتمردين الذين قتل بعضهم وفرّ معظمهم باتجاه سوريا. بعد ذلك أمر قاسم بحملة اعتقالات أدّت إلى اعتقال عدد كبير من الضباط القوميين المشتبه بتأييدهم للتمرد حيث جرى إعدام عدد كبير منهم ومن ضمنهم العقيد رفعت الحاج سري والزعيم ناظم الطبقجلي وعشرات آخرين بعد محاكمات سريعة.²⁰⁰ هذه الإعدامات ستؤدي إلى محاولة الضباط القوميين الانتقام عبر محاولة اغتيال قاسم بعد شهر على تنفيذ آخر موجة إعدامات. ففي صبيحة 27 تشرين الأول أكتوبر 1959 نصب ضباط قوميون كميناً لقاسم عند الساعة السادسة والنصف صباحاً أثناء مرور موكبه في شارع رشيد في بغداد.²⁰¹ وكانت الخطة تعتمد على الهجوم بمجموعتين، وكانت المجموعة الأولى تضمّ كلاً من الضباط خالد علي الصالح وسليم عيسى الزبيقي ومسير عزيز نجم وعبد الحميد مرعي وإياد سعيد ثابت وعبد الوهاب الغريبي وأحمد طه العزوز، وكانت مهمتها تنفيذ الهجوم

¹⁹⁹ Phebe Marr, *The Modern History of Iraq*, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 89 – 90.

²⁰⁰ Courtney Hunt, *The History of Iraq*, London: Greenwood Press, 2005, p. 80.

²⁰¹ Phebe Marr, *The Modern History of Iraq*, Boulder: Westview Press, 2012, p. 92.

على موكب قاسم. أما المجموعة الثانية فلقد تألفت من عبد الكريم الشيخلي وحاتم العزاوي وصادم حسين التكريتي. وكان من المقرر أن يبدأ الهجوم بإلقاء الغريري قبلة باتجاه سيارة قاسم يليها إِمطار سيارته بالنار قبل أن يلقي الغريري قبلة دخانية ليسهل انسحاب المجموعة المهاجمة، إلا أنه قتل عند أول طلقة فلم تجر الخطة كما كان مقرراً. وعلى الرغم من مقتل سائق سيارة قاسم، إلا أن هذا الأخير تمكّن من النجاة والهروب ومراقبيه الآخرين.²⁰²

العلاقة مع الأكراد والحركة الأصولية

قدر لقاسم ان يواجه، إضافة إلى التيار القومي، معارضة كبيرة في الشمال من قبل الزعيم الكردي مصطفى البرزاني. إضافة إلى تصاعد المعارضة له في جنوب العراق من قبل رجال الدين الذين سيطلق بعضهم حزب الدعوة الإسلامية. وكان أساس هاتين الحركتين بالدرجة الأولى عملية الإصلاح الزراعي التي كانت الثورة العراقية قد أطلقتها في بداياتها والتي مست بامتيازات زعماء العشائر الكرد في شمال البلاد، وعلى رأسهم البرزاني، كما مست في الجنوب بالملكيات والأوقاف الزراعية التي كان ينتفع منها رجال الدين في النجف وكربلاء وغيرها من المناطق الجنوبية. والجدير ذكره أن البرزاني كان قد شارك في العشرينيات من القرن الماضي بحركات تمرد على النظام الملكي الهاشمي قادها أخوه البكر أحمد للمطالبة بانفصال الأكراد. لكن هذه الحركات تم قمعها من قبل الجيش الملكي العراقي ومساندة من القوات البريطانية، على الرغم من أن بريطانيا كانت قد دعمت قيام دولة كردية في أجزاء من العراق والأناضول بعد انهيار الدولة العثمانية في العام 1918. وقد قصف الطيران البريطاني الأكراد بالأسلحة الكيماوية لقمع ثورتهم، وتم نفي مصطفى وأخيه أحمد إلى مدينة السليمانية في العام 1935. وخلال الحرب العالمية الثانية تمكن البرزاني من الفرار إلى إقليم مهاباد في إيران الذي كان قد سقط في العام 1942 تحت الاحتلال السوفياتي، حيث انضم إلى الانفصاليين الكرد الذين أقاموا في العام 1945 جمهورية في شمال غرب إيران بدعم من الاتحاد السوفياتي. وقد تولى الملا البرزاني قيادة جيش الجمهورية الانفصالية. لكن بعد انسحاب القوات السوفياتية من شمال إيران استعادت السلطة المركزية في طهران سلطتها على الإقليم مطيحة بجمهورية مهاباد، فهرب البرزاني مع مئات من مناصريه إلى جمهورية أذربيجان حيث بقوا هناك لعقد ونيف من الزمن حتى قيام الثورة في العراق والسماح له بالعودة إلى بلاده بعد وساطة من

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 80. ²⁰²

الاتحاد السوفياتي الذي كانت بغداد قد بدأت بالتقرب منه. وقد حاول عبد الكريم قاسم أن يتوصل إلى تسوية مع الملا البرزاني والقيادات الكردية فكرم البرزاني وخصص له راتباً شهرياً مقداره 500 دينار وخصص منزل رئيس الوزراء إبان العهد الملكي نوري السعيد كمقر للبرزاني. وفي بدايات العام 1960 أصدرت الحكومة العراقية ترخيصاً يسمح بتأسيس الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة البرزاني.²⁰³ وقد حاول قاسم أن يعترف ببعض المطالب الكردية إلا أن ما عرقل هذه الجهود كان بالدرجة الأولى الإصلاح الزراعي الذي مَسَّ بامتيازات العائلات الإقطاعية في كامل العراق ومن ضمنها منطقة كردستان، بما فيها مصالح عائلة البرزاني التي كانت بالأساس عائلة إقطاعية زراعية منذ عهد الدولة العثمانية. كذلك فلقد سعت بريطانيا التي خسرت مع الثورة نفوذها في العراق، ومن خلفها الولايات المتحدة الأميركية، خلق مشكلات لنظام عبد الكريم قاسم الذي كان قد خرج من حلف بغداد وأعلن عداؤه للغرب وبدأ يتقرب من الاتحاد السوفياتي. كذلك لاقت حركة التمرد الكردي دعماً من إسرائيل،²⁰⁴ التي كانت قيادتها تراهن على تجزئ الدول العربية إلى كيانات تقوم على عصبية اثنية وعشائرية. وقد تمَّ مدَّ البرزاني بالسلاح من هذه القوى فأعلن حركة تمرد في شمال العراق ما دفع بعبد الكريم قاسم إلى تجريد حملة ضده في العام 1961.²⁰⁵

وفي جنوب العراق بدأت المعارضة تتصاعد في وجه عبد الكريم قاسم من قبل رجال الدين الذين ساءهم ما قام به قاسم من إصلاح زراعي أضعف قبضتهم على الأراضي الزراعية والفلاحين، إضافة إلى ما منحه من حقوق قانونية واجتماعية للمرأة العراقية. وكان بعض رجال الدين الشباب قد تنادوا في العام 1957 لتأسيس حزب الدعوة الإسلامية كرد على تصاعد التيار القومي والشيوعي في العراق نتيجة تأثر الشباب بالنصر السياسي الكبير الذي حققه جمال عبد الناصر ضد العدوان الثلاثي في أواخر العام 1956. وقد أسس حزب الدعوة لمواجهة هذا المدَّ القومي واليساري، وقد قيل إن هذا جاء بتشجيع من السلطة الملكية العراقية ومن خلفها البريطانيون. وقد ارتكز حزب الدعوة بالدرجة الأولى على الشخصية الكاريزمية لرجل الدين الشاب العلامة محمد باقر الصدر. وينتمي الصدر إلى عائلة عريقة من علماء النجف، وقد ولد في مدينة الكاظمية وكان والده العلامة حيدر الصدر من رجال الدين ذائعي الصيت في العراق. وفي أوائل العشرينيات من عمره نال محمد باقر الصدر درجة علامة نتيجة اجتهاده في عدد من المسائل الدينية خلال دراسته في الحوزة العلمية في النجف الأشرف. ومن أساتذة العلامة محمد باقر الصدر العلامة أبو القاسم الخوئي

²⁰³ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 93 – 94.

²⁰⁴ 104 – 106. Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p.

²⁰⁵ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 77.

والعلامة محمد رضا آل ياسين، وهو خال باقر الصدر، والشيخ محمد تقى الجواهري والملا صدرا البادكوي. أما تلامذة باقر الصدر فقد كانوا كثيراً ومن بلدان عربية وإسلامية ومتعددة ومن بينهم العلامة اللبناني السيد محمد حسين فضل الله والعلامة علي الحسيني الاشكوري والعلامة علي رضا اليزدي الحائري والعلامة سلمان فاضل الأفغاني والشيخ محمد إبراهيم الأنصاري. ولقد تميزت مدرسته المنبثقة عن أهل البيت عن مدرسة الإمام أبو القاسم الخوئي بأنها شاملة وعميقة، خلافاً لمدرسة الخوئي التي اعتمدت التبسيط والتوضيح.²⁰⁶

السياسة الخارجية في عهد قاسم

شكلت ثورة العام 1958 في العراق بداية تحوّل جذري في العلاقات الخارجية لبغداد إقليمياً ودولياً. وقد سارعت بغداد في نهاية العام نفسه إلى الانسحاب من حلف بغداد وطلبت خروج مستشاريه العسكريين من البلاد إضافة إلى طلبها من القوات البريطانية إخلاء قواعدهم العسكرية والخروج من العراق.²⁰⁷ وقد سارع جمال عبد الناصر، الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لكل من مصر وسوريا في إطار الجمهورية العربية المتحدة، إلى الاعتراف بحكومة الثورة وأبدى كل الدعم لها والذي ترجم بعقد اتفاقيات تكامل اقتصادي وتجاري مع العراق، إضافة إلى اتفاقية تعاون عسكري تتعهد بموجبه القاهرة بدعم بغداد في مواجهة أي عدوان خارجي، ناهيك عن اتفاق للتعاون الثقافي. كذلك فلقد سارع الاتحاد السوفياتي إلى إعلان دعمه للعراق بقيادة قاسم. وبنتيجة ذلك انحاز العراق إلى معسكر الدول الشرقية وبات عضواً فاعلاً في حركة دول عدم الانحياز وبات أكثر دعماً للقضية الفلسطينية وقضايا التحرر الوطني في العالم الثالث.²⁰⁸ لكن كان مقدراً لقاسم أن يختلف مع عبد الناصر لأسباب عدة قد يكون من أهمها كون العراق ومصر كانتا منذ فجر التاريخ مركزين جيوسياسيين يتنافسان على الهيمنة في منطقة المشرق، إضافة إلى طموحات عبد الكريم قاسم بالزعامة والتي كانت ستصطدم حكماً بزعامة عبد الناصر التي كانت قد تحققت بعد العدوان الثلاثي على مصر في العام 1956. إضافة إلى ذلك فإن العراق ومصر كانا يتنافسان منذ فجر التاريخ على الهيمنة على بلاد الشام، ولقد كانت هذه حقيقة لم يتمكن من الخروج منها لا قاسم ولا عبد الناصر. وكان عبد الناصر قد بسط نفوذه على الشام قبل أشهر من قيام الثورة في العراق عبر

²⁰⁶ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 102 – 104.

²⁰⁷ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p. 106.

²⁰⁸ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 107 – 108.

تحقيقه للوحدة بين مصر وسوريا. وقد شكلت هذه الوحدة منطلقاً لعبد الناصر لدعم الضباط الأحرار في العراق ومن ضمنهم قاسم، وبالتالي فلقد كان هذا الأخير يعي قدرة عبد الناصر على التأثير في العراق نفسه. وقد اقترنت هذه العوامل الجيوسياسية بعوامل مباشرة كان أهمها الخلاف الذي اندلع بين عبد الناصر والشيوعيين السوريين بقيادة خالد بكداش والتي أدت إلى خلاف كبير بين عبد الناصر والسوفييات، ما جعل الشيوعيين العرب ومن ضمنهم الشيوعيون العراقيون يعادون عبد الناصر. وكان شيوعيو العراق قد تقربوا من عبد الكريم قاسم وباتوا أحد الأعمدة الرئيسية للحكم في العراق بسبب ميل الزعيم العراقي اليهم نتيجة قرابته من أحد قياديينهم وهو العقيد فاضل عباس المهداوي.

قاسم والحزب الشيوعي العراقي

وكان الحزب الشيوعي العراقي قد تأسس على يد عدد من المثقفين العراقيين الذين كانوا على اتصال بالشيوعيين السوريين في العشرينيات من القرن الماضي والذين كانوا قد بدأوا "يهربون" الكتب الماركسية إلى العراق خلسة خوفاً من السلطات الملكية وسلطات الانتداب البريطانية. وقد أعقب ذلك تشكل حلقة ماركسية من كل من مصطفى علي وعوني بكري صديقي ومحمد أحمد المدرس وحسين الرحال وعبد الله جدوع الذين أصدروا مجلة "الصحيفة" بدءاً من أيلول سبتمبر 1924، والتي هاجموا فيها الإقطاع والطائفية في العراق ودعوا إلى ثورة اشتراكية تلغي العصبية الطائفية والقبلية واحتكار الملكية الزراعية من قبل الإقطاع، إضافة إلى إعلانها عداها لسلطات الانتداب البريطاني. وفي العام 1927 تشكلت خلية شيوعية في البصرة وكان من أعضائها زكريا الياس وعبد الوهاب محمود وعبد الحميد الخطيب وسامي نادر مصطفى، تلتها في العام 1928 خلية الناصرية التي ضمت عدداً من الأعضاء كان من أبرزهم أحمد جمال الدين وغالي زويد ويوسف سلمان الملقب بفهد. وقد وُزِع الشيوعيون العراقيون أول بيان لهم في كانون الأول ديسمبر 1932. وفي آذار مارس 1934 عقدت المجموعات الماركسية المختلفة اجتماعاً في بغداد حضره ممثلون عن المجموعات من مختلف أنحاء العراق وانتخبوا لجنة مركزية ومكتباً سياسياً إضافة إلى انتخاب عاصم فيلح كأول أمين عام للحزب الذي اعتمد اسماً رسمياً هو الحزب الشيوعي العراقي. وفي العام 1941 انتخب يوسف سلمان الملقب بفهد أميناً عاماً للحزب بعد عودته من الاتحاد السوفياتي حيث خضع لدورات نظرية وتنظيمية في الماركسية اللينينية، إلا أنه اعتقل في العام 1949 وأُخضع للتعذيب حتى الموت من قبل السلطات الملكية العراقية. وقد كان للشيوعيين العراقيين ضباط في

الجيش العراقي دعموا الانقلاب الذي جرى ضد الملكية في تموز يوليو 1958. وخلال حكم قاسم بات الحزب الشيوعي واسع النفوذ وتوسّعت قاعدته الجماهيرية لتقدر بنحو مليونين ونصف مليون عضو، ما جعل قاسم يخشى من تمّدّد نفوذ الحزب على حساب سلطته هو. لكن ما منع الصدام بينهما كان خوف كل منهما من الضباط القوميين الذين كانوا يدعمون عبد السلام عارف المدعوم من عبد الناصر والذي بات يشكل الخطر الرئيس على قاسم حتى بعد وضعه في السجن.²⁰⁹

أزمة الكويت

كان العراق يعاني من ضيق مساحة شاطئه جنوباً على الخليج العربي، وكان يعتبر أن إيران غبنته حقه نتيجة معاهدة رسم الحدود بينهما خلال زمن الدولة العثمانية والتي قسمت بموجبها منطقة المحمّرة بما منح معظم الشاطئ الشرقي للخليج إلى إيران. وفي الوقت نفسه فلقد شكل وضع الكويت تحت الحماية البريطانية في العام 1899 انتزاعاً لهذا المرفأ المهم من ولاية البصرة ما اعتبره الوطنيون العراقيون على مرّ العقود غبناً كبيراً للعراق. وقد قدر لعهد قاسم أن يشهد أزمة كبيرة على الصعيد العربي وهي أزمة الكويت. وكانت بريطانيا قد اعلنت في حزيران يونيو 1961 الغاء معاهدة الحماية التي فرضتها على الكويت في العام 1899 ومنحتها بذلك استقلالها فأبرق قاسم إلى أمير الكويت عبد الله سالم الصباح مهنئاً ثم عقد بعد أيام مؤتمراً صحافياً في وزارة الدفاع العراقية طالب فيها بضم الكويت إلى العراق بذريعة "أن الكويت كانت جزءاً من محافظة البصرة"، ولوّح باستخدام القوة لتحقيق ذلك. رداً على ذلك قامت بريطانيا بإرسال قوات إلى الكويت ما دفع بالعراق إلى رفع شكوى إلى مجلس الأمن، فتقدمت بريطانيا بمشروع قرار إلى مجلس الأمن لشرعنة وجود قواتها في الكويت، فردّت مصر بطرح مشروع قرار آخر يقضي بإرسال قوات دولية، وقد استخدمت موسكو حق النقض الفيتو لإسقاط القرار البريطاني فيما سقط المشروع المصري بالتصويت. وفي النهاية قرّرت جامعة الدول العربية إرسال قوة عربية مشتركة من 2500 جندي إلى الكويت لقاء انسحاب القوات البريطانية. وقد شكلت الأزمة إخراجاً كبيراً لقاسم وإضراراً بصورته.²¹⁰

²⁰⁹ Phebe Marr, A History of Iraq, p.p. 93 – 94.

²¹⁰ Phebe Marr, The Modern History of Iraq, Boulder: Westview Press, 2012, p.p. 109 – 110.

في أوائل العام 1963 كانت جملة من العوامل قد تضافرت لتساهم بإطاحة عبد الكريم قاسم. كان من جملة هذه العوامل التوتر الذي ظهر في العلاقة بينه وبين الحزب الشيوعي العراقي نتيجة خشية الزعيم العراقي على سلطته، ما ساهم في تراجع التأييد له في صفوف الحزب على الرغم من أن قيادة الحزب بقيت على ولائها له. كذلك فلقد ساهم انفصال سوريا عن مصر في أيلول سبتمبر 1961 في إزالة الكثير من أسباب التوتر بين الضباط القوميين المواليين لعبد الناصر والضباط البعثيين الذين كانوا قد جاهروا بالعداء له منذ تفجّر الخلاف بين الزعيم المصري والقيادي البعثي أكرم الحوراني الذي كان نائباً لعبد الناصر خلال الوحدة، وتقديمه استقالته في العام 1959. هذا جعل الضباط القوميين الناصريين والضباط البعثيين أكثر استعداداً للتنسيق في ما بينهم وتوحيد جهودهم. وفي صبيحة الثامن من شباط فبراير 1963 انطلقت مجموعة كبيرة من السيارات التي تقلّ ضباطاً قوميين من معسكر الوشواش إلى منطقة أبو غريب. وكانت وجهة الموكب باتجاه مقرّ الكتيبة الرابعة المدرعة في الجيش التي كان يسيطر عليها الضباط البعثيون والتي ستكون عماد الانقلاب على قاسم. وسرعان ما انطلقت دبابات الكتيبة الرابعة لمحاصرة المقر الحكومية ومقر وزارة الدفاع والإذاعة في منطقة الصالحية لث بيان الانقلاب. وقد كانت الحركة الانقلابية خاطفة ونجحت في عزل قاسم عن مناصريه، خصوصاً الشيوعيين ومن ثم إلقاء القبض عليه مع عدد من معاونيه في التاسع من شباط فبراير في مقر وزارة الدفاع ثم نقله إلى مقر قيادة الانقلاب في مبنى الإذاعة والتلفزيون العراقي، حيث أقيمت له محاكمة ثورية سريعة تمّ بعدها تنفيذ حكم بالإعدام فيه. وقد حاول الشيوعيون نجدة قاسم ونزلوا مسلحين إلى الشوارع واشتبكوا مع البعثيين لأيام عدة قبل أن يتمكن الجيش من قمع تمردهم. وقد عدت إطاحة قاسم ضربة لنفوذ الاتحاد السوفياتي في المنطقة.²¹¹

عهد الأخوين عارف

ما إن تم احتجاز قاسم ونقله إلى مقر الإذاعة والتلفزيون حتى قام الضباط القوميون بالتواصل مع عارف المفروضة عليه الإقامة الجبرية وذهب وفد منهم اليه ورافقوه إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون حتى يحضر محاكمة قاسم. وقد عاتب عارف قاسم لمحاولته الاستفراد بالحكم وحاول التوسط لدى الضباط للعفو عنه إلا أن الضباط البعثيين أصروا على إعدامه. بعد ذلك اختير عارف رئيساً

²¹¹ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 81 – 82.

للمجمهورية على أن يكون زعيم حزب البعث أحمد حسن البكر نائباً للرئيس. وكان حزب البعث العربي الاشتراكي - فرع العراق قد تأسس في أوائل الخمسينيات بتأثير من البعثيين السوريين، وقد ظهر الحزب إلى العلن لأول مرة في العام 1953 وانتخب أول قيادة قطرية له والتي تألفت من جعفر قاسم حمودي ومحمد سعيد الأسود وشمس الدين كاظم وفخري ياسين قدوري وفؤاد الركابي الذي انتخب أميناً للسر، وهو منصب مواز للأمين العام للحزب. وقد نشط الحزب في الخمسينيات ضد ضد الحكم الملكي وشارك في الثورة في العام 1958 ليشترك في أول حكومة بعد الثورة. وقد مال الحزب لدعم عارف على حساب قاسم، وعارض الأخير في توجهه للتفرد بالسلطة والاعتماد على الحزب الشيوعي كدعامة للحكم. وقد أبعد البعثيون عن مفاصل السلطة بعد إطاحة قاسم بعارف، ثم شارك في الثورة التي أطلقها الشواف وتعرض أعضاؤه للتنكيل من قبل قاسم والشيوعيين، ولوحقوا، فنظم محاولة لاغتيال قاسم في تشرين الأول أكتوبر 1959 كما ورد أنفاً لكن المحاولة فشلت. وقد كان للحزب دور رئيسي في إطاحة قاسم في العام 1963 وقد ارتضى تقاسم السلطة مع الضباط الناصريين المواليين لعبد الناصر وبتسمية عبد السلام عارف المقرب من الزعيم المصري رئيساً للعراق على أن يكون زعيمه أحمد حسن البكر نائباً لرئيس الجمهورية.²¹²

لكن سرعان ما دبّ الخلاف بين عارف والضباط الناصريين من جهة والضباط البعثيين من جهة أخرى. وكان السبب المباشر لذلك هو في إصرار البعثيين على إعدام قاسم وتنكيلهم بالشيوعيين وهو ما حاول عارف منعه. إلا أن السبب الأساسي في ذلك أن في عرقلة البعثيين العراقيين ومعهم البعثيون السوريون محادثات الوحدة الثلاثية التي كان عبد الناصر قد دعا إليها مع سوريا والعراق بعد إطاحة قاسم في العراق في شباط فبراير 1963،²¹³ ومن بعده انقلاب الضباط الناصريين والبعثيين في سوريا على نظام الانفصال في آذار مارس من ذلك العام.²¹⁴ هذا دفع بعارف إلى القيام بما أسماه حركة تصحيحية في 18 تشرين الثاني نوفمبر 1963 أطاح بها بالبعثيين من مفاصل السلطة وعلى رأسهم نائبه أحمد حسن البكر.²¹⁵ وما أن استتب الأمر لعارف حتى أوقف الملاحقات بحق الشيوعيين وحاول اعتماد سياسة متوازنة مع حزب الدعوة والمرجعيات الشيعية في جنوب العراق إضافة إلى محاولته حلّ المسألة الكردية.²¹⁶ وقد أصدر في شباط فبراير من العام 1964 أمراً بوقف العمليات العسكرية ضد الأكراد في شمال البلاد وتوصل إلى اتفاقية مع زعمائهم يعترف بها

Phebe Marr, A History of Iraq, p. 113. ²¹²

120 p. Phebe Marr, A History of Iraq, ²¹³

Phebe Marr, A History of Iraq, p. 114. ²¹⁴

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 82. ²¹⁵

Phebe Marr, A History of Iraq, p.127. ²¹⁶

بحقوقهم الثقافية والوطنية في إطار العراق الموحد. لكن الملا مصطفى البرزاني سعى لإفشال هذا الاتفاق نتيجة نزعاته الانفصالية وتشجيعه عليها من قبل إسرائيل ونظام الشاه في إيران الذي كان يمدّ المتمردين الأكراد بالسلاح والدعم المالي لزعزعة استقلال العراق.²¹⁷ وخلال عهده الذي دام ثلاث سنوات سعى عارف إلى الاستمرار في التقرب من السوفييات وتعميق العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية معهم، خصوصاً أنه سعى لتحديث الجيش العراقي وتزويده بمنظومة أسلحة سوفياتية حديثة. كذلك سعى عارف إلى تصنيع العراق بغية تنويع مصادر إنتاجه والتخفيف من الاعتماد على البضائع المستوردة، فأنشأ مصانع في مختلف المحافظات العراقية. كذلك أسس عارف عدداً من الجامعات ونشر المدارس في المحافظات العراقية كما فرض التعريب في الدوائر الرسمية العراقية.

وقد قتل عارف في 13 نيسان أبريل 1966 بعد تحطم طائرة مروحية كانت تقله مع عدد كبير من الوزراء والضباط لزيارة مناطق حدودية مع إيران، للإشراف على عمليات ضبط الحدود ومنع المتسللين من إيران إلى العراق. وكان من ضمن القتلى وزير الداخلية اللواء عبد اللطيف الدراجي، ووزير الصناعة مصطفى عبد الله طه، ونائب وزير الصناعة عبد الهادي الحافظ، ومتصرف لواء البصرة محمد ندى مطر الحياني وعدد من قادة الألوية في الجيش العراقي. وقد حامت الشكوك حول البعثيين في التسبب بالحادث بغية الاستيلاء على السلطة في العراق. بعد ذلك تنافس شقيق عبد السلام عارف قائد الجيش العراقي عبد الرحمن عارف ورئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز في من يتولى منصب الرئاسة. وفيما دعم العسكريون عارف، فلقد دعم المدنيون البزاز الذي فاز بالدورة الأولى من التصويت، لكن بنتيجة الضغوط التي مارسها جمال عبد الناصر فلقد انسحب البزاز لصالح عارف الذي أصبح رئيساً خلفاً لأخيه.²¹⁸ وكان تدخل عبد الناصر لصالح عارف نتيجة خوفه من ميول البزاز للتقارب مع الغرب ويقينه بأن عارف سيكمل سياسة أخيه بالتقارب مع مصر وتشكيل دعامة لها على الساحة العربية.²¹⁹ لكن في حزيران يونيو 1967 تعرضت مصر ومعها سوريا والأردن لهزيمة عسكرية على يد إسرائيل، فشكل هذا ضربة قوية لصورة عبد الناصر كزعيم للامة العربية وأضعف نفوذه على الساحة العربية. هذا شجّع البعثيين العراقيين على تصعيد معارضتهم لعبد الرحمن عارف وصولاً إلى إطاحته في انقلاب تموز يوليو 1968 ونفيه خارج العراق

Phebe Marr, A History of Iraq, p. 128. ²¹⁷

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 83. ²¹⁸

Phebe Marr, A History of Iraq, p. 130. ²¹⁹

إلى الأردن،²²⁰ ومن هناك نفي إلى تركيا حيث بقي هناك حتى الثمانينيات من القرن الماضي حين سمح له الرئيس العراقي الراحل صدام حسين بالعودة إلى العراق.

دساتير العراق

خلال فترة الستينيات صدرت دساتير عدة للعراق عكست حال الصراع السياسي في البلاد. وكان دستور مؤقت صدر للبلاد فور إطاحة الحكم الملكي في صيف العام 1958 وجاء فيه:

المادة (1): الدولة العراقية جمهورية مستقلة ذات سيادة كاملة.

المادة (2): العراق جزء من الأمة العربية.

المادة (3): يقوم الكيان العراقي على أساس من التعاون بين المواطنين كافة باحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم ويعتبر العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن ويقر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية.

المادة (4): الإسلام دين الدولة.

المادة (5): عاصمة الجمهورية العراقية بغداد.

المادة (6): يعين العلم العراقي وشعار الجمهورية العراقية والأحكام الخاصة بهما بقانون.

المادة (7): الشعب مصدر السلطة.

المادة (8): الجنسية العراقية يحددها القانون.

المادة (9): المواطنون سواسية أمام القانون في الحقوق والواجبات العامة ولا يجوز التمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة.

المادة (10): حرية الاعتقاد والتعبير مضمونة وتنظم بقانون.

المادة (11): الحرية الشخصية وحرمة المنازل مصونتان ولا يجوز التجاوز عليهما إلا حسب ما تقتضيه السلامة العامة وينظم ذلك بقانون.

المادة (12): حرية الأديان مصونة وينظم القانون أداء وظيفتها على أن لا تكون مخلة بالنظام العام ولا متنافية مع الآداب العامة.

المادة (13): الملكية الخاصة مصونة وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية ولا تنزع إلا للمنفعة العامة مقابل تعويض عادل وفقاً للقانون.

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p 83 – 84. ²²⁰

المادة (14):

أ - الملكية الزراعية تحدد وتنظم بقانون.

ب - الملكية الزراعية مصونة بموجب القوانين المرعية إلى حين استصدار التشريعات واتخاذ التدابير الضرورية لتنفيذها.

المادة (15): لا يجوز فرض ضريبة أو رسم أو تعديلها أو إلغاؤها إلا بقانون.

المادة (16): الدفاع عن الوطن واجب مقدس وأداء الخدمة العسكرية شرف للمواطنين وتنظم أحكامها بقانون.

المادة (17): القوات المسلحة في الجمهورية العراقية ملك للشعب ومهمتها حماية سيادة البلاد وسلامة أراضيها.

المادة (18): الدولة وحدها هي التي تنشئ القوات المسلحة ولا يجوز لأية هيئة أو جماعة إنشاء تشكيلات عسكرية أو شبه عسكرية.

المادة (19): تسليم اللاجئين السياسيين محظور.

المادة (20): يتولى رئاسة الجمهورية مجلس السيادة ويتألف من رئيس وعضوين.

المادة (21): يتولى مجلس الوزراء السلطة التشريعية بتصديق مجلس السيادة.

المادة (22): يتولى مجلس الوزراء والوزراء كل في ما يخصه أعمال السلطة التنفيذية.

المادة (23): القضاة مستقلون لا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون ولا يجوز لأية سلطة أو فرد التدخل في استقلال القضاء أو في شؤون العدالة وينظم القانون الجهاز القضائي.

المادة (24): جلسات المحاكم علنية إلا إذا قررت المحكمة جعلها سرية مراعاة للنظام العام والآداب.

المادة (25): تصدر الأحكام وتنفذ باسم الشعب.

المادة (26): تنشر القوانين في الجريدة الرسمية ويعمل بها من تاريخ نشرها إلا إذا نص فيها على خلاف ذلك، وإذا لم يذكر فيها تاريخ تنفيذها تنفذ بعد عشرة أيام من اليوم التالي ليوم النشر.

المادة (27): يكون للقرارات والأوامر والبيانات والمراسيم الصادرة من قائد القوات المسلحة أو رئيس الوزراء أو مجلس السيادة في الفترة من 14 تموز 1958 إلى تاريخ تنفيذ هذا الدستور الموقت قوة القانون وهي تعدل ما يتعارض مع أحكامها من نصوص القوانين النافذة قبل صدورها.

المادة (28): كل ما قرره التشريعات النافذة قبل 14 تموز سنة 1958 تبقى سارية المفعول ويجوز إلغاء هذه التشريعات أو تعديلها بالطريقة المبينة بهذا الدستور الموقت.

المادة (29): ينفذ هذا الدستور المؤقت من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المادة (30): على وزراء الدولة تنفيذ هذا الدستور.²²¹

وبعد انقلاب عارف والبعث على قاسم في العام 1963 صدر دستور مؤقت آخر استند بكثير من مواده على دستور العام 1958 وجاء فيه:

المادة 63:

أ - يمارس السلطة التشريعية خلال فترة الانتقال مجلس شوري يكون مقره في بغداد ويحدد عدد أعضائه وشروط العضوية وطريقة تعيين الأعضاء ومخصصاتهم وصلاحيات المجلس وكيفية ممارسته لها بقانون.

ب - يتولى مجلس الشوري فور انعقاد أول اجتماع له الصلاحيات التشريعية المخولة للمجلس الوطني لقيادة الثورة ومجلس الوزراء في الدستور المؤقت.

ج - يستمر كل من المجلس الوطني لقيادة الثورة ومجلس الوزراء على ممارسة السلطة التشريعية إلى حين انعقاد مجلس الشوري.

د - يضع مجلس الشوري مشروع الدستور الدائم على أن يعرض على المجلس النيابي المنتخب، في أول دورة انعقاد له للبت فيه.

المادة الثانية: ينشر هذا التعديل الدستوري في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ نشره.

المادة الثالثة: على الوزراء تنفيذ هذا التعديل للدستور المؤقت.²²²

وبعد استيلاء البعث على السلطة في العام 1968 تم إصدار دستور مؤقت آخر جاء فيه:

المادة الثانية عشرة: يهدف النظام الاقتصادي إلى تحقيق الاشتراكية وذلك بتطبيق العدالة الاجتماعية التي تحظر أي شكل من أشكال الاستغلال.

المادة الثالثة عشرة: يكون الاقتصاد القومي موجهاً يتعاون فيه القطاعان العام والخاص تحقيقاً للتنمية الاقتصادية بزيادة الإنتاج وعدالة التوزيع.

المادة الرابعة عشرة: الثروات الطبيعية ملك الدولة وهي التي تكفل حسن استغلالها.

المادة الخامسة عشرة: يستخدم رأس المال في خدمة الاقتصاد القومي على أن لا يتعارض استخدامه مع الخير العام للشعب.

المادة السادسة عشرة: للأموال العامة حرمة وحمايتها واجب.

²²¹ راجع الدستور المؤقت لعام 1958 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.85/>

²²² راجع تعديل الدستور المؤقت عام 1963 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.84/>

المادة السابعة عشرة:

أ - الملكية الخاصة مصونة وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية ولا تنزع إلا للمنفعة العامة لقاء تعويض عادل وفقاً للقانون.

ب - الإرث حق تحكمه الشريعة الإسلامية.

ج - على أن الأشخاص الذين ثبتت أدانتهم من محكمة مختصة بجريمة التجسس لحساب الأجنبي أو التآمر على تقويض نظام الحكم التقدمي الاشتراكي وأساسه الاقتصادي والاجتماعي فتجوز مصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة وقيدها إيراداً للدولة بموجب قانون⁽¹⁾.

المادة الثامنة عشرة: يعين القانون الحد الأعلى للملكية الزراعية ويؤول للدولة ما زاد على الحد الأعلى من تعويض. ولا يجوز لغير العراقيين تملك الأراضي الزراعية إلا في الأحوال التي بينها القانون⁽²⁾70.

المادة التاسعة عشرة: تشجع الدولة الحركة التعاونية وترعى منشأتها.

أولاً - مجلس قيادة الثورة:

المادة الحادية والأربعون: مجلس قيادة الثورة هو الجهاز الثوري الذي قاد جماهير الشعب والقوات المسلحة صبيحة اليوم السابع عشر من تموز سنة 1968 وتتم تسمية أعضائه بقانون.

المادة الثانية والأربعون:

أ - ملغاة⁽³⁾.

ب - تحدد رواتب أعضاء مجلس قيادة الثورة ونواب رئيس الجمهورية بقانون.

المادة الثالثة والأربعون:

أ - لمجلس قيادة الثورة بأغلبية ثلثي أعضائه الأصليين إقالة أحد أعضائه، وله بأغلبية ثلثي أعضائه أيضاً ضم أعضاء أصليين جدد إليه على أن لا يزيد مجموع أعضاء المجلس على خمسة عشر عضواً. ب - لمجلس قيادة الثورة قبول استقالة أحد أعضائه بقرار صادر من أغلبية أعضائه.

ج - عند خلو منصب أحد الأعضاء لأي سبب كان يعين المجلس عضواً مكانه بقرار أكثرية أعضائه.

د - ينتخب مجلس قيادة الثورة من بين أعضائه نائباً للرئيس يتولى صلاحيات رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الجمهورية في حالة غيابه⁽⁴⁾.

ثانياً - سلطات مجلس قيادة الثورة:

المادة الرابعة والأربعون: مجلس قيادة الثورة أعلى سلطة في الدولة ويمارس السلطات الآتية:

1 - انتخاب رئيس الجمهورية ونوابه.

2 - الإشراف على القوات المسلحة وقوى الأمن الداخلي.

3 - إعلان التعبئة وإعلان الحرب وقبول الهدنة وعقد الصلح.

4 - ملغاة.

5 - إقرار القوانين والأنظمة والمعاهدات والاتفاقات الدولية.

6 - الإشراف على شؤون الجمهورية بما يحقق حماية الثورة والوصول إلى أهدافها التي أشار إليها

بيان إعلانها والبيانات الرسمية الأخرى التي صدرت منه.

7 - إصدار قرارات لها قوة الإلزام وفقاً لأحكام هذا الدستور والقوانين النافذة.

8 - لمجلس قيادة الثورة إصدار القوانين التي لها قوة القانون⁽⁵⁾.

ثالثاً - حصانة عضو المجلس:

المادة الخامسة والأربعون: لكل عضو في مجلس قيادة الثورة حرية إبداء الرأي داخل المجلس.

المادة السادسة والأربعون: لا تتخذ إجراءات قانونية ضد عضو مجلس قيادة الثورة بسبب أعمال

وظيفته إلا بقرار صادر من ثلثي أعضائه على أن يحاكم أمام محكمة خاصة على الوجه المبين في

القانون.

رابعاً - جلسات المجلس والتصويت فيه:

المادة السابعة والأربعون:

أ - جلسات المجلس سرية ويتم انعقادها بحضور أكثرية الأعضاء.

ب - يجتمع المجلس مرة في الأسبوع على الأقل ولا ينعقد إلا برئاسة رئيس المجلس أو من ينوب

عنه.

ج - يجتمع المجلس بدعوة من الرئيس أو بطلب من عضوين على الأقل.

د - توقع القرارات من قبل الأعضاء وتصدر بتوقيع الرئيس أو من يخوله تحريرياً.

المادة الثامنة والأربعون: تتخذ القرارات في المجلس بأكثرية أعضائه الحاضرين ما لم ينص على

خلاف ذلك في الدستور وإذا تساوت الآراء فيرجح الجانب الذي فيه الرئيس، وللمخالف حق تدوين

مخالفته.

خامساً - مكاتب المجلس: المادة التاسعة والأربعون:

أ - يشكل المجلس مكتباً لأمانة السر وتنظم أعماله بقانون.

ب - يشكل المجلس مكاتب استشارية تابعة له وتنظم بقانون.

المادة الخمسون: رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الجمهورية هو رئيس الدولة القائد العام

للقوات المسلحة ورئيس السلطة التنفيذية ويمارس السلطات التالية:

أ - تعيين الوزراء وقبول استقالاتهم وإعفاؤهم من مناصبهم ويكونون مسؤولون أمامه في أداء وظائفهم وتصرفاتهم.

ب - المصادقة على المعاهدات والاتفاقات الدولية.

ج - إصدار القوانين والأنظمة والقرارات اللازمة لتنفيذها.

د - تعيين الموظفين وعزلهم وفصلهم وإحالتهم على التقاعد وفق القانون.

هـ - تعيين الضباط وإحالتهم على التقاعد وفق القانون.

و - تعيين الحكام والقضاة وإحالتهم على التقاعد وفق القانون.

ز - تعيين الممثلين السياسيين وإحالتهم على التقاعد.

ح - اعتماد ممثلي الدولة الأجنبية والهيئات الدولية والدبلوماسية لدى الجمهورية العراقية.

ط - إعلان حالة الطوارئ وإنهاؤها في الأحوال المبينة في القانون 74⁽⁶⁾.

المادة الحادية والخمسون: لا ينفذ حكم الإعدام إلا بعد تصديق رئيس الجمهورية وله حق تخفيض أية عقوبة جزائية أو رفعها بعفو خاص أما العفو العام فلا يكون إلا بقانون.

المادة الثانية والخمسون: إذا لم يصادق رئيس الجمهورية على ما أقره مجلس قيادة الثورة فله أن يبدي رأيه إلى المجلس خلال سبعة أيام وفي هذه الحالة أو إذا مضت المدة دون إبداء رأيه فيعقد المجلس جلسة يبحث فيها الموضوع مجدداً ويكون القرار صادراً بأكثرية ثلثي الأعضاء قطعياً.

المادة الثالثة والخمسون: إذا قدم رئيس الجمهورية استقالته من منصبه وجّه كتاب الاستقالة إلى مجلس قيادة الثورة وعندئذ يجتمع المجلس بكامل أعضائه الباقين للنظر في الاستقالة قبولاً أو رفضاً وفي حالة قبولها ينتخب المجلس رئيساً جديداً.

المادة الرابعة والخمسون: إذا خلا منصب رئيس الجمهورية لأي سبب كان ينعقد مجلس قيادة الثورة بكامل أعضائه الباقين لانتخاب رئيس للجمهورية خلال مدة لا تتجاوز سبعة أيام من تاريخه.

المادة الثامنة والخمسون: يمارس مجلس قيادة الثورة السلطة التشريعية إلى حين انعقاد الجلسة الأولى للمجلس الوطني.

المادة التاسعة والخمسون: يحدّد القانون طريقة تأليف المجلس الوطني.²²³

²²³ راجع الدستور المؤقت لعام 1968 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.82/>

الفصل الرابع

فلسطين والأردن 1958 – 1970

أدت النكبة إلى صعود تيار شبابي غاضب بين الشباب الفلسطيني خاصة والشباب العربي عامة، ما ساهم في صعود جيل جديد من الثوار على حساب الجيل القديم الذي اعتُبر مسؤولاً عن النكبة. هذا يفسّر صعود حركة القوميين العرب في الخمسينيات من القرن الماضي والتي كان عمادها طلاب فلسطينيون وعرب ينتمون إلى الطبقة البورجوازية العليا وسيكون لهم دور في تحرير البلدان العربية من الاستعمار في ما بعد. وقد كان على رأس هؤلاء الطلاب جورج حبش وهو من مواليد اللدّ عام 1926 وكان ينتمي إلى أسرة فلسطينية مسيحية من الطبقة الوسطى تمكّنت من إرساله إلى الجامعة الأميركية لمتابعة دراسة الطب. وهناك تعرّف إلى صديقه وديع حداد وكان من مواليد صفد عام 1927. وكان يدرس الطب أيضاً في الجامعة الأميركية. وقد انضم الإثنان إلى مجموعة فكرية في الجامعة اسمها العروة الوثقى وكان من أهم أعلامها المؤرخ السوري قسطنطين زريق ذو الأفكار القومية العربية.²²⁴ وقد تأثر حبش وحداد بزريق، وعند النكبة قام الإثنان سراً بتشكيل مجموعة سرية باسم كتائب الفداء العربي التي ستنفذ عدداً من الهجمات على السفارات الغربية انتقاماً للنكبة في أوائل الخمسينيات، وخططت لاغتيال عدد من القادة العرب الذين عدّتهم مسؤولين عن النكبة مثل الملك عبد الله وجون غلوب باشا وأديب الشيشكلي،²²⁵ والتي ستكون النواة الأولى لحركة القوميين العرب التي سيطلقها جورج حبش نفسه وسيكون من أعلامها أحمد الخطيب من الكويت وحامد الجبوري من العراق وهاني الهندي من سوريا وصالح شبل وأحمد اليماني. وقد اعتبر حبش أن الهزيمة في فلسطين كانت نتيجة وقوع البلدان العربية تحت هيمنة الاستعمار ونتيجة تقسيم بلدان الأمة العربية. لذلك فلقد اعتبر حبش أنه كي تتحرّر فلسطين فيجب أولاً تحرير الأقطار العربية من الاستعمار والسعي لتوحيد الأمة العربية. بنتيجة ذلك قام حبش بتأسيس مجموعات لحركة القوميين العرب في ليبيا والسودان واليمن ومنطقة الخليج. وقد تأثر حبش بالشعارات التي طرحها جمال عبد الناصر وبالنصر الذي حقّقه الأخير على قوات العدوان الثلاثي في العام 1956 فجرى تقارب بين حركة القوميين العرب والزعيم المصري حتى

²²⁴ فؤاد مطر، حكيم الثورة: سيرة جورج حبش ونضاله، بيروت: دار النهار، 2008، ص. 13.

²²⁵ المصدر نفسه، ص. 59 – 61.

العام 1967. وقد ساهمت الحركة في نضال الشعوب العربية من أجل الاستقلال في المغرب العربي والجزائر وتونس وليبيا ومنطقة الخليج والعراق والكويت واليمن الجنوبي والشمالي، كما أيدت الوحدة السورية المصرية ووقفت ضد الانفصال الذي وقع في أيلول سبتمبر 1961. وفي الخلاف بين عبد الناصر والبعث بعد العام 1963 وقفت الحركة إلى جانب عبد الناصر ودخلت في صراع مع البعث في سوريا والعراق.²²⁶ وفي أواخر العام 1964 كانت حركة القوميين العرب هي الحركة الأولى التي تخرق خط الهدنة وتقوم بهجوم ضد دورية إسرائيلية عبر الحدود.

صعود فتح

بعد سنوات قليلة على قيام حركة القوميين العرب، كان مقدراً أن يتم تأسيس حركة فتح على يد مجموعة من الشبان الفلسطينيين الذين كانوا ينتمون إلى الأخوان المسلمين وعلى رأسهم محمد عبد الرؤوف القدوة المعروف بياسر عرفات ومعه صلاح خلف أبو أياد وخليل الوزير أبو جهاد.²²⁷ وقد ولد عرفات في القاهرة في العام 1929 وكان أبوه تاجر أقمشة في حي السكاكيني. ويقال إنه كانت لأسرته جذور فلسطينية من غزة وإن أمه تنتمي إلى عائلة الحسيني المقدسية. وقد قضى شبابه بالقاهرة وتقرّب من المفتي أمين الحسيني أثناء إقامته في مصر وكان كثير التردد على حي اليهود في القاهرة ما أكسبه غضب أبيه عليه. وقد تعرّف في هذا الحي على موشيه دايان قبل النكبة وكانت ذريعتة أنه "يريد أن يتعرّف على عدوه". وقد درس الهندسة المدنية في القاهرة وتخرّج في العام 1950. وقد تطوّر عرفات للقتال في فلسطين في العام 1948 إلا أنه عاد بعد أيام قليلة من دون المشاركة في قتال فعلي. وقد تعرّف في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي إلى صلاح خلف أبو أياد ثم هاجر إلى الكويت في العام 1957 للعمل هناك للعمل كمهندس إضافة إلى التجارة. وهناك تعرّف إلى خليل الوزير أبو جهاد الذي كان يعمل مدرساً في الكويت. بعد ذلك بدأ عرفات على تشكيل نواة لمجموعته التي ستعرف باسم حركة التحرير الفلسطينية، ولأن اختصارها هو "حتف" أي الهلاك فلقد تم قلب أحرفها لتصبح فتح. وقد اعتمد محمد القدوة اسم الصحابي الجليل عمار بن ياسر اسماً له لكنه قلبه فكان ياسر عرفات. ويبدو جلياً من خياره لاسمه ولاسم حركته البعد الأيدولوجي الإسلامي. وقد اعتمدت حركة عرفات على التقديرات والتبرعات من

²²⁶ المصدر نفسه، ص.ص. 69 - 107.

²²⁷ عوني فرسخ، الصراع العربي الصهيوني: متغيراته مستجداته 1949 - 2009، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2018، ص.

الفلسطينيين الذين هاجروا إلى الخليج. وقد لاقت حركة فتح دعماً من البعث السوري الذي اعتبرها حليفاً طبيعياً له في مواجهة حركة القوميين العرب المدعومة من عبد الناصر.

وفي أوائل الستينيات كانت المطالب قد تصاعدت ليكون هنالك إطار وطني يجمع الفلسطينيين فأقرت القمة العربية التي عقدت في العام 1964 بالقاهرة بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية. وبنتيجة ذلك تأسست منظمة التحرير الفلسطينية في آذار مارس 1964 تطبيقاً لمقررات المؤتمر العربي الفلسطيني الأول الذي كان عُقد في مدينة القدس ومقررات القمة العربية التي كانت قد عُقدت في القاهرة في العام نفسه والتي دعت لقيام منظمة تمثل الشعب الفلسطيني في الأراضي الفلسطينية المحتلة وفي الشتات. وقد انتخب أحمد الشقيري المدعوم من عبد الناصر كأول رئيس للمنظمة.²²⁸ وقد نص بيان المنظمة الأول على ما يلي:

إيماناً بحق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه المقدس فلسطين، وتأكيداً لحتمية معركة تحرير الجزء المغتصب منه وعزمه وإصراره على إبراز كيانه الثوري الفعال وتعبئة طاقاته وإمكانياته وقواه المادية والعسكرية والروحية، وتحقيقاً لأمنية أصيلة من آماني الأمة العربية ممثلة في قرارات جامعة الدول العربية ومؤتمر القمة العربي الأول.

نعلن بعد الاتكال على الله باسم المؤتمر العربي الفلسطيني الأول المنعقد في مدينة القدس في 28 أيار 1964.

1. قيام منظمة التحرير الفلسطينية قيادة معبئة لقوى الشعب العربي الفلسطيني لخوض معركة التحرير، ودرعاً لحقوق شعب فلسطين وأمانية، وطريقاً للنصر.
2. المصادقة على الميثاق القومي لمنظمة التحرير الفلسطينية وعدد بنوده 29 بنداً.
3. المصادقة على النظام الأساسي وعدد بنوده 31 بنداً واللائحة الداخلية للمجلس الوطني والصندوق القومي الفلسطيني.
4. انتخاب السيد أحمد الشقيري رئيساً للجنة التنفيذية وتكليفه باختيار أعضاء اللجنة التنفيذية وعددهم 15 عضواً.
5. يصبح المؤتمر بكامل أعضائه، الـ 397 عضواً، " المجلس الوطني الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية".²²⁹

²²⁸ أحمد الشقيري، الجزيرة الوثائقية، 5 نيسان إبريل 2017.

²²⁹ عوني فرسخ، الصراع العربي الصهيوني، ص.ص. 142 - 148.

وبعد أسابيع قليلة على إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية وعلى قيام حركة القوميين العرب بعملياتها الأولى ضد إسرائيل قام أفراد من الحركة بمهاجمة موقع إسرائيلي معلنة انغماسها في الكفاح المسلح ضد إسرائيل.

بُعِيد انطلاقة الكفاح المسلح ومنظمة التحرير الفلسطينية تطوّرت الأحداث بسرعة في المنطقة العربية لتشهد مواجهة بين الدول العربية وإسرائيل في العام 1967 والتي كان من نتائجها هزيمة العرب وتوجيه ضربة للتيار القومي العربي بقيادة جمال عبد الناصر في مصر والبعث في سوريا. وبنتيجة هذه الحرب تمكّنت إسرائيل من احتلال قطاع غزة والضفة الغربية محققة بالتالي حلم الصهاينة بالسيطرة على كامل التراب الفلسطيني، كما تمكّنت إسرائيل من احتلال شبه جزيرة سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية. وقد كانت لهذه الهزيمة تداعيات كبيرة على الساحة الفلسطينية، إذ ألقت القيادات الفلسطينية الشابة باللوم على عبد الناصر والقيادات العربية بالتسبب بالهزيمة. وقد استفاد ياسر عرفات وحركة فتح المدعومان من المملكة العربية السعودية ودول الخليج الأخرى من الهزيمة لإلقاء اللوم على القوى العربية التقدمية بالتسبب بالهزيمة. وبنتيجة ذلك فلقد أدانت الحركة قيادة منظمة التحرير المدعومة من جمال عبد الناصر وبدأت تنادي "بالقرار الوطني الفلسطيني المستقل". كذلك أعلنت حركة فتح أن "لا صوت يعلو على صوت المعركة"، معتبرة أن الكفاح المسلح هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين. بالتوازي مع ذلك فلقد أدّت الهزيمة إلى تشكيل حركة القوميين العرب بالشعار الذي أطلقته وتبني قيادتها المتمثلة بجورج حبش طروحات إعطاء البعد الوطني الفلسطيني الأولوية على البعد القومي، "لأن العرب ضيّعوا ما تبقى من فلسطين نتيجة صراعاتهم"، كما تبنت الخطاب الماركسي اللينيني وكان بنتيجة ذلك قيام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لتكون ذراع حركة القوميين العرب في النضال على الساحة الفلسطينية،²³⁰ فيما تشكلت جبهات شبيهة في كل قطر عربي، مثل الجبهة الشعبية لتحرير اليمن في اليمن الجنوبي، وجبهة العمل العربي في لبنان، وغيرها من المنظمات في باقي البلدان العربية. كذلك كانت لهذه الهزيمة تداعيات ديمغرافية على الأردن إذ لجأ نحو نصف مليون فلسطيني إضافي إلى الأردن هرباً من الضفة الغربية ما سيكون له تأثير سلبي على الأوضاع في الأردن. كما لجأ عشرات الآلاف منهم في ما بعد إلى لبنان ليضافوا إلى عشرات آلاف اللاجئين الذين

²³⁰ عوني فرسخ، الصراع العربي الصهيوني، ص.ص. 141 - 142.

كانوا يعيشون في هذا البلد منذ العام 1949 ما سيكون له تأثير أيضاً على الأوضاع في هذا البلد وسيكون أحد عوامل تفجير الحرب الأهلية فيه العام 1975.²³¹

بدأت حركة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بتكثيف عملياتهما عبر الحدود من سوريا ولبنان والأردن ضد القوات الإسرائيلية. وقد شكل الأردن القاعدة الأساسية للفدائيين الفلسطينيين حتى العام 1970. وفي 21 آذار مارس 1968 كانت المقاومة الفلسطينية أمام لحظة مفصلية من تاريخها.²³² ففي ذلك اليوم وقعت معركة الكرامة في الأردن بين قوة إسرائيلية والفدائيين الفلسطينيين والجيش الأردني، وبنتيجة المعركة تكبد الجيش الإسرائيلي خسائر كبيرة واضطر للانسحاب ما عد انتصاراً كبيراً للفدائيين الفلسطينيين الذين تمكنوا من الانتصار على "الجيش الذي لا يُهزم". وكان الفدائيون قد أقاموا مقر قيادتهم في بلدة الكرامة في غور الأردن غير بعيد عن الحدود مع الضفة الغربية. وكانت البلدة قد تعرّضت لهجمات إسرائيلية عدة بعد حرب العام 1967 ما جعل الفدائيين يقيمون إجراءات احترازية. وفي يوم 21 آذار مارس توغّلت قوة إسرائيلية مدرّعة باتجاه البلدة لكن الفدائيين كانوا متحسّبين للأمر وقاموا بنصب فخ للقوة الإسرائيلية فيما قامت مدفعية الجيش الأردني باستهداف القوة المهاجمة وتكبيدها خسائر فادحة بلغت نحو 30 قتيلاً إضافة إلى تدمير عدد من المدرعات فيما استشهد نحو 150 فدائياً و20 جندياً إسرائيلياً.²³³ وقد عدت النتيجة انتصاراً للفدائيين الذين تصاعدت شعبيتهم في مختلف أنحاء العالم العربي، ما عزّز شعار الكفاح المسلح في مقابل عجز الجيوش العربية. وبنتيجة المعركة فلقد اعترف جمال عبد الناصر بالفصائل الفلسطينية المسلحة وتبنّى دعمها ودعم وصول ياسر عرفات إلى الرئاسة التنفيذية لمنظمة التحرير في شباط فبراير 1969.

وقد كان لصعود الفصائل المسلحة الفلسطينية في منتصف الستينيات تأثير كبير على دولتين عربيتين بالدرجة الأولى هما الأردن ولبنان. وكان الأردن على علاقة سيئة مع مصر الداعمة لهذه الفصائل المسلحة منذ العام 1958، تاريخ سقوط الملكية العراقية وما تبعه من تدخل أميركي بريطاني في الأردن ولبنان وفقاً لمبدأ أيزنهاور المناهض لملاء الفراغ الذي تركته القوى الاستعمارية التقليدية بذريعة "مكافحة الشيوعية". وقد تقارب العاهل الأردني الملك حسين بن طلال مع أعدائه السابقين من الأسرة السعودية ليشكلا تحالفاً ضد عبد الناصر. وقد اشترك معهم في حرب اليمن ضد مصر وقوى الثورة اليمنية بعد عام 1962، إلا أن حرب العام 1967 جعلته يتقارب مؤقتاً مع مصر.

²³¹ عوني فرسخ، الصراع العربي السهيوني، ص.ص. 113 - 122.

²³² عوني فرسخ، الصراع العربي الصهيوني، ص.ص. 159 - 163.

²³³ عوني فرسخ، الصراع العربي الصهيوني، ص.ص. 164 - 168.

وكانت مصر بعد العام 1967 قد انتهجت سياسة تقوم على التخفيف من المواجهة مع القوى العربية التقليدية بغية التحضير لحرب أخرى مع إسرائيل تمكّنها من تحرير الأراضي التي احتلت في العام 1967. وبدءاً من العام 1968 تزايدت العمليات انطلاقاً من الأراضي الأردنية ضد إسرائيل. وقد باتت الفصائل الفلسطينية المسلحة قوة مؤثرة في المجتمع الأردني وتشكل تحدياً للسلطة المطلقة التي كان الملك حسين يحاول فرضها في الأردن. وقد خرج الفدائيون خصوصاً التابعون لفتح إلى العلن وابتدأوا يمدّون نفوذهم على قطاعات واسعة من الحياة المدنية والاجتماعية والسياسية الأردنية. وكانت العمليات التي تقوم بها فصائل المقاومة الفلسطينية تؤثر سلباً على علاقات الأردن بالقوى الغربية الحليفة له وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية. وفي 15 أيلول سبتمبر قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بخطف خمس طائرات أميركية وغربية واتجهت بها إلى صحراء الأردن، حيث كانت قد أعدت مطاراً ميدانياً حطت فيه الطائرات، حيث تم إطلاق الركاب ثم عمدت الجبهة إلى تفجير الطائرات الخمس. وكان الهدف من العملية لفت الأنظار إلى القضية الفلسطينية. رداً على ذلك أعلن الملك حسين الأحكام العرفية في الأردن وشنّ حملة عسكرية ضد الفصائل المسلحة الفلسطينية دامت أسابيع عدة. وقد تدخلت مصر لحل النزاع بين الفصائل الفلسطينية والأردن إلا أن النزاع تواصل خصوصاً بعد وفاة الزعيم المصري جمال عبد الناصر في 28 تيارا سبتمبر 1970. وبحصيلة هذا النزاع تمكّن الملك حسين من الانتصار بالواجهة وطرد فصائل منظمة التحرير إلى لبنان.²³⁴

لبنان والفصائل الفلسطينية المسلحة

في العام 1956، غاب نجم الحضور البريطاني في الشرق الأوسط، والذي نتج عنها عدم تمكّن حليفهم كميل شمعون من أن يُجَدّد لنفسه لولاية جديدة كرئيس للجمهورية اللبنانية، فقد عارضته زعامات محلية، مثل: صائب سلام، رشيد كرامي، وكمال جنبلاط وغيرهم. كما أن بروز نجم واسم عبد الناصر من ناحية، وصعود الولايات المتحدة الأميركية من ناحية أخرى، أدّى إلى توصل الإثنين إلى تولي فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية. الذي عدّ عهده بين عامي 1958 و1964، فاتحة عهد جديد في تاريخ لبنان. وتزامن عهده مع انتهاء حكم الهاشميين في العراق الذين تمت إطاحتهم في العام 1958، وصعود عبد الناصر والدور الإقليمي لمصر في المنطقة

²³⁴ عوني فرسخ، الصراع العربي الصهيوني، ص.ص. 168 - 181.

العربية، يُضاف إليها ظهور دور السعودية، الذي شكل منافساً إقليمياً جديداً لعبد الناصر. كما شهد أيضاً غياب نجم آل الصلح الذين فرضوا وجودهم على الساحة السياسية كزعماء للطائفة المسلمة، وذلك لمدة عقدين من الزمن، وبروز اسم رشيد كرامي، الذي كان حليفاً لعبد الناصر، خلال فترة الستينيات من القرن الماضي، وقد تولى كرامي منصب رئاسة الحكومة اللبنانية في فترة حكم كل من فؤاد شهاب وشارل الحلو. كما برز في تلك الحقبة "حزب الكتائب" المسيحي والداعم للسلطة، وأيضاً كمال جنبلاط الزعيم الدرزي "المسلم"، الذي وقف إلى جانب السلطة، كما عمل على نسج علاقات مع الاتحاد السوفياتي ومصر، بالإضافة إلى تبنيه شعارات يسارية، ووضم إليه العديد من الأحزاب والمجموعات التي تحمل أفكاراً يسارية لكن غير مرخص لها، كما سيلعب كمال جنبلاط في منتصف الستينيات من القرن الماضي دوراً مهماً في محاولة تقارب وجهات النظر مع فصائل الثورة الفلسطينية، وذلك بسبب علاقته الجيدة بعبد الناصر من ناحية، ورغبته في تدعيم مكانته، التي تُمكنه من أن يكون عماداً رئيسياً من أعمدة حفظ التوازنات الداخلية على الساحة اللبنانية. وكانت فترة عهد شهاب هي فترة حفظ التوازن بين كل هذه الأحزاب السياسية المتنوعة بأفكارها من أجل ضمان وحفظ الاستقرار في لبنان.

وعمل شهاب على وضع حد للمقاطعية اللبنانيين وإبعادهم قدر الممكن عن السلطة، وذلك من خلال القيام بالعديد من الإجراءات الإصلاحية، مثل:

- منع محاولات تدخل الوجهاء التقليديين، وذلك من خلال العمل على تحصين الإدارة العامة وأجهزة الدولة، عبر إقامة مجلس الخدمة المدنية، الذي من مهامه اختيار الموظفين الأكفاء بغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية وولاءاتهم، وذلك من أجل تعيينهم في مناصب إدارية.
- عمل شهاب أيضاً على تأسيس ديوان المحاسبة، بغية مراقبة أداء عمل الإدارات العامة، بالإضافة إلى إشراف ديوان المحاسبة على التلزمات والمناقصات الحكومية، من تدخل المقاطعية التقليديين.
- ولم ينسَ المدرسة الرسمية التي عمل على دعمها وتقديم كل ما تحتاجه، حتى يكون لها دور فاعل في تعليم أبناء الفئات الفقيرة والمتوسطة الحال من الشعب اللبناني، وحتى لا يكون التعليم حصراً على النخب الغنية.
- وقام شهاب أيضاً في تعزيز مكانة الجامعة اللبنانية، لتكون شريكاً في مهمة التعليم وتخرج كوادر أكفاء من الفئات الفقيرة والمتوسطة الحال من الشعب اللبناني، والتي

سيكون لها دور كبير في فترة الستينيات والسبعينيات، حيث ظهرت نخب فقيرة برز اسمها على ساحة المشهد السياسي اللبناني.

- عمل شهاب على تطوير القطاع الزراعي في لبنان من خلال تنميته، فقد كان هذا القطاع يعاني مشكلات عدة في عهدي الخوري وشمعون، وذلك نتيجة السياسات الخاطئة التي قدمت كل الدعم والتشجيع للقطاع المالي والسياحي، فيما أهملت القطاع الزراعي والصناعي، مما أدّى إلى تراكم الثروات في أيدي فئة محدودة من اللبنانيين، بينما يُعاني معظم الشعب من الفقر، حيث كان يُشكل الريف منه نسبة تصل إلى 60% في تلك الفترة. من أجل كل هذا عمل شهاب على تأسيس "المشروع الأخضر" الذي تولى مهام تقديم كل الدعم المالي، والخدمات للمزارعين، من أجل العمل على تحسين وتطوير إنتاجهم وتسويقه.

هذه الإصلاحات التي قام بها شهاب كانت بناء على التوصيات التي تقدّم بها لويس جوزيف لوبري من "مؤسسة الأبحاث والتطوير والتنمية الفرنسية ايرفيد"، وذلك بعد أن قام بتشكيل بعثة عملت على إجراء دراسات معمّقة ودقيقة لبنية الاقتصاد والمجتمع اللبناني، وبناء عليها قامت بتقديم توصياتها، والتي تم اعتمادها من قِبَل شهاب الذي عمل على تطبيق جزء منها، وفقاً لما تمّ ذكره آنفاً.

- كما وضع شهاب أسس المناصفة في التوظيف بين الطائفتين المسيحية والمسلمة.

- وعمل أيضاً على زيادة عدد المقاعد في المجلس النيابي اللبناني ليصبح 99 عضواً.

ومع ذلك، لم تكن مهمة شهاب سهلة في إكمال إصلاحاته الداخلية، إذ وقفت في وجهه الأسر الإقطاعية اللبنانية التقليدية، الأمر الذي دفعه في العام 1960 إلى تقديم استقالته، لكنه تراجع عنها، نتيجة دعم واشنطن وعبدالنصر له، فاعتمد على الجيش اللبناني في المقام الأول كأداة قوة في إقرار وتنفيذ سياسته، الأمر الذي مكّن ضباط الشعبة الثانية وعزّز مكانتها فترة عهده وعهد شارل حلو الذي أتى من بعده. وقد عمل شهاب على الحفاظ على عملية التوازن في علاقته بواشنطن من ناحية، وبعبدالنصر من ناحية أخرى، الأمر الذي ساعد في ضمان وحفظ الاستقرار السياسي في لبنان طيلة فترة حكمه.

رفض شهاب بعد ذلك في شهر أيلول /سبتمبر من العام 1964، العمل على تعديل الدستور، حتى يتمكن من تجديد حكمه لولاية ثانية، في الوقت نفسه عمل على تأييد الشخص الذي سيسير على نهجه وهو شارل الحلو، الذي كانت فترة حكمه استمراراً لحكم شهاب، وذلك في المحافظة على

علاقة سياسية متوازنة مع واشنطن من ناحية، والقاهرة من ناحية أخرى، والعمل على تعزيز دور الدولة المركزي، من أجل الوقوف في وجه الإقطاع التقليدي. لكنه في ما بعد واجه مجموعة من التحولات التي طرأت على الصعيد الداخلي والإقليمي، مما شكلت عوامل ضاغطة لتفجير الوضع لاحقاً، مثل: نكسة حرب حزيران عام 1967، التي انتهت بفوز إسرائيل وهزيمة مدوية للعرب، وضربة موجعة لزعامة عبدالناصر، ترافق ذلك مع ظهور المقاومة الفلسطينية التي ستشكل عاملاً ضاغطاً على الوضع اللبناني وهز استقراره، بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية التي أصابت لبنان وأدت إلى حالة من الركود، كان نتيجتها اندلاع الصراع الطبقي الاجتماعي بين فئات الشعب الريفية والفقيرة من ناحية، وبين النخب المالية التي تفرض هيمنتها على الاقتصاد اللبناني والدولة من ناحية أخرى.

كانت مرحلة الستينيات من القرن الماضي شاهداً على عدد كبير من التغيرات التي أثرت على موازين القوى الدولية والإقليمية معاً. وكان بإمكان جمال عبدالناصر حتى العام 1965، اللعب على المفارقات المتناقضة التي كانت بين الشرق والغرب، ليكون باستطاعته بناء قوة مصر، وبالتالي تمكين دورها في محيطها الإقليمي والدولي. ولكن للأسف، طرأت تغييرات في بداية العام 1965، مثل: أزمة الصواريخ الكوبية التي حصلت في العام 1962، وعلى أثرها اقتنعت دوائر نافذة في موسكو بضرورة العمل على خفض حدة التوتر مع واشنطن. والذي كان من نتائجها أيضاً أن أقدم ليونيد بريجنيف على إطاحة نيكيتا خروتشيف الزعيم السوفياتي وذلك في شهر تشرين الأول أكتوبر من العام 1964، حيث كان ليونيد بريجنيف يفضل التزام موسكو بالقواعد التي تم الاتفاق عليها في مؤتمر يالطا وذلك في العام 1945، باقتصار نفوذ الاتحاد السوفياتي ضمن إطار دول الكتلة الاشتراكية فقط، الأمر الذي انعكس سلباً على الدعم المقدم للدول القريبة منها في منطقة الشرق الأوسط ودول العالم الثالث. بالإضافة إلى أن عملية اغتيال الرئيس الأميركي جون كينيدي في شهر تشرين الثاني من العام 1963، كانت مؤشراً في صعود نفوذ تيار المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأميركية، حيث كان يطمح هذا التيار إلى إنشاء إمبراطورية عالمية. لذلك عمل هؤلاء على إسقاط كل الأنظمة التي لا تتوافق مع سياساتهم ولا تقدم فروض الولاء لواشنطن.

خلال هذه الفترة قام فيصل بن عبدالعزيز بإطاحة أخيه سعود عن حكم السعودية، مدعوماً بجده من جهة أمه الذي يتزعم المشايخ الوهابيين، الأمر الذي دفع بالمؤسسات الدينية في السعودية لتؤيد وصول فيصل إلى عرش المملكة الذي عمل ومن بداية وصوله إلى الحكم إلى تقديم الدعم إلى حركة الإخوان المسلمين في جميع الدول العربية والإسلامية، وذلك لتكون قادرة على الوقوف في وجه تصاعد التيار القومي واليساري في دول العالم العربي. بالإضافة إلى ذلك تولّى الملك فيصل

إقامة المؤتمر الإسلامي، حتى يكون بديلاً عن "جامعة الدول العربية"، التي كانت تشكل امتداداً لنفوذ مصر، التي دعمتها واشنطن وذلك من بداية عام 1965، حين قضت على حركة تمرد قامت بها حركة الإخوان المسلمين، مدعومين من قبل السعودية وواشنطن. ولم تكتفِ واشنطن بذلك، بل عملت على تقديم كل الدعم إلى إسرائيل خلال شنّ حربها على كل من الأردن ومصر وسوريا، والتي انتهت باحتلال الإسرائيليين لهضبة الجولان السورية ومنطقة سيناء المصرية والضفة الغربية وغزة في فلسطين.

وفي الوقت الذي بدأت تظهر الخلافات العربية، كانت واشنطن وتل أبيب تخططان لتوجيه ضربة إلى الدول العربية ذات الطابع اليساري والتقدمي، وذلك بدعم من السعودية. فعملت تل أبيب ومنذ عام 1960 على زيادة حدة التوتر مع الدول العربية، وذلك على إثر تحويل مياه نهر الأردن، في الوقت نفسه لم تستطع "جامعة الدول العربية" فعل شيء وبدأت عاجزة تماماً أمام هذا الوضع. ووصلت حدة التوترات أوجها منذ بداية العام 1967، حيث قامت الطائرات الإسرائيلية في صباح 5 حزيران/ يونيو من العام 1967، بشن غارة على المطارات المصرية، تمّ على إثرها تدمير 80% من الأسطول العسكري المصري. ثم توجّهت الطائرات الإسرائيلية نحو المطارات الأردنية ودمّرت غالبية الطائرات العسكرية الأردنية، وأكملت بعدها باستهداف الأسطول الجوي السوري ودمّرت بنسبة وصلت إلى 70%. بعد ذلك جاء دور المدرعات الإسرائيلية التي قامت بشن هجوم على منطقة سيناء، وخلال أيام قليلة تمكنت من الوصول إلى ضفة قناة السويس الشرقية، فارضة بذلك سيطرتها على شبه جزيرة سيناء. في المقابل استطاع الجيش الإسرائيلي من هزيمة الجيش الأردني وفرض سيطرته على الضفة الغربية المطلة على نهر الأردن، تُضاف إليها مدينة القدس الشرقية، لتعمل بعدها على توجيه أنظارها نحو هضبة الجولان السورية التي تمكنت من احتلالها خلال يوم واحد وذلك بعد انهيار الدفاعات السورية.

خسر العرب معركتهم ضد إسرائيل، فقد كانت هذه الخسارة بمثابة الصفحة الموجهة التي كانت سوريا ومصر من أكثر المتضررين منها.²³⁵ أما غالبية العرب فقد اضطروا إلى التعامل مع تل أبيب على أنها أصبحت واقعاً يتوجّب عليهم التكيف معه وقبوله.²³⁶ وهذا ما دفع بـ"دول الطوق" إلى الموافقة على القرار 242، باستثناء دمشق، وقد دعا هذا القرار إلى ضرورة انسحاب إسرائيل من

²³⁵ Maclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham; المصدر ما قبله ص. 246

²³⁶ Van Dam, Nikolas; *The Struggle for Power in Syria, Sectarianism, Regionalism and Tribalism in Politics*, 1961-1978, Groom Helm limited, London, 1979, p.84.

الأراضي التي قامت باحتلالها منذ العام 1967. وبناء على تنفيذ هذا القرار من قبل الجانب الإسرائيلي سيتم الاعتراف بها وتوقيع معاهدات سلام معها. أما القضية الفلسطينية، فقد أدّت نكسة حزيران في العام 1967، إلى تأسيس الفصائل الفدائية المسلحة وبالتالي زيادة حدة عملياتها ضد الكيان الصهيوني، وفي مقدمتهم "حركة فتح"، و"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، كما أدّت كذلك إلى تراجع مستوى مصداقية القيادة المدنية لـ"منظمة التحرير الفلسطينية" التي كانت قد أنشئت في العام 1964 وتزعّمها أحمد الشقيري.²³⁷

زاد التأييد الشعبي للفصائل الفلسطينية، إثر "معركة الكرامة" التي نفذوها ضد الإسرائيليين في العام 1968، كما عملت هذه الفصائل على تعزيز دورها ونفوذها ضمن هيئات ومؤسسات "منظمة التحرير الفلسطينية"، الأمر الذي ساهم في تزعم ياسر عرفات قائد حركة فتح لمنصب رئاسة اللجنة التنفيذية للمنظمة بعد الشقيري وذلك في العام 1969. وقد مال عرفات إلى اتخاذ القرارات المنفردة خلال قيادته لـ"منظمة التحرير الفلسطينية" بحجة المحافظة على القرار الوطني الفلسطيني الحر والمستقل، وهما يتوافق مع ما جاء في ميثاق فتح ومنظمة التحرير. الأمر الذي تسبب في حدوث صدام بينه وبين القيادة الأردنية من جهة، ومن بعدها مع السورية واللبنانية من جهة أخرى، فقد وجدت الحكومة اللبنانية في تمركز الفدائيين على أرضها مشكلة كبيرة تهدد أمن لبنان. تزامن ذلك مع رغبة سوريا في تعزيز دورها الإقليمي، من خلال تمكين موقفها في الساحة الفلسطينية التي ستضفي عليها الشرعية في مسألة النزاع العربي - الإسرائيلي. وبدعم من السعودية ومصر برز اسم ياسر عرفات وذلك في العام 1969،²³⁸ حيث تسلم منصب رئيس اللجنة التنفيذية لـ"منظمة التحرير الفلسطينية".

في العام 1965، في مصر قامت مجموعة من الشبان الفلسطينيين بتأسيس "حركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح"، وكان من بينهم ياسر عرفات، وكانوا سابقاً منتمين إلى "جماعة الإخوان المسلمين". وحركة فتح أنشئت بالتنسيق مع الاستخبارات المصرية، فالخلية الأولى تكونت من ياسر عرفات وخليل الوزير أبو جهاد وصلاح خلف أبو اياد. كما انضوى تحت "منظمة التحرير"، فصائل

Laurens Henry ; *Le retour des exilés, la lutte pour la Palestine de 1869 à 1997* , Robert Laffont, Paris ²³⁷
1998, p.941.

²³⁸ هنري لورنس المصدر نفسه. ص. 945

فلسطينية أخرى، منهم: "منظمة الصاعقة" و"الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" و"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" و"جبهة التحرير العربي" و"حزب الشعب الفلسطيني".²³⁹

كما عملت منظمة التحرير الفلسطينية في شهر تموز من العام 1968، على إصدار ميثاقها الذي كان مطلبه الأول هو تحرير الأراضي الفلسطينية، بالإضافة إلى العمل على إقامة دولة ذات نظام ديمقراطي، والمطالبة بضروة عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم. واتخذت منظمة التحرير من الأردن مقراً لها وذلك حتى العام 1970، حيث أُجبرت على الخروج من الأراضي الأردنية والانتقال إلى لبنان، على إثر المواجهة التي تمت بينهم وبين الجيش الأردني بما عُرف بـ"أيلول الأسود". كذلك الأمر في لبنان الذي كان ساحة مواجهات جرت بين الفدائيين الفلسطينيين من جهة، والجيش اللبناني من جهة أخرى، إثر العدوان الإسرائيلي على لبنان بحجة ردّهم على العمليات الفدائية التي كان الفلسطينيون يقومون بها ضدهم انطلاقاً من الأراضي اللبنانية، الأمر الذي جعل جمال عبدالناصر يسارع إلى التوسّط بين الفلسطينيين واللبنانيين وتوقيع "اتفاق القاهرة" بين الجانبين وذلك في العام 1969، بغية تنظيم العمل الفدائي الفلسطيني داخل الأراضي اللبنانية، والذي سيكون لاحقاً سبباً في إشعال فتيل الحرب الأهلية التي ضربت لبنان العام 1975.²⁴⁰

في الواقع العمليات الفدائية الفلسطينية كانت عاملاً ضاعطاً على الساحة اللبنانية. بالإضافة إلى أن اللاجئين الفلسطينيين قد تمّ دمجهم بالمجتمع اللبناني بطريقة غريبة ومشبوهة. فقد تمّ في فترة حكم الرئيس كميل شمعون في خمسينيات القرن الماضي العمل على تجنيس غالبية الفلسطينيين المسيحيين، بالإضافة إلى ما يقاربهم من الفلسطينيين المسلمين، وأيضاً الاثرياء منهم تمّ تجنيسهم. في الوقت ذاته ظل الآلاف من الفقراء الفلسطينيين يقطنون في المخيمات المنتشرة داخل لبنان. كما بلغ عدد المخيمات الفلسطينية داخل الأراضي اللبنانية نحو 12 مخيماً، وهي: المية مية، مار الياس، الرشيدية، البص، شاتيلا، عين الحلوة، ويفل (الجليل)، برج البراجنة، ضبية، برج الشمالي، نهر البارد، البداوي.²⁴¹ وبالتالي فإن هؤلاء قد كوّنوا الطبقة العاملة الرخيصة الأجور التي عملت في المصانع والمزارع اللبنانية.

ولا ننسى هنا أن نشير إلى أن الاقتصاد اللبناني والسياسي، ومنذ القرن التاسع عشر كان يعاني من مشكلات متأزمة وعميقة. فقد غلب عليه طابع المحسوبيات بالإضافة إلى العلاقات الزبائنية التي

Kamal Salibi, Crossroads to Civil War, ²³⁹

Kamal Salibi, Crossroads to Civil War ²⁴⁰

مي الزعبي، المخيمات الفلسطينية في لبنان، الجزيرة www.aljazeera.net ²⁴¹

صبغت علاقة الفرد بأجهزة الدولة. أضف إلى ذلك سيطرة بعض الأسر التجارية الماركنتالية على وضع الاقتصاد اللبناني، حيث ارتبطت هذه العائلات بالشركات الفرنسية وشكّلوا بينهم علاقة احتكار تفرض سيطرتها على اقتصاد لبنان، والمجتمع اللبناني. في ظل تطوّر القطاع المصرفي الذي ساهم في تمكين دور القطاع المالي والخدمي اللبناني، وذلك على حساب القطاعات الأخرى من الزراعة والصناعة وغيرها.²⁴² الأمر الذي نتج عنه في ستينيات القرن الماضي حركة نزوح من الأرياف اللبنانية باتجاه المدن الرئيسية، وتحوّلوا في ما بعد ضغوطاً إضافية حملت ثقلها الاجتماعي والاقتصادي للنظام اللبناني الهش أصلاً، فقد وصلت نسبة هذه الهجرة حوالي 40%، الأمر الذي أدّى لاحقاً إلى اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية.

التطورات الإقليمية وأثرها

كان لهزيمة نكسة حزيران العام 1967، أثرها السلبي على توازنات القوى على الساحة اللبنانية، الذي يرتبط دائماً بالأحداث الإقليمية والدولية حوله. فهزيمة جمال عبدالناصر في العام 1967، كانت ضربة موجعة وبالوقت نفسه شكلت دافعاً للأحزاب اللبنانية المسيحية لأن تعيد اصطفاقاتها وتقف ضد شارل حلو الرئيس اللبناني وضد فريق فؤاد شهاب في السلطة أيضاً. وفي مقدمتهم حزب الكتائب برئاسة بيار الجميل الذي سعى إلى إعادة نسج علاقاته مع الرئيس كميل شمعون وذلك بعد أن انقطعت منذ خروج الأخير من السلطة واتخاذ الحزب المعارض لحكم الرئيس شهاب الذي كان يأخذ في اعتباره حزب الكتائب. وانضمّ إليهما معارض ثالث ضد الحكم الشهابي، وهو ريمون إدة ابن الرئيس اللبناني الأسبق اميل ادة ورئيس "حزب الكتلة الوطنية اللبنانية". وحجة معارضتهم أنهم كانوا ضد أنشطة "منظمة التحرير الفلسطينية" على الأراضي اللبنانية، خاصة أن هذه الأحزاب الثلاثة المعارضة كانت دائماً تدعو إلى العمل على تحييد لبنان عن الصراعات العربية، وخصوصاً النزاع العربي - الإسرائيلي.

وفي الانتخابات النيابية التي جرت في العام 1968، فازت هذه الأحزاب الثلاثة المعارضة بنحو 30 مقعداً، وذلك من أصل 99 مقعداً في مجلس البرلمان اللبناني، وذلك في الفترة التي شهدت فيها

Tabitha Petran, The Struggle Over Lebanon, New York: Monthly Review Press, 1987, pp. 16 -16, 56, ²⁴²

.59 - 62, 126 - 128

أعمال الفدائيين الفلسطينيين تصعيداً على الحدود اللبنانية ضد العدو الصهيوني. مما أدّى إلى ارتفاع حالة التوتر الشديد بين الحكومة اللبنانية و"منظمة التحرير الفلسطينية". مما أسفر عن قيام إسرائيل في العام 1969، بشن هجوم على مطار بيروت الدولي، مستهدفة كافة الطائرات المدنية التابعة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية ودمّرتها. فعُمت المظاهرات التي نظمتها القوى اليسارية والقوى الفلسطينية، شوارع العاصمة بيروت وذلك احتجاجاً على تباطؤ الدولة اللبنانية في اتخاذ أي موقف للردّ على العدوان الصهيوني الغادر، الأمر الذي نتج عنها تقديم رشيد كرامي استقالته. وهنا دخلت الوساطات المصرية على خط الأزمة اللبنانية التي أفضت إلى توقيع "اتفاقية القاهرة" وذلك في العام 1969، بين الجانبين اللبناني والفلسطيني، وقد نصّت على إقامة لجان للفلسطينيين داخل المخيمات، بالإضافة إلى تشكيل وحدة ارتباط مهمتها العمل على التنسيق بين الفدائيين من جهة، وقيادة الأركان اللبنانية من جهة أخرى، كما يتمّ السماح بتسهيل مرور المواد الطبية والتموينية أيضاً إلى الفدائيين، الذين انحصر تمركزهم العسكري ضمن منطقة العرقوب في الجنوب اللبناني، كذلك تكون للفلسطينيين المقيمين داخل الأراضي اللبنانية حرية الاختيار في الانضمام والعمل ضمن صفوف الثورة الفلسطينية. بارك هذا الاتفاق كلّ من "حزب الكتائب" والأحرار، بينما عارضه ريمون إدّة، الأمر الذي أدّى لاحقاً إلى انفراط عقد التحالف الثلاثي المعارض. وحدث قبل انهياره، أن استطاع هذا الحلف الثلاثي إسقاط الياس سركيس المرشح التابع للشهابيين لمنصب رئاسة الجمهورية، وذلك بعد أن تم توزيع كتلة كمال جنبلاط وانقسامها بين المرشحين، وذلك في العام 1970، في مقابل فوز سليمان فرنجية. الأمر الذي عدّ إيذاناً بأفول نفوذ جمال عبد الناصر عن الساحة اللبنانية، ومؤشراً على بدء التنافس الذي حصل بين "منظمة التحرير الفلسطينية" وسوريا والسعودية في محاولاتهم لفرض سيطرة كل منهم على لبنان، وذلك في فترة السبعينيات.²⁴³

الفصائل الفلسطينية

وقد ظهرت على الساحة الفلسطينية عشرات التنظيمات التي كانت تعكس تنافساً بين القوى الإقليمية على النفوذ في هذه الساحة. وكان من أبرز هذه التنظيمات حركة التحرير الوطني الفلسطيني "حف" التي قلبت لتصبح فتح. ويعود تأسيس الحركة إلى أواخر الخمسينيات من

القرن الماضي من قبل شبان كانوا أعضاء في الأخوان المسلمين وعلى رأسهم ياسر عرفات وخليل الوزير وصلاح خلف وغيرهم. وقد أسسوا الحركة في الكويت حيث كانوا يعملون. وقد لقيت الحركة دعماً من مصر بدءاً من العام 1965 وحققت شهرتها بعد معركة الكرامة في العام 1968. وبعد العام 1969 أصبح قائدها ياسر عرفات رئيساً للسلطة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي العام 1970 انتقلت قيادة منظمة التحرير إلى بيروت، حيث أصبح لحركة فتح نفوذ كبير في لبنان بالتحالف مع عدد كبير من القوى اليسارية اللبنانية. وكانت الحركة تميل إلى العلاقة مع مصر ودول الخليج العربية، خصوصاً أنها كانت تتلقى الدعم المالي منها، عدا عن أيديولوجيتها الوطنية المتأثرة بالأخوان المسلمين والتي جعلتها في تناقض مع القوى العربية اليسارية والتقدمية وعلى رأسها سوريا. وقد اصطدمت الحركة ومنظمة التحرير خلال الحرب الأهلية بالدولة اللبنانية كما اصطدمت بسوريا. وبعد اجتياح إسرائيل للبنان عام 1982 قبلت المنظمة بمقررات قمة فاس في المغرب الداعية إلى سلام بين العرب وإسرائيل وفضلت اللجوء إلى تونس عوضاً عن دمشق حتى لا تكون تحت سيطرة سوريا. وقد أدّى ذلك إلى انشقاق عدد من قيادات فتح المعارضة لعرفات عن الحركة وشكلوا تنظيم فتح الانتفاضة وجرت معارك دامية بين فتح وفتح الانتفاضة على خلفية رفض المنشقين للحل السلمي. وقد لقوا دعماً من السوريين ضد عرفات. وقد اختار عرفات الدخول في مفاوضات سرية مع إسرائيل بدءاً من العام 1987 بغية التوصل إلى حل سلمي للقضية الفلسطينية وفي العام 1993 وقع اتفاقية أوسلو مع الجانب الإسرائيلي وارتضى بالحكم الذاتي للفلسطينيين ما حوّل حركة فتح إلى جهاز سلطة متعاون مع الاحتلال الإسرائيلي.²⁴⁴

أما الفصل الثاني الذي سيلعب دوراً كبيراً على الساحة الفلسطينية فلقد كان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش. وكانت الجبهة قد انبثقت عن حركة القوميين العرب بعد خيار الحركة بإيلاء الساحات الوطنية أولوية بالعمل عقب هزيمة العام 1967. وقد استندت الجبهة إلى إرث حركة القوميين العرب في الخمسينيات والستينيات لتشكّل الفصل الأكبر على الساحة الفلسطينية بعد فتح لعقود. هذا دفع بياسر عرفات إلى محاولة تقليص أظافرها عبر دعم انشقاق في الجبهة أدّى إلى خروج نايف حواتمة منها وتشكيله الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في العام 1967. وقد قامت الجبهة بعمليات شهيرة ضد المصالح الغربية حول العالم في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات وتبنّت الماركسية اللينينية كأيديولوجيا ثورية لها وتحالفت مع العراق خلال السبعينيات ومع كتلة الدول الاشتراكية. وخلال الاجتياح الإسرائيلي عارضت الجبهة الحل السلمي

²⁴⁴ راجع موقع حركة فتح <https://www.fateh-gaza.com/>

الذي اقترح في فاس. كما عارضات الجبهة اللجوء إلى تونس وفضلت اللجوء إلى سوريا حتى تكون قريبة من ميدان القتال في فلسطين. وقد شاركت الجبهة في الحرب ضد أمين الجميل بين عامي 1982 و1984 تحت غطاء القوى الوطنية اللبنانية وكان لها دور كبير في قلب الموازين لغير صالح حزب الكتائب اللبنانية وحلفائه. وقد عارضت الجبهة الشعبية أوصلو ولم تعترف بمفاعيله حتى الآن. وفي العام 1998 اختار الزعيم التاريخي للجبهة التقاعد وخلفه في المنصب أبو علي مصطفى الذي اغتيل في غزة في العام 2000 فخلفه أحمد سعدات الذي اعتقلته السلطة الفلسطينية بعد اغتيال الجبهة للوزير الإسرائيلي ربيع زئيفي انتقاماً لاغتيال أبو علي مصطفى. وبعد ذلك بأعوام قامت السلطة الفلسطينية بتسليم سعدات لقوات الاحتلال وهو لا يزال يقبع في الأسر حتى يومنا الراهن.²⁴⁵

أما التنظيم الثالث فلقد كان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة، وهو تنظيم أسسه أحمد جبريل في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي وتم الإعلان عنه في عملية ضد إسرائيل في العام 1965. وكان جبريل ذا خلفية بعثية ما جعله قريباً من سوريا منذ نشأة تنظيمه. وقد دعم عرفات انشقاقاً داخل الجبهة نتيجة معارضتها لسياسات عرفات التسوية فانبثق عن القيادة العامة جبهة التحرير الفلسطينية بقيادة أبو العباس وطلعت يعقوب. وقد عارض جبريل كل الخطوات السابقة اللاحقة نحو التسوية مع إسرائيل وتمسك بمطلبه بتحرير كامل التراب الفلسطيني من الاحتلال الصهيوني.²⁴⁶ ويبقى تنظيم الصاعقة بزعامة زهير محسن وقد تشكل من بعثيين فلسطينيين وكان قريباً من سوريا ومعارضاً لعرفات. وقد تلقى التنظيم ضربة كبيرة بعد اغتيال زعيمه في فرنسا في العام 1981.

الميثاق الوطني الفلسطيني

وفي ما يتعلق بالميثاق الوطني الفلسطيني فلقد نصّ على أن "الشعب العربي الفلسطيني الذي خاض معارك ضارية متصلة من أجل الحفاظ على وطنه والدفاع عن شرفه وكرامته والذي قدّم عبر السنين قوافل متتابعة من الشهداء الخالدين وسطر أروع صفحات البذل والتضحية والفداء. نحن

²⁴⁵ راجع "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: المسيرة التاريخية خلال خمسين عاماً، دمشق: مركز الهدف للدراسات والتوثيق، 2016.

²⁴⁶ راجع مقابلة شاملة مع طلال ناجي، مقابلة شاملة مع الأمين العام المساعد للجبهة الشعبية القيادة العامة، بيروت: باحث، 2010.

الشعب العربي الفلسطيني الذي تألّبت عليه عوامل الظلم والشر والعدوان وتآمرت عليه قوى الصهيونية العالمية والاستعمار وعملت على تشريده واغتصاب دياره وأراضيه واستباحة حرمانه وانتهاك مقدساته فما استكان أو لانت له قناة بعد. نحن الشعب العربي الفلسطيني الذي آمن بعروبته وبحقه في استخلاص وطنه وتحقيق حريته وكرامته وصمّم على حشد قواه وتعبئة كل جهوده وطاقاته من أجل متابعة نضاله والسير قدماً على طريق الجهاد المقدس حتى يتحقق له النصر النهائي الكامل. ونحن الشعب العربي الفلسطيني استناداً إلى حقنا في الدفاع عن النفس واسترداد الوطن السليب بكامله وهو الحق الذي أقرته الأعراف والمواثيق الدولية وفي مقدمتها ميثاق الأمم المتحدة. وتطبيقاً لمبادئ حقوق الإنسان وإدراكاً منا لطبيعة العلاقات السياسية الدولية بمختلف أبعادها ومراميها واعتباراً للتجارب التي خلت في مجابهتها ما يتعلق بأسباب النكبة وأساليب وانطلاقاً من الواقع العربي الفلسطيني ومن أجل عزة الإنسان الفلسطيني وحقه في الحياة الحرة الكريمة.²⁴⁷ وشعوراً بالمسؤولية الملقة على عاتقنا، من أجل هذا كله نقسم على:

مادة 1: فلسطين وطن عربي تجمعته روابطه القومية العربية بسائر الأقطار العربية التي تؤلف معها الوطن العربي الكبير.

مادة 2: فلسطين بحدودها التي كانت قائمة في عهد الانتداب وحدة إقليمية لا تتجزأ.

مادة 3: الشعب العربي الفلسطيني هو صاحب الحق الشرعي في وطنه وهو جزء لا يتجزأ من الأمة العربية يشترك معها في آمالها وآلامها وفي كفاحها من أجل الحرية والسيادة والتقدم والوحدة. مادة 4: شعب فلسطين يقرّر مصيره بعد أن يتم تحرير وطنه ووفق مشيئته وبمحض إرادته واختياره.

مادة 5: الشخصية الفلسطينية صفة أصيلة لازمة لا تزول وهي تنتقل من الآباء إلى الأبناء.

مادة 6: الفلسطينيون هم المواطنون العرب الذين كانوا يقيمون إقامة عادية في فلسطين حتى عام 1947 سواء من أخرج منها أو بقي فيها وكل من ولد لأب عربي فلسطيني بعد هذا التاريخ داخل فلسطين أو خارجها هو فلسطيني.

²⁴⁷ المصدر: منظمة التحرير الفلسطينية : الميثاق، النظام الأساسي، نظام الصندوق القومي الفلسطيني، المصادق عليها " : د.م. 1964 حزيران سنة 2 الموافق 1384 محرم سنة 21 من المجلس الوطني في جلسته المنعقدة يوم الثلاثاء في منظمة التحرير 1964 الفلسطينية، ص.ص. 2-8.

مادة 7: اليهود الذين هم من أصل فلسطيني يعتبرون فلسطينيين إذا كانوا راغبين بأن يلتزموا العيش بولاء وسلام في فلسطين. إضافة إلى غيرها من المواد.²⁴⁸

²⁴⁸ عن موقع مؤسسة الدراسات الفلسطينية - <https://www.palestine-studies.org/sites/default/files/uploads/files/28-5-1964b.pdf>

الجزء الثالث 1970 – 1991 |

الفصل الأول

سوريا 1970 – 1991

أقدم وزير الدفاع السوري حافظ الأسد في 16 تشرين الثاني /نوفمبر من العام 1970، على انقلاب سياسي، استولى بنتيجته على مقاليد الحكم في سوريا، كما اعتقل جميع معارضيهِ وفي مقدّمتهم صلاح جديد. بعدها عمل على إجراء انتخابات رئاسية كان هو مرشحها الوحيد، وبالطبع فاز بها، وظل في الحكم حتى توفي في 10 حزيران/يونيو من العام 2000. وصول الأسد إلى الحكم جاء وسط تحولات كبرى إقليمية. حيث تفجّر في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1970، الصراع بين الفدائيين الفلسطينيين من جهة والجيش الأردني من جهة أخرى، وقد عُرفت بـ"أيلول الأسود". وكانت رغبة صلاح جديد الدخول في هذا النزاع لصالح الفلسطينيين، حيث قام بإرسال فرقة مدرعة سوريا إلى الحدود الشمالية للأردن، فرفض الأسد أن يؤمن لها غطاء جويًا. وكانت وفاة عبدالناصر الزعيم المصري في 28 أيلول /سبتمبر، بمثابة الضربة القاصمة للتيار القومي العربي، ثم حدث بعدها بأسابيع عدة أن استولى حافظ الأسد على مقاليد الحكم في سوريا، التي اعتمدت على نهج سياسي براغماتي وأقل دوغمائي، وعملت سوريا في هذه الفترة على التركيز على حلّ مشكلاتها الداخلية، وتعزيز مكانة الجيش وبنائه من حيث العديد والعتاد ليكون جيشاً قوياً، كما عملت على تطوير البنية الصناعية، بالإضافة إلى الوصول إلى حل للصراع العربي - الإسرائيلي، مع ضرورة الحفاظ على كامل الحقوق العربية، والعمل على استرجاع مع خسره العرب في نكسة حزيران العام 1967، ومنع إسرائيل من أن تفرض نفوذها في منطقة المشرق العربي، خاصة أن سوريا وإسرائيل تتنافسان على منطقة حيوية واحدة وهي الهلال الخصيب وبلاد الشام. وكانت غاية الأسد استرجاع الأراضي السورية التي احتلتها إسرائيل، وذلك إلى خط الرابع من حزيران/يونيو. فهي ذات أهمية كبيرة بالإضافة إلى أنها تُشكل رمزاً وطنياً، وضرورة استراتيجية لكونها خط دفاع عن العاصمة دمشق، حيث تبعد عن هضبة الجولان مسافة 60 أو 70 كم، وفي الوقت نفسه تريد سوريا ان تعزّز حق الفلسطينيين في إقامة دولة لهم في مدينة غزة والضفة الغربية، كما تريد أيضاً إيجاد حلٍّ لمسألة

اللاجئين الفلسطينيين المنتشرين في الشتات، وذلك من خلال إعطائهم حقهم في العودة إلى فلسطين أرضهم.²⁴⁹

بنية الحكم في ظل حافظ الأسد

حاول الرئيس السوري حافظ الأسد بعد تسلمه السلطة في سوريا أن يُجنب بلاده النزاعات الإقليمية، من أجل هذا الغرض عمل على تدعيم الجيش وتقويته، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أجهزة المخابرات، مع إبقائها على ارتباط به بشكل مباشر. تزامن ذلك مع تسلم أقربائه في العائلة مناصب حساسة في الدولة، بينهم أخوه رفعت، الأمر الذي دفع البعض إلى معارضته واتهامه بأنه يريد الاحتفاظ بالسلطة، وأن هذا الهاجس يطغى على الهدف الأكبر وهو العمل على المحافظة على المصالح السورية.²⁵⁰ بينما يرى آخرون، أن محاولات الأسد تدعيم نظامه وتقويته، وإمساكه بزمام السلطة، كانت الغاية منه الحفاظ على الاستقرار السياسي في البلد، إضافة إلى منعه أي تدخلات خارجية في سوريا، خاصة أن الانقلابات السابقة التي حصلت قبل العام 1970، كان معظمها انعكاساً للنزاعات الإقليمية والدولية من أجل بسط هيمنتها على سوريا.²⁵¹ كما الضعف الموجود في المؤسسات المدنية السورية صعب مهمة حفظ الاستقرار السياسي إلا عن طريق أجهزة الاستخبارات.

وعمل الأسد في العام 1973، على إصدار دستور جديد لسوريا بغية جعل الحكم فيها مدنياً، إلا أنه ونتيجة للضغوط الإقليمية لم يتمكن من تنفيذه، مما اضطر الأسد إلى الاعتماد بشكل كلي على أجهزة الاستخبارات والجيش أيضاً، وهذا مكّنه من تمكين دور سوريا إقليمياً، بعد أن كانت الصراعات تتنازعها، خصوصاً في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.²⁵² وبناء على ذلك أعطى دستور 1973، الرئيس صفة الحاكم المطلق. لذا فإن رئيس الجمهورية في دستور 1973، هو

Hinnebusch, Raymond; *Does Syria want Peace? Syrian Policy in the Syrian Israeli Peace Negotiations*, Journal of Palestine Studies Revue d'Etudes Palestiniennes, no. 101, Automne 1996.

Abou Khalil, Assad; *Syria and the Arab Israeli Conflict*. Current History, February, 1994, p.83.²⁵⁰

باتريك سيل، الصراع على سوريا - 1958-1945..²⁵¹

Perthes, Volker; *The Political economy of Syria Under Assad*, Ib. Tauris, London, 1995, p. 4.²⁵²

"رئيس الدولة السورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة، والرئيس الأعلى للسلطة القضائية، ومن حقه إعلان الحرب وإصدار وتصديق القوانين ورسم السياسة العامة للدولة. كذلك من حقه دعوة البرلمان إلى الانعقاد وحله متى شاء، والتصديق على التعديلات الدستورية واقتراحها، وطرح مشاريع القوانين على الاستفتاء العام وإصدار القوانين حتى في ظل عدم انعقاد البرلمان وفرض القوانين عليه في حالة الضرورة القصوى".²⁵³ ولكي يُكرّس السلطة في يده بشكل أقوى، عمل الأسد على تولي مناصب إدارية عدة، مثل: الأمانة العامة القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، تُضاف إليها صلاحية تعيين القضاة والوزراء والضباط في المراكز العسكرية والأمنية الحساسة،²⁵⁴ التي يُمثل فيها الجيش وأجهزة الاستخبارات الركن الثاني لتثبيت السلطة في سوريا. وذلك الركن الأول المتمثل بشخص الرئيس المرتبط بمؤسسة رئاسة الجمهورية. فمنذ الخمسينيات من القرن الماضي، شكل الجيش وأجهزة المخابرات الأداة الرئيسة والقوية في سوريا، ومن خلالها استطاع حافظ الأسد القيام بانقلابه وتسلمه السلطة في العام 1970، بينما حزب البعث الذي استقوى به صلاح جديد غريمه، لم يَمكنه من أن يقف في وجهه ووجه الجيش²⁵⁵ الذي كانت أجهزة الاستخبارات الأداة الأساس في فرض هيمنتها على الجيش. كما عمل على عدم جمع سلطتها في جهة واحدة، من خلال تأسيس أكبر عدد من أجهزة الأمن، مرتبطة به مباشرة، وبناء عليه فقد كانت أجهزة الاستخبارات العسكرية والاستخبارات الجوية وسرايا الدفاع بإدارة رفعت أخيه وبقي في هذا المنصب من العام 1971 إلى العام 1983، أما في ما يخص لواء الحرس الجمهوري الخاص الثاني فقد ترأسه عدنان مخلوف، بينما كانت أجهزة الأمن السياسي والقوات الخاصة وألوية الدفاع والشعبة العسكرية الثالثة، مضافاً إليها عددٌ آخر من أجهزة الأمن أعمالها كلها تُدار من قِبَل مجلس الأمن الرئاسي، التابع مباشرة للرئيس الأسد الذي كان يرأسه. عمل هذه الأجهزة كان مستقلاً عن الجهاز الآخر، ومهمتها القيام بجمع التقارير في مجالات متنوّعة، السياسية والاجتماعية وغيرها، سواء كانت مدنية أو ريفية، أو طابعية، أو نقابية، وحتى حزبية، وفي الوقت نفسه تراقب بعضها البعض، ثم تقوم بإرسال كافة التقارير إلى الرئيس الأسد مباشرة ليطلع عليها.²⁵⁶

²⁵³مراجعة المواد 93، 111، 114 من الدستور السوري..Revoir les articles 93, 111, 114 de la constitution syrienne.

²⁵⁴Human Rights watch; *Syria unmasked*, Vail Ballou press, Binghamton, 1991, p. 2.

²⁵⁵المصدر ما قبله ص. 236. Mclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham.;

²⁵⁶ تقرير هيومان رايتس واتش المصدر ما قبله

أما من جهة تركيبة المجتمع السوري، فقد واجه الأسد اتهامات تتجلى في كونه نظاماً أقلية، حيث يعتمد على طائفة العلويين لمواجهة طائفة السنة التي تشكل غالبية سكان سوريا. والذي ساعد على تأزم هذا الوضع ترأس الضباط العلويين الأجهزة الأمنية بنسبة تزيد نسبتهم بالنسبة لإجمالي مجموع الشعب السوري²⁵⁷. الأمر الذي جعل البعض يعتقد أن النظام يقوم على عصبية علوية تعمل على ضمان بسط سيطرتها على أجهزة الاستخبارات والجيش ومقالييد الحكم في سوريا.²⁵⁸ العلويون انتسبوا إلى الجيش خلال فترة الانتداب الفرنسي على سوريا، وغالبيتهم من أبناء الريف، حيث كان الجيش خيارهم الوحيد للعمل على تحسين وضعهم الاقتصادي، هرباً من الفقر الذي كانوا يعانون منه في قراهم، كما وجدوا فيه أداة لتطورهم الاجتماعي، حيث كانت نسبة العلويين في الجيش مرتفعة مقارنة بغيرهم من أبناء الريف، كما فرضوا سيطرتهم أكثر خصوصاً بعد إجهادهم حركة التمرد التي قام بها سليم حاطوم الضابط الدرزي، وذلك في العام 1966، والتي أسفرت عن تسريح واعتقال حوالي 200 من الضباط الدروز من الجيش السوري.²⁵⁹ في الظاهر يبدو أن الغاية تأخذ بُعداً طائفيّاً، لكن نظام البعث في عهد حافظ الأسد، كان يُعبّر عن جميع مصالح وتطلعات أبناء وجهاء الريف في سوريا، على اختلاف تنوع أطيافه من: سنة ومسيحيين وعلويين ودروز، بالإضافة إلى تعزيز علاقاته مع البورجوازية التجارية في دمشق على وجه الخصوص.²⁶⁰ ويعود ذلك إلى كون الذي يجمع بين المدينة والريف أكبر مما يجمع بين طائفة وأخرى.²⁶¹ أما ما يخص الامتيازات التي تم منحها للبرجوازية في دمشق لحماية مصالحها، فقد كانت تشمل إعطاءهم رخص استيراد وحوافز أخرى، كما كان يُسمح لهم بمزاولة أعمالهم التجارية والترانزيت من مرفأ بيروت، وإلى بلدان الخليج، كما رفضت دمشق الانضمام إلى حركة التمرد التي قام بها الإخوان المسلمون وذلك خلال فترة 1975 و1982، نتيجة للضرر الكبير الذي أصاب مصالح الطبقة البرجوازية وخاصة في مدينة حلب، إضافة إلى مدن سوريا الشمالية، وذلك بسبب السياسات

Batatu, Hanna; *Some Observations on the Social roots of the Syrian Political Elite*, The Middle East ²⁵⁷ Journal, volume XXV, été 1991.

Van Dam, Nikolas; *The Struggle for Power in Syria, Sectarianism, Regionalism and Tribalism in Politics*, ²⁵⁸ 1961-1978, Groom Helm limited, London, 1979, p. 92.

Batatu, Hanna; *Some Observations on the Social Roots of the Syrian Political Elite*. p. 143-144²⁵⁹

Drysdale, Alasair; *The Syrian Political Elite, 1966-1976: A Spatial and Social Analysis*, Middle Eastern ²⁶⁰ Studies, vol. XVII, Jan. 1 1981, p. 8 & p. 13.

Faksh, Mahmud; *The Alawi Community of Syria, a New Dominant Political Elite*, p. 146.²⁶¹

التي انتهجتها الأنظمة البعثية التي توالى على حكم سوريا منذ العام 1963. لكن، حقيقة الأمر لم يُشكل الثقل الأساسي في الحكم، ودليل ذلك النزاع الذي نشب بين صلاح جديد الذي اعتمد فيه على الحزب، وحافظ الأسد الذي اعتمد على الأجهزة الأمنية والجيش.

مما جعل الحزب لا يكون له دور أساس في صنع القرار في وجود حافظ الأسد الذي كان يراعي عند اتخاذ أي قرار التوازنات الموجودة في أجهزة الاستخبارات والجيش، أكثر مما يراعي التوازنات الموجودة ضمن حزب البعث. في الوقت نفسه شكّل الحزب الغطاء الشرعي للسلطة في سوريا، وأداة لاحتواء جميع السوريين على اختلاف مذاهبهم ولنشر الهوية الوطنية لتكون جامعة لهم.²⁶² كما تم إعطاء الحزب صفة رسمية في الدولة، حيث كان القائد للدولة والمجتمع معاً، بالإضافة إلى أنه قائد للتيار الوطني التقدمية، التي تنطوي تحتها أحزاب سوريا عدة، كما أنه أي الحزب هو الذي يسمّى المرشحين لمنصب رئاسة الجمهورية.²⁶³ والأهم من ذلك شكّل الحزب وسيلة لإفشال كل الاتهامات التي كانت توجه للأسد من معارضيه في الداخل والخارج بأنه نظام أقليمي.²⁶⁴ وحتى تُعطى لسوريا واجهة تعددية فلقد تمّ جمع الأحزاب السورية في جبهة واحدة بقيادة حزب البعث هي الجبهة الوطنية التقدمية وقد ضُمَّت في عضويتها:

1. حزب البعث العربي الاشتراكي: وهو قائد الجبهة وأمينه العام يرأس القيادة المركزية للجبهة (عضو مؤسس).
2. حزب الاتحاد الاشتراكي العربي (عضو مؤسس كحزب موحد قبل أن ينشق عنه حزب الاتحاد العربي الديمقراطي).
3. الحزب الشيوعي السوري "بكداش" (عضو مؤسس كحزب موحد قبل أن ينقسم عنه الحزب الشيوعي الموحد).
4. الحزب الشيوعي السوري (الموحد) "فيصل" (عضو مؤسس كحزب موحد قبل أن ينقسم عن الحزب الشيوعي).
5. حزب الوندوين الاشتراكيين (عضو مؤسس تحت اسم تنظيم الوندوين الاشتراكيين).

Kienle, Eberhard, *Baath vs Baath, the conflict between Syria and Irak*, I.B. Tauris & Co. limited ²⁶² publishers, London, 3rd ed., 1993, p. 153.

Mclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham. ²⁶³ المصدر ما قبله ص. 228...

Drysdale, Alasair, *The Assad Regime and its Troubles*. Merip Reports nov/dec, 1982. ²⁶⁴

6. حركة الاشتراكيين العرب (عضو مؤسس كحركة واحدة قبل أن تنقسم).
7. الحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي (انضم إلى الجبهة في 31 كانون الأول / ديسمبر 1988).
8. حزب العهد الوطني .
9. حزب الاتحاد العربي الديمقراطي (عضو مؤسس كحزب موحد قبل أن ينشق عن حزب الاتحاد الاشتراكي العربي).
10. الحزب السوري القومي الاجتماعي .
11. الاتحاد العام لنقابات العمال (تنظيم غير حزبي انضم إلى الجبهة في 31 آذار / مارس 1980).
12. الاتحاد العام للفلاحين (تنظيم غير حزبي انضم إلى الجبهة في 31 آذار / مارس 1980).

وقد نصّ ميثاق الجبهة على:

"إنّ ما قام به حزب البعث العربي الاشتراكي بعد الحركة التصحيحية من انفتاح على الجماهير والقوى الوطنية، وتفاعل هذه القوى إيجابياً مع الاستراتيجية العامة التي رسمها الحزب في بيان القيادة القطرية المؤقتة والمؤتمر القطري الخامس والمؤتمر القومي الحادي عشر، وتأييداً للخطوات التي سار فيها الحكم بقيادة الرئيس حافظ الأسد في مجال العمل الداخلي والعربي والدولي... أدّى إلى خلق المناخ الملائم لقيام هذه الجبهة وأرسى دعائم بنائها". وتضيف أخيراً "أنّ حزب البعث العربي الاشتراكي... من واقع تحمّله قيادة الدولة والمجتمع منذ ثورة آذار حتى اليوم، وما حققه من إنجازات في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، هو المؤهل لأخذ موقع القيادة في هذه الجبهة، ولأن يكون الدعامة الأساسية في بنائها"... "وتتجسّد قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي للجبهة بتمثيله بالأكثرية في مؤسسات هذه الجبهة جميعها، وبأن يكون منهاج الحزب ومقرّرات مؤتمراته موجّهاً أساسياً لها في رسم سياستها العامة وتنفيذ خططها. وأن مهام الجبهة هي:

1. تحرير الأرض العربية المحتلة بعد الخامس من حزيران عام 1967 كهدف مرحلي في نضال الأمة. وهذا الهدف يتقدّم جميع الأهداف المرحلية الأخرى، وفي ضوءه يجب أن نرسم خططنا في كافة المجالات .
2. إقرار مسائل الحرب والسلام .

3. إقرار الخطط الخمسية ومناقشة السياسة الاقتصادية .
4. رسم خطط التثقيف القومي الاشتراكي .
5. العمل على استكمال بناء النظام الديمقراطي الشعبي ومؤسساته الدستورية ومجالسه المحلية .
6. متابعة استكمال البناء الديمقراطي للمنظمات الشعبية والمهنية .
7. العمل على توفير جميع الطاقات لدعم القوات المسلحة في الصمود والمواجهة. وتتعهد أطراف الجبهة غير البعثية، لمنع أي صراع أو تناحر في أوساطها، بعدم القيام بأي نشاط حزبي أو تكتلي داخل الجيش والقوات المسلحة .
8. العمل المتواصل من أجل الوصول بالحوار الإيجابي، والتفاعل الجماهيري داخل الجبهة إلى التنظيم السياسي الموحد .
9. باعتبار أن الطلاب هم جيل المستقبل ومن الواجب تهيئة أحسن الشروط لتحقيق وحدة إرادتهم واتجاهاتهم، لا بد من أجل الوصول إلى هذا الهدف من أن ينتهي التنافس الحزبي في أوساطهم. لذلك فإن أطراف الجبهة غير البعثية تتعهد بالعمل على وقف نشاطاتها التنظيمية والتوجيهية في هذا القطاع

سوريا وحرب أكتوبر

كانت إسرائيل هي الهاجس الرئيسي لسوريا، خصوصاً أنها قامت في منطقة مهمة جداً في بلاد الشام هي فلسطين، حيث كانت تتنافس مع الكيان الصهيوني على نطاق جيوسياسي واحد، ألا وهو بلاد الشام أو المشرق. وقد عملت إسرائيل على فرض هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط، وذلك خلال الفترة الممتدة من ستينيات القرن الماضي وحتى الآن. وقام في العام 1958، دايفيد بن غوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي ومؤسس الكيان الصهيوني بإرسال رسالة إلى دوايت أيزنهاور الرئيس الأمريكي، إثر الثورة العراقية، يُخبره فيها، أنه لا يمكن لأي نظام إقليمي أن يستمر ويستقر في الشرق الأوسط، وفي الوقت نفسه موالٍ للغرب، إذا اعتمد على دولة عربية، وعلى هذا فإنه يتوجب على النظام الإقليمي حتى يكون موالياً للولايات المتحدة يجب أن يكون متعمداً على بلدان شرق أوسطية غير الدول العربية، كإيران، وتركيا، إسرائيل، أثيوبيا.²⁶⁵ ونتيجة لذلك، عملت واشنطن إلى تقديم كل التسهيلات والدعم الذي تحتاجه إسرائيل، وكانت في ما مضى تقدم لها دعماً غير محدود،

²⁶⁵ محمد حسنين هيكل، عام من الازمات-2000-2001، المصرية للنشر العربي، القاهرة 2001 ص.ص. 244-278.

وإن كان بطريقة غير مباشرة، وذلك قبل أن تقيم دولتها في العام 1948. بينما العرب لم يتلقوا الدعم نفسه من الاتحاد السوفياتي الذي يعتبر حليفهم، حيث كان يتردد في أن يرسل لهم السلاح المتطور، بما يساوي السلاح المرسل من الولايات المتحدة إلى إسرائيل، وخاصة بعد العام 1964، وتسلم ليونيد بريجنيف الحكم، الذي عمل على سياسة مرنة مع الغرب لتجنب أي توتر في العلاقات معهم.²⁶⁶

عُدّ تسلم الأسد الحكم في سوريا تغييراً مهماً في الحياة السياسية السورية، حيث بدأت تتقارب مع كل من مصر والسعودية، وذلك في ظل التنسيق والتحضيرات للحرب ضد إسرائيل من أجل تحرير واستعادة الأراضي العربية المحتلة عام 1967، طبعاً من ضمنها هضبة الجولان.²⁶⁷ فقد كانت حرب تشرين الأول/أكتوبر من العام 1973، فرصة كبيرة للسوريين حتى يتمكنوا من تعويض خسارتهم في عام 1967. وفي وقتها وصل عدد الجيش السوري إلى حوالي 200 ألف جندي مسلح بأسلحة سوفياتية متطورة. وعمل الجانبان المصري والسوري على توحيد جهودهم وذلك لإجبار إسرائيل القتال على جبهتين في الوقت نفسه. ولكن، أنور السادات الرئيس المصري كانت له غاية أخرى من الحرب، فلم يكن يريد أن يكون هدف الحرب تحرير جميع الأراضي العربية المحتلة عام 1967، بل كان يهدف من ورائها إلى جر إسرائيل وإجبارها على الجلوس على طاولة المفاوضات، وهذا كان مخالفاً لما كان يريده الأسد. بدأ الجيشان المصري والسوري القتال على جبهتين، وذلك في 6 شهر تشرين الأول/أكتوبر العام 1973. واستطاع الجيش المصري وخلال ساعات عدة من عبور "قناة السويس"، وفرض سيطرته عليها بعمق وصل من 10 إلى 15 كم شرق القناة، كما عمل على إنشاء خط دفاعي هدفه التصدي للهجمات الإسرائيلية، وهذا يعني أن الجيش المصري تخلى عن الجيش السوري الذي بقي وحيداً في الحرب يواجه التفوق العسكري الإسرائيلي الكبير، الذي ركّز جهوده فيما تلاها من أيام على قتال الجيش السوري، حيث استطاعوا إيقاف تقدّمه، واحتلال هضبة الجولان مرة أخرى، وتقدّموا نحو دمشق العاصمة السورية. ولكن، ونتيجة الدعم الأمريكي من خلال الجسر الجوي من أجل تعويض إسرائيل للخسائر التي فقدتها في الحرب، والمعلومات التي قدّمها الأميركيون للإسرائيليين، الذين استطاعوا إحداث ثغرة، فتمكنوا من خلالها العبور إلى الضفة الغربية للقناة، وحاصروا الجيش المصري الثالث ليحوّلوا النصر العربي إلى فشل وهزيمة.²⁶⁸ وإثرها

²⁶⁶ محمد حسنين هيكل، 1967- الانفجار، مركز الاهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1987..

²⁶⁷ 246 Mclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham.

²⁶⁸ باتريك سيل، الأسد - الصراع على الشرق الأوسط، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 1987، ص.ص. 319.

وقع السادات الرئيس المصري على اتفاقية الغاية منها، فصل القوات الأولى مع إسرائيل وذلك بواسطة أميركية في العام 1974، ثم تبعتها بعد ذلك باتفاقية "سيناء الثانية"، وذلك من أجل فصل القوات في بدايات العام 1975، وبهذا تكون مصر قد خرجت من الصراع العربي - الإسرائيلي، فيما بقيت سوريا وحدها تواجه التفوق العسكري الإسرائيلي الكبير.²⁶⁹

وبرعاية أميركية - سوفياتية، تم بعدها عقد "مؤتمر جنيف" من أجل إقامة السلام بين كل من العرب وإسرائيل.²⁷⁰ الأمر الذي لم يقبله الأسد ورفض بالتالي حضور المؤتمر، وذلك لشكه في النيات الإسرائيلية، كما أعلن صراحة معارضته لأي تطبيع مع الكيان الصهيوني قبل تحقيق السلام العادل في منطقة الشرق الأوسط، واستعادة كامل الحقوق للفلسطينيين.²⁷¹ فقد كان حافظ الأسد يشكّ بالدعم اللامحدود الذي تقدّمه واشنطن لإسرائيل.²⁷² بالنهاية فشل المؤتمر، وذلك بسبب التعنت الإسرائيلي ورفضهم الانسحاب الكامل من الأراضي التي قامت باحتلالها في العام 1967، باستثناء شبه جزيرة سيناء، التي وافقت على إعادتها لمصر في مقابل خروجها من قضية الصراع العربي - الإسرائيلي، حيث كان لخروجها أثر كبير في اختلال ميزان القوى وجعله يميل إلى صالح إسرائيل. لذا سارع الأسد إلى تشكيل جبهة شرقية تضمّ كلاً من سوريا ولبنان والعراق والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية من أجل مواجهة إسرائيل. كما أن الأسد تعلّم درساً مهماً، ولم يعد بعد هذه الحرب الوثوق بأي قائد عربي، بسبب الخداع الذي أصابه من السادات، الأمر الذي جعله يعمل على فرض سيطرته على نظرائه بدلاً من التعاون معهم.²⁷³ هذا الأمر جعله يشكّ أيضاً بياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، حيث كان يعتقد بوجود رغبة لديه في توقيع سلام منفرد مع الكيان الصهيوني، كما فعل السادات من قبل، وللأسف هذا ما قام به ياسر عرفات لاحقاً.²⁷⁴ وعمل الأسد بعدها على إحداث توازن قوى استراتيجي مع إسرائيل، وذلك من خلال بناء جيش

Kienle, Eberhard: "Baath vs Baath, the conflict between Syria and Irak". p. 135.²⁶⁹

²⁷⁰عبد الله السيد ولد اباه، التسوية في الشرق الأوسط ومستقبل النظام العربي، المستقبل العربي عدد 192 شباط 1995 ص. 34.

Mclaurin R.D. and Mughisuddin; "Muhammad and Wagner, Abraham. 253²⁷¹

Eisenstadt, Michael; "Arming for Peace? Syria's Elusive Quest for Strategic Parity", The Washington²⁷²

Institute for Near East Policy, Washington D.C., 1992, p. 1.

Seale, Patrick and Linda Butler; "Assad's Regional Strategy and the Challenge from Netanyahu". Journal²⁷³

of Palestine Studies, no. 101, Automne 1996.

..255 Mclaurin R.D. and Mughisuddin; "Muhammad and Wagner, Abraham.²⁷⁴

قوي فعمل لتحقيق ذلك بزيادة عدد الجيش السوري وتسليحه بأسلحة متطورة جداً، وهذا ما يفسّر الإنفاق الضخم والكبير على الناحية العسكرية خلال فترة السبعينيات والثمانينيات، ليصل الإنفاق العسكري إلى نصف ميزانية سوريا في بعض الأوقات. وهذا التسليح للجيش كان متاحاً للرئيس الأسد من خلال الدول الاشتراكية والاتحاد السوفياتي.²⁷⁵

الأسد والحرب اللبنانية

كان للبنان أهمية خاصة في وجدان سوريا، خاصة أن لبنان قد تمّ سلخه عن وطنه الأم سوريا في العام 1920. ومع تسلّم الأسد مقاليد الحكم في سوريا تحوّل دور لبنان في الاستراتيجية السورية عنصراً هاماً في مواجهة إسرائيل.²⁷⁶ وأثناء حرب تشرين 1973، أراد الأسد مشاركة الجبهة اللبنانية من خلال تفعيلها ضد الكيان الصهيوني، وذلك من خلال تقديم كل الدعم لأنشطة الفدائيين التي كانوا يقومون بها عبر الحدود، من أجل دفع القوات الإسرائيلية إلى نشر وحدات عسكرية على الحدود الشمالية مع لبنان، بغية تخفيف الضغط الذي تتعرّض له القوات السورية في هضبة الجولان. كما كانت دمشق قلقة من أن تعتمد إسرائيل على الالتفاف على قواتها وذلك عبر الأراضي اللبنانية، والتقدم مباشرة باتجاه العاصمة دمشق.²⁷⁷ ولكن، بعد نشوب الحرب الأهلية في لبنان، اضطرت سوريا إلى دخول لبنان، خاصة بعد تحالف وتعاون "حزب الكتائب" مع الكيان الصهيوني.²⁷⁸ فقد كانت الحرب الأهلية في لبنان تُشكل تهديداً أمنياً يصيب الاستقرار في سوريا، مع خشية دمشق أن تنتقل الحرب إلى سوريا، لهذا عملت على إيقاف الحرب الأهلية الواقعة في لبنان وبأي ثمن كان.²⁷⁹ فدخل الجيش السوري في ربيع عام 1976، إلى لبنان، بناء على طلب من سليمان فرنجية رئيس الجمهورية اللبنانية، بالإضافة إلى قادة الجبهة اللبنانية بيار الجميل وكميل شمعون. هذا التدخل صبّ في تحسين العلاقات السياسية بين سوريا وواشنطن، التي كانت قلقة من ازدياد

Seale, Patrick and Linda Butler; "Assad's Regional Strategy and the Challenge from Netanyahu". p. 65.²⁷⁵

Ma'oz, Moshe; "Assad the Sphinx of Damascus, a Political Biography". London, Widenfield and Michalson, 1988, p. 288.²⁷⁶

Roberts, David; "The USSR in Syrian Perspective". p. 221.²⁷⁷

Harris, William; "Syria in Lebanon". Merip Reports, July , 1985, p. 76.²⁷⁸

Chalala, Elie; "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means", p. 70.²⁷⁹

قوة "منظمة التحرير الفلسطينية" ممثلة بياسر عرفات في الساحة اللبنانية، بالإضافة إلى رغبة واشنطن في توريط سوريا في الأزمة اللبنانية، لتكون أداة لها لابتزازها. كذلك الأمر بالنسبة إلى دمشق التي كانت تخشى من ازدياد نفوذ "منظمة التحرير الفلسطينية" في الأراضي لبنان، خاصة أنها بدأت تشك في نيات ياسر عرفات، ورغبته في إيجاد حل سلمي أو تأسيس كيان ووطن بديل للدولة الفلسطينية في لبنان. تُضاف إليه خشية دمشق من انضمام اليسار اللبناني إلى ياسر عرفات، والذي سيشكل حجة لليمين اللبناني في إقامة تحالف وتعاون مع إسرائيل.²⁸⁰

واعتقد الأسد أنه في حال فرض سيطرته على لبنان، سيستطيع السيطرة على "منظمة التحرير الفلسطينية"، واستخدامها كوسيلة ضد رغبة حسين ملك الأردن في توقيع سلام منفرد مع الكيان الصهيوني.²⁸¹ في الوقت نفسه شكل لبنان بالنسبة إلى سوريا نقطة انطلاق للقيام بحرب محدودة مع إسرائيل، وبذلك تبقي قضية الصراع العربي - الإسرائيلي قائمة، من دون تصعيد يؤدي إلى تعريضها لخسارة كبرى، وذلك حتى تتمكن من تحقيق سلام شامل.²⁸²

في ذلك الوقت وقعت مصر على اتفاقية "كامب دايفيد" مع تل أبيب وذلك في العام 1979، فشكل ذلك ضربة قوية إلى سوريا.²⁸³ ولمنع سوريا من عرقلة المفاوضات، شجعت بشير الجميل على محاربة القوات السورية الموجودة ضمن الأراضي اللبنانية، وذلك في صيف عام 1978، وقد سُميت هذه الحرب بـ "حرب المئة يوم". كما أن سوريا فشلت في جعل القوات اللبنانية توقف تعاملها مع إسرائيل، بالإضافة إلى السعي الدائم من أجل إنشاء كيان مسيحي في بعض المناطق ضمن الأراضي اللبنانية.²⁸⁴ ولم تتوقف سوريا في الشك بنيات عرفات الذي بقي على تواصل مع مصر برغم اتفاقية "كامب دايفيد"، وكانت سوريا قلقة من سعي عرفات الدائم إلى الانضمام لهذه

Devlin, John; "Syria: Modern state in an ancient land", Westview Press, Boulder Colorado, 1ère edition²⁸⁰
1983, p. 120.

Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymond; "Syria and the Middle East Peace Process", p. 74.²⁸¹

Harris, William; "Syria in Lebanon". P78²⁸²

Abu Khalil, Assad; "Syria and the Arab-Israeli Conflict", 84.²⁸³

Chalala, Elie; "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". p. 74.²⁸⁴

الاتفاقية، وإعطائها الشرعية التي كانت تفتقدها.²⁸⁵ فعملت إسرائيل على الاستفادة من هذا المناخ واستغلته في عملية اجتياح جنوب لبنان في شهر آذار/مارس/ من العام 1978، لتعمل على إنشاء شريط حدودي ضمن الأراضي اللبنانية.

الاجتياح الإسرائيلي للبنان

كان لانتخاب رونالد ريغن رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية في العام 1981، أثر كبير على مستوى العلاقات السياسية الدولية، وذلك بسبب نزعته في زيادة التصعيد ضد الاتحاد السوفياتي في جميع أنحاء العالم، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط. الأمر الذي استغلته إسرائيل ووجدت فيه فرصة سانحة لرفع مستوى تصعيد الصراع في منطقة الشرق الأوسط، من أجل فرض وقائع تناسب مصالحها ضد خصومها وفي مقدمتهم سوريا. هذا الأمر جعل الأسد ينتزع دعماً أكثر وأكبر من الاتحاد السوفياتي، من خلال التوقيع مع موسكو على اتفاقية صداقة، وموجبها أصبحت دمشق تحت حماية الاتحاد السوفياتي.²⁸⁶ الذي كان مشغولاً بأزمته في بولندا وأفغانستان، الأمر الذي حال دون تقديم الدعم الكافي إلى دمشق.²⁸⁷ ووسط هذه التغيرات، تم إجراء تعديل حكومي في تل أبيب، أسفر عن تسلم أرييل شارون لوزارة الدفاع، مما عُد إشارة لأزمات متفجرة في منطقة الشرق الأوسط.²⁸⁸

سعت إسرائيل إلى دفع عملية التطبيع من جديد، وذلك من خلال جعل دولة عربية توقع على اتفاقية سلام أخرى، بغية عزل سوريا.²⁸⁹ وقد تلقت إسرائيل كل الدعم المطلوب لتحقيق ذلك من

²⁸⁵ Ma'oz, Moshe and Yaniv, Evner; "On a Short Leash, Syria and the PLO". Dans Maoz Moshe and Yaniv Evner eds; "Syria Under Assad, Domestic Constraints and Regional Risks", Groom Helm, London, 1ere edition 1986, p. 201.

²⁸⁶ Karsh, Efram; "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 55.

²⁸⁷ Bulloch, John; "Final Conflict, the War in Lebanon. Century", publishing Co. limited, 1983, p. 84.

²⁸⁸ جوناثان راندل، حرب الالف عام في لبنان، ترجمة فندي الشعار، دار المروج، 1984 ص. 243..

²⁸⁹ Elezzi Ghassan ; "De la Paix en Galilée à la Relance de la Guerre Civile, Quand l'Armée Israélienne "sauvait" le Liban". Le Monde Diplomatique, juin 1992, p 23

واشنطن.²⁹⁰ وسط خشية القادة الإسرائيليين من تزايد النقمة الفلسطينية عليهم في الأراضي المحتلة، حيث كانوا متخوفين من اندلاع فتيل انتفاضة في وجههم، ولذلك ظنوا أنهم إذا عملوا على ضرب "منظمة التحرير" المتمركزة في لبنان، فإنهم بذلك سيتمكنون من وأدها في الأراضي الفلسطينية المحتلة.²⁹¹ لذا عمل بشير الجميل قائد القوات اللبنانية على تشجيع الإسرائيليين لاجتياح لبنان، في مقابل وعده لهم بتوقيع اتفاقية سلام معهم، بعد أن يتم انتخابه رئيساً للجمهورية اللبنانية، الأمر الذي سيدفع دولاً عربية أخرى لتخطو نفس الخطوة مع إسرائيل، وبذلك يتم عزل سوريا.²⁹²

اجتاحت إسرائيل لبنان في 6 حزيران/ يونيو من العام 1982، وذلك من محاور عدة في منطقة الجنوب اللبناني، وسط انسحاب سريع للقوات التابعة لـ "منظمة التحرير الفلسطينية". وفي اليوم التاسع من حزيران قام الجيش الإسرائيلي بضرب مواقع سوريا متمركزة ضمن الأراضي اللبنانية في مناطق: عاليه والبقاع والشوف. وسط دفاع القوات السورية والتصدي للهجوم الإسرائيلي في ظل الغطاء الجوي من قبل سلاح الطيران الإسرائيلي، الذي دمر 80 مقاتلة سوريا، بالإضافة إلى 25 بطارية دفاع جوي من طراز سام 6 كانت موجودة في منطقة البقاع. واستطاع فيليب حبيب الموفد الأميركي، من التوصل إلى اتفاق وذلك في منتصف آب/ أغسطس، يتم بموجبه انسحاب "منظمة التحرير الفلسطينية" من الأراضي اللبنانية. بعدها في شهر أيلول وتحديداً في 14 أيلول/سبتمبر، تم اغتيال بشير الجميل، حيث قام حبيب الشرتوني العضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي، بتفجير مقر حزب الكتائب ببشير ورفاقه، القائم في منطقة الاشرفية، وذلك بعد أسابيع عدة من انتخابه رئيساً للجمهورية اللبنانية، وباغتيال بشير الجميل تم إجهاد المشروع الصهيوني في لبنان. وعملت إسرائيل بعدها على دخول قواتها إلى بيروت، حيث قاموا مع حليفهم "حزب الكتائب" بارتكاب مجزرة "صبرا وشاتيلا" في 15 و16 و17 أيلول/سبتمبر. الأمر الذي أسفر عن زيادة المقاومة اللبنانية في وجه قوات الاحتلال، تُضاف إليها الخسائر التي مُنيت بها إسرائيل في الداخل نتيجة تزايد المعارضة في وجه مناحيم بيغن رئيس حكومتها.²⁹³ هذا وقد أدّت "مجزرة صبرا وشاتيلا" إلى

Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymound; "Syria and the Middle East Peace Process", p190.²⁹⁰

Jansen, Michael; "The Battle of Beirut, Why Israel invaded Lebanon?", London Zed Press, London, 1ère²⁹¹ edition 1982, p. 66

باتريك سيل، الأسد، ص 599.²⁹²

Jansen, Michael; "The Battle of Beirut, Why Israel invaded Lebanon?" p. 69.²⁹³

إقالة الكسندر هيغ وزير الدفاع الأمريكي من منصبه، حيث كان مؤيداً لاجتياح إسرائيل للبنان. وعملت كُُلُّ من إيطاليا وبريطانيا وفرنسا وواشنطن إلى إرسال قواتها إلى لبنان من أجل دعم ومساندة أمين الجميل الرئيس المنتخب بعد اغتيال أخيه بشير الجميل كرئيس للجمهورية اللبنانية. كما أعلن الرئيس الأمريكي ريغن عن مبادرة سلام في منطقة الشرق الأوسط من دون الرجوع إلى إسرائيل والتشاور معها، الأمر الذي أثار غضب مناحيم بيغن.²⁹⁴ وقد تضمنت مبادرة ريغن جعل لبنان تحت الحماية الأميركية المباشرة، مع توقيع لبنان اتفاقية سلام مع تل أبيب، على أن تقوم بعده كل من السعودية والأردن بالتوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل، الأمر الذي يضع حداً للنزاع العربي - الإسرائيلي وينهي، وبالتالي عزل سوريا، وطبعاً لصالح إسرائيل وواشنطن.²⁹⁵ ضمناً كان ياسر عرفات من المؤيدين لهذه الخطوة، حيث كان يرغب بتوقيع سلام مع تل أبيب.²⁹⁶ وفيما وافقت "منظمة التحرير الفلسطينية" والأردن على مبادرة ريغن، عارضتها كُُلُّ من دمشق و"الجبهة الشعبية - القيادة العامة" بزعامة أحمد جبريل، و"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" برئاسة جورج حبش، بالإضافة إلى بعض قيادات فتح التي قامت بالانشقاق عن ياسر عرفات، وأسست ما عرف بـ"فتح الانتفاضة" برئاسة العقيد أبو موسى. في البداية وافقت سوريا على مبادرة ريغن ولكن شرط مراعاة مصالحها،²⁹⁷ غير أن واشنطن اعتقدت أن سوريا أصبحت في موقف ضعيف، لذا لن تقوم بوضع العقبات أمامها في منطقة الشرق الأوسط.²⁹⁸

الصراع على لبنان

تقدمت دمشق بمبادرة بهدف مساومة واشنطن، حيث أبدت استعدادها لسحب قواتها المتمركزة في لبنان، مقابل انسحاب تل أبيب، فرفض الأميركيون.²⁹⁹ الأمر الذي جعل سوريا تعمل

²⁹⁴ شيمون شيفر، أسرار الغزو الإسرائيلي للبنان عملية كرة الثلج ص. 132.

²⁹⁵ Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymound: Syria and the Middle East Peace Process. p. 126.

²⁹⁶ Rabinovitch, Itamar. "The Changing Prism". dans Ma'oz Moshe and Yaniv, Evner: Syria Under Assad, Domestic Constraints and Regional Risks. Groom Helm, London, 1ere edition 1986, p. 187.

²⁹⁷ Bulloch, John. Final Conflict, the War in Lebanon. p. 151.

²⁹⁸ Karsh Efram. "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 74.

²⁹⁹ Chalala, Elie. "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". p. 84.

على استخدام كل الوسائل التي تقدر عليها للمواجهة، برغم العزلة الإقليمية المفروضة على دمشق، وخوفها من تزايد معارضة "جماعة الإخوان المسلمين" في الداخل السوري، بدعم من واشنطن والسعودية. في المقابل ستعمل سوريا على الاستفادة من مجموعة من التغييرات التي ستحول الوضع لصالحها، وذلك من خلال تحالفها وتعاونها مع بعض القوى اللبنانية وفي مقدمتها "حركة أمل"³⁰⁰، حيث كانت حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي غير راضية على الرضوخ للأمر الواقع الذي عملت تل أبيب على فرضه داخل لبنان بعد عملية الاجتياح في العام 1982، وهذا خلافاً لموقف القيادات السنية التقليدية التي قبلت بالتعاطي مع أمين الجميل رئيس الجمهورية اللبنانية بدعم من السعودية.³⁰¹ كما أن وصول يوري اندروبوف للسلطة رئيس جهاز الـ كي جي بي لسدة السلطة في الاتحاد السوفياتي، بعد وفاة ليونيد بريجنيف، فتح المجال لدفع السياسة السوفياتية قدماً في العالم، من أجل تعويض الخسائر التي مُنيت بها خلال الفترة الماضية، حيث كان اندروبوف يرغب في اتخاذ موقف معارض ومواجه للسياسة الأميركية في العالم، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط، وذلك من خلال تقديم كل الدعم المطلوب لسوريا وخاصة على المستوى السياسي والمستوى العسكري.³⁰² لذا عمل أندروبوف على وضع سوريا تحت حماية مظلة الاتحاد السوفياتي، وذلك من خلال أن تكون قيادتها، إضافة إلى منظومة دفاعها الجوي مرتبطة بشكل مباشرة بالقيادة العسكرية الموجودة في موسكو. هذا الأمر أدّى إلى تقوية ودعم الموقف السوري في مواجهته واشنطن وتل أبيب. وفي الوقت نفسه استطاعت سوريا من استغلال تأخر الولايات المتحدة في فرض إملائها على الساحة اللبنانية، من أجل العمل على إكمال كافة التجهيزات التي تحتاجها لتستطيع من دعم حلفائها ولتتمكن في ما بعد من تغيير الأوضاع لصالحها في العام 1983.³⁰³

استطاعت دمشق بالتعاون مع حلفائها في لبنان من تغيير المواقف وقلب موازين القوى على الساحة اللبنانية لصالحهم، وذلك في بداية عام 1983، من خلال إرسال السلاح إلى كل من وليد جنبلاط الموجود في الجبل، وكذلك الأمر إلى نبيه بري المتمركز في ضاحية بيروت الجنوبية فاندلعت حرب الجبل. كما اتهم الكثير سوريا وحلفاءها بأنهم وراء تفجير مقر المارينز الأميركي والمظليين الفرنسيين في خريف عام 1983، بالإضافة إلى دعم دمشق عمليات المقاومة الموجهة ضد إسرائيل، وكذلك دعمت المنشقين عن "حركة فتح" ضد ياسر عرفات، مما أدّى إلى عرقلة الجهود

Dickey, Christopher; "Assad and His Allies, Irreconcilable Differences". Foreign Affairs, vol. 66 automne ³⁰⁰ 1987, p. 166

Laurent, Annie & Basbous, Antoine ; "Guerres secrètes au Liban", Gallimard, Paris, 1987, p. 187.³⁰¹

³⁰² باتريك سيل، الأسد، ص. 651.

Karsh, Efram; "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 74.³⁰³

المبدولة من عرفات بشأن التفاوض غير المباشر مع واشنطن. وأدّى انتصار حلفاء دمشق في "معركة الشوف" وذلك في أواخر عام 1983، إلى بدء نهاية المشروع الإسرائيلي - الأميركي في لبنان.³⁰⁴ في وقت كانت تتزايد المعارضة الإسرائيلية ضد بيغن، مما جعله يفكر في اعتزال العمل السياسي، نتيجة للخسائر الكبيرة التي مُنيت بها القوات الإسرائيلية في لبنان.³⁰⁵ وكان انتصار حلفاء دمشق في معركة الجبل والشوف، نقطة البداية لفرض سيطرتهم على العاصمة بيروت، وذلك في السادس من شهر شباط عام 1986. وإثرها اضطرت القوات المتعددة الجنسيات إلى الانسحاب من لبنان، الأمر الذي جعل أمين الجميل وحيداً ومعزولاً، فاضطر مجبراً إلى الذهاب إلى دمشق، وقبول الشروط التي وضعها حافظ الأسد، وهي: إلغاء "معاهدة 17 أيار" التي وقعتا الحكومة اللبنانية مع الجانب الإسرائيلي، إبعاد شفيق وزان وعزله عن رئاسة الحكومة، مع العمل على تشكيل حكومة جديدة يرأسها رشيد كرامي حليف دمشق، وعضوية كلٍّ من نبيه بري ووليد جنبلاط حليفي سوريا.³⁰⁶

على المستوى العالمي شكل وصول ميخائيل غورباتشوف في عام 1985، إلى سدة الحكم في الاتحاد السوفياتي، نقطة البداية لقضية تضمنت مشاكل عرقية واقتصادية عدة، حيث أدّت محاولات غورباتشوف تفكيك الاتحاد السوفياتي إلى إضعاف المؤسسات، فزادت المشاكل الداخلية بالإضافة إلى المشكلات الخارجية، حيث عانى الاتحاد السوفياتي من مشاكل عدة تتعلق بالفساد والركود الاقتصادي، وخلل في ميزان الديمقراطية، ومشاكل بنيوية وعرقية، والتي أثّرت بشكل سلبي على سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية. فقد عانى الاتحاد السوفياتي من حالة جمود في السياسة الخارجية، منذ سبعينيات القرن الماضي. جعلته عاجزاً على حل أزمتي أفغانستان وبولونيا. أما في منطقة الشرق الأوسط ومنذ عام 1967، بدأ نفوذ الاتحاد السوفياتي بالتراجع. ومنذ "مؤتمر هلسنكي" عام 1975، ظهرت علامات تغييرات في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. وتمّ التأكيد من ذلك في باريس خلال عقد مؤتمر الأمن والتعاون في القارة الأوروبية، وذلك في العام 1985.³⁰⁷ على أثرها انسحب الاتحاد السوفياتي وغاب عن الساحة السياسية الدولية، كما اعتمد نتيجة مشاكله الاقتصادية على الولايات المتحدة الأميركية، مما أفسح المجال لواشنطن بالتقدم

³⁰⁴ Saliba, Najib; "Syrian Lebanese Relations". P 155.

³⁰⁵ Drysdale Alasdair et Hinnebusch Raymond: "Syria and the Middle East Process", p 127.

³⁰⁶ . Laurent Annie et Basbous Antoine : « Guerres Secrètes au Liban. », p.205.

³⁰⁷ يوسف الصايغ: "دلالات التحولات الجوهرية في مجموعة البلدان الاشتراكية الأوروبية بالنسبة إلى الوطن العربي وقضية فلسطين"، المستقبل العربي، عدد رقم 150، آب/أغسطس 1991، ص. 5.

وتصبح القوة العظمى، خاصة من دون وجود منافس لها، فاليابان وأوروبا اللتان تعدان قوى محتملة كانتا بعيدتين كثيراً عن تشكيل نِد عسكري وسياسي لواشنطن.³⁰⁸

وجود غورباتشوف في السلطة، صعب الوضع كثيراً على البلدان العربية الراديكالية (الأصولية)، من حيث طلب التعديل على مساعداتها العسكرية والسياسية والاقتصادية المقدّمة من الاتحاد السوفياتي السابق،³⁰⁹ مما أضعف موقفها وخصوصاً أمام إسرائيل. وسوريا كانت أكثر الدول تضرراً من جراء ذلك.³¹⁰ فقد قام غورباتشوف في شهر نيسان/أبريل من العام 1987، بإعلام الأسد أنه لن يستطيع تقديم الدعم له لتنفيذ خطته في تحقيق توازن استراتيجي مع تل أبيب، الأمر الذي أدّى إلى إيقاف كل هذه الخطط، التي كانت تعتمد على المساعدات العسكرية التي يقدمها الاتحاد السوفياتي إلى سوريا. في الوقت نفسه عمل غورباتشوف على نسج علاقات تعاون مع دول عربية وصفت بأنها معتدلة، مما أضعف الموقف السوري باعتبارها كانت الحليف الاستراتيجي للاتحاد السوفياتي، فانعكس هذا الأمر إيجاباً على الجانب الإسرائيلي الذي زادت قوته، والمدعوم من واشنطن، كما ارتفعت هجرة اليهود الروس.³¹¹ ظلّ الاتحاد السوفياتي أنه بشراكته لواشنطن سيحافظ على ما تبقى له من نفوذ ضمن منطقة الشرق الأوسط، خاصة من خلال العمل على زيادة الفرص المتعلقة بمفاوضات السلام.³¹²

إلا أن واشنطن كانت لها حسابات مغايرة عن الاتحاد السوفياتي، فعملت على استغلال الوضع لتعزيز فرض سيطرتها على منطقة الشرق الأوسط العائم على بحر من النفط،³¹³ وبنسبة تصل إلى حوالي 65% تقريباً من إجمالي الاحتياطي العالمي.³¹⁴ فقد كانت واشنطن تريد أن تكون هي المسيطرة على النفط، لتكون المورد الوحيد الذي يُزوّد أوروبا واليابان به، فيجعل موقفها بالتالي أفضل، لتتمكن من خلاله على الضغط على سياسات هذه الأخيرة.³¹⁵ غياب الاتحاد السوفياتي كقوة

Hermann, Richard, "Russian Policy in the Middle East: Strategic change and Tactical Considerations",³⁰⁸

Middle East Journal, vol.84, no.3, été 1994, p.454.

Atherton, Alfred Leroy, "The Shifting Sands of the Middle East Peace", *Foreign Policy*, no.83, spring³⁰⁹

1992, p.118.

Atherton, Alfred Leroy, "The Shifting Sands of the Middle East Peace", p.118.³¹⁰

Karawan, Ibrahim A.: "Arab Dilemmas in the 1990's: Breaking taboos and searching for signposts", p.435.³¹¹

Hanna, John P.: "At arms length Soviet Syrian relations in the Gorbachev era". p.5.³¹²

³¹³ ريتشارد نيكسون، " 1999 نصر بلا حرب". يعطي هذا الكتاب فكرة جيدة عن أهمية النفط في العلاقات الدولية خصوصاً بعد نهاية الحرب الباردة لا سيما أن الولايات المتحدة كانت تنتظر منافسين جُدداً كروسيا وأوروبا واليابان والصين.

³¹⁴ محمد زكريا إسماعيل: "النظام الدولي الجديد بين الوهم والخديعة"، ص. 15.

³¹⁵ سمير أمين: "بعد حرب الخليج، الهيمنة الأميركية إلى أين؟"، المستقبل العربي، رقم 170، نيسان/أبريل 1993، ص. 15.

عالمية تقف في وجه الأميركيين كان له الأثر السلبي على العرب. وهذا ما دفع صدام حسين إلى القول في "قمة عمان" في 24 شهر شباط/فبراير، بأن انتهاء الحرب الباردة كان كارثياً على العرب، لأنها أعطت الحرية الكاملة للأميركيين للتحرك وبسط هيمنتهم على منطقة الشرق الأوسط.³¹⁶ وهذا الأمر أقلق الأسد كثيراً، وذلك بسبب التحوّلات الكبيرة التي حدثت على ساحة الاتحاد السوفياتي، مما أصاب ميزان توازن القوى بالخلل لصالح تل أبيب. وبات الأسد مقتنعاً أن واشنطن ستفرض هيمنتها على العالم خلال السنوات العشر المقبلة.³¹⁷ الأمر الذي اضطره إلى العمل على تحسين علاقته بالولايات المتحدة الأميركية، وإلى الابتعاد عن معارضة سياستها في منطقة الشرق الأوسط.³¹⁸ التي أصبحت هي المتحكمة فيه فقد أصبح لها كامل الحرية في الحركة ضمن منطقة الشرق الأوسط وذلك بعد عام 1985. فقد شكل نفط منطقة الشرق الأوسط ضرورة حتمية للدول الصناعية، خصوصاً لليابان التي كانت تستورد حوالي 70% من احتياجاتها النفطية من منطقة الشرق الأوسط، كذلك الأمر لفرنسا 32% وإيطاليا 35%.³¹⁹ حتى أن واشنطن في العام 1990، كانت تستورد حوالي 50% من احتياجاتها النفطية من منطقة الشرق الأوسط.³²⁰ وفي الحقيقة، عرفت واشنطن أهمية النفط في منطقة شبه الجزيرة العربية، خصوصاً في الفترة الواقعة بين عامي 1942 - 1943، خلال عهد روزفلت، خاصة بعدما تبين لها أن الموارد النفطية ضمن القارة الأميركية وكأنها في طور النفاد. في المقابل شكل نفط منطقة الشرق الأوسط مصدر الطاقة البديل لها.³²¹ لذلك عملت الولايات المتحدة ومن ذلك الوقت على بسط هيمنتها على منطقتي الخليج والشرق الأوسط، وكان هذا الغرض هو أساس سياستها الشرق أوسطية.

³¹⁶ Rodman, Peter: "Middle East Policy after the Gulf War", Foreign Affairs, vol.70, printemps 1991, p.223.

³¹⁷ Fuller, Graham E.: "Moscow and the Gulf War", Foreign Affairs, vol.70, été 1991, p.65.

³¹⁸ Karawan, Ibrahim A.: "Arab Dilemmas in the 1990's: Breaking taboos and searching for signposts", p.434.

³¹⁹ محمد زكريا إسماعيل، "النظام الدولي الجديد بين الوهم والخيبة"، ص. 9.

³²⁰ Raich, Bernard "The United States in the Middle East", Current History, janvier 1991, p.7.

³²¹ Laurens, Henry: Pourquoi Ryad préfère le parapluie américain? , Le Monde Diplomatique août 1992, p.8.

مؤتمر السلام

في العام 1985، عاد الحديث مجدداً عن مؤتمر سلام لمنطقة الشرق الأوسط، وذلك نتيجة جولة دبلوماسية قام بها جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي، والتي جاءت في الوقت نفسه الذي تسلم فيه ميخائيل غورباتشوف للسلطة في الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أعطى إشارة بتراجع دور الاتحاد السوفياتي، وبالتالي انهيار وتفكك كتلة الدول الاشتراكية، التي كانت تابعة له وذلك في العام 1989، والانهيار الذي أصاب الاتحاد السوفياتي في العام 1991. وقد استطاع شولتز إحراز نجاح كبير أثناء جولته هذه، وذلك حين تمكّن من انتزاع وثيقة موقعة من ياسر عرفات الذي أدان الإرهاب، وهذا عدّ كمؤشر لاستعداده بترك الكفاح المسلح، بالإضافة إلى قبوله بالحلول السلمية وبالشروط التي وضعتها واشنطن وإسرائيل. وهذا الأمر أثار استياء الأسد، وكان عاملاً من عوامل حرب المخيمات التي اندلعت في لبنان. وبعدها بفترة قليلة، عقدت مفاوضات سرية جمعت كلاً من ممثلين عن "منظمة التحرير الفلسطينية" من ناحية، وممثلين عن الحكومة الإسرائيلية برئاسة إسحق شامير من ناحية أخرى، حيث اعترف شامير بحق الفلسطينيين تقرير مصيرهم.³²² وهنا نذكر الاجتماعات السرية التي ترجع بدايتها إلى سبعينيات القرن الماضي بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، من أجل الوصول إلى حل القضية الفلسطينية، ولكن بما يضمن مصالح الإسرائيليين أولاً.³²³ فقد كان ياسر عرفات قابلاً للتنازل مقابل الوصول إلى حل سلمي، ومن أجل ذلك توجه بعد العام 1982، إلى اليمن ثم تونس ليكون بعيداً عن سيطرة السوري عليه وبالتالي حراً في الوصول إلى الذي يبغيه مع كل من الجانبين الإسرائيلي والأميركي. ومن أجل أن يسبب حرجاً للسوريين، عمل على أخذ جزء من الورقة اللبنانية من خلال تقديم التمويل والمساعدة لبعض الأحزاب والفصائل اللبنانية، الأمر الذي شكل دافعاً لسوريا إلى دفع "حركة أمل" أن تفرض حصاراً على المخيمات الفلسطينية، وشنّ حرب عليها، دامت تقريباً حوالي سنتين. بعدها تمّ عقد مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني، وذلك في نيسان/أبريل من العام 1988، أعلن فيه عرفات قيام "دولة فلسطين"، ولكن هذا الإعلان كان واجهة تخفي خلفها المفاوضات السرية التي كانت تجري بين الإسرائيليين وممثلين عنه. وقد كانت دمشق على علم بها، مما جعل الأسد في خطابه الذي ألقاه في 8 آذار من العام

³²² راجع محمود عباس

³²³ محمد حسنين هيكل، "سلام الأوهام: أوسلو ما قبلها وما بعدها"، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1996، ص.ص. 62-63.

1989، إلى القول إن دمشق رفضت اتفاق كامب ديفيد، وأنها سترفض وتعارض أي اتفاقية شبيهة له بين تل أبيب وأي دولة عربية أخرى.

كما أشار الرئيس الأسد أيضاً إلى تعديل ميثاق "منظمة التحرير الفلسطينية" الذي تمّ في دولة الجزائر، وأنه يكفي فقط بالمطالبة بالأراضي التي كانت إسرائيل قد احتلتها عام 1967، في الوقت نفسه ترفض تل أبيب أن تغيّر طلبها بإقامة دولة إسرائيل التي تمتدّ من النيل غرباً إلى الفرات شرقاً، وذلك بذريعة أنّ هذا الاتفاق تم إرساله لهم، لكونهم الشعب المختار. وحذّر الأسد أيضاً رفضه للتنازل عن الحقوق العربية المحقة، مشيراً في الوقت نفسه إلى اللقاءات والاجتماعات السريّة التي تمّت بين منظمة التحرير الفلسطينية والأردن من ناحية، والأميركيين من ناحية أخرى، من أجل العمل على عقد مؤتمرٍ للسلام في منطقة الشرق الأوسط.³²⁴

ورداً على كلام الأسد، دفعت واشنطن العماد ميشال عون، الذي كان يتّأس حكومة عسكرية في لبنان، إلى شنّ حرب ضد القوات السورية المتمركزة في لبنان. ولم تتوقف "حرب التحرير" هذه إلا بعد أن وافقت سوريا على مقرّرات "قمة الدار البيضاء" وذلك في العام 1989، والتي وافقت على كل ما قامت به "منظمة التحرير الفلسطينية" من خطوات ماضية ولاحقة من أجل التوصل إلى سلام مع تل أبيب. في المقابل كان على الجميع انتظار انتهاء الحرب الباردة، وذلك في عام 1989، وما تلاها من ضرب العراق في بداية العام 1991، قبل أن يشاركوا بمؤتمر السلام الذي تم عقده برعاية أميركية - روسية، في الوقت نفسه الذي انهار فيه الاتحاد السوفياتي في العام 1991، والذي أسفر عن جعل روسيا تحت السيطرة الأميركية لعقد من الزمن.

وبعد نهاية حرب العراق، كثفت واشنطن جهودها لعقد مؤتمر سلام. وتمكن جيمس بايكر وزير الخارجية الأميركي من إقناع حكومة شامير الإسرائيلية بالموافقة على مبدأ الأرض مقابل السلام، ومع وجود وفد فلسطيني داخل الوفد الأردني، وسط حضور مراقبين من "منظمة الأمم المتحدة" إلى "مؤتمر السلام"، إلا أن تل أبيب لم توافق على الطلب الأخير، إلا إذا كان الفلسطينيون من سكان قطاع غزة أو مدينة الضفة الغربية، وليسوا من مدينة القدس، وذلك في ظل وجود ضمانات أميركية لإسرائيل، بأن لا يكون للأمم المتحدة أي دور في المفاوضات.³²⁵ وبناء على ذلك تم عقد "مؤتمر مدريد" بعد أن سحبت واشنطن المبادرة من البلدان العربية وفوزها في الحرب الباردة.³²⁶

³²⁴ مراجعة حافظ الأسد في صحيفة السفير اللبنانية في 1 نيسان/أبريل 1989

³²⁵ Claude, Julien, *Amère victoire*, Le Monde Diplomatique, août 1992. p.1

³²⁶ غسان سلامة، "العرب، إسرائيل، أميركا والمفاوضات"، المستقبل العربي، العدد 172، حزيران/يونيو 1993، ص.ص. 9-10

الذي اضطر الأسد بالموافقة على شروط واشنطن كي لا يصطدم معها. معتمداً ومراهنًا في الوقت نفسه على الجانب الإسرائيلي وموقفه المتشدد بهذا الخصوص لعرقلة مؤتمر السلام، الذي سيتم انعقاده وسط ظروف غير مرضية ومناسبة لدمشق من جهة وللعرب من جهة أخرى.³²⁷

على الجهة المقابلة، أدرك الرئيس بوش أن قيام السلام في منطقة الشرق الأوسط دون دمشق هو أمر غير ممكن أبداً ومستحيل.³²⁸ لكن في الوقت نفسه، عرف الرئيس الأسد انه وسط هذه الظروف الصعبة، لم يكن أمامه أي خيار، سوى الموافقة والقبول بالتعهدات التي تقدّم بها الرئيس بوش لحل النزاع العربي الإسرائيلي وذلك وفق مبدأ "الأرض مقابل السلام"، بناء للقرارين الدوليين 242 و338.³²⁹

دستور العام 1973

في العام 1973 تم إصدار دستور جديد لسوريا كان بدأ الإعداد له منذ العام 1971 تاريخ انتخاب حافظ الأسد رئيساً للجمهورية العربية السورية. وأهم ما جاء في هذا الدستور هو الهوية العربية لسوريا ونضال السوريين والعرب ضد الاستعمار واعتبار ما تحقق في سوريا تتويجاً لهذا النضال. كما نصّ الدستور على أن حزب البعث هو القائد للدولة والمجتمع، معتبراً أن "حزب البعث العربي الاشتراكي أول حركة في الوطن العربي أعطت الوحدة العربية محتواها الثوري الصحيح، وربطت بين النضال القومي والنضال الاشتراكي، ومثلت إرادة الأمة العربية وتطلعاتها نحو مستقبل يربطها بماضيها المجيد، ويؤهلها للقيام بدورها في انتصار قضية الحرية لكل الشعوب".

ومن أهم مواد الدستور أن:

المادة الأولى: الجمهورية العربية السورية دولة ديمقراطية شعبية واشتراكية ذات سيادة لا يجوز التنازل عن أي جزء من أراضيها، وهي عضو في دولة اتحاد الجمهوريات العربية. القطر العربي السوري جزء من الوطن العربي. الشعب في القطر العربي السوري جزء من الأمة العربية يعمل ويناضل لتحقيق وحدتها الشاملة.

المادة الثانية: السيادة للشعب ويمارسها على الوجه المبين في الدستور.

³²⁷ Claude, Julien, *Amère victoire*, Le Monde Diplomatique, août 1992. p.1.

³²⁸ Seale Patrick, "Israel and Syria; Contradictory aims", Middle East International. Nov. 1996. p. 16

³²⁹ جواد الشيتي، "الأسد يقبل وعد بوش، فلسطين الثورة"، العدد 855، في 1991/8/4، ص. 17

المادة الثالثة: دين رئيس الجمهورية الإسلام.

المادة الحادية عشرة: القوات المسلحة ومنظمات الدفاع الأخرى مسؤولة عن سلامة أرض الوطن وحماية أهداف الثورة في الوحدة والحرية والاشتراكية.

المادة الثالثة عشرة: الاقتصاد في الدولة اقتصاد اشتراكي مخطط يهدف إلى القضاء على جميع أشكال الاستغلال.

المادة الحادية والعشرون: يهدف نظام التعليم والثقافة إلى إنشاء جيل عربي قومي اشتراكي علمي التفكير، مرتبط بتاريخه وأرضه، معتز بتراثه مشبع بروح النضال من أجل تحقيق أهداف أمته في الوحدة والحرية والاشتراكية والإسهام في خدمة الإنسانية وتقدمها.

المادة السادسة والعشرون: لكل مواطن حق الإسهام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وينظم القانون ذلك.

المادة السابعة والعشرون: يمارس المواطنون حقوقهم ويتمتعون بحرياتهم وفقاً للقانون.

المادة الثامنة والثلاثون: لكل مواطن الحق في أن يُعرب عن رأيه بحرية وعلنية بالقول والكتابة وكافة وسائل التعبير الأخرى، وأن يساهم في الرقابة والنقد البناء بما يضمن سلامة البناء الوطني والقومي، ويدعم النظام الاشتراكي، وتكفل الدولة حرية الصحافة والطباعة والنشر وفقاً للقانون.

المادة الثالثة والخمسون: يحدد القانون الدوائر الانتخابية وعدد أعضاء مجلس الشعب، على أن يكون نصفهم على الأقل من العمال والفلاحين، ويبين القانون تعريف العامل والفلاح.

المادة الثالثة والثمانون: يشترط في من يرشح لرئاسة الجمهورية أن يكون عربياً سورياً متمتعاً بحقوقه المدنية والسياسية متمماً الأربعين عاماً من عمره.

المادة الرابعة والثمانون: يصدر الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية عن مجلس الشعب، بناء على اقتراح القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، ويعرض الترشيح على المواطنين لاستفتائهم فيه.

المادة الخامسة والثمانون: ينتخب رئيس الجمهورية لمدة سبعة أعوام ميلادية تبدأ من تاريخ انتهاء ولاية الرئيس القائم.

المادة الحادية والتسعون: لا يكون رئيس الجمهورية مسؤولاً عن الأعمال التي يقوم بها في مباشرة مهامه إلا في حالة الخيانة العظمى، ويكون طلب اتهامه بناء على اقتراح من ثلث أعضاء مجلس الشعب على الأقل، وقرار من مجلس الشعب بتصويت علني وبأغلبية ثلثي أعضاء المجلس بجلسة خاصة سرية، ولا تجري محاكمته إلا أمام المحكمة الدستورية العليا.

المادة الثالثة والتسعون: يسهر رئيس الجمهورية على احترام الدستور، وهو يضمن السير المنتظم للسلطات العامة وبقاء الدولة.

المادة المائة: يعلن رئيس الجمهورية الحرب والتعبئة العامة ويعقد الصلح بعد موافقة مجلس الشعب.

المادة مائة وواحد: يعلن رئيس الجمهورية حالة الطوارئ ويلغيها على الوجه المبين في القانون. المادة مائة وثلاثة: رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة، ويُصدر جميع القرارات والأوامر اللازمة لممارسة هذه السلطة، وله حق التفويض ببعض هذه السلطات.

المادة مائة وسبعة: لرئيس الجمهورية أن يحلّ مجلس الشعب بقرار معلّل يصدر عنه، وتجري الانتخابات خلال تسعين يوماً من تاريخ الحل.

المادة مائة وعشرة: لرئيس الجمهورية أن يُعدّ مشاريع القوانين ويُحيلها إلى مجلس الشعب للنظر في إقرارها.

المادة المائة والتاسعة والثلاثون: تؤلف المحكمة الدستورية العليا من خمسة أعضاء يكون أحدهم رئيساً يسميهم رئيس الجمهورية بنفسه.

المادة المائة والثالثة والخمسون: تبقى التشريعات النافذة والصادرة قبل إعلان هذا الدستور سارية المفعول إلى أن تُعدّل بما يوافق أحكامه.³³⁰

³³⁰ راجع نص الدستور السوري لعام 1973 على موقع المركز الوطني للأبحاث
ncro.sy/wp-content/uploads/2016/04/19731.pdf

الفصل الثاني

لبنان 1970 – 1991

في سبعينيات القرن الماضي، حدثت تحولات كبرى على المستويين الإقليمي والدولي، الأمر الذي انعكس سلباً على الاستقرار السياسي في لبنان. كما عملت واشنطن ومن عام 1965، على تقديم كل الدعم للانقلابات العسكرية التي شهدتها الدول الاشتراكية، بغية تغيير الأنظمة فيها، فدعمت الانقلاب ضد أحمد بن بلة في دولة الجزائر، وفي اندونيسيا دعمت الانقلاب ضد أحمد سوكارنو في العام 1966،³³¹ وكذلك في مصر حيث دعمت محاولة انقلاب قامت ضد الرئيس جمال عبد الناصر وذلك في العام 1965،³³² بعدها أتت الضربة العسكرية على يد تل أبيب ضد مصر التي خسرت الحرب وذلك في العام 1967، وأيضاً دعمت واشنطن الانقلاب ضد سيكوتوري وموديبوكيتا... وغيرهم من قادة دول العالم الثالث. تزامن ذلك اختيار القيادة في الاتحاد السوفياتي التي خلفت خروتشيف في العام 1965، لخيار الانكفاء وراء الستار الحديدي الذي أنشأته بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي أصاب ميزان القوى العالمية بالخلل على الصعيدين الإقليمي والدولي لصالح واشنطن وحلفائها، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط، بعد أن خسرت سوريا ومصر حرب حزيران 1967 أمام إسرائيل. في الوقت نفسه، أدّى النزوح الكثيف من الريف اللبناني إلى المدن، إلى تشكيل أحياء مليئة بالبؤس والفقر طوقاً يُحيط بالمدن اللبنانية وفي مقدّمتها العاصمة بيروت، حيث كان الفقراء يتنافسون في ما بينهم من أجل الحصول على فرصة عمل ضمن سوق تجارية ضيقة، وذلك بسبب ضعف الصناعة اللبنانية. بالإضافة إلى تشكيل المخيمات الفلسطينية، إلى نقطة تجمع فيها أبناء الريف اللبناني الذين نزحوا إليها، فاختلطوا مع الفلسطينيين وتزاوجوا معهم، فكونوا نسيج فقر واحد معاً. حيث عملوا بعدها إلى العمل من أجل الحصول على حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي ساهم في انتشار الأحزاب القومية واليسارية، مما شكل خطراً على أركان الاستقطاب الطائفي، الأمر الذي هدّد أساس النظام الطائفي الموجود في لبنان. تزامن مع ذلك صعود برجوازية جديدة خالطت البرجوازية اللبنانية التي كان معظمها من الطائفة

Deidre Griswold, Indonesia the Seconde Greatest Crime in History, Workers.org ³³¹

Steven Cook, The Struggle for Egypt: From Nasser to Tahrir Square, Oxford: Oxford University Press, ³³²

p. 90. 2012,

المسيحية، وهذه البرجوازية الجديدة كانت ذات طابع سني وشيعي، والتي نتجت بسبب الطفرة النفطية في منطقة الخليج، وكذلك الاغتراب اللبناني في مناطق أفريقيا. وعملت هذه الفئات البرجوازية إلى تقديم كل الدعم المطلوب إلى الأحزاب الطائفية، مثل: "حركة أمل" و"حزب الكتائب"، وذلك من أجل الوقوف في وجه الأحزاب اليسارية والقومية التي اجتمعت تحت مسمى "الحركة الوطنية" بقيادة كمال جنبلاط الزعيم الدرزي، حيث كان تُعدّ منزلته متدنية ضمن تسلسل تراتبيات الزعامات الطائفية في لبنان، وقد حاول كمال جنبلاط أن يعزز مكانته من خلال قيادته للأحزاب اليسارية.³³³

في ذلك الوقت كان العرب ما زالوا تحت تأثير صدمة خسارة حرب حزيران العام 1967، والتي استطاعت تل أبيب بنتيجتها فرض سيطرتها واحتلال المزيد من الأراضي العربية غزة والضفة الغربية، وسيناء وهضبة الجولان السوري. ومن نتائج حرب حزيران ظهور الكفاح المسلح الفلسطيني، كما تم انتخاب زعيم "حركة فتح" ياسر عرفات رئيساً للجنة التنفيذية لـ"منظمة التحرير الفلسطينية" وذلك في العام 1969. وقد أدّى اتخاذ "منظمة التحرير الفلسطينية" من الساحة اللبنانية نقطة انطلاق لعملياتها الفدائية ضد المحتل الصهيوني، إلى تزايد نسبة الضغوط على النظام اللبناني الضعيف أصلاً، والذي أدّى بطبيعة الحال إلى تفجّره لاحقاً. بالإضافة إلى التراجع الاقتصادي، الذي كان سبباً في ظهور حركات احتجاجية اجتماعية، وعمّت التظاهرات العمالية الشوارع وذلك بين الفترة من 1970 و1975، في الوقت نفسه التي كانت "منظمة التحرير الفلسطينية" نقلت مركزها إلى بيروت، وذلك بعد أحداث "أيلول الأسود" في الجمهورية الأردنية الهاشمية، حيث حدثت مواجهة بين الفلسطينيين من جهة، والجيش الأردني من جهة أخرى، انتهت بتطويق الجيش الأردني لهم وانتصاره عليهم، ثم طردهم من الأردن وذلك في العام 1970.³³⁴

تحولات الستينات والسبعينات

كما كانت فترة السبعينات مرحلة تكوّن النخب الاقتصادية التي فرضت هيمنتها على لبنان. فخلال فترة القرن التاسع عشر، كانت هناك عائلات هي في حقيقة الأمر تجمّع من "كتلة عليا من عائلات" يحوي أمراء الحرب، وأصحاب الأعمال والتجار، الذين هيمنوا على المصالح الخاصة،³³⁵ حيث جمع

³³³ إغور تيموفيف، كمال جنبلاط، الرجل والأسطورة، بيروت: دار النهار للنشر، 2001، ص. 97.

³³⁴ Kamal Salibi, Crossroads to Civil War,

³³⁵ كمال ديب، أمراء الحرب وتجار الهيكل: خبايا رجال السلطة والمال في لبنان، بيروت: الفارابي، 2017، ص. 28.

التحالف هذا العائلات الماركنتالية التي تركزت في منطقة الساحل، كما تركزت الزعامات الإقطاعية في منطقة جبل لبنان. حيث تلاقى المحوران اقتصادياً في مدينة بيروت التي أعطت الأولوية لتعزيز المصالح التجارية فيها، وذلك على حساب الريف الذي كان يعاني من أزمات عدة، والتي أدت في ما بعد إلى تفجر الوضع في جبل لبنان وبعدها دولة لبنان الكبير ثم الجمهورية اللبنانية.³³⁶ كما تم تعزيز هذه الطبقة التجارية ودورها في فترة الانتداب الفرنسي بين عامي 1920 و1943،³³⁷ والتي كانت غالبها من الكاثوليك والروم الأورثوذكس، بالإضافة إلى عدد قليل من العائلات البرجوازية من الطائفة السنية والمارونية. والتي ارتبطت بغالبية مصالحها مع الرأسمال الفرنسي وذلك منذ القرن التاسع عشر.³³⁸ وما لبث أن تبدل الحال بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ربطت هذه الطبقة البورجوازية الماركنتالية علاقاتها التجارية مع الرأسمال البريطاني، وبعدها ربطته بالأميري، خاصة في فترة الستينيات من القرن الماضي، ثم لاحقاً.

وفي فترة الخمسينيات من القرن الماضي، تطعّمت هذه الطبقة الماركنتالية بصعود طبقة من الأغنياء الجدد، الذين ارتبطوا بالبرودولار - الخليجي، الذي سيلقي ازدهاراً كبيراً، إثر الطفرة النفطية في منطقة الخليج العربي، مثل: الكويت والسعودية والإمارات وقطر والبحرين. وخير مثال على ذلك، هو يوسف بيدس الذي يُعد أبرز شخصيات هذه الطبقة من الأغنياء الجدد، والتي ارتبط صعودها وظهورها بالبرودولار- الخليجي، حيث استطاع تأسيس إمبراطورية مالية كبرى هي "انترا"، أصبحت في ما بعد أكبر كارتل مالي في منطقة الشرق الأوسط، خلال فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. واستطاع بيدس بكفاءته من أن يخترق نادي النخب اللبنانية، التي تحالفت ضده لتنهيار وتسقط إمبراطوريته 1966.³³⁹ وذلك بدعم من واشنطن التي كانت تخشى من أن يقوم بيدس بتأييد ودعم المقاومة الفلسطينية وجمال عبدالناصر. وعدّت مؤامرة إفلاس إمبراطورية بيدس وانهارها، ضربة أميركية في وجه المشروع القومي العربي بزعامة جمال عبد الناصر.³⁴⁰ كما ظهرت خلال فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، فئة برجوازية من الطائفة الشيعية جمعت ثروتها من أفريقيا، حيث وجدت في الإمام موسى الصدر ودعوته، ملاذاً وسنداً لها بالإضافة إلى كونه الممثل السياسي لتطلعاتها ضد الإقطاع الشيعي التقليدي الذي كان يتزعمه آل الأسعد. وقد أدّى هذا الأمر في ما بعد إلى تصدّع أصاب نادي النخب الماركنتالية، وإلى تعدّد ولاءاتها وتوزعها

³³⁶ المرجع نفسه، ص. 30

³³⁷ المرجع نفسه، ص.ص. 112 - 114.

³³⁸ المرجع نفسه، ص.ص. 121.

³³⁹ كمال ديب، يوسف بيدس: إمبراطورية انترا وحيثان المال في لبنان 1949 - 1968، بيروت: المكتبة الشرقية، 2017، ص. 53.

³⁴⁰ راجع كمال ديب، يوسف بيدس إمبراطورية انترا وحيثان المال، بيروت: المكتبة الشرقية، 2017.

على القوى الإقليمية والعالمية، مما سيساهم في زيادة تنافسها في ما بينها، من أجل تمكين وتعزيز هيمنتها في لبنان، وبالتالي تدعيم مواقف القوى الكبرى التابعة لها.

الحراك الاجتماعي والسياسي

كانت الانتخابات اللبنانية التي تم إجراؤها في العام 1972، خير دليل على التصدع الذي أصاب بنية النظام الطائفي اللبناني، وذلك لصالح الطبقات الوسطى والفقيرة التي استطاعت أن تخترقه وإن كان بنسب قليلة، لكنها ذات أهمية وإشارات كبرى في المجلس النيابي اللبناني، والذي يُعدّ حكرًا على النخب اللبنانية فقط. ففي مدينة طرابلس تمكن الدكتور عبد المجيد الرفاعي من الفوز، وهو ممثل حزب البعث العراقي في لبنان، حيث حجز لنفسه مقعداً نيابياً خارقاً بذلك قائمة رشيد كرامي الزعيم الطرابلسي ورئيس الحكومة السابق، ومتفوقاً عليه في نسبة عدد الأصوات.³⁴¹ أما في صور فقد فاز الدكتور علي الخليل، فيما سجل الاختراق الأبرز والأهم الذي حصل في مدينة بيروت، حيث فاز وللمرة الأولى فقير من أبناء الريف، وهو نجاح واكيم الذي حجز مقعداً نيابياً، خارقاً بذلك قائمة صائب سلام رئيس الحكومة، ومتفوقاً عليه بنسبة عدد الأصوات، فقد حصد ضعف الأصوات التي انتخبت سلام. ونشير هنا، إلى أن نجاح واكيم ينحدر من عائلة فقيرة من قرية البربرة التابعة لقضاء جبيل، حيث كان والده يعمل أستاذاً ثانوياً، كما درس في مدرسة الجامعة الوطنية في منطقة عاليه،³⁴² بالإضافة إلى ذلك كان هناك اختراق أيضاً في صيدا حققه النائب معروف سعد، وذلك منذ الخمسينيات من القرن الماضي، حيث خسر في الانتخابات التي أجريت في العام 1972.³⁴³

في الوقت نفسه بدأت القوى العلمانية واليسارية تتحالف ضمن ما سيعرف بـ"الحركة الوطنية"، بقيادة كمال جنبلاط الزعيم الدرزي، الذي كان يصرّح بأنه يريد الخروج من عباءة عائلته الإقطاعية والطائفية. حيث تكوّنت الحركة الوطنية من: "الحزب التقدمي الاشتراكي" بقيادة جنبلاط، و"الحزب الشيوعي اللبناني" الذي تمّ تأسيسه في العام 1924، و"منظمة العمل الشيوعي" بقيادة محسن

³⁴¹ الانتخابات النيابية في طرابلس 1972، البيان 19 - 1 - 2018.

<http://www.albayanlebanon.com/news.php?id=4951&idC=10>

³⁴² السي أبي عاصي، نجاح واكيم، برنامج زيارة خاصة، قناة الجزيرة، 8 تشرين الأول أكتوبر 2011.

³⁴³ بوابة صيدا - الشهيد معروف سعد: سيرة مناضل حتى الشهادة، موقع صيدا غيت،

<http://www.saidagate.net/Show-4683>

إبراهيم، و"الحزب السوري القومي الاجتماعي - جناح انعام رعد، و"حزب البعث العربي الاشتراكي" بفرعيه السوري والعراقي، و"حركة الناصريين المستقلين المرابطون" بقيادة إبراهيم قليلات، و"التنظيم الشعبي الناصري" بقيادة النائب معروف سعد، و"الحزب الديمقراطي الشعبي" بقيادة نزيه حمزة، بالإضافة إلى مجموعات من الأحزاب التنظيمات والتشكيلات الأخرى ذات التوجّه اليساري والعلماني. وبعد فترة وجيزة من اندلاع قتل الحرب الأهلية اللبنانية، تضمّن نص برنامج الحركة الوطنية على: "إلغاء الطائفية السياسية كمرحلة نحو الوصول إلى العلمنة الكاملة للنظام السياسي، وإزالة كل أثر للصبغة الطائفية في جميع مجالات الحياة اللبنانية، ونقطة البداية تتمثل في إلغاء الطائفية السياسية في مجال التمثيل الشعبي وفي الإدارة والقضاء والجيش".³⁴⁴ كما أكد البرنامج ضرورة العمل على "إلغاء الطائفية السياسية، وجعل لبنان كله دائرة وطنية واحدة، والأخذ بنظام التمثيل النسبي، وتخفيض سن الانتخاب لثمانية عشر عاماً، والاستخدام المتساوي والمجاني لأجهزة الإعلام الرسمية في الدعاية الانتخابية، واعتبار الرشوة جنائية والتشدد في معاقبتها، إخضاع النائب لمراقبة ديوان المحاسبة ومحكمة الإثراء غير المشروع، ووضع سن لتقاعد النواب في الرابعة والستين".³⁴⁵ كذلك أكد البرنامج المحلي على "تقسيم جديد للمحافظات وإنشاء مجالس جديدة من شأنها إقرار موازنات محلية، وإعادة تنظيم البلديات"، وطالب أيضاً باعتماد "طريقة الاستفتاء الشعبي العام والمباشر حول بعض المواضيع المهمة وتكون نتيجة الاستفتاء ملزمة للمجالس التمثيلية والسلطات التنفيذية، ومنع الجمع بين الوزارة والنيابة وإعطاء حق الطعن بالقوانين لجميع المواطنين وإقرار قانون محاسبة جرائم الإثراء غير المشروع وإصلاح الإدارة العامة وتفعيلها ومكافحة الفساد فيها".³⁴⁶ وفي الختام شدّد البرنامج المحلي للحركة الوطنية بضرورة تعزيز "الحقوق المدنية والحريات العامة وإعطاء المرأة حقوقها، وتعزيز الحركة النقابية ومنحها مزيداً من السلطات للدفاع عن حقوق العمال، وإجراء تعديل على قانون الصحافة بما يضمن حريتها وديمقراطيتها واستقلاليتها عن سلطتي السياسة والمال حتى تكون أمانة في التعبير عن الرأي العام".³⁴⁷

³⁴⁴ البرنامج المحلي للحركة الوطنية اللبنانية، وثائق الحركة الوطنية 1975 - 1981، بيروت، 1981، ص.ص. 5 - 24.

³⁴⁵ البرنامج المحلي للحركة الوطنية اللبنانية، وثائق الحركة الوطنية 1975 - 1981، بيروت، 1981، ص.ص. 5 - 24.

³⁴⁶ البرنامج المحلي للحركة الوطنية اللبنانية، وثائق الحركة الوطنية 1975 - 1981، بيروت، 1981، ص.ص. 5 - 24.

³⁴⁷ البرنامج المحلي للحركة الوطنية اللبنانية، وثائق الحركة الوطنية 1975 - 1981، بيروت، 1981، ص.ص. 5 - 24.

في المقابل تشكلت في بداية الحرب الأهلية جبهة تضم الأحزاب المسيحية ومن ضمنها حزب الكتائب اللبنانية وحزب الوطنيين الاحرار وحزبين صغيرين هما حزب التنظيم وحزب حراس الأرز، إضافة إلى قوات المردة بزعامة طوني فرنجية ابن الرئيس سليمان فرنجية.

البعد الإقليمي والدولي للأزمة اللبنانية

عُدَّت الأزمة اللبنانية في جانب منها امتداداً للنزاع العربي - الإسرائيلي، الذي ومنذ إنشائه في العام 1948، شكلت إسرائيل تهديداً للدول العربية، كما لعب الكيان الصهيوني دوراً في كونه أداة للقوى الاستعمارية وفي مقدمتها واشنطن في بسط سيطرتها على دول المنطقة. وبعد انتهاء أزمة السويس، أرسل دافيد بن غوريون مؤسس الكيان الصهيوني رسالة إلى دوايت أيزنهاور الرئيس الأمريكي، يطالبه فيها بعدم قيام أي دولة عربية بدور لاعب أساسي فيها، مؤكداً أن النظام الإقليمي يجب ان يستند إلى تحالفات مع دول غير عربية، هي: إيران وتركيا وإثيوبيا وإسرائيل.³⁴⁸ واستطاعت تل أبيب من توجيه ضربة موجعة من خلال انتصارها على سوريا ومصر والأردن في حرب حزيران التي سُمِّيت بالنكسة وذلك في العام 1967. مما سيؤدي إلى نقل النزاع العربي - الإسرائيلي إلى مرحلة جديدة تلعب فيه المقاومة الفلسطينية دوراً أساسياً.³⁴⁹ وعملت بعدها كل من سوريا ومصر إلى إعادة تشكيل وبناء قواتهما العسكرية بعد نكسة حزيران العام 1967، من أجل تحرير أراضيها التي خسرتها أمام إسرائيل. بعدها تسلم أنور السادات الحكم في مصر، بعد وفاة جمال عبدالناصر في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1970، ثم بعد قرابة الشهرين تمكن حافظ الأسد من الوصول إلى سدة السلطة في سوريا، بقيامه بانقلاب أبيض ضد كل من صلاح جديد ونور الدين الأتاسي. وعمل السادات على بعث رسائل بشكل سري إلى واشنطن يعلن رغبته بالوصول إلى حل سلمي للنزاع العربي - الإسرائيلي. بالتزامن مع محاولات الأسد تحسين علاقاته السياسية

Haykal Mohammad Hassanein : « Am mina al Azamat, 2000 2001 » Almisriya lil Nashr al Arabi ³⁴⁸

wa Dawli 4e édition décembre 2001, p.244- 278.

Diab, Mohammed, Zuhayr. « El Mawquef El Sourî min El Taswiya El Silmyyeh l'il Nizaa El-Arabi - ³⁴⁹

El-Israeli » p. 85.

مع السعودية وبقية الدول العربية وخاصة مصر، وذلك ضمن الاستعدادات التي كان يقوم بها الأسد لحرب حتمية مع الكيان الصهيوني.³⁵⁰

وقام الجيشان السوري والمصري في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1973، بشن حرب منسقة من جهة الغرب وجهة الشرق ضد الكيان الصهيوني. وتمكن الجيش المصري خلال ساعات عدة من عبور قناة السويس والقضاء على خط بارليف الذي أقامته إسرائيل حتى تمنع الجيش المصري من تنفيذ العبور، الذي عبر القناة وأنشأ خطاً دفاعياً بعمق من 10 إلى 20 كم. أما على الجبهة الشرقية، فقد استطاعت المدرعات التابعة للجيش السوري من تحقيق اختراق في التحصينات التي أقامها الجيش الإسرائيلي في هضبة الجولان المحتل، واستطاعت الوصول خلال ساعات عدة إلى بحيرة طبرية. وحدث ما لم يكن في الحسبان، حيث كانت رغبة السادات هي القيام بحرب ذات نطاق محدود بعكس ما تم إبلاغه للرئيس الأسد، وإثر ذلك تم وقف هجوم الجيش المصري على إسرائيل بعد مرور 48 ساعة على بداية الحرب، الأمر الذي دفع الجيش الإسرائيلي إلى وضع كل إمكانياته لصدّ هجوم الجيش السوري، الذي بقي وحيداً في ساحة المعركة، ووجهاً لوجه ضد التفوّق الإسرائيلي، الذي بدأ بالتقدم حتى وصل إلى محيط بلدة سعسع، فعُدّ ذلك تهديداً للطرق الواصلة إلى العاصمة دمشق. كما عمل الجيش الإسرائيلي على القيام بهجوم مضاد ضد الجيش المصري، فأحدث ثغرات في الدفاعات المصرية وذلك في منطقة الدفرسوار، الأمر الذي أدّى إلى محاصرة الجيش المصري الثالث، وإسقاط كل الإنجازات العسكرية العربية التي تحققت في بداية الحرب.³⁵¹ وإثر هذه الحرب في بداية العام 1974 قامت مصر بالتوقيع مع الجانب الإسرائيلي على "اتفاقية سيناء الأولى"، والتي نصت على ضرورة فصل القوات بين الطرفين. ثم بعد ذلك تم إلحاقها بمعاهدة أخرى هي: "سيناء الثانية" في بداية العام 1975، فتم إخراج مصر عملياً من النزاع العربي - الإسرائيلي، هكذا بقيت سوريا والجبهة الشرقية وحدها، تواجه التفوق الكبير للقوات العسكرية الإسرائيلية.³⁵² وبعدها بأشهر عدة تمّت إقامة مؤتمر للسلام في مدينة جنيف بين الدول العربية من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى تحت رعاية كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، لكن هذا المؤتمر لم يتوصل إلى حل شامل للنزاع العربي - الإسرائيلي، وذلك بسبب التعنت في الموقف الصهيوني. الأمر الذي أجبر انور السادات على اتخاذ واختيار طريق الحل

Mclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham. Foreign Policy Making in the Middle East, Domestic Influences on Policy in Egypt, Iraq and Syria, p. 246.

³⁵¹ باتريك سيل، الأسد: الصراع على الشرق الأوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987، 319..

³⁵² Drysdale, Alasdair; "The Assad Regime and its Troubles", Merip Reports, Nov/Dec 1982.

المنفرد مع الجانب الإسرائيلي، والذي بدأ بزيارة السادات لمدينة القدس في 19 نوفمبر 1977)، وبعدها دخول السادات في طريق آخر نتج عنه توقيع "اتفاقية كامب دافيد" في العام 1978 مع الطرف الإسرائيلي، الأمر الذي أدّى وبشكل نهائي إلى خروج مصر من النزاع العربي - الإسرائيلي.³⁵³ وبذلك أصبحت تل أبيب صاحبة القرار ولها حرية الحركة والتصرف في الجبهة الشرقية ضد باقي الدول العربية.³⁵⁴

الأمر الذي دفع دمشق في محاولة منها للتعويض عن خسارة مصر إلى الإسراع في تشكيل جبهة شرقية بزعامتها تضم كلاً من: منظمة التحرير الفلسطينية والأردن ولبنان.³⁵⁵ الذي كان يُعدّ بالنسبة إلى سوريا محوراً هاماً، حيث يتشاركان بحدود طويلة، يُضاف إليه الترابط التاريخي بين المجتمعين السوري واللبناني، بالإضافة إلى كون لبنان دائماً يشكل الخصرة الرخوة لسوريا، والذي كان نقطة انطلاق للغالبية الانقلابات التي حدثت في سوريا خلال الفترة الممتدة بين عامي 1949 و1970. وفي فترة حرب أكتوبر من العام 1973، كان لبنان يشكل امتداداً لجبهة سوريا في المواجهة ضد إسرائيل.³⁵⁶ ولهذا الأمر عندما اشتعل فتيل الحرب الأهلية على الساحة اللبنانية في ربيع 1975، كانت دمشق ترى في جانب من جوانبها محاولة إسرائيلية لافتعال خلل في الساحة اللبنانية، يكون مقدّمة لأحداث حالة من الفوضى وعدم استقرار في الساحة السورية، خاصة أن إسرائيل ومنذ فترة الثلاثينيات والأربعينيات كانت على علاقات تعاون وتحالف مع أطراف مسيحية لبنانية، وأيضاً إسلامية، حيث كان لعبت دوراً رئيسياً في الحرب.³⁵⁷

مما دفع بالأسد إلى التدخل السريع في الأزمة اللبنانية، من خلال إعطاء الأمر لقواته بالدخول للبنان وذلك في ربيع عام 1976، من أجل الحد من تفاقم تأزم الأوضاع في لبنان، والتي

³⁵³ عبد الله السيد ولد أباه، التسوية في الشرق الأوسط ومستقبل النظام العربي، المستقبل العربي عدد 192، شباط فبراير 1995، ص. 34.

³⁵⁴ جعفر قاسم محمد، سورية والاتحاد السوفياتي، دراسة في العلاقات العربية السوفياتية، لندن: رياض الريس، 1987، ص. 50.

³⁵⁵ Mclaurin R.D. and Mughisuddin Muhammad and Wagner, Abraham. "Foreign Policy Making in the Middle East, Domestic Influences on Policy in Egypt, Iraq and Syria", p. 254.

³⁵⁶ Ma'oz, Moshe; "Assad the Sphinx of Damascus, a Political Biography". London, Widenfield and Michalson, 1988, p. 288.

³⁵⁷ Harris, William; "Syria in Lebanon". Merip Reports, Juillet - Aout, 1985, p. 76.

تشكل تهديداً مباشراً للاستقرار السياسي في سوريا، وأيضاً منع تل أبيب من فرض هيمنتها على لبنان.³⁵⁸

الدخول السوري العسكري على الساحة اللبنانية، حصل على تأييد ومباركة من الجانب الأمريكي، وذلك بسبب خشية واشنطن من زيادة نفوذ "منظمة التحرير الفلسطينية" في لبنان. في الوقت نفسه كان الرئيس الأسد قلقاً من العلاقات الوثيقة التي ربطت بين "منظمة التحرير الفلسطينية" وحلفائها من الأحزاب اليسارية التابعة للعراق، حيث كان على خلاف مع سوريا منذ ستينيات القرن الماضي.³⁵⁹ كما شكّ الرئيس الأسد في نيات عرفات بما يتعلق في الالتحاق بركب الرئيس أنور السادات للوصول إلى حل منفرد مع الطرف الإسرائيلي، في الوقت ذاته الذي تسعى فيه دمشق إلى وضع عقبات في طريق هذه المساعي التي تأتي على حساب الحقوق العربية. بالإضافة إلى أن تزايد قوة "منظمة التحرير الفلسطينية" الذي أعطى حجة لعدد من الأحزاب اللبنانية، منها: الوطنيين الأحرار، والكتائب، وحراس الأرز والتنظيم، حتى تبرر وتفسر علاقاتها مع الجانب الإسرائيلي.³⁶⁰ الامر الذي ظن فيه الرئيس الأسد أنه لو استطاع النجاح في السيطرة على لبنان، فهذا سيساعده من فرض كامل سيطرته على قادة "منظمة التحرير الفلسطينية" وبالتالي منعها من التوقيع بشكل منفرد على اتفاقية سلام مع الطرف الإسرائيلي. كذلك هذا الأمر سيدعم موقفه في منع الحسين بن طلال الملك الأردني من التوقيع بشكل منفرد أيضاً مع تل أبيب. خاصة أن الرئيس الأسد كان على علم بالعلاقات التي كانت بين الجانبين الأردني والإسرائيلي وذلك خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي.³⁶¹ لذا عمل الأسد على إيجاد تسوية للأزمة اللبنانية من خلال القيام بتعديلات بسيطة على الدستور اللبناني والتي عُرفت بـ"الوثيقة

Chalala, Elie; "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". Journal of Arab Affairs, vol. 4, no. 1, 1985, p. 70.

Harris, William. "Syria in Lebanon". p. 78.³⁵⁹

Devlin, John; "Syria: Modern state in an ancient land", Westview Press, Boulder Colorado, 1ère edition³⁶⁰
1983, p. 120.

Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymond; "Syria and the Middle East Peace Process", p. 74.³⁶¹

الدستورية"، وشكلت في ما بعد أساس "اتفاق الطائف".³⁶² لكن، الأزمة اللبنانية، امتدت لمدة 15 سنة، وذلك بسبب تحويل لبنان ميداناً تتصارع فيه القوى الإقليمية والعالمية المختلفة.

تراجع النفوذ السوري في لبنان مع بداية العام 1978، في الوقت الذي كانت مصر تعمل على توقيع سلام منفرد مع الجانب الإسرائيلي.³⁶³ وكان معروفاً الموقف السوري المعارض لاتفاق هكذا، لذا عملت واشنطن على ممارسة أنواع الضغوط كافة على سوريا ضمن الساحة اللبنانية، وذلك ظهر بتلويح الياس سركيس الرئيس اللبناني بعدم إمكانية التجديد لقوات الردع العربية الموجودة ضمن الأراضي اللبنانية. جاء ذلك متزامناً مع التصعيد الذي قامت به أطراف لبنانية وفي مقدمتها بشير الجميل قائد القوات اللبنانية، والجبهة اللبنانية، حيث عملت على توجيه الانتقاد إلى قوات الردع العربية والدور الذي تلعبه في لبنان. هذه البيانات الصادرة عنهم سبق وقام الرئيس الأسد بانتقادها، فقد دعت بيانات الجبهة اللبنانية إلى قيام نظام الفدرلة، والتي اعتبرها الأسد دعوات تؤدي إلى تقسيم لبنان.³⁶⁴ وضمن هذا الجو المتفاقم بالأزمات والتصريحات التي أثارت جدلاً، أتت "حادثة الفياضية" في شهر شباط/فبراير من العام 1978، والتي أسفرت عن عدد كبير من القتلى والجرحى، ثم حدث اشتباك بين الجيش اللبناني والقوات السورية وذلك ضمن محيط وزارة الدفاع اللبنانية في منطقة اليرزة. على أثرها جاء إعلان وزارة الخارجية الأميركية عن خشيته من تجدد القتال مرة أخرى في لبنان، وأنها تراقب عن كثب تطورات الوضع. في الجانب الآخر قامت وزارة الخارجية السوفياتية بتوجيه أصابع الاتهام إلى تل أبيب، بأنها وراء هذا الحادث المفتعل.³⁶⁵ وبعد ذلك بحوالي شهر اجتاحت إسرائيل منطقة الجنوب اللبناني وحتى نهر الليطاني، في الوقت نفسه الذي أعلنت فيه "الجبهة اللبنانية" تأجيل إعلان موقفها في ما يخص موضوع قوات الردع السورية المتمركزة على الأراضي اللبنانية.³⁶⁶ وفي ليلة 13 و14 من شهر آذار/مارس، بدأت عملية الاجتياح الإسرائيلي للبنان، بذريعة أنها تريد القضاء على "الإرهابيين" الذين يشكلون تهديداً لأمن المستوطنات الإسرائيلية في منطقة الجنوب اللبناني. وذلك من خلال العمل على تدمير قواعدهم التي استخدموها كنقطة انطلاق لعملياتهم، كتلك العملية التي قامت بها دلال المغربي

Saliba, Najib; "Syrian-Lebanese Relations". Ed dans Barakat, Halim, "Toward a viable Lebanon", Groom³⁶²
Helm, London, 1988, p. 152

Abu Khalil, Assad; "Syria and the Arab-Israeli Conflict", p. 84.³⁶³

³⁶⁴ وثائق الحرب اللبنانية لعام 1978، ص. 99.

³⁶⁵ المرجع نفسه، ص. 100.

³⁶⁶ المرجع نفسه، ص. 109.

ومجموعتها في شمالي فلسطين المحتلة. هذا واستمرّ الإسرائيليون في عدوانهم على الأراضي اللبنانية لمدة اسبوعين، حيث انتهى بإصدار قرار عن مجلس الامن الدولي رقم 425 يقضي بضرورة سحب إسرائيل قواتها الغازية، على أن تحلّ مكانها قوات دولية تعمل على مراقبة الحدود. بعدها عمل الأميركيون على تشجيع حلفائهم في القوات اللبنانية والجبهة اللبنانية على ضرب القوات السورية المتمركزة ضمن الأراضي اللبنانية وذلك بحجة العمل على تحرير المناطق المسيحية منهم، وسُميت هذه الحرب بـ"حرب المئة يوم"، والتي توقفت في أواخر صيف ذلك العام بعد انسحاب القوات السورية من كافة المناطق التي تقطنها غالبية مسيحية.³⁶⁷ في وقت ساءت فيه العلاقات السورية مع "منظمة التحرير الفلسطينية"، وذلك نتيجة لخشية الأسد من نية عرفات ورغبته في الانضمام إلى محادثات السلام التي كانت تجرى بين الجانبين المصري والإسرائيلي، والتي نصّت على قبوله بحكم ذاتي للفلسطينيين، مما يعني عملياً عزل سوريا.³⁶⁸

اجتياح لبنان

تمكن رونالد ريغن من الوصول إلى سدة الرئاسة في الولايات المتحدة الأميركية وذلك في بداية العام 1981. وعرف عهده توتراً كبيراً في العلاقات مع كتلة الدول الاشتراكية والاتحاد السوفياتي. الأمر الذي استغلته تل أبيب وصعدت مواقفها ضد سوريا خاصة في لبنان. وعملت سوريا مسبقاً على توقيع "اتفاقية صداقة" مع الاتحاد السوفياتي³⁶⁹ الذي كان في حالة تردد حول إمكانية مواجهته لواشنطن في منطقة الشرق الأوسط، وذلك بسبب انشغاله بأزمته بولندا وأفغانستان.³⁷⁰ وفي ظل هذه الظروف حدث في إسرائيل تعديل طال الحكومة الإسرائيلية، حيث تسلّم منصب وزير الدفاع ارييل شارون، الذي عُدد علامة لتصعيد شديد الحدة في منطقة الشرق الأوسط.³⁷¹ حيث كانت

³⁶⁷ Chalala, Elie; "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". p. 74.

³⁶⁸ Ma'oz, Moshe and Yaniv, Evner; "On a Short Leash, Syria and the PLO". In Maoz Moshe and Yaniv
Evner eds; "Syria Under Assad, Domestic Constraints and Regional Risks", Groom Helm, London, 1ere
edition 1986, p. 201.

³⁶⁹ Karsh, Efram; "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 55.

³⁷⁰ Roberts, David; "The USSR and Syrian Perspective". p. 229

³⁷¹ جوناثان راندل، حرب الألف عام في لبنان، بيروت: دار المروج، 1984، ص. 243.

إسرائيل ترغب في إحداث خلل في ميزان القوى الموجود في الساحة اللبنانية، وذلك من خلال العمل على تقديم الدعم لحليفها بشير الجميل من أجل الوصول إلى رئاسة الجمهورية اللبنانية، حتى يستطيع بعدها توقيع اتفاقية سلام مع الجانب الإسرائيلي بما يساعد على كسر العزلة المفروضة على مصر.³⁷² هذا الأمر عملت تل أبيب على تنفيذه مع وصول ريغان للبيت الأبيض في واشنطن وذلك في العام 1982.³⁷³ فزادت الخشية الإسرائيلية من قيام انتفاضة داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، وظن قادة الكيان الصهيوني أنهم إذا سعوا إلى القضاء على "منظمة التحرير الفلسطينية" في الأراضي اللبنانية، فهذا من شأنه أن يقوّض الانتفاضة داخل الأراضي المحتلة.³⁷⁴

وبناء لهذا الوضع كانت "معركة زحلة" التي قامت بين القوات اللبنانية من جهة، والقوات السورية من جهة ثانية، بداية الاجتياح الإسرائيلي، حيث هدفت إلى إحداث خرق داخل الدفاعات السورية في منطقة البقاع، الأمر الذي يعني إمكانية اختراقه من قبل إسرائيل، وتشكيله تهديداً فعلياً للطريق الواصل بين بيروت والعاصمة دمشق. واستطاع أفراد تابعون للقوات اللبنانية من الوصول إلى زحلة حيث عملوا على ضرب القوات السورية المتمركزة على أطراف المدينة وذلك في الأول من شهر نيسان/أبريل العام 1981، الأمر الذي دفع بالقوات السورية إلى فرض حصار عسكري حول المدينة وضربها بالمدفعية. بعدها عملت القوات السورية على توسيع نفوذها وسيطرتها حول مدينة زحلة، من خلال التمرکز على مرتفعات جبل صنين بالإضافة إلى منطقة الزعرور، ما جعلها تتحكم بالطريق الواصل بين مدينة زحلة ومنطقة جبل لبنان. وقام الإسرائيليون بالرد على ذلك بإسقاط طائرة هليكوبتر تابعة للقوات السورية فوق منطقة صنين والبقاع، مما دفع القيادة في سوريا إلى الإسراع بنشر بطاريات الدفاع الجوي في البقاع، حيث شكلت تهديداً ل سلاح الطيران الإسرائيلي فوق الأراضي اللبنانية. بعدها تمّت تسوية النزاع عن طريق اتفاق هدنة بموجبه تسحب القوات اللبنانية ميليشياتها من المدينة، وقد تمّ تأكيد هذا الاتفاق في شهر حزيران/يونيو من العام 1981.

في شهر حزيران/يونيو من العام 1982، في لندن جرت محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي، اتخذتها القيادة الإسرائيلية حجة تبرّر عملية اجتياحها للبنان، الذي بدأ في 4 حزيران/يونيو من العام 1982،

Elezzi Ghassan ; "De la Paix en Galilée à la Relance de la Guerre Civile, Quand l'Armée Israélienne ³⁷²
"sauvait" le Liban". Le Monde Diplomatique, juin 1992, p 23

Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymond; "Syria and the Middle East Peace Process", p190.³⁷³

Jansen, Michael; "The Battle of Beirut, Why Israel invaded Lebanon?", London Zed Press, London, ³⁷⁴
1ère edition 1982, p. 66

بقيام سلاح الطيران الإسرائيلي بغارات استهدف فيها المباني التابعة لقياديي "منظمة التحرير الفلسطينية"، في مدينة بيروت وضواحيها الجنوبية. وأسفر العدوان الإسرائيلي عن مقتل وإصابة حوالي 270.³⁷⁵ بعدها عملت قوات المدرعات الإسرائيلية في 5-6 حزيران/ يونيو، بعملية الاجتياح البري داخل الأراضي اللبنانية. بالتزامن مع إعلان الناطق الرسمي باسم الحكومة الإسرائيلية أن هدفهم من الاجتياح هو العمل على إخراج جميع القوات الأجنبية من الأراضي اللبنانية بما فيها القوات السورية وقوات "منظمة التحرير الفلسطينية"، بالإضافة إلى تقديم كل الدعم المطلوب للقوات اللبنانية من أجل فرض سيطرتها على مدينة بيروت، عبر مساعدة بشير الجميل المتحالف مع إسرائيل من أجل بلوغ رئاسة الجمهورية اللبنانية، بعدها يتم التوقيع على اتفاقية سلام بين الطرفين اللبناني والإسرائيلي، وبذلك تضمن تل أبيب ضبط الحدود الشمالية لإسرائيل وحمايتها. لكن القوات الإسرائيلية حصلت ضدها مقاومة عنيفة في منطقة جنوب لبنان، وقلعة الشقيف التي تطلّ على النبطية، حيث كلفت الإسرائيليين خسائر فادحة. كما حصلت مواجهة مع القوات السورية البرية والجوية، التي تكبدت خسائر كبيرة. كما تمكنت القوات السورية من وضع عقبات وعراقيل أمام التقدم الإسرائيلي باتجاه منطقة البقاع، خاصة بعد معركة عين دارة في منطقة جبل لبنان، والسلطان يعقوب في منطقة البقاع الغربي. والتي أسفرت عن خسائر أصابت القوات السورية، إذ بلغت نحو 85 طائرة مقاتلة، بالإضافة إلى 25 بطارية سام تابعة للدفاع الجوي، في المقابل تم إسقاط نحو 20 طائرة للكيان الصهيوني.³⁷⁶ وتمكنت القوات الإسرائيلية في 9 حزيران/يونيو من الوصول إلى العاصمة بيروت، وفرض حصار عليها.³⁷⁷

وتمّ في بيروت منتصف شهر آب/أغسطس من العام 1982، محاصرة قوات تابعة لمنظمة التحرير والحركة الوطنية اللبنانية وبالإضافة إلى كتبتين تابعتين للجيش السوري، على إثرها تمّ تشكيل قيادة مشتركة من أجل الدفاع عن المدينة، وقد صمدت هذه القوات أمام الحصار والتعرض العنيف للقصف قرابة شهرين ونصف. ورغم محاولات إسرائيل لاقتحام المدينة أو حتى القيام بعمليات اغتيال تطال فيها قيادات المقاومة وفي مقدمتهم ياسر عرفات، لكن محاولاتها كلها باءت بالفشل الذريع.

في الوقت نفسه كان فيليب حبيب مبعوث الرئيس الأميركي إلى لبنان، يقوم بجولاته على عدد من القيادات اللبنانية، والتي انتهت بالخروج باتفاق على ضرورة وقف إطلاق النار وذلك في 12 آب

³⁷⁵ اجتياح لبنان: يوميات، صور وثائق، وكالة مختارات الأخبار العربية والعالمية، بيروت: 1982، ص. 12.

³⁷⁶ المرجع نفسه، ص. 20.

³⁷⁷ المصدر نفسه، ص. 30.

/أغسطس من العام 1982،³⁷⁸ وفي 20 آب/أغسطس، تمّ بعدها العمل على إخراج "منظمة التحرير الفلسطينية" بالإضافة إلى 15000 مقاتل من مدينة بيروت وانتقالهم إلى تونس.³⁷⁹ بعدها بأيام عدّة اجتمع مجلس النواب اللبناني لانتخاب بشير الجميل رئيساً للبنان. تزامن ذلك مع تقديم رونالد ريغن الرئيس الأمريكي، مبادرة من أجل الدفع قدماً بعملية السلام في منطقة الشرق الأوسط، والتي عملت القمة العربية على تبنيها وذلك أثناء انعقاد القمة في مدينة فاس في 6 من أيلول/سبتمبر من العام 1982 بحضور تسع عشرة دولة عربية، وغياب كل من مصر وليبيا.

لكن، الذي حدث أن تمّ اغتيال بشير الجميل الرئيس اللبناني المنتخب وذلك في 14 أيلول/سبتمبر. وعلى إثر ذلك قامت قوات إسرائيلية بالإضافة إلى حلفائهم من "حزب الكتائب" بارتكاب مجزرة صبرا وشاتيلا، راح ضحيتها آلاف المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين، الأمر الذي أخرج تل أبيب، ودفع واشنطن إلى التدخل السريع والمباشر، من خلال القيام بإرسال قوات متعددة الجنسيات إلى العاصمة بيروت.

اغتيال بشير الجميل كان ضربة موجعة للمشروع الصهيوني، فقد حدث ذلك في وقت كانت فيه المقاومة اللبنانية تزداد حدتها ضد القوات الاسرائيلية، ما انعكس سلباً وأدى إلى ارتفاع نسبة المعارضة لسياسة بيغن في إسرائيل.³⁸⁰ كما أسفرت أيضاً عن تقديم الكسندر هيغ وزير الدفاع الأمريكي استقالته بسبب وقوفه ومساندته للعدوان الإسرائيلي على لبنان والتي نتجت ولأول مرة من دون التشاور مع الجانب الإسرائيلي عن إرسال قوات أميركية بالإضافة إلى قوات متعددة الجنسيات (فرنسية وإيطالية وبريطانية) إلى لبنان³⁸¹ وبعد أن تقدّم ريغان بخطة عمل لحل النزاع الدامي في الساحة اللبنانية³⁸² نصت على أن يكون لبنان تحت الحماية الأميركية المباشرة، كما عملت واشنطن على وضعه ضمن جبهة واحدة تضم كلاً من السعودية والأردن ومصر، بغية العمل على عزل سوريا، والتوصل إلى فرض تسوية وحل للنزاع العربي - الإسرائيلي بما يتناسب مع المصالح الإسرائيلية.³⁸³ ونتيجة للضعف الذي أصاب الموقف السوري، عمل كل من الأردن و"منظمة التحرير

³⁷⁸ المصدر نفسه، ص. 92.

³⁷⁹ المرجع نفسه، ص. 110.

³⁸⁰ Jansen, Michael; "The Battle of Beirut, Why Israel invaded Lebanon?" p. 69.

³⁸¹ Bulloch, John; "Final Conflict, the War in Lebanon." p. 138.

³⁸² شيمون شيفر، عملية كرة الثلج، أسرار الغزو الإسرائيلي للبنان، ص. 164.

³⁸³ Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymond: Syria and the Middle East Peace Process. p. 126.

الفلسطينية" إلى الرضوخ والموافقة على خطة ريغان، متجاهلين رفض منظمات فلسطينية عديدة كالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لهذه الخطة. ولو وضع الأميركيون المصالح السورية بعين الاعتبار لكنت دمشق وافقت على التعاون معهم، لكنهم لم يفعلوا ذلك.³⁸⁴ فقد اعتقدوا ان سوريا أصبحت في موقف ضعيف بحيث لا يمكنها وضع العراقيل أمام مشاريعهم، حيث تبين لاحقاً أنهم مخطئون في حساباتهم.³⁸⁵

هجوم سوري مضاد

بقيت دمشق وحدها في ساحة المواجهة ضد الإسرائيليين والأميركان، وذلك بعد أن رفضوا اقتراحاً تقدّمت به دمشق بسحب قواتها من الأراضي اللبنانية بشرط أن تفعل إسرائيل المثل.³⁸⁶ ورداً على ذلك عملت دمشق على الاستفادة من علاقاتها الجيدة مع نبيه بري الزعيم الشيعي ووليد جنبلاط الزعيم الدرزي، من أجل إعادة هيمنتها على الساحة اللبنانية،³⁸⁷ خاصة بعد رفض الدروز والشيعية مد يدهم بالتعاون إلى أمين الجميل خلال فترة الحكم.³⁸⁸ بعدها طرأ تغيير على الساحة السوفياتية، ففي خريف عام 1982، تمكن يوري اندروبوف من الوصول إلى الرئاسة بعد وفاة بريجنيف، الأمر الذي استفاد منه الرئيس الأسد من أجل الحصول على مساندة أكبر من الحليف السوفياتي في وجه السيطرة الأميركية على الساحة اللبنانية. فالوقوف في وجه الهيمنة الأميركية، خاصة في منطقة الشرق الأوسط، كان يدعمه أندروبوف عندما كان رئيس جهاز الاستخبارات السوفياتية الـ "كي. جي. بي"، عبر تقديم الدعم المفتوح إلى دمشق³⁸⁹ التي وضعها أندروبوف تحت الوصاية المباشرة التابعة للاتحاد السوفياتي وبموافقة حافظ الأسد نفسه، متعهداً بحمايتها، ومهدداً في حال تعرّض سوريا لأي عدوان سيردّ عليه بالقوة. ويُعدّ الموقف الروسي هذا

³⁸⁴ Bulloch, John. Final Conflict, the War in Lebanon. p. 151.

³⁸⁵ Karsh Efram. "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 74.

³⁸⁶ Chalala, Elie. "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". p. 84.

³⁸⁷ Dickey, Christopher; "Assad and His Allies, Irreconcilable Differences". Foreign Affairs, vol. 66
automne 1987, p. 166

³⁸⁸ Laurent, Annie & Basbous, Antoine ; "Guerres secrètes au Liban", Gallimard, Paris, 1987, p. 187.

³⁸⁹ سيل، مصدر سابق، ص. 651

هو الأول من نوعه منذ أزمة عام 1956، الأمر الذي دعم الموقف السوري في نظر واشنطن وتل أبيب.³⁹⁰ كما دفع هذا الموقف بسوريا إلى الاعتماد بشكل كبير على الاتحاد السوفياتي.³⁹¹ بعدها عملت دمشق على الاستفادة من تأخر واشنطن في مساعدة حلفائها على فرض سيطرتهم على لبنان، حيث اضطروا إلى الانتظار حتى أيار/مايو من العام 1983، حين عملوا على فرض اتفاقية سلام بين كل من إسرائيل ولبنان.³⁹²

وردًا على هذه الخطوة قامت دمشق بتقديم كل الدعم إلى حلفائها في لبنان، وذلك من خلال مساندتها لحزب جنبلاط، و"حركة امل" وأحزاب وطنية لبنانية أخرى. بعدها وجهت أصابع الاتهام إلى دمشق بأنها كانت وراء التخطيط لعملية تفجير السفارة الأميركية في لبنان وذلك في ربيع عام 1983، كما جرى اتهامها أيضاً بالتفجير المزدوج الذي أصاب في شهر تشرين الأول / أكتوبر مركز القوات الأميركية والفرنسية في محيط مدينة بيروت.

قدمت دمشق كامل دعمها لعمليات المقاومة الموجهة ضد إسرائيل، وأيضاً ساندت تحركات الفصائل الفلسطينية المعارضة لسياسة ياسر عرفات، وذلك من أجل منعه من السير قدماً لتوقيع سلام منقوص مع الجانب الإسرائيلي وطبعاً برعاية واشنطن. وقد كانت "معركة الشوف" في العام 1983، نقطة تحول كبيرة في طبيعة الصراع،³⁹³ حيث اكتسبت سوريا قدرة كبيرة في تنفيذ العراقيل ضد أي مشروع لا يأخذ بعين الاعتبار المصالح السورية،³⁹⁴ في وقت ارتفعت فيه المعارضة داخل إسرائيل، وذلك بسبب الخسائر الفادحة التي تكبدتها الإسرائيليون في لبنان.³⁹⁵ تزامن ذلك مع محاولات القوات اللبنانية والجيش اللبناني فرض سيطرتهم على مناطق عاليه والشوف والجبل، والتي انتهت بخسارتهما في "معركة الجبل".³⁹⁶ والتي مهدت في ما بعد إلى خسارة الجيش في معركة مدينة بيروت، والتي أدت إلى سقوط منطقة بيروت الغربية تحت سيطرة القوى المعارضة لحكم أمين الجميل الذي كانت واشنطن تدعمه، بحركة الانتفاضة التي قامت في 6 شباط/فبراير من العام

³⁹⁰ Karsh, Efram; "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 74.

³⁹¹ Ja'afar, Kassem Muhammad; "Surya Wa Al Itihad Al Soviati, Dirasat fi Al alakat alarabia alsoviatiat". p. 620.

³⁹² سيل، م.س.، ص. 651 .

³⁹³ Saliba, Najib; "Syrian Lebanese Relations". P 155.

³⁹⁴ Hopwood, Derek; "Syria 1945-1986, Politics and Society". P. 74.

³⁹⁵ Drysdale Alasdair et Hinnebusch Raymond: "Syria and the Middle East Process", p 127.

³⁹⁶ Mackey Sandra: "Lebanon, Death of a Nation", p 188.

1984. وعلى إثرها تمّ سحب القوات المتعددة الجنسيات من الأراضي اللبنانية، وتركت أمين الجميل وحده، فاضطر مجبوراً للذهاب إلى العاصمة دمشق، والموافقة على شروط الرئيس الأسد الذي طالب بالغاء "معاهدة 17 أيار" الموقعة مع الجانب الإسرائيلي، بالإضافة إلى إقالة حكومة شفيق الوزان والعمل على تشكيل حكومة جديدة يترأسها رشيد كرامي حليف دمشق. كما تمّ تعيين كل من نبيه بري ووليد جنبلاط حليفي دمشق كوزيرين في الحكومة اللبنانية الجديدة.³⁹⁷

الصراع الفلسطيني السوري على لبنان

شهدت الساحة اللبنانية نزاعاً على فرض النفوذ بين كل من الرئيس السوري حافظ الأسد من جهة وياسر عرفات رئيس الهيئة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية من جهة ثانية. فقد كان الرجلان على عداء شخصي، بالإضافة إلى الاختلاف الحاصل في مواقف كل منهما وخياراتهما، وخصوصاً بعد عام 1982. فالرئيس الأسد اختار المواجهة مع واشنطن في الأراضي اللبنانية، معتمداً في ذلك على دعم الاتحاد السوفياتي، فيما فضل ياسر عرفات التوقيع على سلام منقوص مع الإسرائيليين، حتى قبل حصول عملية الاجتياح وذلك في العام 1982. فعرفات ومنذ فترة سبعينيات القرن الماضي يحاول المضي قدماً في أخذ طرف المبادرة من أجل إجراء تفاوض مباشر ومنفرد مع الجانب الإسرائيلي، وظهر ذلك جلياً في خطابه الشهير في مجلس الأمم المتحدة وذلك في العام 1974. بالإضافة إلى تصريحه الدائم بأنه يقبل بإقامة دولة فلسطينية ولو كانت على متر مربع واحد يعطيه له الإسرائيليون. يُضاف إليها تأييده الضمني لاتفاقية السلام وللخطوة المنفردة التي اتخذها أنور السادات الرئيس المصري في توقيعها عليها مع الجانب الإسرائيلي. ولم يقبل عرفات في العام 1982 الذهاب إلى دمشق، واختار أن يذهب بمقاتليه الموجودين في تونس، بعيداً عن خط المواجهة مع الإسرائيليين، وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الحبيب بورقيبة كان من أول المبادرين بتقديم اقتراح سلام بين الجانبين العربي والإسرائيلي وذلك في العام 1965، وقوبل بالرفض والاستنكار الكبير في جميع العواصم العربية التي زارها لشرح مبادرته.³⁹⁸ تزامن ذلك مع تقدّم واشنطن بمبادرتها لقضية السلام، حيث قامت القمة العربية التي تم عقدها في مدينة فاس بتبنيها، واضطر الرئيس الأسد لقبولها على مضض. بعدها حدث تغيير في ميزان القوى العالمي حيث وصل اندروبوف إلى

³⁹⁷ Laurent Annie et Basbous Antoine : « Guerres Secrètes au Liban. », p.205.

³⁹⁸ Robert Fisk, Pity the Nation, New York: Thounder Mouth Press, 2002, 409.

الرئاسة في الاتحاد السوفياتي، خلفاً لبريجنيف، ما انعكس إيجاباً وأعطى دفعةً قوياً للرئيس الأسد في تحديه الهيمنة الأميركية في المنطقة.

أدّى الاختلاف بين الرجلين الأسد وعرفات إلى انعكاسه على الساحة اللبنانية. وعمل عرفات مستغلاً علاقاته التاريخية مع بعض الجماعات اللبنانية للتأثير عليها، وخاصة الأحزاب اليسارية والحركة الوطنية. كما عمل عرفات للسيطرة على مدينة طرابلس وانتزاعها من السيطرة السورية، لتكون نقطة انطلاق لإحداث خلل في الاستقرار في المدن الشمالية السورية، مكرراً ما فعله سابقاً في العام 1982، خلال المواجهات التي قامت بين الأخوان المسلمين والجيش السوري في مدينة حماه. فأعلن في مدينة طرابلس في شهر آب/أغسطس من العام 1982، تأسيس "حركة التوحيد الإسلامي" حيث كان لافتاً انطلاقها في هذا التوقيت بالذات، وكان جلياً تأثيرها بياسر عرفات وبالجانب السعودي. وانطوى تحت لوائها عدد من المجموعات الإسلامية، أبرزها: "المقاومة الشعبية" بزعامة خليل عكاوي، و"التجمعات المسجدية" بزعامة علي مرعب، و"حركة لبنان العربي" بزعامة عصمت المراد، و"قوات جند الله" بزعامة فواز حسين آغا، وتم اختيار الشيخ سعيد شعبان قائداً لها. وعملت حركة التوحيد في أول عمل لها بارتكاب مجزرة قامت بها بحق الأعضاء المنتمين إلى أحزاب علمانية، وبشكل خاص الشيعيين بحجة أنهم كفار. بالإضافة إلى فرض سيطرتها على مدينة طرابلس، ومهاجمة مراكز الجيش السوري، تزامن ذلك مع نزول عرفات بصحبة قواته في شوارع المدينة، لتقديم الدعم لحركة التوحيد ضد السوريين وحلفائهم. واضطر عرفات في العام 1983، على الانسحاب من مدينة طرابلس، التي بقيت خارج الهيمنة السورية وذلك حتى عام 1985، حيث قامت قوات الردع وحلفائها بشنّ هجوم عليهم، تمّ خلاله القضاء على حركة التوحيد، بالإضافة إلى اعتقال جميع قادتهم ومن ضمنهم الشيخ شعبان وإيداعهم السجون.

تزامنت هذه الأحداث مع حدوث انشقاق ومعارضة داخل حركة فتح، والتي قام بها بعض من كبار قادتها، وذلك احتجاجاً على السياسة التي اتخذها ياسر عرفات في عملية السلام. وأبرز هؤلاء القادة: العقيد سعيد مراغة المعروف بأبو موسى، بالإضافة إلى نائب قائد قوات العاصفة (الجناح المسلح لفتح) نمر صالح والعقيد أبو خالد العملة. هذا التصعيد أدّى إلى وقوع معارك بين الطرفين، وأطلق المنشقون على أنفسهم اسم "فتح - الانتفاضة"، والتي قامت دمشق بتقديم كل الدعم لها ضد عرفات.³⁹⁹ التناقض في المواقف والتوجهات سيكون بالتأكيد له أثره في عملية النزاع مع تل أبيب، بين الرئيس الأسد من جهة، وعرفات من جهة أخرى، والذي ستعكس

تردداته على أحداث مهمة للغاية في الساحة اللبنانية، مثل: النزاع القائم بين المرابطون المدعومين من ياسر عرفات من جهة، وأمل والاشتراكي المدعومين من دمشق من جهة أخرى، بالإضافة إلى "حرب المخيمات" التي جرت خلال الفترة بين عامي 1985 و1987.

نهاية الحرب الباردة وأثرها

أدى تسلم ميخائيل غورباتشوف الرئاسة في الاتحاد السوفياتي وذلك في العام 1985، إلى تحوّل تاريخي في العالم عامة ومنطقة الشرق الأوسط خاصة. فقد كان مؤشراً لبداية تراجع هيمنة الاتحاد السوفياتي في العالم والتي أدّت في ما بعد إلى انهيار وسقوط كتلة الدول الاشتراكية في العام 1989، وبعدها تفكك الاتحاد السوفياتي وذلك في العام 1991. الذي عانى ومنذ سبعينيات القرن الماضي من أزمات عدة على الصعيدين الداخلي والخارجي، وخاصة في بولونيا وأفغانستان. الأمر الذي كان سبباً ضاعطاً على الاتحاد السوفياتي الذي أراد تخفيف العبء عنه والانسحاب من أماكن عدة من العالم، وبذلك بقيت الساحة لواشنطن وحدها.⁴⁰⁰ وهذا بدوره أثر على دمشق التي أدركت عدم قدرتها في الاعتماد على موسكو. حيث قام غورباتشوف في شهر نيسان / أبريل من العام 1987، بإبلاغ الرئيس الأسد أنهم ليس باستطاعتهم تقديم العون له في دعم مشاريعه التي يريد من خلالها تحقيق توازن استراتيجي مع الجانب الإسرائيلي. في الوقت نفسه عمل غورباتشوف على نسج علاقات تعاون مع دول عربية في حالة تنافس مع دمشق، مثل: السعودية ومصر.⁴⁰¹ ترافق ذلك إلى سماح الاتحاد السوفياتي بهجرة اليهود الروس باتجاه إسرائيل.⁴⁰² وقد ظنّت موسكو أنها بذلك ستكون نداً وشريكاً للولايات المتحدة في سياساتها الاستراتيجية، وذلك من خلال تقديم الدعم المطلوب لعملية السلام في منطقة الشرق الأوسط.⁴⁰³

وذلك لأن لواشنطن حسابات مغايرة عن موسكو، وخاصة بما يخص فرض هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط الغني بالثروة النفطية. وهذا ما جعل قادة الأنظمة العربية بمن فيهم حلفاؤها بالإحساس بأن واشنطن ترغب بفرض سيطرتها على ما تمتلكه المنطقة من موارد طبيعية.

Hermann, Richard, "Russian Policy in the Middle East: Strategic change and Tactical Considerations",⁴⁰⁰

Middle East Journal, vol.84, no.3, Summer1994, p.454.

Karawan, Ibrahim A, "Arab Dilemas in the 1990's: Breaking taboos and searching for signposts" Middle⁴⁰¹

East Journal, vol.48, no.3, summer 1994, p.434.

Karawan, Ibrahim A.: "Arab Dilemas in the 1990's: Breaking taboos and searching for signposts", p.435.⁴⁰²

Hanna, John P.: "At arms length Soviet Syrian relations in the Gorbachev era". p.5.⁴⁰³

وهذا ما بدا واضحاً في كلام صدام حسين الرئيس العراقي في "قمة عمان" في 24 شباط/فبراير، بأن انتهاء الحرب الباردة سيكون لها ارتدادات عكسية وكارثية على المنطقة العربية.⁴⁰⁴ كما أثارت هذه التغييرات حفيظة الرئيس الأسد وزاد قلقه على بلاده سوريا، فقد كان يتوقع أن تستمر وتطول سيطرة واشنطن على العالم ربما لعقد من الزمن. الأمر الذي دفعه ليكون أكثر ليونة في مواقفه وللموافقة على التعاون مع البيت الأبيض في مقابل ضمان مصالح سوريا.⁴⁰⁵ وشكل العراق بما يمتلكه من مقدرات عسكرية واقتصادية وديمقراطية إحدى أبرز العراقيل أمام السيطرة الأميركية على الخليج العربي. ولهذا السبب كانت واشنطن ترغب في تدمير العراق عسكرياً. بالإضافة لتمنع تأسيس كتلة أوراسيوية من شأنها وضع العقبات أمام واشنطن في بسط سيطرتها على العالم. فقد كان الأميركيون يعتقدون أن أوراسيا هي نقطة العبور لفرض هيمنتهم على العالم. وبالتالي من يسيطر هيمنته على هذه المنطقة بإمكانه فرض كامل سيطرته على العالم، وهذا ما قاله بريجنسكي: "إنَّ أوراسيا هي الساحة التي تجري عليها المعركة الدائمة للهيمنة على العالم".⁴⁰⁶ ويمكننا هنا، أن نفهم الحرب التي قامت بها واشنطن ضد العراق في العام 1991، بحجة محاولة العراق احتلال الكويت، فقد جاء هذا الهدف لتستطيع واشنطن من تنفيذ هدفين استراتيجيين. فالعراق استطاع خلال حربه مع إيران أن يبني قوة عسكرية كبيرة وذلك خلال عامي 1980 و1988، وهو بالتالي يشكل تهديداً لوجود إسرائيل، التي تمثل جزءاً أساسياً من سياسة الإدارة الأميركية الخارجية، والركن الأساسي لسياستها الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط. وهذا يفسر لنا تجميع واشنطن كل الحجج والدلائل المزيفة لتتخذ منها سبباً تشنّ به حربها الثانية على منطقة الخليج. بالإضافة إلى طلب البيت الأبيض من الإمارات العربية المتحدة والكويت والسعودية لرفع إنتاجهم من النفط، الأمر الذي أدّى إلى هبوط حاد في سعر البرميل إلى 11 دولاراً أميركياً. في الوقت نفسه عملت السفارة الأميركية في العراق على إيهام صدام حسين الرئيس العراقي أن واشنطن لن تكون طرفاً في الحرب في حال قرر إعلانه حرباً على الكويت.⁴⁰⁷

Rodman, Peter: "Middle East Policy after the Gulf War", Foreign Affairs, vol.70, printemps 1991, ⁴⁰⁴ p.223.

Karawan, Ibrahim A.: "Arab Dilemmas in the 1990's: Breaking taboos and searching for signposts", p.434. ⁴⁰⁵

⁴⁰⁶ زبغنيو بريجنسكي: "رقعة الشطرنج الكبرى"، ترجمة أمل الشرقي، الأهلية للنشر، الطبعة الأولى، عمان، 1991، ص 12.
134 Haghigat Chapour: Comment les États-Unis avaient prévu d'écraser l'Irak: les dessous de la guerre du Golfe. Le Monde Diplomatique, avril 1992, p.14.

Rodman, Peter: "Middle East Policy after War", Foreign Affairs, vol.70, printemps 1991, p.223. ⁴⁰⁷

وعلى إثر ذلك الوعد الأميركي الواهم، قامت القوات العراقية باجتياح دولة الكويت وذلك في شهر آب/أغسطس من العام 1990. والتي استغلتها واشنطن واتخذتها حجة لإعلان حربها على العراق من أجل فرض القانون الدولي. وبالطبع أيدت قرارها هذا غالبية الدول والاتحاد السوفياتي بالإضافة إلى كتلة الدول الاشتراكية. وخشية أن يكون مصير سوريا المصير العراقي نفسه، فضلت دمشق أن تقف إلى جانب التحالف الدولي على الأقل سياسياً. وتم إعلان الحرب ضد العراق وذلك في 15 كانون الثاني/يناير من العام 1991. فاضطر صدام حسين في النهاية إلى سحب قواته من الأراضي الكويتية خلال 45 يوماً. استطاعت دمشق من الاستفادة من موقفها الذي اتخذته بالوقوف مع التحالف الدولي ضد العراق، لأنها كانت تتطلع إلى أن تكون شريكا لوشنطن في منطقة الشرق الأوسط. كما حصلت دمشق على قرابة 2 مليار دولار أميركي من السعودية، وجددت تحالفها مع مصر وكذلك دول الخليج (إعلان دمشق). كما تمكنت دمشق من انتزاع موافقة واشنطن لضرب العماد ميشال عون الذي كان يرأس حكومة عسكرية مؤقتة، وذلك منذ انتهاء ولاية أمين الجميل رئيس الجمهورية اللبنانية، وذلك في شهر أيلول /سبتمبر من العام 1988.⁴⁰⁸

Akins, James E, "The New Arabia. Foreign Affairs", vol.70, été 1991, p.44⁴⁰⁸

الفصل الثالث

العراق 1970 – 1991

في تموز يوليو من العام 1968 استولى حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق على السلطة بعد انقلاب قام به ضد الرئيس عبد الرحمن عارف الذي نفي خارج البلاد إلى الأردن ومن ثم إلى تركيا. وسيكون دور البعث متمحوراً حول شخصية صدام حسين الذي سيلعب الدور الرئيس في البعث العراقي منذ منتصف الستينيات، وحتى إطاحته على يد القوات الأميركية الغازية للعراق في العام 2003، ومن ثم إعدامه من قبل عملاء الاحتلال الأميركي في العام 2006.⁴⁰⁹

صدام حسين وصعود البعث

وقد ولد صدام حسين في 28 نيسان أبريل 1937 في بلدة العوجة التابعة لمحافظة تكريت. وبما أن والده توفي وهو لم يولد بعد فلقد تولى تربيته خاله خير الله طلفاح الذي زوجه ابنته ساجدة في ما بعد. وكانت لخير الله طلفاح نضالات ضد سلطات الانتداب وميول للقومية العربية ما أثر في توجهات صدام السياسية وأدّى إلى تبنيه للفكر القومي العربي. وقد انضمّ صدام إلى حزب البعث العراقي في الخمسينيات وهو لما يزل شاباً، في ظل المد القومي الجارف الذي أطلق عنانه جمال عبد الناصر. وقد شارك صدام في شبابه في المظاهرات التي كانت تنطلق ضد الحكم الملكي والانتداب البريطاني. وقد حاول صدام التطوع في الجيش العراقي إلا أنه رسب في امتحان الدخول إلى الكلية العسكرية. وبعد الثورة على الحكم الملكي شارك حزب البعث لفترة وجيزة في الحكومة التي شكلها عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، إلا أنه بعد افتراق الرجلين ووضع عارف في الإقامة الجبرية تمّ إبعاد البعث عن مفاصل السلطة، بل إن أفراداه تعرّضوا حتى للتنكيل على يد الشيوعيين العراقيين، خصوصاً بعد ثورة عبد الرحمن الشواف. بنتيجة ذلك حاول البعثيون اغتيال قاسم في تشرين الأول أكتوبر 1959 إلا أن المحاولة فشلت، فاضطر صدام الذي شارك في المحاولة وجُرح،

Con Coughlin, Saddam: His Rise and Fall, Harper Collins Ebook, 2016. ⁴⁰⁹

إلى الهرب إلى مصر حيث بقي هناك لسنوات عدة التحق خلالها بجامعة القاهرة لدراسة الحقوق.⁴¹⁰

وكان صدام قد مرّ بدمشق في طريقه إلى القاهرة فتعرّف إلى أحد مؤسسي حزب البعث ميشيل عفلق الذي سيلعب في ما بعد دوراً رئيسياً في صعود صدام إلى الصفوف القيادية في حزب البعث العراقي. وفي القاهرة التقى صدام أعلام بارزين من القوميين العرب من مختلف أنحاء العالم العربي، ويُحكى أنه التقى عبد الناصر لكن الرواية غير مثبتة، كما حُكي عنه أنه وضع في موضع الشبهات بعد ترّدّه إلى السفارة الأميركية في القاهرة. وبعد إطاحة قاسم عاد صدام إلى العراق وتواصل مع قائد الضباط البعثيين أحمد حسن البكر الذي كان له الدور الأبرز بإطاحة قاسم، والذي عينه عارف رئيساً للوزراء نتيجة ذلك. وقد استفاد صدام من تزكية عفلق له لتبوء مركز قيادي في الحزب. لكن العامل الأبرز في صعود نجمه كان في نجاحه في مواجهة الشيوعيين العراقيين الذين حاولوا مواجهة الانقلاب على قاسم بإطلاق حرب شوارع ضد عارف والبعثيين. وقد لعب صدام دوراً رئيسياً في تأسيس الحرس القومي الذي شكّل ميليشيا مسلّحة لمواجهة الشيوعيين، كما لعب دوراً رئيسياً في اعتقال وتعذيب الشيوعيين العراقيين طوال أشهر عدة. هذا دفع بعارف إلى التحرك ضد البعثيين وتصرفاتهم العنفية في العراق وعزلهم من السلطة. وقد ساهم الانقسام داخل البعث العراقي بين الجناح المدني بقيادة صالح السعدي والذي كان يؤيد الوحدة مع مصر وسوريا، والجناح العسكري بقيادة البكر المعارض لهذه الوحدة، إلى تسهيل مهمة عارف بإطاحة البعثيين في تشرين الثاني نوفمبر 1963 واستفراجه بالحكم.

بعد إطاحتهم من قبل عارف قرّر البعثيون إنشاء جهاز أمن تابع لحزب البعث، وسرعان ما اكتشفت أجهزة الأمن العراقية أمر الجهاز فقامت باعتقال قادة البعثيين ومن بينهم البكر، كما لاحقت أعضاءهم. لكن صدام تمكّن من الهرب وبدأ يعمل على إنشاء تنظيم سري تابع للحزب، وبدأ بالتخطيط أما للقيام بانقلاب على عبد السلام عارف أو اغتياله.⁴¹¹ وقد اكتشف أمر المؤامرة ومخبأ صدام فتم تطويقه ودارت معركة بين رجال الأمن وبينه قبل من بعدها الاستسلام، فسُجن في مديرية الأمن في بغداد ووضع تحت حراسة مشدّدة. وخلال اعتقاله في السجن قررت القيادة القومية لحزب البعث في دمشق، والتي كانت قد استولت على السلطة منذ آذار مارس 1963، انتخابه أمين سر القيادة القطرية للبعث العراقي رغم أنه كان لا يزال معتقلاً. وقد وجّهت له الشبهات وفي 23 تموز يوليو 1966، وأثناء نقله إلى المحكمة لحضور جلسة محاكمته، تمكّن صدام

410. Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, 85 – 86.

411. Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 86.

من الفرار، ليعمل في الخفاء على التحضير للاستيلاء على السلطة في العراق. وكان عبد السلاف عارف قد قُتل بعد تحطّم المروحية التي كانت تنقله مع عدد من المسؤولين في نيسان أبريل من ذلك العام وقيل إنه كان لتنظيم صدام السري، والذي كان يتلقى تعليماته من صدام عبر زوجته ساجدة التي كانت تزوره في السجن، اليد الطولى بالتسبّب بالحادث. لكن بنتيجة الضغوط المصرية فإن عبد الرحمن شقيق عبد السلام عارف كان قد خلف أخاه كرئيس على العراق. وكانت الخلافات قد ازدادت في ذلك الوقت بين بعثيي سوريا والعراق من جهة والضباط الناصريين المواليين لجمال عبد الناصر في العراق وسوريا من جهة أخرى، نتيجة فشل الجهود في تحقيق الوحدة الثلاثية بين العراق وسوريا ومصر والتي أُلقي باللائمة عليها على البعثيين السوريين الحاكمين في سوريا. وقد واصل صدام جهوده لإطاحة عارف واستفاد من الضربة التي تلقتها مصر في العام 1967 وضعف نفوذ عبد الناصر بعدها لقيادة الانقلاب على عارف الذي وقع في 17 تموز يوليو 1968. وقد كان صدام في الدبابة الأولى التي اقتحمت حديقة قصر الرئاسة حيث كان يُقيم عارف، فأسقط في يد الأخير وقدّم استقالته وارتضى الذهاب إلى المنفى لقاء وعد من صدام بعدم التعرّض لابنه الذي كان ضابطاً في الجيش العراقي. وبنتيجة حركة صدام هذه وصل البعث إلى السلطة في العراق، وتم تعيين أحمد حسن البكر رئيساً للدولة، فيما تولى صدام منصب نائب الرئيس ومسؤول الأمن القومي، إلا أنه في الحقيقة كان الرجل القوي في النظام الجديد والممسك بمفاصل السلطة بشكل فعلي، فيما كانت صلاحيات البكر صورية.⁴¹²

نائب الرئيس والرئيس

تميّز حكم صدام حسين باستخدام القوة ضد معارضيه وكان أول مَنْ تمّ استهدافه هم معارضو صدام داخل حزب البعث العراقي ومن أبرزهم أحد مؤسسي الحزب وأول أمين عام قطري له وهو فؤاد الركابي. وكان الركابي قد أصبح وزيراً للإعمار في أول حكومة شكّلت بعد الثورة في العام 1958، لكنه استقال من منصبه في شباط فبراير 1959 احتجاجاً على السياسات المعادية للوحدة مع مصر وسوريا التي انتهجها عبد الكريم قاسم، ثم لجأ بعد ذلك إلى سوريا. وفي الخلاف بين البعث السوري وعبد الناصر انحاز الركابي إلى الأخير ما جعل البعثيين العراقيين يعادونه. وبعد تفرّد عبد السلام عارف بالحكم عاد إلى العراق وبات من أبرز مؤيديه ويشغل منصب وزير الشؤون البلدية

⁴¹² Phebe Marr, A History of Iraq, p.p. 134 – 135.

والقروية في حكومته. ثم أسس مع عدد من القوميين الحركة الاشتراكية العربية في العام 1965. وقد اعتقل الركابي بعد انقلاب البعث على عبد الرحمن عارف في العام 1968 ثم قتل في السجن في العام 1971 على يد أحد السجناء بأمر مباشر من صدام حسين. في الوقت نفسه كان صدام حسين يركّز السلطات في يده، إضافة إلى سيطرته على جهاز الأمن وتطويره ليصبح من أهم أجهزة المخابرات التي تدير البلاد، فلقد عيّن نفسه مسؤولاً عن دائرة الفلاحين في الحزب، إضافة إلى بسط سلطاته على قطاعات التعليم والدعاية وغيرها. وقد شكل البكر وصدام الجبهة الوطنية التقدمية لتكون واجهة لنظام تعددي في العراق يضمّ مختلف الأحزاب العراقية، على غرار الجبهة الوطنية التقدمية في سوريا، لكن هذه الجبهة كما مثيلتها السورية لم تكن إلا واجهة للسلطة لتشريع استفراء حزب البعث بالحكم. وكان الحزب الشيوعي العراقي قد تعرّض لضربة قاصمة على يد البعثيين بعد إطاحة قاسم في العام 1963 فارتضى زعيمه عزيز محمد بالدخول في الجبهة الوطنية التقدمية في العام 1973. وقد شكل هذا اعترافاً من الحزب بفقدان نفوذه الذي بدأ يتراجع لصالح حزب البعث في وسط العراق ولصالح حزب الدعوة في جنوب العراق.⁴¹³

صدام وحزب الدعوة

كان نفوذ حزب الدعوة الإسلامية قد بدأ يتصاعد في جنوب العراق نتيجة الضربة القاصمة التي تعرّض لها الحزب الشيوعي العراقي بعد إطاحة قاسم. وكان هذا قد تمّ برضى من حزب البعث وعبد السلام عارف على حد سواء إذ وجدا فيه تقليصاً لنفوذ الشيوعيين العراقيين. وقد تُرجم هذا بتوسّع مسيرات النذب خلال احتفاليات عاشوراء التي كانت تجرى في ذكرى استشهاد الإمام الحسين. وقد تصاعد نفوذ حزب الدعوة في السبعينيات من القرن الماضي ما بات يهدّد نفوذ حزب البعث وفرصه بالاستفراء بالسلطة، خصوصاً أن أنصار حزب الدعوة المدعومين من المرجعيات الدينية كانوا قد بدأوا يجاهرون بتكفير نظام الحكم البعثي العلماني "الكافر" ويدعون إلى إقامة دولة إسلامية في العراق. هذا دفع بصدام إلى اعتقال قادة حزب الدعوة في العام 1974 وإعدامهم. وفي العام التالي أصدر صدام قراراً بحظر الشعائر والمسيرات الدينية التي كانت تُقام لمناسبة عاشوراء. لكن قادة الحزب واطبوا على تحدّي السلطة ونظموا مسيرات ضخمة في النجف وكربلاء

⁴¹³ Tarek Ismael, The Rise and Fall of the Communist Party of Iraq, Cambridge: Cambridge University Press, 2008.

في العام 1977 قاموا خلالها بمهاجمة مقر حزب البعث وقتلوا عدداً كبيراً من مسؤوليه الإقليميين. فردّ حزب البعث بتنظيم حملة واسعة ضد أعضاء حزب الدعوة قام خلالها باعتقال وقتل عدد كبير منهم. وبعد انقلابه على البكر وتسلمه الحكم أصدر صدام حسين قراراً في آذار مارس 1980 يقضي بتجريم وإعدام كل من ينتمي إلى حزب الدعوة، وبناء عليه اعتقل الإمام محمد باقر الصدر وأخته بنت الهدى في نيسان أبريل 1980 وأمر بتعذيبهما وإعدامهما. هذا دفع بأعضاء الحزب إلى اللجوء إلى إيران والقتال إلى جانب الجيش الإيراني خلال الحرب العراقية الإيرانية التي اندلعت في أيلول سبتمبر 1980.⁴¹⁴

صدام والأكراد

في العام 1970، وبعد عقد من النزاع المسلح بين السلطة المركزية العراقية والحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مصطفى البرزاني، قبلت الحكومة العراقية بالتوقيع على اتفاقية مع الأخير تُعطي بموجبها الأكراد حكماً ذاتياً في شمال العراق. وقد جاءت الاتفاقية نتيجة جهود قام بها أعضاء في الحكم كانوا يريدون الاعتراف بحقوق الشعب الكردي الثقافية، كما كان يقلقهم وجود عناصر من الاستخبارات الإسرائيلية الموساد في منطقة شمال العراق كضباط ارتباط لدعم التمرد الكردي.⁴¹⁵ لكن صدام حسين كان يعارض هذه الاتفاقية التي كان يعتبرها تهدد وحدة العراق.⁴¹⁶ وفي أيلول سبتمبر 1971، وبعد عام واحد من توقيع الاتفاقية وقعت محاولة اغتيال للبرزاني اتهم صدام حسين بالتخطيط لها. وكان وفد حكومي بقيادة الشيخ عبد الجبار الأعظمي قد توجه إلى مقر البرزاني في منطقة حاج عمران على الحدود الإيرانية العراقية للتباحث معه في كيفية تعميق العلاقات بين الأكراد والحكومة المركزية بعد النجاح في تطبيق الاتفاق لمدة عام كامل. وعند دخول الوفد الحكومي إلى مكتب البرزاني وقع انفجار قوي أودى بحياة ثلاثة من الوفد الحكومي وأحد معاوني البرزاني الذي خرج من المكتب سليماً، إلا أن أحد مرافقي الوفد ألقى قنبلة باتجاهه أدّى انفجارها إلى جرحه في ساقه. وقد جرى بعد ذلك اشتباك بين مرافقي الوفد الحكومي وحراس البرزاني أدّى إلى مقتل المرافقين الحكوميين. وبنتيجة محاولة الاغتيال هذه تجددت المعارك بين القوات الحكومية وقوات البرزاني لثلاثة أعوام تالية أدّت إلى مقتل عشرات الآلاف من العراقيين

⁴¹⁴ Phebe Marr, A History of Iraq, p.p. 170 – 171.

⁴¹⁵ Phebe Marr, A History of Iraq, p. 152.

⁴¹⁶ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p.p. 84 – 85.

العرب والكرد.⁴¹⁷ وكان البرزاني لا يزال يتلقى دعماً بالسلاح والمال من شاه إيران رضا بهلوي الذي كان يضغط على العراق منذ أيام عبد الكريم قاسم ليقدم تنازلات عن مطالبه في شط العرب. وفي العام 1974 بدأ صدام بإجراء محادثات مع شاه إيران حول شط العرب بواسطة من دولة الجزائر. وقد تمخضت المفاوضات عن اتفاقية قضت بتسليم الحدود في تلك المنطقة بين العراق وإيران لقاء سحب شاه إيران دعمه لأكراد العراق.⁴¹⁸ ونتيجة ذلك انسحب البرزاني إلى إيران حيث أقام في طهران حتى عام 1979 ليذهب بعدها إلى الولايات المتحدة للعلاج من السرطان ويُتوفي هناك.⁴¹⁹

التحوّلات الإقليمية

شكّل منتصف السبعينيات من القرن الماضي مرحلة تحوّل كبيرة في التحالفات الإقليمية والدولية أثّرت على التوازنات الدولية والإقليمية وأثّرت على علاقات العراق الدولية والإقليمية. كان جمال عبد الناصر قد توفي في 28 أيلول سبتمبر 1970 وخلفه في الحكم نائبه أنور السادات الذي بدأ بسياسة التقارب مع الغرب سرّاً، مؤمناً بأن حل الصراع العربي الإسرائيلي لا يمكن أن يكون إلا عبر سلام يوقع مع إسرائيل وفقاً لقرار الأمم المتحدة 242 الذي يعترف بالدولة العبرية ضمن حدود ما قبل حرب 1967. وكان السادات يعتقد بأن الولايات المتحدة تمتلك 99 في المئة من أوراق الحل في المنطقة. وقد شجّعه على ذلك الملك السعودي فيصل بن عبد العزيز الذي كانت تربطه بالسادات علاقة وطيدة منذ الستينيات عبر صهره كمال أدهم. وقد ساهمت في خيارات السادات خلفيته عندما كان ضابطاً في الجيش قبل الثورة، إذ حُكي أنه كانت له ارتباطات بالأخوان المسلمين. وما أن تسلم السلطة حتى أبعد فريق الحكم الذي كان يعتمد عليه جمال عبد الناصر في أحداث 15 أيار مايو الشهيرة والتي اعتُقل خلالها رئيس وزراء عبد الناصر علي صبري ووزير الدفاع الفريق أول محمد فوزي ووزير الداخلية شعراوي جمعة وعدد كبير من القيادات التي كانت تسمّى بالناصرية. كذلك أطلق السادات أعضاء الإخوان المسلمين والجماعات الجهادية من السجون ليكونوا عوناً له في الشارع المصري ضد الناصريين والقوميين العرب والشيوعيين الذين كانوا يشكلون غالبية الشارع المصري آنذاك. وفي العام 1972 طرد أنور السادات الخبراء السوفيات الذين كانوا يعملون في مصر لدعم الجيش المصري ضد إسرائيل، وقد فسّر هذا القرار آنذاك أنه محاولة لاسترضاء الأميركيين حتى

⁴¹⁷ Phebe Marr, A History of Iraq, p. 153.

⁴¹⁸ Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 90.

⁴¹⁹ Kerim Yildiz, The Kurds in Iraq: The Past Present and Future, London: Pluto Press, 2004.

يُجبروا إسرائيل على حل سلمي يُجنّب الرئيس المصري خيار الحرب الذي كانت تطالب به الجماهير المصرية والجيش لتحرير سيناء.

وفي سوريا كان قد وقع انقلاب في تشرين الثاني نوفمبر 1970 تسلّم إثره وزير الدفاع حافظ الأسد مقاليد الحكم بعد إطاحة الجناح اليساري في الحزب بقيادة صلاح جديد ونور الدين الأتاسي.⁴²⁰ إلا أن هذا الانقلاب لم يسهم في إصلاح العلاقة بين البعث العراقي والبعث السوري إلا لفترة وجيزة. وكان الخلاف قد دبّ بين الحزبين إثر إطاحة جديد بالجناح اليميني المحافظ بالحزب بقيادة المؤسس ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني في العام 1966، وانتهج سياسات اشتراكية أضرت بمصالح كبار التجار والطبقة البورجوازية السورية، وخصوصاً الشامية منها، ما جعلها تؤيد انقلاب حافظ الأسد في العام 1970. وبسبب إطاحة عفلق الذي لجأ في ما بعد إلى العراق ليعيش لعقدين تحت حماية صدام حسين، فلقد ساهم ذلك في منع التقارب بين الحزبين وفي الكراهية الشخصية بين حافظ الأسد وصدام حسين الذي كان يعتبر أن لعفلق فضلاً عليه لأنه هو الذي كان قد اختاره لتبوء منصب قيادي في البعث في العام 1964. كذلك فلقد كان صدام يكن العداء للاتحاد السوفياتي نتيجة دعم الأخير للحزب الشيوعي العراقي ولقاسم في أوائل الستينيات، على حساب البعث، وكان يتحجّن الفرصة للانفتاح على الغرب والابتعاد عن الاتحاد السوفياتي، ناهيك عن الطفرة النفطية في السبعينيات التي أهّلت الدولة العراقية لاعتماد سياسات ريعية باذخة مكنتها من لبرلة الاقتصاد متجاوزة التناقضات الاجتماعية الداخلية. ولقد كان هنالك تيار بعثي محافظ يعادي التوجهات اليسارية في حزب البعث ويدعم صدام في توجهه. وقد استفاد صدام من ذلك لبدأ سياسة انفتاح على الغرب منذ أواسط السبعينيات. وقد شكلت فرنسا جسر عبور لصدام للعلاقات مع الدول الغربية فوقع معها اتفاقية تعاون اقتصادي في العام 1976 أثارت حفيظة الاتحاد السوفياتي عليه، خصوصاً أن باريس كانت قد بدأت تلعب دور جسر عبور الغرب إلى المنطقة العربية بعد عقد من قطع معظم الدول العربية باستثناء دول الخليج علاقاته مع كامل الدول الغربية. ففي ذلك العام كانت فرنسا قد دخلت في اتفاق سري مع كل من المغرب ومصر والمملكة العربية السعودية وإيران سُمّي باتفاق السفاري ويقضي بتعاون أجهزة البلدان المذكورة لمكافحة الشيوعية في القارة الأفريقية.⁴²¹

Hinnebusch, Raymond; *Does Syria want Peace? Syrian Policy in the Syrian Israeli Peace Negotiations*, ⁴²⁰

Journal of Palestine Studies Revue d'Etudes Palestiniennes, no. 101, Automne 1996

⁴²¹ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، القاهرة: الشروق.

اتفاقية الجزائر

شكّلت العوامل الآتفة الذكر ظرفاً مؤاتية لصدام حسين والتيار المحافظ أو اليميني في حزب البعث ليعزّز نفوذه في مواجهة التيار اليساري في الحزب والذي كان قد بدأ يتقرّب من الرئيس أحمد حسن البكر ليتخذ منه مظلة له. ولقد ترجم ذلك ازدواجية في سياسة العراق الخارجية والسياسات التي اعتمدها. ففيما أرسل العراق أُلوية مقاتلة للقتال إلى جانب الجيش السوري خلال حرب تشرين التحريرية، إلا أنه بعد سنة على ذلك دعم بعض الفصائل الفلسطينية واللبنانية خلال الحرب الأهلية التي اندلعت ضد النفوذ السوري في لبنان. وفيما كان العراق يتسلّح مع الاتحاد السوفياتي، إلا أنه كان قد بدأ يتقارب مع الغرب. وكان صدام حسين يعتقد أن التقارب مع الغرب يمكن أن يجعل هذا الغرب وحلفاءه في الشرق الأوسط وأبرزهم إيران في سحب دعمها للمتمردين الأكراد كما ورد آنفاً.⁴²²

في هذا الإطار جاءت اتفاقية الجزائر بين صدام حسين وشاه إيران محمد رضا بهلوي بوساطة من الرئيس الجزائري هواري بومدين عام 1975 والتي قضت بترسيم الحدود بين البلدين في منطقة شط العرب وفقاً للرؤية والشروط الإيرانية. وكان الدافع لذلك بالنسبة لصدام، عدا عن إقناع طهران بسحب دعمها للأكراد، موقف الشاه المعادي لرجال الدين الشيعة وهو ما كان يستهوي صدام الذي كان قد بدأ يواجه ضغوطاً متزايدة من قبل حزب الدعوة الإسلامية، كما ورد آنفاً.⁴²³

وكانت إيران تعارض اتفاقية ترسيم الحدود التي وقعت بين العراق وإيران في العام 1937 عندما كان البلدان واقعين تحت النفوذ البريطاني. وبناء على هذه الاتفاقية فإن ترسيم الحدود اعتمد نقطة وسط بين البلدين غير نقطة القعر المعتمدة في ترسيم الحدود البحرية بين البلدين والتي تقوم على الترسيم وفقاً لخط مناصفة عندما يكون مستوى البحر في أقصى انحدار له. وكانت إيران تطالب بالعودة إلى اتفاقية ترسيم الحدود بين العراق وإيران الموقعة مع الدولة العثمانية في العام 1913 والتي تعتمد نقطة القعر كأساس ترسيم الحدود بما يُحرم العراق من منطقة واسعة مطلّة على الخليج. وقد استمر الخلاف حتى تسلّم البعث للسلطة في العراق والذي أثر تصعيد الأزمة مع إيران حين أبلغ حكومتها في العام 1969 رفضه الترسيم وفقاً لنقطة القعر.⁴²⁴ ورداً على ذلك صعدت إيران من دعمها للمتمرّدين الكرد لحين توقيع اتفاقية الجزائر التي وافق من خلالها صدام

Phebe Marr, A History of Iraq, p.p. 155 – 156. ⁴²²

Phebe Marr, A History of Iraq, p.p. 145 – 146. ⁴²³

Phebe Marr, A History of Iraq, p.p. 153 – 154. ⁴²⁴

حسين على وجهة نظر الحكومة الإيرانية لجهة ترسيم الحدود البحرية بين البلدين وتنازل بذلك عن قسم كبير من شط العرب لإيران.⁴²⁵

نكبة البعثيين

في العام 1975 وقعت مصر اتفاقية فصل القوات الثانية مع إسرائيل والتي أخرجت عملياً القاهرة من الصراع مع إسرائيل. وقد عُدَّ هذا خلافاً كبيراً في موازين القوى لصالح الدولة العبرية. في الوقت نفسه عقد اتفاق جنيف للسلام برعاية من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لتحقيق السلام بين العرب وإسرائيل إلا أن النيات الحقيقية للدولة العبرية التي كان قد وصل إلى سدة السلطة فيها اليمين المتطرف كانت في تحقيق سلام منفرد مع مصر وفقاً لشروط تل أبيب وفي فرض هيمنتها على المشرق العربي، وحتى إعادة رسم الجغرافيا السياسية لهذا المشرق وتقسيم هذه المنطقة دويلات اثنية وعشائرية وطائفية وقبلية. رداً على ذلك حاول الرئيس السوري حافظ الأسد بناء جبهة شرقية لمواجهة إسرائيل تتكوّن من سوريا والعراق والأردن ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية. كذلك سعى إلى تأليف جبهة الصمود والتصدي من سوريا والعراق واليمن والجزائر وليبيا لمواجهة مفاعيل السلام المنفرد الذي وقعته إسرائيل مع مصر في آذار مارس 1979 في كامب دايفيد في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد سعى حافظ الأسد إلى إقامة وحدة مع العراق لإعادة توازن القوى مع الكيان الصهيوني وارتضى ان يكون هو نائباً للرئيس على أن يكون أحمد حسن البكر رئيس دولة الوحدة العراقية السورية. وقد رحّب البكر والجناح المدني المؤيد له في البعث العراقي بالوحدة مع سوريا ووجدوا فيها وسيلة لهم لترجيح الكفة لصالحهم على حساب الجناح الأمني الذي يقوده صدام حسين، كما وجدوا فيه تدعيماً لمنحى التقارب مع الاتحاد السوفياتي وكتلة الدول الاشتراكية والدول العربية التقدمية على حساب العلاقة مع الغرب والقوى العربية التقليدية.

لكن في 22 تموز يوليو 1979 قام صدام حسين بانقلاب على رفاقه بالحزب وأجبر الرئيس أحمد حسن البكر على تقديم استقالته ووضعه في الإقامة الجبرية، ثم دعا إلى اجتماع عام لقيادات حزب البعث في قاعة الخلد في بغداد، حيث أعلمهم "بقرار البكر على الاستقالة" لدواعٍ صحية وبدأ يتلو على مسامع الجميع لائحة بأسماء من اعتبرهم خونة وعملاء لحافظ الأسد ويدعوهم إلى الخروج

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 90. ⁴²⁵

ليقوم أفراد من جهاز الأمن بتصفيتهم. وقد لفقت تهمٌ للمتهمين وأخذت اعترافات تحت التعذيب والتهديد بقتل أسر المتهمين قبل إعدام 22 منهم.⁴²⁶ ثم شنَّ صدام والموالون له حملة اعتقالات طالت مئات القياديين البعثيين المعارضين له فقام بتصفيتهم جميعاً. وبذلك استتب الأمر لصدام كحاكم مطلق للعراق، فيما هرب آلاف الشيوعيين والبعثيين وأعضاء حزب الدعوة خارج العراق، ومن بقي منهم عمل في الخفاء لمقاومة حكم صدام.⁴²⁷

نحو الحرب الإيرانية العراقية

في أوائل الستينيات من القرن الماضي حاول شاه إيران محمد رضا بهلوي كسر قبضة المؤسسة الدينية في إيران على الريف عبر الملكيات الزراعية الكبيرة التي كانت تمتلكها، خصوصاً أنه بعد الضربة التي كان قد تلقاها الشيوعيون الإيرانيون نتيجة الأزمة السوفياتية الإيرانية في العام 1946 والتي انتهت لصالح الحكومة الإيرانية التي استعادت سيطرتها على شمال إيران، وبعد الضربة التي تلقاها الليبراليون الإيرانيون عبر الانقلاب على حكومة الدكتور محمد مصدق في العام 1953 بدعم بريطاني أميركي، فإن المؤسسة الدينية باتت العقبة الأخيرة بين الشاه وبين إعلان نفسه حاكماً مطلقاً لإيران.⁴²⁸ وقد انبرى رجل دين في أوائل الخمسينيات من عمره هو روح الله الخميني لمعارضة توجهات الشاه، وما لبثت أن اندلعت مواجهات بين أنصاره وبين رجال الشرطة ذهب ضحيتها عدد من القتلى وأدّت إلى اعتقال الخميني والحكم عليه بالإعدام. هنا اجتمع كبار العلماء الإيرانيين وأعلنوا الخميني مرجع تقليد لمنع تنفيذ حكم الإعدام به، ففرض الشاه عليه الإقامة الجبرية. وفي العام 1964 نفاه إلى النجف في العراق ليقوم هناك وينظم المعارضة للشاه. وكان هذا الإمام الخميني يسجل تسجيلات صوتية ويرسلها إلى أنصاره ليحثهم على معارضة الشاه. وكان هذا يُزعج الشاه ويهدّد استقرار حكمه، وعندما وقّع مع صدام اتفاق الجزائر، تضمن الاتفاق وقف الشاه دعمه للمتمردين الأكراد في مقابل طرد صدام للإمام الخميني من العراق. ويُقال إن

⁴²⁶ Courtney Hunt, *The History of Iraq*, London: Greenwood Press, 2005, p. 85.

⁴²⁷ Phebe Marr, *A History of Iraq*, p. 173.

⁴²⁸ Kenneth M. Pollack, *The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America*, New York:

Random House, 2004, p.p. 63 – 71.

الخميني رفض في البداية قرار صدام ما جعل هذا الأخير يذهب بنفسه إلى مقر إقامته ويُجبره على الرحيل إلى الكويت ومنها إلى فرنسا.

في شباط فبراير 1979 اضطر الشاه إلى الهرب من إيران بعدما تحوّلت تظاهرات الاحتجاج التي كانت قد بدأت قبل عامين وتواصلت حتى أوائل العام 1979 ثورة شاملة أدّت حتى إلى تمرد الجيش عليه وإعلان ولائهم للإمام الخميني. وما لبث الإمام الخميني أن تبوأ سدة السلطة في إيران وأعلن قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية.⁴²⁹ وكان الإمام الخميني قد استوحى الكثير من آرائه من حزب الدعوة الإسلامية العراقي فخشي صدام من إن تتحول إيران إلى قاعدة لدعم حزب الدعوة العراقي بما يهدّد استقرار حكمه في العراق. في هذا الوقت كانت الولايات المتحدة تخشى من أن تصبح إيران قاعدة لثورات تشمل العالمين العربي والإسلامي وكان لا بد لها من العمل لاحتوائها. وفي أواخر العام 1979 اكتشفت مؤامرة من قبل الأميركيين للتواصل مع بعض رموز الحكم الجديد في إيران للقيام بثورة مضادة وإطاحة الإمام الخميني. فردّ هذا الأخير بدفع الطلاب إلى احتلال السفارة الأميركية في طهران، حيث اكتشفت وثائق تُدين كلاً من مهدي بازركان ورئيس الدولة الحسن بني صدر وغيرهم. فقام الإمام الخميني بعملية تطهير واسعة للسلطة من العناصر الموالية للولايات المتحدة.⁴³⁰ في الوقت نفسه كانت دول الخليج العربية تخشى من الدعوات التي أطلقها الإمام الخميني للثورة في الدول العربية والإسلامية ضد أنظمة الحكم القائمة والتي اعتبرها غير شرعية وموالية للغرب. وقد وجد قادة حزب الدعوة العراقي في نجاح ثورة الخميني محفزاً لهم على القيام بالمثل في العراق.⁴³¹ هذا جعل صدام يردّ بحملة اعتقالات بحق قادة الحزب ومن ضمنهم مؤسسه وقائده الروحي الإمام محمد باقر الصدر وشقيقته حيث عرّضهما للتعذيب ثم أمر بإعدامهما، كما أصدر قراراً يقضي بإعدام أي عضو من أعضاء حزب الدعوة. كذلك فلقد طمح صدام لأن يلعب دور شرطي الخليج لصالح الغرب والذي كان قد أنيط بشاه إيران قبل ذلك. كل هذه العوامل دفعت الغرب والدول العربية الخليجية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية لشنّ حرب على إيران، مستغلين حالة الارتباك التي كانت تعيشها نتيجة الصراع الداخلي على السلطة الذي تلا الثورة.⁴³²

Kenneth M. Pollack, *The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America*, New York: ⁴²⁹

Random House, 2004, p.p.80 - 85.

Robert Fisk, *the Great War for Civilization*, Chapter the Carpet Weavers. ⁴³⁰

Courtney Hunt, *The History of Iraq*, London: Greenwood Press, 2005, p. 91. ⁴³¹

Phebe Marr, *A History of Iraq*, p.p. 171 - 173. ⁴³²

مسار الحرب بين العراق وإيران

بدأت الحرب بهجوم عراقي شامل على إيران في 22 أيلول سبتمبر 1980 عندما قام سلاح الجو العراقي بالإغارة على المطارات الإيرانية، إلا أن الهجوم لم يحقق أهدافه بتدمير الطائرات والمطارات الإيرانية بالكامل، وقد اتبع هذا الهجوم بهجوم بري على طول 644 كيلومتراً من الحدود الإيرانية العراقية في ثلاثة محاور شمالية ووسطى وجنوبية، وكان الزخم الأساسي للهجوم في الجنوب باتجاه ميناء عبادان الإيراني ومدينة خرمشهر وهي عاصمة منطقة خوزستان الإيرانية أو المحمّرة باللغة العربية. وكان صدام يأمل أن يؤدي الهجوم الكبير الذي شنّه إلى انهيار حكومة الإمام الخميني وإلى قبول إيران بالشروط العراقية لوقف إطلاق النار، إلا أن حسابات صدام لم تتحقق. وفي اليوم التالي شنّ الطيران الحربي الإيراني هجوماً معاكساً على الوحدات العراقية المهاجمة وعلى عدد من المطارات والقواعد العراقية إضافة إلى مصافي النفط والسدود وعدد من الأهداف العسكرية والمدنية العراقية الأخرى ما وجّه ضربة قاسية للبنى التحتية العراقية الاقتصادية. على الرغم من ذلك فلقد تمكّن الجيش العراقي من محاصرة مدينة خرمشهر واحتلالها في 24 تشرين الأول أكتوبر 1980 فيما انسحب الجيش الإيراني إلى الشرق من نهر قارون. بعد ذلك أمر صدام الجيش العراقي بالتقدم نحو الأحواز إلا أن الطيران الإيراني كان قد تمكن من ضرب مخازن السلاح العراقية وفرض مظلة جوية فوق جنوب العراق ما عرقل الجهود العسكرية العراقية.⁴³³ وقد ساهمت الضربة في تقوية نظام الإمام الخميني عوض إضعافه إذ إنها استفزت الوطنية الإيرانية وجعلت الشعب الإيراني بمعظم أطيافه يلتفّ حول الإمام الخميني ما مكّن البلاد من الصمود أمام تقدم الجيش العراقي وأفشل محاولاته في احتلال عبادان على الرغم من محاصرته لها من جهة البر. هذا جعل صدام يأمر الجيش العراقي في كانون الأول ديسمبر باعتماد استراتيجية دفاعية ضد الجيش الإيراني الذي كان قد بدأ بتنظيم هجماته لاسترداد المناطق التي خسرها في الأسابيع الأولى للحرب. وفي كانون الثاني يناير 1981 شنّ الجيش الإيراني هجوماً واسع النطاق بالدبابات في منطقة دزفول وتمكّن من اختراق الدفاعات العراقية في البداية إلا أن الجيش العراقي تمكّن من محاصرة المهاجمين وتكبيدهم خسائر كبيرة في الدبابات. بعد ذلك ثبتت الجبهة لنحو ثمانية أشهر تخللتها مناوشات متبادلة على طول خط الجبهة.⁴³⁴

Stephen C. Pelletiere, *The Iran- Iraq War: Chaos in a Vacuum*, New York: Praeger Publishers, 1992, ⁴³³ p.p. 23 – 46.

Courtney Hunt, *The History of Iraq*, London: Greenwood Press, 2005, p.p. 92. ⁴³⁴

في بداية العام 1982 كانت إيران قد بدأت تعتمد تكتيكاً جديداً في الحرب وهو الهجوم بموجات بشرية وذلك للتعويض عن نقص العتاد الثقيل لديها نتيجة الحظر الغربي وحتى الشرقي عليها والذي منعها من شراء السلاح من السوق العالمية. في المقابل كان العراق يتمتع بالقدرة على شراء السلاح المتقدم من الاتحاد السوفياتي والصين وفرنسا. ومع حلول شهر تشرين الثاني نوفمبر 1981 بدأ الإيرانيون بهجوم واسع النطاق استخدمت فيه ثلاثة ألوية مدرعة وسبع فرق تابعة للحرس الثوري الإيراني لتتمكّن من استعادة مدينة البستان ومناطق واسعة من القوات العراقية على الرغم من الخسائر الإيرانية الكبيرة والتي بلغت ثلاثة أضعاف الخسائر العراقية. وفي آذار مارس 1982 كانت إيران قد أطلقت هجوماً كبيراً باسم الفتح المبين تمكنت من خلاله بكسر الدفاعات العراقية وحاصروها بالقرب من مدينة شوش، ونتيجة المعركة تمكّنت إيران من استعادة شوش ودزفول والأحواز واستعادوا معظم ولاية الأحواز. في هذا الوقت كان الطيران الحربي الإيراني قد أغار على المطارات العراقية مدمراً نحو خمسين طائرة حربية عراقية حديثة ما أعطاه تفوقاً جويّاً كبيراً. هذا منح القوات الإيرانية الفرصة لشن هجوم كبير على القوات العراقية مجبرة إياها على التراجع غرباً إلى نهر قارون. ومع حلول أواخر شهر أيار مايو تمكنت القوات الإيرانية من استعادة مدينة خرمشهر ومعظم الأراضي التي كانت القوات العراقية قد احتلتها قبل عام ونصف وبدأت تتحصّر للهجوم على الأراضي العراقية. ونتيجة الهزيمة أمر صدام بإعدام عدد من كبار القادة العراقيين "عقاباً لهم على تقصيرهم".⁴³⁵

مع حلول حزيران يونيو 1982 عرض صدام حسين وقفاً لإطلاق النار على إيران إلا أن الإمام الخميني رفض ذلك مطالباً بتغيير النظام في العراق ودفع تعويضات لإيران، وكان الإمام الخميني يأمل تصدير الثورة الإسلامية إلى البلد المجاور في إطار إيمانه بثورة عالمية إسلامية ضد قوى "الاستكبار".⁴³⁶ وكانت سوريا تقف إلى جانب إيران بعد الزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس حافظ الأسد إلى طهران في صيف العام 1980. في المقابل كانت فرنسا والاتحاد السوفياتي تدعمان العراق، خصوصاً أن موسكو كانت غاضبة على الثورة الإيرانية نتيجة تصفية الحزب الشيوعي الإيراني على يد أنصار الإمام الخميني. في الوقت نفسه كانت الولايات المتحدة قد قررت الانفتاح على العراق بعد رفعها له عن قائمة الدول الراعية للإرهاب وزيارة موفد أميركي هو دونالد رامسفيلد لبغداد ولقائه صدام حسين. في هذا الوقت كانت إيران قد حشدت مئات آلاف الجنود

Stephen C. Pelletiere, The Iran- Iraq War: Chaos in a Vacuum, New York: Praeger Publishers, 1992, ⁴³⁵ p.p. 49 – 71.

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p. 92. ⁴³⁶

للهجوم على جنوب العراق وقد نجحت قواتها في التقدم إلى البصرة ومحاصرتها لكنها عجزت عن احتلالها.⁴³⁷ وقد بقيت القوات الإيرانية على أطراف البصرة طوال عامي 1983 و1984 حيث خاض البلدان حرب استنزاف ضد بعضهما البعض طالت أيضاً المصالح الاقتصادية لكل منهما إذ بدأت القوات الجوية والبحرية للبلدين تشنّ هجمات على ناقلات النفط التي تنقل نفطهما إلى الأسواق العالمية. كذلك شنّ العراقيون والإيرانيون هجمات بالصواريخ الباليستية ضد المدن الإيرانية والعراقية.⁴³⁸ مع حلول شباط فبراير 1986 تمكن الإيرانيون من كسر الجمود في الجبهة وشنوا هجوماً واسعاً تمكنوا خلاله من احتلال شبه جزيرة الفاو العراقية المطلة على الخليج.⁴³⁹ وقد فشلت الهجمات العراقية المضادة من استعادة الفاو ما شكّل ضربة قاسية للعراق ولنظام صدام حسين. وقد حاول الإيرانيون بعد ذلك من التقدم باتجاه ميناء أم القصر إلا أن العراقيين تمكنوا من صدّ الهجوم. ولتحويل أنظار الإيرانيين من الجنوب هاجم صدام في الوسط وتمكّن في أيار مايو 1986 من احتلال مدينة مهران إلا أن الإيرانيين تمكنوا من استعادتها في شهر تموز يوليو.⁴⁴⁰

هذه النجاحات الإيرانية جعلت الولايات المتحدة أكثر حماساً لدعم صدام حسين ومده بمعلومات استخبارية من الأقمار الصناعية الأميركية. هذا مكّن الجيش العراقي من تفعيل دفاعاته ضد الهجمات الإيرانية والتحضير لاستعادة الفاو في العام 1987. بعد ذلك شنّ الجيش العراقي في بدايات العام 1988 هجوماً واسع النطاق على طول خط الجبهة تمكّن من خلاله من احتلال عدد من المناطق الحدودية مع إيران وكسر معنويات الجيش الإيراني ما أجبر الإمام الخميني على القبول بوقف إطلاق النار بعد حرب دامت نحو ثمانية أعوام وكلفت البلدين مئات آلاف القتلى والجرحى وخسائر تقدّر بمئات مليارات الدولارات مع تدمير البنى التحتية ووقوع كل من إيران والعراق في مديونية كبيرة قدّرت بمئات مليارات الدولارات.⁴⁴¹ وقد شهد العام 1991 حدثين رئيسيين لهما أهمية كبرى على الصعيد الدولي وعلى مستوى الشرق الأوسط وكانت لهما تداعيات على السياسة السورية تجاه إسرائيل. كان الأول هو حرب الخليج الثانية التي أدّت إلى تدمير القوة العسكرية العراقية وفرض حظر على العراق ما جعله يفقد قدرته على لعب دور على الصعيد الإقليمي، أما الحدث الثاني فكان انهيار الاتحاد السوفياتي. وقد فتح ذلك المجال أمام الحديث عن قيام نظام

Stephen C. Pelletiere, *The Iran- Iraq War: Chaos in a Vacuum*, New York: Praeger Publishers, 1992, ⁴³⁷ p.p. 71 – 92.

Courtney Hunt, *The History of Iraq*, London: Greenwood Press, 2005, p.p. 93 – 94. ⁴³⁸

Courtney Hunt, *The History of Iraq*, London: Greenwood Press, 2005, p. 93. ⁴³⁹

Stephen C. Pelletiere, *The Iran- Iraq War: Chaos in a Vacuum*, New York: Praeger Publishers, 1992, ⁴⁴⁰ p.p. 93 – 116.

Courtney Hunt, *The History of Iraq*, London: Greenwood Press, 2005, p. 94. ⁴⁴¹

إقليمي جديد في الشرق الأوسط يكون تحت الهيمنة الإسرائيلية ويضمن ولاء المنطقة للولايات المتحدة.

تفكك الاتحاد السوفياتي وضرب العراق

في العام 1985، وصل ميخائيل غورباتشوف إلى السلطة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ما آذن بتراجع نفوذه وتفكك كتلته في العام 1989 ثم انهياره في العام 1991. ومنذ السبعينيات من القرن الماضي، كان الاتحاد السوفياتي قد بدأ يعاني من الجمود على الصعد كافة. فهو لم يكن قادراً على مواجهة الأزمة في أفغانستان أو في بولونيا. وفي الشرق الأوسط، كان نفوذ الاتحاد السوفياتي قد بدأ بالانحسار منذ العام 1967. وكانت بدايات التحول في الاتحاد السوفياتي قد بدأت بالظهور بعد قمة هلسنكي في العام 1975 وهو ما جرى تأكيده بعد عقد من الزمن خلال مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا الذي كان قد عُقد في باريس في العام 1985.⁴⁴² وبنتيجة ذلك أصبحت الولايات المتحدة تتجه نحو التفرد في إدارة العلاقات.⁴⁴³ وقد أدت المشكلات الاقتصادية التي وقعت فيها روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفياتي إلى الخضوع للإملاءات الأميركية.⁴⁴⁴ بنتيجة ذلك لم يعد بإمكان الدول العربية المعادية للولايات المتحدة مثل سوريا والجزائر وليبيا التعويل على دعم الاتحاد السوفياتي ما أضعف موقف دمشق في مواجهة إسرائيل. ففي نيسان أبريل من العام 1987، أبلغ غورباتشوف الرئيس السوري حافظ الأسد بأن الاتحاد السوفياتي لم يعد قادراً على تقديم الدعم له في مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة.⁴⁴⁵ وكان غورباتشوف يعوّل على الرضى الأمريكي عليه ليحتفظ بقدر من النفوذ في الشرق الأوسط.⁴⁴⁶

غير أن الولايات المتحدة كانت لها أهداف مختلفة إذ إنها استغلّت تلك التطورات لفرض هيمنتها على الشرق الأوسط الغني بالنفط. فالشرق الأوسط يحتوي على 65% من الاحتياطي

⁴⁴² يوسف الصايغ: "دلالات التحولات الجهورية في مجموعة البلدان الإشتراكية الأوروبية بالنسبة إلى الوطن العربي وقضية فلسطين"، المستقبل العربي، عدد رقم 150، آب/أغسطس 1991، ص. 5.

⁴⁴³ محمد زكريا إسماعيل، "النظام الدولي الجديد بين الوهم والخديعة"، المستقبل العربي، عدد رقم 143، كانون الثاني/يناير 1991، ص. 7.

⁴⁴⁴ Hermann, Richard, "Russian Policy in the Middle East: Strategic change and Tactical Considerations", Middle East Journal, vol.84, no.3, été 1994, p.454.

⁴⁴⁵ Atherton, Alfred Leroy, "The Shifting Sands of the Middle East Peace", Foreign Policy, no.83, spring 1992, p.118.

⁴⁴⁶ Hanna, John P.: "At arms length Soviet Syrian relations in the Gorbachev era". p.5.

العالمي للنفط.⁴⁴⁷ وكانت الولايات المتحدة تطمح للسيطرة عليه حتى تحتكر تزويد النفط لأوروبا الغربية واليابان وتبقيهما تحت هيمنتها.⁴⁴⁸ هذا أدّى إلى شعور الدول العربية بوقوعها تحت رحمة الهيمنة الأميركية ما جعل الرئيس العراقي الراحل صدام حسين يقول في شباط فبراير بأن نهاية الحرب الباردة شكّلت كارثة على العرب.⁴⁴⁹ وقد أدّى ذلك إلى اختلال التوازن في المنطقة بشكل كبير لصالح إسرائيل ما جعل الأسد يقتنع بأن الولايات المتحدة سنّهيمن على الساحة العالمية للعقد التالي.⁴⁵⁰ وقد جعله ذلك يسعى للتقارب مع الولايات المتحدة وتجنّب الصدام معها.⁴⁵¹ وكانت اليابان تستورد 70% من احتياجاتها النفطية من الشرق الأوسط، وفرنسا 32% وإيطاليا 35%.⁴⁵² وفي العام 1990، كانت الولايات المتحدة نفسها تستورد 50% من احتياجاتها النفطية من الشرق الأوسط وفنزويلا.⁴⁵³ وكانت الولايات المتحدة قد وعت أهمية النفط العربي بالنسبة لها منذ الثلاثينيات من القرن العشرين.⁴⁵⁴ وقد ساهم الحظر النفطي الذي فرضته الدول العربية على الغرب خلال حرب أكتوبر 1973 والثورة الإسلامية في إيران في العام 1979 إلى قلق الولايات المتحدة من أن تفلت المنطقة من تحت سيطرتها ما دفعها إلى نشر قوة تدخل سريع في منطقة الخليج في العام 1980. وقد ساهم انهيار الاتحاد السوفياتي في إطلاق العولمة التي أراد من خلالها الغرب الرأسمالي فرض سوق عالمية موحّدة تحت سيطرته مع الاستعداد للتدخل عسكرياً في دول العالم الثالث التي تعارض سياساته.⁴⁵⁵

وكان العراق بقوّته العسكرية وقدراته الاقتصادية والديموغرافية يشكل عقبة في وجه الهيمنة الأميركية على الخليج، لذلك فلقد بدأت واشنطن تفكّر بالقضاء على القوة العسكرية العراقية. وكان الهدف الآخر هو منع القوى الأوراسية المرشحة للصعود من أن تكون لها إطلالة

⁴⁴⁷ محمد زكريا إسماعيل: "النظام الدولي الجديد بين الوهم والخديعة"، ص. 15.

⁴⁴⁸ محمد زكريا إسماعيل: "النظام الدولي الجديد بين الأهم والخديعة"، ص. 9.

و سميّر أمين: "بعد حرب الخليج، الهيمنة الأميركية إلى أين؟"، المستقبل العربي، رقم 170، نيسان/أبريل 1993، ص. 15.

⁴⁴⁹ Rodman, Peter: "Middle East Policy after the Gulf War", Foreign Affairs, vol.70, printemps 1991, p.

223.

et Karawan, Ibrahim A.: Arab "Dilemmas in the 1990's: Breaking taboos and searching for signposts", p. 435.

⁴⁵⁰ Fuller, Graham E.: "Moscow and the Gulf War", Foreign Affairs, vol.70, été 1991, p.65.

⁴⁵¹ Karawan, Ibrahim A.: "Arab Dilemmas in the 1990's: Breaking taboos and searching for signposts", p.434.

⁴⁵² محمد زكريا إسماعيل، "النظام الدولي الجديد بين الوهم والخديعة"، ص. 9.

⁴⁵³ Raich, Bernard "The United States in the Middle East", Current History, janvier 1991, p. 7.

⁴⁵⁴ Laurens, Henry: Pourquoi Ryad préfère le parapluie américain?, Le Monde Diplomatique août 1992, p.

8.

⁴⁵⁵ سميّر أمين، "بعد حرب الخليج، الهيمنة الأميركية إلى أين؟"، ص. 5.

على طرق الملاحة البحرية وأهمها منطقة شرق المتوسط. فوفقاً لـ زبغنيو بريجنسكي وغيره من الاستراتيجيين الأميركيين فإن أوراسيا هي مفتاح السيطرة على العالم. ويعتبر بريجنسكي أن "الجزء الأوروبي من أوراسيا قد يستخدم للسيطرة على أفريقيا في حين أنّ روسيا قد تخدم للسيطرة على القارة الآسيوية فضلاً عن أوقيانيا والمحيطين الهندي والهادئ والقطبين".⁴⁵⁶ وكان وليام كيسبي، رئيس السي آي إي (وكالة الإستخبارات المركزية) بين 1981 و1987، التقى عام 1989 برئيس المخابرات العراقية في مدريد وأكد أنّ الولايات المتحدة تعارض احتلال العراق لمنطقة خوزستان في إيران، غير أنّها لم تكن ضد احتلال الكويت.⁴⁵⁷

كذلك كان العراق يشكل خطراً على أمن إسرائيل والتي تعتبر عماد الاستراتيجية الأميركية في الشرق الأوسط. وقد ساهم اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة بتشجيع واشنطن على اعتماد استراتيجية عدائية ضد العراق.⁴⁵⁸ القلق على أمن إسرائيل زاده تهديد صدام حسين بقصف إسرائيل وحذفها عن الخريطة.⁴⁵⁹ وقد أعلن وزير الخارجية الأميركي جيمس بايكر مباشرة عقب تدمير القوة العسكرية العراقية بأن الولايات المتحدة أزالته عن الخريطة "قوة كان بإمكانها تهديد وجود إسرائيل".⁴⁶⁰ بناء على ذلك دفعت الولايات المتحدة بالإمارات العربية المتحدة والكويت والمملكة العربية السعودية إلى زيادة إنتاجها من النفط الخام وتخفيض أسعار النفط العالمية بغية تقليص عائدات العراق التي كان يحتاجها لإعادة الإعمار بعد الحرب الإيرانية ما دفع بصدام حسين إلى اتخاذ القرار بغزو الكويت معتقداً بأنه أخذ الضوء الأخضر لذلك من السفارة الأميركية في العراق أبريل غلاسبي.⁴⁶¹ وكانت الولايات المتحدة قد بدأت بإعداد الخطط العسكرية للحرب ضد العراق منذ العام 1989 أي مباشرة بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية. وفي تشرين الأول أكتوبر 1989 قام قائد القيادة المركزية في الجيش الأميركي الجنرال نورمان شوارزكوف بزيارة إلى المملكة

⁴⁵⁶ زبغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى، ص. 48.

⁴⁵⁷ هيكل، ص. 170.

⁴⁵⁸ De la Gorce, Paul Marie, *Négociations dans l'impasse, nouveaux rapports de force, la défense israélienne en état d'alerte*, Le Monde Diplomatique, septembre 1990, p.12

⁴⁵⁹ Raich, Bernard, "The United States in the Middle East", Current History, Janvier 1991, p.7

⁴⁶⁰ Al Nasrawi, Abbas, "US Foreign Policy in the Middle East", Arab Studies Quarterly, vol.11, no.1, Hiver 1989.

⁴⁶¹ De la Gorce, Paul Marie, *Négociations dans l'impasse, nouveaux rapports de force, la défense israélienne en état d'alerte*, Le Monde Diplomatique, septembre 1990, p.12

العربية السعودية لبحث الخطر الذي يمثله العراق للمملكة والخطط العسكرية الضرورية للدفاع عن المملكة. وبعد عودة شوارزكوف أقرّ الرئيس الأمريكي جورج بوش الخطط العسكرية الأمريكية. وبعد اجتياح العراق للكويت في 2 آب أغسطس 1990 عرقل الرئيس بوش أي مسعى في الأمم المتحدة لحل الأزمة سلمياً.⁴⁶²

كانت الولايات المتحدة تبرز باعتبارها المستفيد الأكبر من هذه الحرب، وقد وسّعت نطاق سيطرتها المباشرة على منطقة الخليج. فقد سحقت القوة العسكرية العراقية، وعززت التفوق الإسرائيلي في الشرق الأوسط وتمكّنت من عرقلة تحول اليابان وأوروبا قوتين عظميين منافستين لها لعقد من الزمن.⁴⁶³ وقد تمكّنت الولايات المتحدة من شقّ صف الدول العربية بشكل غير مسبوق،⁴⁶⁴ كما تمّ توجيه ضربة قوية لفكرة القومية العربية⁴⁶⁵ وقد كانت لضرب العراق تداعيات خطيرة على سوريا التي فقدت عمقها الاستراتيجي ووجدت نفسها مكشوفة للتهديدات الإسرائيلية.⁴⁶⁶ هذا ما جعلها تختار التعاون مع الولايات المتحدة عوض التصادم معها. وبعد حرب الخليج، بدأت تناقش سيناريوهات لرسم خريطة جيوسياسية جديدة للشرق الأوسط. فعقب الضربة تمّ تقسيم العراق ثلاث مناطق، كردية في الشمال، وشيعية في الجنوب وسنيّة في الوسط. رغم ذلك، لم يتمّ تقسيم العراق ثلاث دول لمعارضة تركيا استقلال كردستان العراق وتأثيره على أكرادها هي.⁴⁶⁷ كذلك كانت دول الخليج العربية تعارض إنشاء دولة شيعية في جنوب العراق لأن من شأنها أن تسمح بتسلّل النفوذ الإيراني إلى منطقة الخليج. بالإضافة إلى ذلك، اختار الأميريون عدم القضاء على صدام حسين للحفاظ على وضع الأمر الواقع في المنطقة.⁴⁶⁸

Toinet, Marie-France: M, « *Bush, seul décideur* », Le Monde Diplomatique, février 1991, p.4.⁴⁶²
محمد زكريا إسماعيل، "الهوية العربية في مواجهة السلام الإسرائيلي"، المستقبل العربي، عدد رقم 190، كانون الأول/ديسمبر

1994، ص. 27.

Kirsh, George Klay Jr, "Western Imperialism in the Middle East, the Case of the United States Military Intervention in the Persian Gulf", p.13⁴⁶⁴

يزيد الصايغ، "أزمة الخليج وإخفاق النظام الإقليمي العربي"، المستقبل العربي، عدد رقم 149، تموز/يوليو 1991، ص. 17.⁴⁶⁵

Ma'oz, Moshé, "Syrian-Israeli Relations and the Middle East Peace Process", p.11⁴⁶⁶

Akins, James E, "The New Arabia", Foreign Affairs, vol.70, été 1991, p.42⁴⁶⁷

Thobie, Jacques, *De l'Atlantique aux confins de la Perse: les frontières brûlantes cicatrices des partages coloniales*, Le Monde Diplomatique, nov. 1990, p.14⁴⁶⁸

دساتير العراق

خلال الفترة الممتدة من العام 1970 و1991 صدر دستوران للعراق هما الدستور المؤقت لعام 1970 ودستور العام 1991. وقد نص دستور العام 1970 على:

المادة الأولى: العراق جمهورية ديمقراطية شعبية ذات سيادة، هدفه الأساس تحقيق الدولة العربية الواحدة وإقامة النظام الاشتراكي.

المادة الثانية: الشعب مصدر السلطة وشرعيتها.

المادة الثالثة: أ - سيادة العراق وحدة لا تتجزأ.

ب - أرض العراق وحدة لا تتجزأ ولا يجوز التنازل عن أي جزء منها.

المادة الرابعة: الإسلام دين الدولة.

المادة الخامسة: أ - العراق جزء من الأمة العربية.

ب - يتكوّن الشعب العراقي من قوميتين رئيسيتين، هما القومية العربية والقومية الكردية، ويقرّ

هذا الدستور حقوق الشعب الكردي القومية والحقوق المشروعة للأقليات كافة ضمن الوحدة العراقية.

المادة السادسة: الجنسية العراقية وأحكامها ينظمها القانون.

المادة السابعة: أ - اللغة العربية هي اللغة الرسمية.

ب - تكون اللغة الكردية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية في المنطقة الكردية.

المادة الثامنة: أ - عاصمة الجمهورية العراقية بغداد ويجوز نقلها بقانون.

ب - تُقسم الجمهورية العراقية إلى وحدات إدارية وتنظم على أساس الإدارة اللامركزية.

المادة التاسعة: علم الجمهورية العراقية وشعارها والأحكام المتعلقة بهما تُحدد بقانون.

الباب الثاني

الأسس الاجتماعية والاقتصادية للجمهورية العراقية

المادة العاشرة: التضامن الاجتماعي هو الأساس الأول للمجتمع. ومضمونه أن يؤدي كل مواطن واجبه كاملاً تجاه المجتمع وأن يكفل المجتمع للمواطن كامل حقوقه وحياته.

المادة الحادية عشرة: الأسرة نواة المجتمع وتكفل الدولة حمايتها ودعمها، وترعى الأمومة والطفولة.

المادة الثانية عشرة: تتولى الدولة تخطيط وتوجيه وقيادة الاقتصاد الوطني بهدف:

أ - إقامة النظام الاشتراكي على أسس علمية وثورية.

ب - تحقيق الوحدة الاقتصادية العربية.

المادة الثالثة عشرة: الثروات الطبيعية ووسائل الإنتاج الأساسية ملك الشعب. تستثمرها السلطة المركزية في الجمهورية العراقية استثماراً مباشراً وفقاً لمقتضيات التخطيط العام للاقتصاد الوطني. المادة الرابعة عشرة: تكفل الدولة وتشجع وتدعم جميع أشكال التعاون في الإنتاج والتوزيع والاستهلاك.

المادة الخامسة عشرة: للأموال العامة ولممتلكات القطاع العام، حرمة خاصة، على الدولة وجميع أفراد الشعب صيانتها والسهر على أمنها وحمايتها. وكل تخريب فيها، أو عدوان عليها يُعتبر تخريباً في كيان المجتمع وعدواناً عليه.

المادة السادسة عشرة: أ - الملكية وظيفة اجتماعية تمارس في حدود أهداف المجتمع ومناهج الدولة، وفقاً لأحكام القانون.

ب - الملكية الخاصة والحرية الاقتصادية الفردية، مكفولتان في حدود القانون وعلى أساس عدم استثمارهما في ما يتعارض أو يضرّ بالتخطيط الاقتصادي العام.

ج - لا تنزع الملكية الخاصة إلا لمقتضيات المصلحة العامة ووفق تعويض عادل حسب الأصول التي يحددها القانون.

د - الحد الأعلى للملكية الزراعية يعينه القانون، وما فاض عن ذلك يعتبر ملكاً للشعب.

الباب الرابع

مؤسسات الجمهورية العراقية

الفصل الأول: مجلس قيادة الثورة

المادة السابعة والثلاثون: مجلس قيادة الثورة هو الهيئة العليا في الدولة الذي أخذ على عاتقه في السابع عشر من شهر تموز 1968 مسؤولية تحقيق الإرادة الشعبية العامة بانتزاع السلطة من النظام الرجعي الفردي الفاسد وإعادتها إلى الشعب.

المادة الثامنة والثلاثون: يمارس مجلس قيادة الثورة بأغلبية ثلثي أعضائه الصلاحيات الآتية:

أ - انتخاب رئيس له من بين أعضائه يُسمى رئيس مجلس قيادة الثورة ويكون حكماً رئيساً للجمهورية.

ب - انتخاب نائب للرئيس من بين أعضائه يُسمى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة يحل محل الرئيس حكماً بصفاته المحددة في الفقرة السابقة في حالة غيابه رسمياً أو في حالة تعذر أو استحالة ممارسته اختصاصاته الدستورية لأي سبب مشروع.

ج - اختيار أعضاء جدد للمجلس من بين أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي على ألا يتجاوز عدد أعضائه اثني عشر عضواً.

د - البتّ في استقالة الرئيس أو نائبه أو أحد أعضاء المجلس.

هـ - إعفاء أيّ من أعضائه من عضوية المجلس.

و - اتهام ومحاكمة أعضاء مجلس قيادة الثورة ونواب رئيس الجمهورية والوزراء.

المادة التاسعة والثلاثون: يؤدي رئيس مجلس قيادة الثورة ونائبه والأعضاء أمام المجلس اليميني التالية:

(أقسم بالله العظيم وبشرفي ومعتقدي أن أحافظ على النظام الجمهوري وألتزم بدستوره وقوانينه وأن أرفع مصالح الشعب وأسهر على استقلال البلاد وسلامتها ووحدتها وأرضيها وأن أعمل بكل تفانٍ وإخلاص لتحقيق أهداف الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية).

المادة الأربعون: يتمتع رئيس مجلس قيادة الثورة ونائبه والأعضاء بحصانة تامة ولا يجوز اتخاذ أيّ إجراء بحق أيّ منهم إلا بإذن مسبق من المجلس.

المادة الحادية والأربعون: أ - يجتمع مجلس قيادة الثورة بدعوة من رئيسه أو نائبه أو ثلث أعضائه وتنعقد الاجتماعات برئاسة الرئيس أو نائبه وبحضور أكثرية الأعضاء.

ب - اجتماعات ومداولات مجلس قيادة الثورة سرية، وإفشاؤها يقع تحت طائلة المساءلة الدستورية أمام المجلس، ويتم إعلان ونشر وتبليغ مقرّرات المجلس بالطرق المبيّنة في هذا الدستور.

ج - تقرّ القوانين والقرارات في المجلس بأغلبية عدد أعضائه ما خلا الحالات التي نص بها الدستور على خلاف ذلك.

المادة الثانية والأربعون: يمارس مجلس قيادة الثورة الصلاحيات التالية:

أ - إصدار القوانين والقرارات التي لها قوة القانون.

ب - إصدار القرارات في كل ما تستلزمه ضرورات تطبيق أحكام القوانين النافذة.

المادة الثالثة والأربعون: يمارس مجلس قيادة الثورة بأغلبية عدد أعضائه الصلاحيات التالية:

أ - إقرار شؤون وزارة الدفاع والأمن العام ووضع القوانين واتخاذ القرارات في كل ما يتعلق بهما من ناحية التنظيم والاختصاصات.

ب - إعلان التعبئة العامة جزئياً أو كلياً وإعلان الحرب وقبول الهدنة وعقد الصلح.

ج - المصادقة على مشروع الميزانية العامة للدولة والميزانيات المستقلة والاستثمارية الملحق بها، واعتماد الحسابات الختامية.

د - المصادقة على المعاهدات والاتفاقات الدولية.

هـ - وضع نظامه الداخلي وتحديد ملاكاته وتقرير موازنته وتعيين موظفيه وتحديد مكافآت ومخصصات الرئيس ونائبه وأعضائه وموظفيه.

و - وضع القواعد المتعلقة بمحاكمة أعضائه، من حيث تشكيل المحكمة والإجراءات الواجب اتباعها فيها.

ز - تخويل رئيسه أو نائبه بعض اختصاصاته المبيّنة في هذا الدستور عدا الاختصاصات التشريعية. المادة الرابعة والأربعون: يتولّى رئيس مجلس قيادة الثورة:

أ - رئاسات اجتماعات المجلس وتمثيله وإدارة جلساته والأمر بالصرف عليه.

ب - توقيع جميع القوانين والقرارات الصادرة عن المجلس ونشرها في الجريدة الرسمية.

ج - مراقبة أعمال الوزارات والمؤسسات في الدولة، ودعوة الوزراء للتداول في شؤون وزاراتهم واستجوابهم عند الاقتضاء وإطلاع مجلس قيادة الثورة على ذلك.

المادة الخامسة والأربعون: يكون كل من رئيس مجلس قيادة الثورة ونائبه وأعضاؤه مسؤولاً أمام المجلس عن خرق الدستور أو عن الحنث بموجبات اليمين الدستورية أو عن أي عمل أو تصرف يراه المجلس مخلاً بشرف المسؤولية التي يمارسها.⁴⁶⁹

وفي العام 1991 وبعد ضرب العراق على يد الولايات المتحدة وحلفائها تمّ إصدار دستور جديد شابه إلى حد بعيد دستور العام 1970 وجاء فيه:

المادة الأولى: العراق دولة مستقلة ذات سيادة، نظام الحكم فيها جمهوري رئاسي.

المادة الثانية: العراق جزء من الوطن العربي، يعمل لتحقيق الوحدة العربية الشاملة.

المادة الثالثة: الشعب مصدر السلطة وشرعيتها، يمارسها عن طريق ممثليه أو بالاستفتاء.

المادة الرابعة: إقليم العراق وحدة لا تتجزأ، ولا يجوز التنازل عن أي جزء منه لأي سبب وتحت أي ظرف كان.

المادة الخامسة: الإسلام دين الدولة الأساسي.

المادة السادسة: يتكوّن شعب العراق من العرب والأكراد، ويقرّ الدستور حقوق الأكراد القومية ويضمن الحقوق المشروعة للعراقيين كافة ضمن وحدة الوطن والدولة والمجتمع.

المادة السابعة: اللغة العربية هي اللغة الرسمية، وتكون اللغة الكردية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية في منطقة الحكم الذاتي.

المادة الثامنة: عاصمة العراق بغداد.

المادة التاسعة:

أولاً: علم العراق، وشعاره، ونشيدته الوطني، يحددها القانون.

⁴⁶⁹ راجع الدستور المؤقت لعام 1970 على موقع المحكمة الدستورية العراقية / <https://www.hjc.iq/view.81/>

ثانياً: العيد الوطني هو يوم 17 تموز، ذكرى ثورة 17 - 30 تموز العظيمة.

المادة العاشرة: يقوم النظام السياسي في العراق على الديمقراطية والاشتراكية، بموجب رأي الشعب ومصالحته، وبما يضمن العدالة الاجتماعية، والحرية الاقتصادية المحددة بمنع الاستغلال.

المادة الحادية عشرة: يتكون العراق من وحدات إدارية، تنظم شؤونها المحلية بقانون.

المادة الثانية عشرة: تتمتع المنطقة التي غالبية سكانها من الأكراد في العراق بالحكم الذاتي بموجب ما يحدده القانون، في إطار وحدة العراق القانونية والسياسية والاقتصادية، ووحدة شعبه.

المادة الثالثة عشرة: الجنسية العراقية وأحكامها، ينظمها القانون.

المادة الرابعة عشرة:

أولاً - القوات المسلحة درع الوطن وسيفه العظيم، مهمتها الدفاع عن إقليمه واستقلاله وسيادته، والحفاظ على وحدته وأمنه.

ثانياً: تتولى الدولة وحدها إنشاء القوات المسلحة، ولا يجوز لغير الدولة إنشاء التشكيلات العسكرية أو شبه العسكرية، أو التنظيمات المسلحة.

المادة الخامسة عشرة: يحترم العراق مبادئ القانون الدولي، ويلتزم ميثاق الأمم المتحدة، ويرعى مبادئ حسن الجوار، ويدعم التعاون الدولي وتنمية العلاقات الودية بين الدول، ويتمسك بعدم التدخل في الشؤون الداخلية، ويحل المنازعات بالوسائل السلمية، على أساس المساواة المتبادلة والتعامل بالمثل.

المادة السادسة والخمسون: تأسيس الأحزاب السياسية وحرية الانضمام إليها، مكفولان للمواطنين. وينظمهما القانون بما لا يتعارض وأحكام الدستور والنظام العام والوحدة الوطنية.

المادة السابعة والخمسون: تأسيس الجمعيات وحرية الانضمام إليها، مكفولان بموجب القانون بما لا يتعارض وأحكام الدستور والنظام العام والوحدة الوطنية.

المادة الثامنة والخمسون: يُحظر تأسيس الأحزاب السياسية والجمعيات والنوادي التي تقوم على أساس زج الدين في السياسة أو الإلحاد، أو الطائفية، أو العنصرية أو الإقليمية، أو الشعبوية، أو التي ترمي إلى عزل العراق عن انتمائه القومي الطبيعي إلى الأمة العربية، أو التي لا تعتمد الديمقراطية في عقيدتها، أو نهجها، أو ممارساتها، أو سلوكها. ويجب على الأحزاب والجمعيات والنوادي أن تتبع مسلك العلانية وعدم استخدام القوة والعنف في ممارساتها.

المادة التاسعة والخمسون: يُحظر على غير حزب البعث العربي الاشتراكي العمل السياسي أو الحزبي في القوات المسلحة، وقوى الأمن الداخلي، ومع منتسبيها.⁴⁷⁰

⁴⁷⁰ راجع دستور الجمهورية العراقية لعام 1991 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.80/>

الفصل الرابع

الأردن والمقاومة الفلسطينية 1970 – 1991

كانت فترة السبعينيات من القرن الماضي شاهداً على تطورات جذرية على المستوى الإقليمي والدولي، الأمر الذي كانت له انعكاساته السلبية على الوضع اللبناني. وعملت واشنطن في تلك الفترة على شنّ هجوم على جميع الأنظمة الاشتراكية في دول العالم الثالث، وذلك من خلال تقدّم كل الدعم المطلوب لكل الانقلابات العسكرية فيها منذ عام 1965، بدأته بدعم الانقلاب الذي قام ضد حكم أحمد بن بلة في الجزائر، ثم تبعته في أندونيسيا بتقديم واشنطن دعمها للانقلاب الذي قام ضد أحمد سوكانو وذلك في العام 1966،⁴⁷¹ وأكملت بعدها في مصر دعمها للانقلاب ضد عبد الناصر وذلك في العام 1965،⁴⁷² ثم أتبعته بواسطة حليفها إسرائيل بضربة عسكرية لمصر وذلك في العام 1967، بالإضافة إلى تقديم دعمها للانقلاب ضد موديبوكينا وسيكوتوري... وغيرهم من قادة دول العالم الثالث. تزامن ذلك مع اختيار القيادة التي أتت بعد خروتشيف في حكم الاتحاد السوفياتي في العام 1965، خيار الانكفاء وراء الستار الحديدي الذي عملت على إقامته بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي ترك تأثيره السلبي على موازين القوى الإقليمية والعالمية ومالت لصالح واشنطن وحلفائها، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط وذلك بعد حرب نكسة حزيران في العام 1976، التي انتهت بخسارة مصر وسوريا الحرب امام إسرائيل. وخلال هذه الفترة المتوترة عالمياً، حدث نزوح كثيف لسكان الريف اللبناني باتجاه المدن، حيث شكلوا أحياء بؤس في محيط المدن الرئيسية ضمن الأراضي اللبنانية، وفي مقدمتها العاصمة بيروت. بالإضافة إلى تنافس الفقراء أنفسهم فيما بينهم بغية الحصول على عمل ضمن سوق عمل محدود بسبب ضعف الصناعة اللبنانية. وكانت مخيمات اللاجئين الفلسطينيين نقطة التقاء لأبناء الريف اللبناني، الذين خالطوا وتزوجوا من الفلسطينيين وتوحدوا معاً في نسيج فقر واحد وعملوا على المطالبة بحقوقهم الاجتماعية والاقتصادية، الامر الذي ساهم في تكوين وانتشار الأحزاب القومية واليسارية التي شكلت تهديداً للاستقطاب الطائفي التقليدي وتعرض النظام الطائفي اللبناني للخطر. تزامن ذلك مع صعود برجوازية جديدة استطاعت الاختلاط مع البرجوازية اللبنانية ذات

Deidre Griswold, Indonesia the Seconde Greatest Crime in History, Workers.org ⁴⁷¹

Steven Cook, The Struggle for Egypt: From Nasser to Tahrir Square, Oxford: Oxford University Press, ⁴⁷²

2012, p. 90.

الطابع المسيحي. وهذه البرجوازية الجديدة كان يطغى عليها الطابع الإسلامي السني والشيوعي، والتي جاء ظهورها للتطور الحاصل في منطقة الخليج العربي والمغتربات اللبنانية في القارة الأفريقية. حيث عملت هذه البرجوازيات على تقديم دعمها من أجل تقوية أحزاب ذات طابع طائفي مثل: "حزب الكتائب" و"حركة أمل"، لتكون في مواجهة الأحزاب القومية واليسارية الصاعدة في لبنان، وقد انضوت هذه الأحزاب تحت مسمى "الحركة الوطنية بقيادة الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، الذي عمل على تمكين وضعه منزلة ضمن القيادات الطائفية اللبنانية، وذلك من خلال قيادته للأحزاب اليسارية.⁴⁷³

وفي هذه الفترة كان العرب واقعين تحت تأثير صدمة خسارتهم في حرب نكسة حزيران العام 1967 والتي هزموا فيها أمام إسرائيل، التي استطاعت بنتيجة فوزها في الحرب من بسط سيطرتها على المزيد من الأراضي العربية سواء أكان في سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية والضفة الغربية وغزة في فلسطين. وكان من نتائج الحرب أيضاً تأسيس الكفاح الفلسطيني المسلح، حيث تمّ انتخاب زعيم "حركة فتح" ياسر عرفات رئيساً للجنة التنفيذية لـ "منظمة التحرير الفلسطينية" وذلك في العام 1969. كما اتخذ الفدائيون الفلسطينيون من لبنان مقراً لهم، ولانطلاق عملياتهم ضد الكيان الصهيوني، الأمر الذي زاد في ممارسة الضغوط على لبنان والتي لاحقاً ستكون نتيجة الانفجار. فالوضع الاقتصادي الهش وبطء النمو الذي يعاني منه الاقتصاد اللبناني أدّى إلى اندلاع الاحتجاجات فعمّت المظاهرات الشوارع وذلك بين 1970 و1975، حدث ذلك في التوقيت نفسه الذي نقلت فيه "منظمة التحرير الفلسطينية" مركزها إلى مدينة بيروت، خاصة بعد أحداث "أيلول الأسود" التي جرت أحداثها في الأردن، بين الجيش الأردني من ناحية، والفدائيين الفلسطينيين من ناحية أخرى، والتي انتهت بتطويق الجيش الأردني لهم وطردهم من الأردن وذلك في العام 1970.⁴⁷⁴

المقاومة الفلسطينية في لبنان

وفي العام 1972، جرت الانتخابات النيابية اللبنانية التي كانت دليلاً لبداية تصدّع النظام الطائفي اللبناني وذلك لمصلحة الطبقات الوسطى والفقيرة، حيث استطاعت إحداث اختراقات قليلة، لكنها في الحقيقة ذات أهمية ودلالات كبرى في المجلس النيابي القائم، والذي كان يُعدّ النادي الرئيس

⁴⁷³ إغور تيموفيف، كمال جنبلاط، الرجل والأسطورة، بيروت: دار النهار للنشر، 2001، ص. 97.

⁴⁷⁴ Kamal Salibi, Crossroads to Civil War,

لتجمّع النخب اللبنانية. في الوقت نفسه عملت القوى العلمانية واليسارية على تشكيل ما سيُعرف لاحقاً بـ"الحركة الوطنية"، بقيادة كمال جنبلاط الزعيم الدرزي الذي أراد - كما كان يصرّح دائماً - بأنه يرغب بالخروج من الإطار الإقطاعي الطائفي لعائلته. هذا وقد تكوّنت "الحركة الوطنية" من: "الحزب الشيوعي" الذي تشكل في العام 1924، و"منظمة العمل الشيوعي" بقيادة محسن إبراهيم، و"الحزب التقدمي الاشتراكي" برئاسة كمال جنبلاط، و"السوري القومي الاجتماعي" - جناح انعام رعد، و"حزب البعث العربي الاشتراكي" بفرعيه السوري والعراقي، و"حركة الناصريين المستقلين المرابطون" بقيادة إبراهيم قليلات، و"التنظيم الشعبي الناصري" برئاسة النائب معروف سعد، و"الحزب الديمقراطي الشعبي" بزعامة نزيه حمزة، كما وانضمّ إليهم العديد من الأحزاب والتنظيمات والتشكيلات التي يغلب عليها الطابع اليساري والعلماني. كما نصّ برنامج "الحركة الوطنية" الذي تبنته بعد فترة قصيرة من اندلاع فتيل الحرب الأهلية على: "إلغاء الطائفية السياسية كمرحلة نحو الوصول إلى العلمنة الكاملة للنظام السياسي وإزالة كل أثر للصيغة الطائفية في جميع مجالات الحياة اللبنانية، ونقطة البداية تتمثل في إلغاء الطائفية السياسية في مجال التمثيل الشعبي وفي الإدارة والقضاء والجيش".⁴⁷⁵

واستطاعت إسرائيل في العام 1976 من إلحاق الهزيمة بكل من الأردن ومصر وسوريا، مما سيؤدي إلى نقل مستوى النزاع العربي - الإسرائيلي، إلى مستويات أخرى جديدة، سيكون للمقاومة الفلسطينية دور هام فيها.⁴⁷⁶ بعدها عملت كل من سوريا ومصر إلى إعادة بناء جيشيهما بعد خسارة الحرب في حزيران العام 1967، تحضيراً لحرب أخرى تمكّنها من استعادة الأراضي التي خسرتها واحتلتها إسرائيل. وتسلم أنور السادات الحكم في مصر في أيلول/سبتمبر من العام 1970 بعد وفاة عبدالناصر، بعدها بشهرين تقريباً تمكّن حافظ الأسد من الاستيلاء من خلال انقلاب قام به على السلطة في سوريا، ضد صلاح جديد والرئيس نور الدين الأتاسي. وقام أنور السادات بالاتصال بالأميركيين بشكل سري عبر إرساله رسائل تعبر عن رغبته بإيجاد حل سلمي للنزاع العربي - الإسرائيلي، في الوقت نفسه الذي عمل الأسد على توثيق وتحسين علاقاته مع الدول العربية والسعودية ومصر، وذلك في إطار تحضيراته للحرب الحتمية مع العدو الصهيوني.⁴⁷⁷

⁴⁷⁵ البرنامج المرحلي للحركة الوطنية اللبنانية، وثائق الحركة الوطنية 1975 - 1981، بيروت، 1981. ص.ص. 5 - 24.

⁴⁷⁶ Diab, Mohammed, Zuhayr. « El Mawquef El Souri min El Taswiya El Silmyyeh l'il Nizaa El-Arabi - El Israeli » p. 85.

⁴⁷⁷ Mclaurin R.D. and Mughisuddin, Muhammad and Wagner, Abraham. Foreign Policy Making in the Middle East, Domestic Influences on Policy in Egypt, Irak and Syria, p. 246.

وقام كل من الجيش السوري والجيش المصري في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1973، بالعمل على تنسيق هجوم من ناحية الغرب والشرق ضد العدو الصهيوني، الذي مكنّ الجيش المصري وخلال ساعات عدة من تنفيذ عبور قناة السويس، والقضاء على خط بارليف الذي أنشأته إسرائيل لصدّ تقدّم الجيش المصري وبالتالي منعه من العبور، وعمل الجيش المصري بعدها على إنشاء خط دفاعي بعمق 10 إلى 20 كم على طول خط القناة. في المقابل على الجبهة الشرقية، استطاعت مدرّعات الجيش السوري من تحقيق اختراق التحصينات التي أقامها جيش الكيان الصهيوني في هضبة الجولان المحتل، وخلال ساعات عدة تمكّنت من الوصول إلى ضفاف بحيرة طبرية.

ولكن، كانت للسادات حسابات أخرى مختلفة عمّا أبلغه للرئيس الأسد، حيث كان يرغب بحرب ذات نطاق محدود، فأوقف الهجوم على إسرائيل وذلك بعد بدئها بنحو 48 ساعة تقريباً، مما ساهم في وضع الجيش الإسرائيلي كامل تركيزه على الجبهة السورية، يواجه فيها الجيش السوري وحده التفوق العسكري الإسرائيلي. فاضطر الجيش السوري إلى التراجع، وتمكّن الجيش الإسرائيلي من التقدم إلى محيط بلدة سعسع، مشكلاً بذلك تهديداً لطرق المواصلات التي تربطها بالعاصمة دمشق. في الطرف الآخر تمكّن الجيش الصهيوني من القيام بهجوم مضاد محدثاً بذلك فتحة في الدفاعات المصرية وذلك في منطقة الدفرسوار، الأمر الذي سهل عملية محاصرة الجيش المصري الثالث وبالتالي القضاء على كل الإنجازات العسكرية العربية التي تمت في بداية الحرب وإنهاءها.⁴⁷⁸ وأدى ذلك في العام 1974، إلى توقيع مصر اتفاقية "سيناء الأولى" مع العدو الصهيوني، والتي تضمنت فصل القوات بين الجانبين. وتبعت هذه الاتفاقية، اتفاقية أخرى هي "سيناء الثانية" وذلك في العام 1975، وبذلك تكون مصر قد خرجت بشكل عملي من قضية النزاع العربي - الإسرائيلي، متخلفة عن سوريا وجبهتها الشرقية تواجه وحدها الخطر والتفوق الحربي الإسرائيلي.⁴⁷⁹ وتمّ بعدها بأشهر عدة عقد مؤتمر للسلام في مدينة جنيف، برعاية واشنطن وموسكو، وضمّ الدول العربية وإسرائيل، لكن هذا المؤتمر لم يستطع الوصول إلى حلّ للنزاع العربي - الإسرائيلي وذلك بسبب الموقف الإسرائيلي المتشدد. وعلى إثر ذلك اختار أنور السادات الرئيس المصري طريقاً منفرداً وحده مع إسرائيل، والتي بدأها بزيارة مدينة القدس وذلك في العام 1977، ثم توقيعها على معاهدة "كامب دافيد" في العام 1978، مع الكيان الصهيوني، وبهذا تكون مصر قد خرجت بشكل نهائي من

Seale, Patrick. « Al Assad, Al Siraa Ala Al Sharq Al Awsat » Al Muassassat Alarabia Lildirassat Wa ⁴⁷⁸

Alnashr, 1987, p. 319.

Drysdale, Alasdair; "The Assad Regime and its Troubles", Merip Reports, Nov/Dec 1982.⁴⁷⁹

قضية النزاع العربي - الإسرائيلي.⁴⁸⁰ والذي أعطى تل أبيب مساحة حرة للتحرك كيفما أرادت على الجبهة الشرقية في مواجهة الأطراف العربية المتبقية.⁴⁸¹

ونتيجة لذلك سارعت دمشق للعمل في محاولة منها للتعويض عن خسارة الجانب المصري، عبر تأسيس جبهة شرقية بزعامتها تضم كلاً من الأردن ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية.⁴⁸² وكان للبنان دور مهم لكونه يتشارك مع سوريا بحدود طويلة نسبياً، بالإضافة إلى الترابط الاجتماعي الذي يربط بين الشيعين اللبناني والسوري، وهناك سبب أهم وهو أن لبنان وخلال الفترة الممتدة من 1949-1970، شكل الخاصرة الرخوة أو نقطة الضعف لسوريا لكونه كان نقطة انطلاق غالبية الانقلابات التي جرت في سوريا، وفي الوقت نفسه يُعدّ لبنان بالنسبة إلى دمشق امتداداً طبيعياً لجبهة المواجهة مع الكيان الصهيوني وذلك في حرب عام 1973.⁴⁸³ لذلك عند اشتعال فتيل الحرب الأهلية في الساحة اللبنانية في العام 1975، رأت دمشق أن هذه الحرب ما هي إلا محاولة إسرائيلية لتتمكّن من خلال الساحة اللبنانية أحداث نوع من الخلل على الساحة السورية، خاصة أن هناك علاقات تعاون وتنسيق جمعت بين الكيان الصهيوني وعدد من الأطراف اللبنانية المسيحية، وأيضاً الإسلامية وذلك منذ فترة ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، والتي لعبت دوراً مهماً في إذكاء هذه الحرب.⁴⁸⁴ هذا الأمر كان دافعاً بالنسبة إلى الرئيس حافظ الأسد للتدخل السريع على خط الأزمة اللبنانية، وإعطاء الأمر للجيش السوري لدخول لبنان، وذلك في ربيع العام 1976، من أجل الحد من تزايد حدة تصاعد الأوضاع وخروجها عن السيطرة، بما يسبب حالة من

⁴⁸⁰ عبد الله السيد ولد أباه، التسوية في الشرق الأوسط ومستقبل النظام العربي، المستقبل العربي عدد 192، شباط فبراير 1995، ص. 34.

⁴⁸¹ جعفر قاسم محمد، سورية والاتحاد السوفياتي، دراسة في العلاقات العربية السوفياتية، لندن: رياض الريس، 1987، ص. 50.

⁴⁸² Mclaurin R.D. and Mughisuddin Muhammad and Wagner, Abraham. "Foreign Policy Making in the Middle East, Domestic Influences on Policy in Egypt, Irak and Syria", p. 254.

⁴⁸³ Ma'oz, Moshe; "Assad the Sphinx of Damascus, a Political Biography". London, Widenfield and Michalson, 1988, p. 288.

⁴⁸⁴ Harris, William; "Syria in Lebanon". Merip Reports, Juillet - Aout, 1985, p. 76.

فقدان الاستقرار على الساحة السورية، وأيضاً للعمل على منع تل أبيب من محاولة فرض هيمنتها على لبنان.⁴⁸⁵

نال دخول الجيش السوري إلى الأراضي اللبنانية موافقة واشنطن ومباركتها، وذلك لأنها كان تخشى من تصاعد نفوذ "منظمة التحرير الفلسطينية" في لبنان. في الوقت نفسه كان الأسد أيضاً قلقاً من العلاقات القائمة بين منظمة التحرير الفلسطينية من جهة والأحزاب اللبنانية بالعراق ذات التوجه اليساري من جهة أخرى، والتي كانت على خصومة مع دمشق منذ فترة الستينيات من القرن الماضي.⁴⁸⁶ بالإضافة إلى أن الأسد كان لديه شك في رغبة ياسر عرفات في سلك الطريق نفسها الذي سلكها قبله أنور السادات، والموافقة على حلّ منفرد مع تل أبيب، الأمر الذي يُضفي نوعاً من الشرعية لهذه المساعي، في الوقت ذاته الذي كانت تسعى فيه دمشق إلى وضع عقبات في طريق هذه المساعي التي تأتي على حساب الاعتبارات العربية ومصالحها.

في العام 1974، قام ياسر عرفات في المشاركة في جلسة "الجمعية العامة للأمم المتحدة"، بمساندة ودعم كل من السعودية ومصر، وهناك صرّح في خطابه الشهير، عن رغبته في توقيع سلام مع الجانب الإسرائيلي، بما يتوافق مع المقررات الدولية، الأمر الذي أثار ريبة الرئيس الأسد تجاه خطابه هذا. بالإضافة إلى ذلك شكل ازدياد نفوذ "منظمة التحرير الفلسطينية" إلى اتخاذها حجة من قبل الأطراف اللبنانية من أحزاب الوطنيين الأحرار والتنظيم وحراس الأرز والكتائب، من أجل تعزيزها وبالتالي تبرير علاقاتهم مع الجانب الإسرائيلي.⁴⁸⁷ لذلك اعتقد الرئيس حافظ الأسد، أنه في حال استطاع فرض هيمنته على الساحة اللبنانية، هذا الأمر سيجعله يضبط ويسيطر على منظمة التحرير الفلسطينية، وبالتالي منعها من اتخاذ أي خطوات منفردة في التوقيع مع تل أبيب، كما هذا سيقوّي موقفه وبالتالي سيتمكّن من وضع فيتو على ما يقوم به الحسين بن طلال الملك الأردني من محاولات جانبية ومنفردة لتوقيع سلام مع العدو الصهيوني. فالأسد كان يعرف بوجود علاقات بين الأردن وتل أبيب منذ فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي.⁴⁸⁸ وعمل الرئيس الأسد

Chalala, Elie; "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". Journal of Arab Affairs, vol. 4, no. 1, 1985, p. 70.

Harris, William. "Syria in Lebanon". p. 78.⁴⁸⁶

Devlin, John; "Syria: Modern state in an ancient land", Westview Press, Boulder Colorado, 1ère edition⁴⁸⁷ 1983, p. 120.

Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymond; "Syria and the Middle East Peace Process", p. 74.⁴⁸⁸

على إيجاد حلول للأزمة اللبنانية وذلك عبر العمل على إجراء بعض التعديلات الدستورية، والتي عُرفت بـ"الوثيقة الدستورية"، حيث كوّنت في ما بعد الأساس الذي انطلق منه "اتفاق الطائف".⁴⁸⁹ غير أن الحرب الأهلية اللبنانية امتدت لحوالي 15 سنة، وذلك بسبب اتخاذ القوى الإقليمية والدولية من لبنان ساحة صراع لخلافاتهم.

تراجع النفوذ السوري على الساحة اللبنانية في العام 1978، في الوقت نفسه الذي كانت مصر تتحصّر لتوقيع سلام منفرد مع الكيان الصهيوني.⁴⁹⁰ الأمر الذي رفضته دمشق فعملت واشنطن على ممارسة ضغوطها على حكومة دمشق، وذلك عبر البوابة اللبنانية، من خلال الياس سركيس الرئيس اللبناني الذي لمح بعدم رغبته في التجديد لقوات الردع العربية المتمركزة ضمن الأراضي اللبنانية. ترافق ذلك مع عمل بعض الأطراف اللبنانية على التصعيد ضد قوات الردع العربية في لبنان، وفي مقدمتهم الجبهة اللبنانية وقائد القوات اللبنانية بشير الجميل. وقد سبقت ذلك انتقادات للرئيس حافظ الأسد وجهها ضد البيانات الصادرة عن الجبهة اللبنانية التي كانت تدعو إلى الفدرلة، وعدّها الأسد تقسيماً للبنان.⁴⁹¹ وفي ظل هذه الظروف المتأزمة وقعت "حادثة الفياضية"، حين أقدم ضباط تابعون للجيش اللبناني إلى إطلاق النار على قافلة عسكرية تقل جنوداً سوريين في شهر شباط/فبراير من العام 1978، والتي أسفرت عن مقتل وجرح العديد منهم، ثم تلاها اشتباك الطرفين في محيط مبنى وزارة الدفاع اللبنانية في منطقة اليرزة. مما دفع وزارة الخارجية الأميركية للتعبير عن تزايد قلقها من تجدد القتال على الساحة اللبنانية، وأضافت أنها تراقب الوضع بشكل دقيق وما سينتج عنه. فيما وجهت موسكو اتهامها إلى الجانب الإسرائيلي بأنه وراء الحادثة.⁴⁹² بعدها بنحو شهر تقريباً نفذت إسرائيل اجتياحها للبنان انطلاقاً من الجنوب اللبناني وحتى نهر الليطاني، في الوقت ذاته الذي صرّحت فيه الجبهة اللبنانية تأجيل إعلان موقفها من موضوع تمركز قوات الردع السورية العاملة ضمن الأراضي اللبنانية.⁴⁹³

عملية الاجتياح الإسرائيلية للأراضي اللبنانية بدأت في 13 و14 من شهر آذار/مارس، بحجة رغبة تل أبيب القضاء على "الإرهابيين" الذين يشكلون تهديداً لأمن المستوطنات الإسرائيلية في الجنوب

Saliba, Najib; "Syrian-Lebanese Relations". Ed dans Barakat, Halim, "Toward a viable Lebanon", Groom⁴⁸⁹
Helm, London, 1988, p. 152

Abu Khalil, Assad; "Syria and the Arab-Israeli Conflict", p. 84.⁴⁹⁰

⁴⁹¹ وثائق الحرب اللبنانية لعام 1978، ص. 99.

⁴⁹² المرجع نفسه، ص. 100.

⁴⁹³ المرجع نفسه، ص. 109.

اللبناني، وتدمير مراكزهم التي ينطلقون منها للقيام بتنفيذ عملياتهم، وكانت السبب المباشر تلك العملية التي كانت تقودها دلال المغربي في منطقة نهاريا شمال فلسطين المحتلة.⁴⁹⁴ وظل العدوان الإسرائيلي مستمراً قرابة أسبوعين، حيث توقف بناء على صدور قرار من "مجلس الأمن الدولي" رقم 425، يطالب تل أبيب بسحب قواتها من لبنان، وإحلال مكانها قوات دولية مهمتها ضبط الأمن على الحدود. ولكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، حيث عمل الأميركيون إلى تشجيع حلفائهم في "القوات اللبنانية" و"الجبهة اللبنانية" للقيام بهجوم ضد القوات السورية بذريعة تحرير المناطق المسيحية منهم، وسميت هذه الحرب بـ"حرب 100 يوم"، والتي توقفت في أواخر صيف ذلك العام على إثر انسحاب القوات السورية من كافة المناطق ذات الغالبية المسيحية.⁴⁹⁵ في هذا الوقت ساءت أيضاً العلاقات بين دمشق ومنظمة التحرير الفلسطينية، بسبب خشية الأسد من نية ياسر عرفات في الانضمام إلى محادثات السلام بين الجانبين المصري والإسرائيلي، وموافقته على حكم ذاتي للفلسطينيين، بحسب ما جاء في الاتفاق الأمر الذي سيؤدي إلى عزل دمشق.⁴⁹⁶

الاجتياح الإسرائيلي للبنان

وصل رونالد ريغن إلى منصب الرئاسة الأمريكية في العام 1981، حيث شهدت فترة ولايته تصعيداً حاداً في المواقف مع موسكو وكتلة الدول الاشتراكية. الأمر الذي اعتبره فرصة سانحة لتل أبيب في اتخاذ خطوة تصعيدية ضد دمشق، خاصة في لبنان. وقد عملت سوريا على استباق هذه الخطوة بالتوقيع على معاهدة صداقة مع موسكو.⁴⁹⁷ التي كانت مترددة في اتخاذ قرار المواجهة مع واشنطن في منطقة الشرق الأوسط، وذلك بسبب أزماتها مع بولندا وأفغانستان.⁴⁹⁸ في ظل هذا الجو، عينت الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون في منصب وزير الدفاع، هذه الخطوة عُدت مؤشراً

⁴⁹⁴ المرجع نفسه، ص. 49.

⁴⁹⁵ Chalala, Elie; "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". p. 74.

⁴⁹⁶ Ma'oz, Moshe and Yaniv, Evner; "On a Short Leash, Syria and the PLO". In Maoz Moshe and Yaniv Evner eds; "Syria Under Assad, Domestic Constraints and Regional Risks", Groom Helm, London, 1ere edition 1986, p. 201.

⁴⁹⁷ Karsh, Efram; "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 55.

⁴⁹⁸ Roberts, David; "The USSR and Syrian Perspective". p. 229.

لتصاعد الأحداث في المدى القريب في منطقة الشرق الأوسط.⁴⁹⁹ وذلك بسبب رغبة إسرائيل تغيير موازين القوى في الساحة اللبنانية، عبر تقديم الدعم لبشير الجميل حليفها من أجل تسهيل وصوله إلى سدة الحكم في لبنان، وبالتالي ليتّم التوقيع على معاهدة سلام بين الجانبين اللبناني والإسرائيلي، بما يساهم في فك العزلة العربية المفروضة على مصر.⁵⁰⁰ لهذا وجدت تل أبيب أن الفرصة ملائمة لتنفيذ ذلك في العام 1982، مع تسلّم ريغن للحكم في الولايات المتحدة الأميركية.⁵⁰¹ وبالوقت نفسه كانت تل أبيب تخشى من اشتعال فتيل الانتفاضة ضمن الأراضي الفلسطينية المحتلة، لذلك اعتقدت الحكومة الإسرائيلية أنها إذا قامت بالقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية المتمركزة ضمن الأراضي اللبنانية، فإنها بالتالي ستؤدي إلى خنق الانتفاضة في داخل الأراضي المحتلة الفلسطينية.⁵⁰²

وعلى هذا فقد شكلت "معركة زحلة" في شهر نيسان /أبريل من العام 1981، والتي قامت بين القوات اللبنانية من جهة وقوات الردع السورية من جهة ثانية، مقدّمة لعملية الاجتياح الإسرائيلي للبنان. ولقد كان هدف معركة زحلة إحداث خرق في الدفاعات السورية المتمركزة في منطقة البقاع، بما يساهم في خلق قاعدة خلفية تسهّل عملية دخول الجيش الإسرائيلي في تلك المنطقة، وبما يشكل تهديداً للطريق الواصلة بين بيروت ودمشق. وعلى الفور قام أفراد تابعون للقوات اللبنانية في الأول من شهر نيسان/أبريل من العام 1981، بالتسلل إلى زحلة ومهاجمة مراكز تابعة للقوات السورية في محيط المدينة. إثر ذلك قامت القوات السورية بمحاصرة مدينة زحلة وضربها بالمدفعية. كما قامت بتوسيع مناطق سيطرتها من خلال تمركزها على مرتفعات جبل صنين بالإضافة إلى منطقة الزعرور، الأمر الذي جعلها تفرض هيمنتها على موقع المواصلات الذي يربط مدينة زحلة بمنطقة جبل لبنان. وأسقط الإسرائيليون طائرة هليكوبتر تابعة للجيش السوري فوق منطقة البقاع وصنين، وعلى الفور سارعت القيادة السورية إلى نشر بطاريات دفاع جوي ضمن منطقة

⁴⁹⁹ جوناثان راندل، حرب الألف عام في لبنان، بيروت: دار المروج، 1984، ص. 243.

⁵⁰⁰ Elezzi Ghassan ; *"De la Paix en Galilée à la Relance de la Guerre Civile, Quand l'Armée Israélienne "sauvait" le Liban"*. Le Monde Diplomatique, juin 1992, p 23

⁵⁰¹ Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymond; *"Syria and the Middle East Peace Process"*, p190.

⁵⁰² Jansen, Michael; *"The Battle of Beirut, Why Israel invaded Lebanon?"*, London Zed Press, London, 1ère edition 1982, p. 66

البقاع. وتمّ بعدها التوقيع على هدنة في شهر حزيران/يونيو من العام 1981، تم إثرها انسحاب الأفراد التابعين للقوات اللبنانية من مدينة زحلة.

تمّت في مدينة لندن محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في شهر حزيران/يونيو من العام 1982، فعملت تل أبيب على استغلالها واتخاذها حجة لتنفيذ عملية اجتياحها للبنان، الذي بدّأته في 4 حزيران من العام 1982، بشنّ غارات قام بها سلاح الطيران الإسرائيلي على مدينة بيروت وضواحيها الجنوبية، حيث استهدفت مراكز تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقد أسفرت هذه الغارات عن مقتل وإصابة 270 شخصاً.⁵⁰³ بعدها توغّلت المدرعات الإسرائيلية برّاً في 5-6 حزيران ضمن الأراضي اللبنانية. ترافق ذلك مع تصريحات الناطق الرسمي باسم الحكومة الإسرائيلية، بأن الغاية من اجتياحهم هذا هو العمل على دفع كل القوات الأجنبية الموجودة داخل الأراضي اللبنانية إلى الخروج منه، بمن فيهم منظمة التحرير الفلسطينية والقوات السورية. بالإضافة إلى تمكين القوات اللبنانية من فرض سيطرتها على مدينة بيروت العاصمة، وتسهيل تسلم حليفهم بشير الجميل السلطة، ثم التوقيع معهم معاهدة سلام بين لبنان وإسرائيل، وضبط الأمن على الحدود الشمالية للعدو الصهيوني، الذي واجه مقاومة عنيفة في منطقة الجنوب اللبناني وقلعة الشقيف التي تطل على مدينة النبطية، حيث أدّى إلى تعرض الإسرائيليين لخسائر فادحة. كما وقعت معارك عنيفة بين الجيش السوري والجيش الإسرائيلي، وبرغم الخسائر التي تكبدها الجيش السوري إلا أنه استطاع وضع عقبات أمام تقدّم الجيش الإسرائيلي باتجاه منطقة البقاع، خاصة بعد معركة عين دارة في منطقة جبل لبنان ومنطقة السلطان يعقوب في البقاع الغربي، حيث وصلت الخسائر السورية إلى نحو 85 طائرة مقاتلة و25 بطارية سام تابعة لسلاح الدفاع الجوي، أما خسائر الجانب الإسرائيلي، فقد تم إسقاط نحو 20 طائرة إسرائيلية.⁵⁰⁴

وتمكّنت القوات الإسرائيلية في 9 حزيران/يونيو من الوصول إلى محيط العاصمة بيروت، حيث عملت بعدها بأيام على فرض حصار عليها.⁵⁰⁵ وتمت محاصرة كتيبتين تابعتين للجيش السوري بالإضافة إلى قوات منظمة التحرير والحركة الوطنية اللبنانية في مدينة بيروت وذلك في منتصف شهر آب/أغسطس من العام 1982، وعلى الفور تم العمل على تشكيل قيادة مشتركة مؤلفة من هذه القوات من أجل الدفاع عن المدينة حيث صمدت بوجه الحصار والقصف لنحو شهرين ونصف تقريباً. ورغم المحاولات الإسرائيلية في اقتحام المدينة أو القيام بعمليات اغتيال لقيادات

⁵⁰³ اجتياح لبنان: يوميات، صور وثائق، وكالة مختارات الأخبار العربية والعالمية، بيروت، 1982، ص. 12.

⁵⁰⁴ المرجع نفسه، ص. 20.

⁵⁰⁵ المصدر نفسه، ص. 30.

هذه المجموعة ومن ضمنهم ياسر عرفات إلا أنها لم تنجح. تزامن ذلك مع قيام مبعوث الرئيس الأميري إلى لبنان فيليب حبيب بجولات عدة على القادة اللبنانيين، أدّت في نهايتها إلى وقف إطلاق النار وذلك في 12 آب/أغسطس من العام 1982.⁵⁰⁶ بالإضافة إلى العمل على إخراج منظمة التحرير الفلسطينية مع 15000 ألف مقاتل فلسطيني من مدينة بيروت وانتقالهم إلى تونس، وذلك في 20 آب/أغسطس.⁵⁰⁷ وبعدها بأيام عدّة انعقد مجلس النواب اللبناني وانتخب بشير الجميل لرئاسة الجمهورية اللبنانية. كما قام رونالد ريغن الرئيس الأمريكي بالتقدم باقتراح من أجل إحلال السلام في منطقة الشرق الأوسط، والتي تبنتها في ما بعد القمة العربية التي اجتمعت في مدينة فاس، وذلك في 6 أيلول/سبتمبر من العام 1982، وذلك بحضور تسع عشرة دولة عربية، باستثناء ليبيا ومصر اللتين غابتا عن الاجتماع. وفي 14 أيلول/سبتمبر، تم اغتيال بشير الجميل الرئيس اللبناني. وعلى إثر ذلك قام حزب الكتائب بالتعاون مع حليفه الإسرائيلي بارتكاب مجزرة صبرا وشاتيلا راح ضحيتها مديون فلسطينيون ولبنانيون، الأمر الذي أدّى إلى وضع إسرائيل في موقف محرج. اغتيال بشير الجميل كان بمثابة الضربة الموجهة والقاضية لكل المخططات الإسرائيلية في المنطقة، في المقابل تصاعدت عمليات المقاومة اللبنانية ضد العدو الصهيوني، الأمر الذي ساهم في ارتفاع حدة المعارضة في الداخل الإسرائيلي ضد بيغن.⁵⁰⁸ ومن نتائج مجزرة صبرا وشاتيلا أنّها كانت سبباً مباشراً في استقالة الكسندر هيغ وزير الدفاع الأميري، وذلك بسبب مساندته للعدوان الإسرائيلي على لبنان. وبالتالي أدّت إلى تدخل سريع من واشنطن عبر إرسال قواتها بالإضافة إلى قوات متعدّدة الجنسيات (قوات إيطالية وفرنسية وبريطانية) إلى لبنان.⁵⁰⁹ كذلك كان من تردّدات المجزرة، أنها جعلت الإدارة الأميركية تأخذ مبادراتها دون العودة إلى أخذ رأي تل أبيب، وذلك بعد أن تقدم الرئيس الأميري ريغن بمبادرة حل للأزمة اللبنانية،⁵¹⁰ والتي قضت بوضع لبنان تحت الحماية الأميركية المباشرة، وبالتالي وضعه في صف واحد مع كل من الأردن ومصر والسعودية من أجل عزل سوريا وبقائها وحدها، بغية فرض حل للنزاع العربي - الإسرائيلي، بما يتناسب مع المصالح الإسرائيلية.⁵¹¹ وساعد ضعف الموقف السوري كلاً من الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية على الرضوخ والموافقة على

⁵⁰⁶ المصدر نفسه، ص. 92.

⁵⁰⁷ المرجع نفسه، ص. 110.

⁵⁰⁸ Jansen, Michael; "The Battle of Beirut, Why Israel invaded Lebanon?" p. 69.

⁵⁰⁹ Bulloch, John; "Final Conflict, the War in Lebanon." p. 138.

⁵¹⁰ شيمون شيفر، عملية كرة الثلج، اسرار الغزو الإسرائيلي للبنان، ص. 164

⁵¹¹ Drysdale, Alasdair and Hinnebusch Raymond: Syria and the Middle East Peace Process. p. 126.

اقتراح ريغان، ضاربين عرض الحائط الموقف المعارض والرافض هذه الخطة من قبل العديد من المنظمات الفلسطينية مثل: "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين". في كانت دمشق لديها الرغبة في التعاون مع واشنطن في حال أخذها بالحسبان مصالحها.⁵¹² لكن البيت الأبيض لم يُرد ذلك، خاصة بعد اعتقادهم أن موقف سوريا الضعيف لا يسمح لها بوضع العقبات أمام مخططاتهم، وهو ما أثبتت دمشق عكس ذلك لاحقاً.⁵¹³

قامت سوريا في ما بعد، بمبادرة تقديم اقتراح بسحب قواتها العاملة ضمن الأراضي اللبنانية، بشرط ان تقوم إسرائيل بسحب قواتها من لبنان أيضاً، وهو الأمر الذي رفضته كل من واشنطن وتل أبيب.⁵¹⁴ وعلى أثر رفضهما، لم يكن أمام دمشق سوى خيار واحد وهو الاستمرار في المواجهة. خاصة أنها في ما بعد ستستفيد من عوامل عدة، عبر تنسيقها وتعاونها مع أطراف لبنانية أخرى وفي مقدمتهم وليد جنبلاط الزعيم الدرزي ونبيه بري الزعيم الشيعي من أجل استعادة سيطرتها على الساحة اللبنانية،⁵¹⁵ في ظل معارضة الدروز والشيعية لتسلّم بشرير الجميل منصب الرئاسة اللبنانية.⁵¹⁶ وفي العام 1982، تمكن يوري اندروبوف من تسلّم الحكم في الاتحاد السوفياتي، وذلك بعد وفاة بريجنيف، الأمر الذي بدل في المواقف لصالح الأسد الذي وجد فيها فرصة ثمينة من أجل تلقي الدعم المطلوب من الاتحاد السوفياتي، للوقوف في وجه السيطرة الأميركية على لبنان. أندروبوف كان في السابق رئيساً لجهاز الاستخبارات السوفياتية الـ "كي. جي. بي"، وهو في الوقت نفسه كان من المؤيدين لفكرة تصعيد المواجهة مع واشنطن، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط، من خلال توفير كل الدعم الكافي واللامحدود لحكومة دمشق.⁵¹⁷ لهذا قام أندروبوف بوضع سوريا تحت الوصاية المباشرة لموسكو، ولم يكتفِ بذلك بل عمل على التهديد باللجوء إلى استعمال القوة في حال تعرّضت سوريا لأي عدوان. وهذا الموقف الروسي يُعدّ الأول من نوعه بعد أزمة عام 1956، مما أعطى الموقف السوري دافعاً قوياً لاستمرارها في المواجهة مع واشنطن

⁵¹² Bulloch, John. Final Conflict, the War in Lebanon. p. 151.

⁵¹³ Karsh Efram. "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 74.

⁵¹⁴ Chalala, Elie. "Syrian Policy in Lebanon, Moderate Goals and Pragmatic Means". p. 84.

⁵¹⁵ Dickey, Christopher; "Assad and His Allies, Irreconcilable Differences". Foreign Affairs, vol. 66
automne 1987, p. 166

⁵¹⁶ Laurent, Annie & Basbous, Antoine ; "Guerres secrètes au Liban", Gallimard, Paris, 1987, p. 187.

⁵¹⁷ سيل، مصدر سابق، ص. 651

وإسرائيل.⁵¹⁸ وبناء عليه أصبحت دمشق أكثر اعتماداً على موسكو.⁵¹⁹ وهذه هي المرة الأولى التي يقبل فيها الرئيس الأسد وضع بلاده تحت الوصاية الروسية. في الوقت نفسه استفادت دمشق من البطء الأميركي في فرض هيمنة حلفائه على لبنان، الذين اضطروا إلى الانتظار حتى شهر أيار/مايو من العام 1983، لفرض تسوية واتفاقية سلام بين الجانب اللبناني والإسرائيلي.⁵²⁰

ودعمت حكومة دمشق كلاً من "حركة أمل" الشيعية و"حزب جنبلاط" الدرزي، بالإضافة إلى تقديم دعمها لعدد من الأحزاب الوطنية اللبنانية الأخرى. وفي العام 1983 جرى اتهام دمشق بالإعداد والتخطيط لعملية تفجير السفارة الأميركية في مدينة بيروت، بالإضافة إلى اتهامها بتفجير مراكز كل من القوات الفرنسية والقوات الأميركية المتمركزة في محيط مدينة بيروت. وعملت سوريا إلى مساندة المقاومة من خلال العمليات التي تقوم بها ضد الإسرائيليين، وشجعت الفصائل الفلسطينية لمعارضة ياسر عرفات الذي كان يريد توقيع سلام منفرد مع الجانب الإسرائيلي وتحت رعاية واشنطن. كما غيرت معركة الشوف في العام 1983، موازين القوى،⁵²¹ وأعطت سوريا دفعاً قوياً من أجل وضع العراقيل أمام المخططات التي لا تراعي مصالحها.⁵²²

في الجانب الإسرائيلي تصاعدت الأصوات المعارضة للحكومة الإسرائيلية بسبب ما تكبده الجيش الإسرائيلي في لبنان.⁵²³ تزامن ذلك مع وجود مصاعب كثيرة كان الجيش اللبناني والقوات اللبنانية يواجهانها في فرض سيطرتهم على الشوف والجبل وعاليه، حيث خسر معركةهما في تلك المناطق.⁵²⁴ الأمر الذي انعكس سلباً على وضعية الجيش اللبناني الذي خسر أيضاً معركته في مدينة بيروت، بالإضافة إلى سقوط منطقة بيروت الغربية تحت نفوذ القوى اللبنانية المعارضة لحكم أمين الجميل، الذي دعمته واشنطن، وذلك في الانتفاضة التي قامت في 6 شباط /فبراير من العام 1984. وإثرها تم سحب القوات المتعددة الجنسيات، وترك أمين الجميل وحده دون دعم، الأمر الذي اضطره إلى الذهاب إلى العاصمة دمشق والقبول بالشروط التي أقرها الرئيس السوري حافظ الأسد:

Karsh, Efram; "The Soviet Union and Syria, the Assad Years". p. 74.⁵¹⁸

Ja'afar, Kassem Muhammad; "Surya Wa Al Itihad Al Soviati, Dirasat fi Al alakat alarabia alsoviatia".⁵¹⁹
p. 620.

⁵²⁰ سيل، مصدر سابق، ص. 651.

Saliba, Najib; "Syrian Lebanese Relations". P 155.⁵²¹

Hopwood, Derek; "Syria 1945-1986, Politics and Society". P. 74.⁵²²

Drysdale Alasdair et Hinnebusch Raymond: "Syria and the Middle East Process", p 127.⁵²³

Mackey Sandra: "Lebanon, Death of a Nation", p 188.⁵²⁴

- اعتبار اتفاقية 17 أيار مع العدو الإسرائيلي ملغاة.
- استقالة حكومة شفيق الوزان، والعمل على إعادة تشكيل حكومة لبنانية جديدة تكون برئاسة رشيد كرامي حليف دمشق.
- تعيين حلفي الحكومة السورية، وليد جنبلاط ونبيه بري في منصب وزيرين في الحكومة اللبنانية الجديدة المشكّلة.⁵²⁵

الصراع الفلسطيني السوري في لبنان

شهدت الساحة اللبنانية صراعاً بين كل من ياسر عرفات رئيس الهيئة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية من ناحية، وحافظ الأسد الرئيس السوري من ناحية أخرى. فقد كان هناك عداء شخصي بين الرجلين، ولكن الخلاف جاء نتيجة الاختلاف في المواقف خاصة بعد العام 1982، حيث اختار الرئيس الأسد خط المواجهة ضد الهيمنة الأميركية المفروضة على لبنان، مستنداً إلى دعم موسكو له، في ما اختار ياسر عرفات، وقبل البدء بعملية الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، لخيار إقامة سلام مع الكيان الصهيوني الغاصب. وهذا الموقف تجلّى عبر محاولاته ومنذ سبعينيات القرن الماضي على اتخاذ خطوات من أجل التفاوض المباشر مع الإسرائيليين، وظهر هذا الأمر جلياً في العام 1974، عبر خطابه في انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة، بالإضافة إلى تأييده الضمني للخطوة المنفردة التي قام بها أنور السادات الرئيس المصري بالتوقيع على سلام منفرد مع تل أبيب. كما عمل عرفات في العام 1982، على رفض الانتقال إلى دمشق، مفضلاً انتقاله إلى تونس مع مقاتليه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة كان أول المتقدمين بمبادرة سلام تجمع العرب وإسرائيل وذلك في العام 1965، ولكن مبادرته هذه قوبلت بمعارضة شديدة من الدول العربية التي قام بزيارتها طارحاً عليها فكرته.⁵²⁶ وخلال تلك الفترة قدّمت واشنطن خطتها من أجل السلام والتي عملت القمة العربية المجتمعة في مدينة فاس على تبنيها، وقد وافق عليها الأسد آنذاك على مضمّن. وأدى وصول اندروبوف إلى سدة الرئاسة في الاتحاد السوفياتي، إلى إحداث تحولات كبرى في موازين القوى الإقليمية والعالمية، والذي منح الرئيس حافظ الأسد دعماً لامحدوداً، ساعده على تحدّي الهيمنة الأميركية في منطقة الشرق الأوسط.

⁵²⁵ Laurent Annie et Basbous Antoine : « Guerres Secrètes au Liban. », p.205.

⁵²⁶ Robert Fisk, Pity the Nation, New York: Thunder Mouth Press, 2002, p. 409.

فالاختلاف بين مواقف الرجلين الأسد وعرفات انعكس سلباً على الوضع الأمني اللبناني. وذلك من خلال محاولة عرفات وضع ثقله في التأثير على بعض الأطراف اللبنانية التي تربطه بها علاقة تاريخية، وخاصة الأحزاب اليسارية والحركة الوطنية. كما عمل عرفات على محاولة فرض سيطرته على مدينة طرابلس وإخراجها من تحت النفوذ السوري، لاستخدامها في ما بعد نقطة انطلاق لافتعال أحداث أمنية في المدن السورية الشمالية، كما فعل ذلك سابقاً خلال العام 1982، أثناء الاحتجاجات التي قامت في مدينة حماة بين الأخوان المسلمين من جهة والجيش السوري من جهة ثانية. وخلال هذه الفترة تمّ الإعلان عن تأسيس "حركة التوحيد الإسلامي" في مدينة طرابلس في شهر آب/أغسطس من العام 1982، وكان واضحاً التأثير السعودي في مواقف ياسر عرفات. وقد ضمت هذه الحركة عدداً من الحركات الإسلامية التي انضوت تحتها، مثل: قوات جند الله بزعامة فواز حسين آغا، والتجمّعات المسجدية بزعامة علي مرعب، حركة لبنان العربي التي كان يتزعمها عصمت المراد، والمقاومة الشعبية التي كان يقودها خليل عكاوي، كما عملت الحركة على اختيار الشيخ سعيد شعبان قائداً لها. وأول أعمالها هو قيامهم بارتكاب مجزرة ضد أحزاب الشيوعيين والعلمانيين بذريعة أنهم كفرة. ثم فرضت سيطرتها على مدينة طرابلس، وقامت بهجمات عدة ضد مراكز تمرکز الجيش السوري، مدعومين من عرفات الذي نزل إلى شوارع المدينة لتقديم المساعدة لهم. لكن، في نهاية الأمر تمّ إجبار عرفات في العام 1983 على الخروج من طرابلس، التي ظلت خارج الهيمنة السورية حتى عام 1985، حين قامت قوات الردع بالتعاون مع حلفائها بشنّ هجوم استطاعت إثره القضاء على حركة التوحيد، وتمّ القبض على قادتهم وزجّهم في السجن وفي مقدّمهم الشيخ شعبان. في هذا الوقت حدث انشقاق داخل صفوف حركة فتح، قام به بعض من كبار قادتها، أبرزهم: العقيد سعيد مراغة المعروف بأبو موسى، بالإضافة إلى قائد قوات العاصفة (الجناح المسلح لفتح) نمر صالح والعقيد أبو خالد العملة، وذلك اعتراضاً على النهج الذي يتبعه عرفات في مساعيه للسلام مع تل أبيب. وتمّت المواجهة بين المنشقين في معارك عنيفة، وقد أطلق المنشقون على أنفسهم اسم "فتح - الانتفاضة"، التي تلقت دعماً من الحكومة السورية.⁵²⁷ كما سيكون للاختلاف في الرؤى بين الرئيس الأسد وياسر عرفات في ما يخص النزاع العربي - الإسرائيلي، أثره على تطوّر الأحداث على الساحة اللبنانية، مثل: النزاع بين "المرابطون" الذين سيسانداهم ياسر عرفات، و"الاشتراكي" الذين يتلقون الدعم من سوريا، أو مثل "حرب المخيمات" التي قامت بين عامي 1985 و1987.

التحضيرات لمؤتمر السلام

خلال جولة قام بها جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي في العام 1985، في منطقة الشرق الأوسط، وخلالها تجدد الحديث عن الرغبة في عقد مؤتمر لإحلال السلام في المنطقة. وسط تسلّم ميخائيل غورباتشوف الحكم في الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أعطى إشارة إلى تراجع دور روسيا وإلى انهيار كتلة الدول الاشتراكية وذلك في العام 1989، تبعها تفكّك الاتحاد السوفياتي في العام 1991. واستطاع شولتز خلال جولته من انتزاع ورقة موقعة من عرفات يدين فيها الأعمال الإرهابية، وقد عدت هذه الوثيقة مؤشراً على بداية رغبته في ترك الكفاح المسلح، مقابل الموافقة على الحلول السلمية بالشروط التي تطلبها كل من واشنطن وتل أبيب. وهذا الأمر أثار تريث الرئيس الأسد، وتنجت عنه الحرب التي قامت في المخيمات في لبنان. ولكن، الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، ففي شهر أيلول/سبتمبر عام 1987، حصلت مفاوضات سرية جمعت كلاً من مندوبين عن حكومة تل أبيب من جهة، ومندوبين عن منظمة التحرير الفلسطينية، وكان الفريق الإسرائيلي يتزعمه إسحق شامير الذي وخلال هذه الاجتماعات اعترف بحق الشعب الفلسطيني بتقرير المصير.⁵²⁸ ترافق ذلك مع إعلان الملك حسين أن الضفة الغربية لم تعد مرتبطة بالأردن وهذا يعني خطوة نحو دخول كلّ من الطرفين الأردني والفلسطيني في حل تسوية مع الجانب الإسرائيلي، يكون أساسها إقامة حكم ذاتي للفلسطينيين ضمن الأراضي المحتلة. ونشير هنا، إلى أن اللقاءات السرية بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني بدأت منذ سبعينيات القرن الماضي، بهدف إيجاد تسوية للقضية الفلسطينية، بما يتوافق مع المصالح الإسرائيلية أولاً.⁵²⁹ فقد كان ياسر عرفات لديه الاستعداد لإقامة هذه التسوية وبأي ثمن ولو كانت على حساب الفلسطينيين أنفسهم، وضمن هذا السياق أتت تنقلاته إلى اليمن وبعدها تونس في العام 1982، بعيداً عن السيطرة السورية، وحتى يكون حراً في اختياراته للتوصل إلى اتفاق مع واشنطن وتل أبيب. وفي سبب حرجاً للحكومة السورية، قام عرفات بمحاولات أخذ جزء من الورقة اللبنانية، التي تقوم بها سوريا بتقديم المساعدة والتمويل لبعض الأحزاب اللبنانية، مما دفع بدمشق إلى تشجيع "حركة أمل" لفرض حصار وحرب على المخيمات الفلسطينية ضمن الأراضي اللبنانية، دامت قرابة السنتين. وفي المؤتمر الذي تمّ انعقاده للمجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في شهر نيسان من العام 1988، أعلن ياسر عرفات عن

⁵²⁸ راجع محمود عباس

⁵²⁹ محمد حسنين هيكل، "سلام الأوهام: أوسلو ما قبلها وما بعدها"، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1996، ص.ص. 62-63. ولقد أثبت هذا من خلال مقابلات مع شفيق الحوت وأبو أحمد فؤاد، القائد العسكري للجهة الشعبية لتحرير فلسطين.

قيام دولة فلسطين، وكان هذا الإعلان بمثابة تهديد نحو التسوية مع الجانب الإسرائيلي عن طريق المفاوضات السرية. والتي كانت الحكومة السورية على علم بها، وهذا ما دفع بالأسد أثناء خطابه الذي ألقاه في 8 آذار/مارس من العام 1989، إلى القول بأن سوريا رفضت "اتفاق كامب ديفيد"، كما أنها سترفض وتعارض أي اتفاق يُشبهه يقوم بين الكيان الصهيوني وبين أي دولة عربية. مشيراً إلى تعديل ميثاق "منظمة التحرير الفلسطينية" الذي تمّ في الجزائر، في أنه لا يطلب إلا الأراضي التي قامت إسرائيل باحتلالها في العام 1967، في الوقت نفسه ترفض تل أبيب التراجع عن مطلبها بإقامة دولة إسرائيل والتي حدودها تمتد من نهر النيل غرباً إلى نهر الفرات شرقاً، وذلك بذريعة أن هذا الاتفاق تم إرساله لهم، لكونهم شعب الله المختار. بالإضافة إلى تحذير الرئيس الأسد أن لا تنازل عن المطالب العربية المحقة، ملمحاً إلى وجود مفاوضات سرية بين منظمة التحرير الفلسطينية والأردنيين من ناحية، والإدارة الأميركية من ناحية أخرى بهدف إقامة مؤتمر للسلام في منطقة الشرق الأوسط.⁵³⁰ ولكن الرد الأميركي على خطاب الأسد، جاء بالعمل على دفع العماد ميشال عون الذي كان في ذلك الوقت يتّمسك بحكومة عسكرية في لبنان، إلى إعلان حرب على القوات السورية. والتي لم تتوقف إلا بعد أن وافقت حكومة دمشق على مقرّرات "قمة الدار البيضاء" التي جرت في العام 1989، والتي أيدت ما قامت به منظمة التحرير الفلسطينية من خطوات نحو تحقيق السلام مع الطرف الإسرائيلي. في الواقع كان يتوجّب على كافة الأطراف المتعارضة في مواقفها، انتظار نهاية الحرب الباردة وذلك في العام 1989، والذي تلاه ضرب العراق وذلك في العام 1991، ليتوجّه جميعهم للمشاركة في مؤتمر السلام الذي تمّ تحت الرعاية الأميركية - الروسية، والذي تزامن مع بدء تفكك الاتحاد السوفياتي في العام 1991، وبنتيجته وقعت روسيا بعدها تحت السيطرة الأميركية لقرابة عقد من الزمن.

⁵³⁰ مراجعة حافظ الأسد في صحيفة السفير اللبنانية في 1 نيسان/أبريل 1989

الجزء الرابع 1991 – 2000

الفصل الأول

العراق 1991 – 2010

في الثاني من آب أغسطس 1990 أمر الرئيس العراقي صدام حسين جيشه باجتياح الكويت واحتلالها بعد استعار الخلاف بين البلدين نتيجة مطالبة الكويت للعراق بدفع ديونه المستحقة عليه، فيما كان الرئيس العراقي يطالب الكويت بوقف إغراق السوق العالمية بالنفط بما فيه خفض الأسعار إلى مستويات غير مسبقة ما كان ينذر بخلق أزمة كبيرة في العراق تهدد بتفجر الأوضاع فيه. وكانت الكويت مدفوعة لذلك من الولايات المتحدة التي كانت تسعى لإطاحة الرئيس العراقي وضرب العراق من الداخل بعدما تحوّل قوة إقليمية كبرى. وكانت المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة تدعمان الكويت في سياساتها العدائية تجاه العراق وقد ساهمتا معها في إغراق السوق العالمية بالنفط متجاوزتين الحصص المقررة لهما من منظمة الدول المنتجة للنفط أوبك. وكان العراق قد اتهم الكويت أيضاً باستخراج النفط العراقي من الآبار عبر طريقة الحفر الأفقي وهي تقنية جديدة كانت قد أخذتها الكويت من الولايات المتحدة الأميركية. وأخيراً فلقد كانت الكويت قد بدأت تطالب العراق بسداد ديونه المترتبة عليه والبالغة عشرات مليارات الدولارات.⁵³¹ وفي 2 آب أغسطس 1990 اخترقت قوات النخبة من الحرس الجمهوري العراقي الحدود الكويتية باتجاه العاصمة الكويت فيما توغّلت الفرق المدرّعة في عمق الأراضي الكويتية وسيطرت على المناطق الاستراتيجية فيها. ولم تدمّ المعارك مع القوات الكويتية إلا ساعات قليلة وتمكّنت القوات العراقية من السيطرة على كامل الكويت في اليومين التاليين لبدء الاجتياح. وفي 4 آب أغسطس أعلن عن قيام جمهورية الكويت برئاسة علاء حسين إلا أن هذا الأمر لم يدم سوى أيام قليلة، إذ إنه في 8 آب أغسطس أعلن عن ضمّ الكويت إلى العراق واعتبارها المحافظة 19 في الجمهورية العراقية وتم تعيين عزيز صالح النومان محافظاً عليها.

Courtney Hunt, The History of Iraq, London: Greenwood Press, 2005, p.p. 96 – 97. ⁵³¹

حرب الخليج الثانية وأثرها

بنتيجة الاجتياح طالب مندوب الكويت ومندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة بعقد جلسة طارئة لمجلس الأمن قامت بإصدار القرار الدولي 660 الذي ندّد باجتياح العراق للكويت وطالبه بالانسحاب الفوري من دون قيد أو شرط. وفي اليوم التالي عقدت جامعة الدول العربية جلسة طارئة طالبت العراق بالانسحاب من الكويت. بعد ذلك أصدر مجلس الأمن في 6 آب أغسطس بفرض حصار اقتصادي على العراق. وما لبثت الولايات المتحدة أن أرسلت مئات الآلاف من قواتها إلى المملكة العربية السعودية بذريعة حمايتها من احتمال قيام صدام حسين باجتياح المنطقة الشرقية فيها والغنية بالنفط. وردّ صدام على ذلك بضم الكويت إلى العراق في السابع من آب أغسطس. وقد تتالت القرارات الدولية ضد العراق كان أبرزها القرار 678 والذي حدّد 15 كانون الثاني يناير 1991 موعداً نهائياً لانسحاب العراق من الكويت تحت طائلة توجيه ضربة عسكرية ضده من قبل تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة. وكانت الولايات المتحدة قد شكّلت تحالفاً دولياً من 38 دولة حشد نحو مليون جندي في المملكة العربية السعودية للقيام بعملية عسكرية ضد العراق، وقد شكّلت القوات الأميركية ثلاثة أرباع عدد القوات المتحالفة.⁵³² وفي 21 كانون الثاني يناير، وبعد أسبوع على انتهاء المهلة المعطاة للعراق لسحب قواته من الكويت، صادق الكونغرس الأمريكي على قرار يمنح الرئيس جورج بوش الصلاحية بشنّ حرب ضد العراق. وانقسمت الدول العربية في موقفها تجاه اجتياح العراق للكويت. فلقد عارض كل من الأردن واليمن أي حرب تشنّ ضد العراق بصفقتها عدواناً على الأمة العربية. كذلك تحفظت كل من تونس والجزائر وموريتانيا والسودان وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية على شنّ الحرب على العراق. في المقابل، فلقدت أعلنت المملكة العربية السعودية والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان والمغرب ومصر وسوريا تأييدها للحرب ضد العراق فيما أعلن أمين عام جامعة الدول العربية الشاذلي القليبي استقالته من منصبه.

بدأت الحرب ضد العراق فجر 16 كانون الثاني يناير 1991 بعد دقائق على انتهاء المهلة الممنوحة للعراق للانسحاب من الكويت، وذلك بحملة غارات جوية وضربات صاروخية باليستية شملت كامل المدن والبلدات والأراضي العراقية. وقد استمرّت الحملة لشهر ونصف الشهر وبلغ عدد الغارات والهجمات الصاروخية نحو 110 آلاف غارة وهجوم صاروخي ألقي خلالها نحو 60 ألف

Courtney Hunt, The History of Iraq, p. 98. ⁵³²

طن من المتفجرات أدت إلى تدمير البنية التحتية في العراق بشكل شبه كامل. وقد استعملت قوات التحالف والقوات الأميركية اسلحة متقدمة ومحرمة دولياً من اليورانيوم المخضب والقنابل الذكية والعنقودية إضافة إلى صواريخ كروز الباليستية. في المقابل ردّ العراق بإسقاط 75 طائرة أميركية وبإطلاق صواريخ سكود على الكيان الصهيوني والمملكة العربية السعودية. ورداً على الضربة الجوية قامت القوات العراقية بهجوم محدود على مدينة الخفجي السعودية ذات الأهمية الاستراتيجية لوقوعها على تقاطع الطرق في المنطقة الشرقية الذي يوصل النفط إلى الأسواق العالمية. لكن هدف الهجوم كان دفع الولايات المتحدة إلى البحث في هدنة مع العراق وهو ما رفضته واشنطن ودعمت هجوماً مضاداً شكلت القوات السعودية والقطرية رأس حربة له تمكّن من استعادة المدينة من القوات العراقية. بعد ذلك، وبنتيجة الهجمات الجوية المتواصلة، تمكّنت قوات التحالف من تدمير قوات الدفاع الجوي العراقية ووسائل القيادة والاتصال ما دفع بالرئيس صدام حسين إلى الموافقة على عرض سوفياني بوقف إطلاق النار والانسحاب من الكويت في 22 شباط فبراير 1991. وقد تعهّدت الولايات المتحدة بعدم مهاجمة القوات العراقية المنسحبة، إلا أنها أخلفت بوعدها وهاجمت هذه القوات موقعة عشرات آلاف القتلى من الجنود العراقيين المنسحبين ومدمرة آلاف الدبابات والمدرعات العراقية. وكانت واشنطن تهدف من ذلك إلى القضاء على القوة العسكرية العراقية التي كانت تهدد أمن إسرائيل وطموحاتها بالهيمنة على منطقة المشرق العربي. وفي 24 شباط فبراير بدأت القوات الأميركية بهجومها البري ضد القوات العراقية في الكويت وجنوب العراق فيما كان الطيران الأميركي يستهدف القطاعات العسكرية العراقية التي أمرت بالانسحاب فجر 26 شباط فبراير 1991. وفي 27 شباط فبراير أعلن عن تحرير الكويت من الاحتلال العراقي.⁵³³

بنتيجة الحرب على العراق تمّ تدمير القوة العسكرية العراقية التي كانت تُعدّ أقوى قوة عسكرية عربية في ذلك الوقت ما ساهم في إضعاف موقف الدول العربية المعادية لإسرائيل في مواجهة هذه الأخيرة. وقد شجع الأميركيون الأحزاب الشيعية على القيام بانتفاضة في جنوب العراق فيما شجّعوا الأكراد على القيام بالمثل في الشمال إلا أن الحكومة المركزية تمكنت من قمع الانتفاضتين ومنعت تقسيم العراق. كذلك فلقد تمّ تدمير البنية التحتية في العراق من طرق ومصانع مدنية وعسكرية ومعامل توليد الكهرباء ومصافي تكرير النفط ومحطات تحلية المياه ما أدّى إلى تراجع خطر في الاقتصاد العراقي وفي الخدمات الطبية والصحية والتعليمية والمعيشية بشكل عام، خصوصاً أن

الولايات المتحدة دفعت مجلس الأمن إلى فرض حصار على العراق سيستمر حتى تاريخ غزوه من قبل الولايات المتحدة في العام 2003. وقد بلغ التضخم نحو 2400 في المئة بين عامي 1991 و1994 ما شكّل كارثة اقتصادية للعراق وحصل نزيف في الأدمغة إذ هاجر عشرات الآلاف من العلماء العراقيين إلى الولايات المتحدة وأوروبا فيما أدّى الحصار المفروض على بغداد إلى ارتفاع وفيات الأطفال ليصل إلى نحو خمسة آلاف طفل في الشهر الواحد على مدى ثلاثة عشر عاماً. وقد وضعت قيود على بيع النفط العراقي فيما ألزمت بغداد بدفع تعويضات عن غزوها للكويت بلغت خمسة في المئة من عائداتها النفطية سنوياً.⁵³⁴

مساعي الهيمنة الأميركية

ومع مطلع الألفية الجديدة، كانت الإدارة الأميركية أمام امتحان صعب، حيث كان يتوجّب عليها اتخاذ قرارات مصيرية، فيما يتعلّق بمصير تزعمها وقيادتها العالم من دون وجود أي ندٍ لهم. وخلال هذه الفترة شهدت الصين ومنذ بدايات الثمانينيات تطوراً اقتصادياً، بعد أن عملت على إنشاء مناطق اقتصادية حرة تساعد على التعاطي بشكل أكبر وانفتاح أكثر على الاقتصاد الدولي، ونتيجة لهذه الخطوات شهد الاقتصاد الصيني نمواً في فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي تراوح سنوياً بين 8 و 10 في المئة، الأمر الذي انعكس إيجاباً على مستوى معيشة الأفراد بنسبة وصلت لغاية 80%، كذلك زادت الحصة الصناعية من الإنتاج المحلي ووصلت إلى نحو 50%.⁵³⁵ ومع بدايات عام 1992، حققت الصين فائضاً في ميزان التبادل التجاري مع واشنطن، الأمر الذي ساهم في تراكم احتياطياتها من العملات الأجنبية الذي وصل قرابة 40 مليار دولار أميركي، ليرتفع بعد ذلك إلى أضعاف هذا المبلغ.⁵³⁶ وهذا الأمر الذي جعل الصينيين يتجاوزون الأزمة التي أصابت كتلة الدول الاشتراكية، والتي ساهمت في انهيارها، ثم تلاها بعد ذلك تفكّك الاتحاد السوفياتي وذلك في العام 1991. انطلاقة الصين الاقتصادية دفعتها إلى تمكين وتعزيز موقفها السياسي، فقد كانت لديها خشية تاريخية وتحديداً من منطقة وسط آسيا، التي شكلت في ما مضى مهداً لغالبية الغزوات التي ضربت الصين. وبالوقت نفسه شكلت منطقة وسط آسيا نقطة عبور للصين تنطلق منها

Courtney Hunt, The History of Iraq, p.p. 101 – 103. ⁵³⁴

Chi Kwan Mark, p. 97. ⁵³⁵

Alfred K. Ho, p. 82. ⁵³⁶

لتعزيز تجارتها في البر الآسيوي، تحت ما عرف بـ"طريق الحرير". ومن اجل ذلك عملت الصين وبالتعاون والتنسيق مع كل من طاجيكستان وكازاخستان وقرغيزستان وروسيا إلى تأسيس "مجموعة الـ5" وذلك في العام 1996، وفي شهر حزيران العام 2001، أصبحت تعرف بـ "منظمة شنغهاي للتعاون" وذلك بعد انضمام أوزبكستان إلى المجموعة. التي كان هدفها ضمان حفظ الاستقرار والأمن ضمن منطقة وسط آسيا، بالإضافة إلى العمل على القضاء على الحركات الانفصالية التي تتخذ منها نقطة انطلاق.⁵³⁷ وتكمن اهمية "منظمة شنغهاي للتعاون"، في مساحتها الكبيرة التي تصل إلى حدود 60% من مساحة أوراسيا، أي أنها تضم ربع سكان العالم. وفي حال أخذنا في الحسبان، الدول التي تأخذ صفة مراقب (وباكستان - الهند - إيران - أفغانستان - منغوليا)، نجد أن "منظمة شنغهاي للتعاون"، تحوي 80% من مساحة أوراسيا، أي أنها تضم نصف سكان العالم. كما عملت المنظمة على إنشاء هيئة خاصة مهمتها العمل على مكافحة الإرهاب.⁵³⁸

في الوقت نفسه، استمرت الإدارة الأميركية في نهج سياسات اعتبرتها موسكو تهديداً لأمنها القومي، رغم تراجع الدور الروسي لصالح واشنطن. في ما عمل الأوروبيون على الإبقاء على "حلف الناتو" رغم انتهاء الحرب الباردة، وعملوا على توسيع نطاق عضويته، لتضم دولاً في منطقة أوروبا الشرقية القريبة من روسيا. بالإضافة إلى محاولة فرض نفوذهم في منطقة القوقاز ومنطقة وسط آسيا، الأمر الذي دفع موسكو إلى العمل للتقارب مع كل من إيران والصين، اللتين أصابهما الأذى من هذه السياسات. بعدها في العام 1999، تسلّم فلاديمير بوتين منصب رئيس الوزراء في روسيا، ليصل بعدها إلى منصب الرئاسة وذلك في بداية العام 2000، بعد استقالة الرئيس بوريس يلتسين لأسباب صحية. وحصل في عهده التقارب الروسي - الصيني، حيث أسساً معاً "منظمة شنغهاي للتعاون".⁵³⁹

بعدها في العام 2001، شنّ الأميركيون الحرب على أفغانستان بحجة الردّ على أحداث هجمات 11 أيلول/ سبتمبر من العام 2001، على مدينتي نيويورك وواشنطن، والتي اتهم بها "تنظيم القاعدة"، وقد وجدت واشنطن فيها الفرصة المناسبة لفرض هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط. ثم تلاها في العام 2003، العدوان الأميركي على العراق، الذي أرادت من خلاله تعزيز سيطرتها على المنطقة، وإعادة رسم خريطة جغرافيتها السياسية. فقد أراد البيت الأبيض تنفيذ مشروعه في منطقة الشرق

Website of Shanghai Cooperation Organization at ⁵³⁷

<http://www.sectsc.org/EN123/brief.asp> accessed on 23 - 2 - 2015.

Website of Shanghai Cooperation Organization at ⁵³⁸

<http://www.sectsc.org/EN123/AntiTerrorism.asp> accessed on 23 - 2 - 2015

Charles J. Shields, Vladimir Putin, New York: Chelsea House Publishers, 2007, p.p. 50 - 59. ⁵³⁹

الأوسط من خلال فرض هيمنتته عليها، وذلك على امتداد المحيط الأطلسي من جهة الغرب، وحتى حدود الصين من جهة الشرق، من أجل فرض نفوذه على طرق المواصلات الدولية، وبالتالي وضع حد للتقارب بين أوروبا وأفريقيا، من جهة، وبين أوروبا وموسكو من جهة ثانية. والهدف الأهم هو العمل على منع موسكو من الوصول إلى المياه الدافئة في منطقة شرق المتوسط، كذلك كي تمنع الصين من اتخاذ إيران نقطة للعبور إلى أفريقيا. فالخطط الأميركي يقوم في أساسه على إعادة رسم وتشكيل الجغرافية السياسية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط، وذلك من خلال العمل على تجزئة وتقسيم دول المشرق العربي، إلى كانتونات طائفية مذهبية وإثنية وعشائرية، لتجعل منها مجاًلاً حيوياً حاضناً لإسرائيل.

غزو العراق

مع بدايات العام 2003 كانت الاستعدادات الأميركية قد اكتملت لغزو العراق عبر حشد عشرات آلاف الجنود الأميركيين مع عتادهم في الكويت. وكانت واشنطن قد حاولت على مدار عام كامل تبرير الغزو الذي كانت تحضر له عبر الزعم أن العراق لم يكن يلتزم بالقرارات الدولية القاضية بمنع انتشار السلاح النووي والكيماوي. وهو ما كانت تنفيه الحقائق وهو ما أكده فشل القوات الأميركية في العثور على أي أثر لأسلحة محرمة دولياً في العراق بعد الغزو. وكانت القوة العسكرية العراقية قد دُمّرت بشكل شبه كامل في العام 1991، فيما ساهم الحصار الذي فرض على العراق بعد ذلك العام إلى تراجع قوة العراق العسكرية والاقتصادية بشكل كبير ما جعله غير قادر على عرقلة أو صدّ العدوان الأميركي.

وقد بدأ الغزو الأميركي في فجر 20 آذار مارس 2003 بتوجيه ضربة جوية ضد الدفاعات الجوية العراقية بالتوازي مع تغلغل القوات الأميركية داخل الأراضي العراقية، حيث لاقت مقاومة عنيفة في مدينة أم القصر القريبة من الحدود الكويتية، ثم في مدينة الناصرية جنوب مدينة البصرة. وقد اشتركت كل من بريطانيا وإسبانيا وأستراليا وعدد من الدول الأخرى مع القوات الأميركية في غزو العراق، وسط معارضة شديدة من معظم دول العالم وعلى رأسها فرنسا وألمانيا وروسيا والصين. وقد كان تقدّم القوات الأميركية والبريطانية في العراق قد جرى بالالتفاف على المدن والتوجّه عبر الصحراء مباشرة إلى بغداد ما مكّن القوات الغازية من تجنّب جيوب المقاومة في المدن العراقية المختلفة واستهداف رأس المقاومة في العاصمة بغداد. وكانت قوات خاصة بريطانية قد سيطرت في بداية المعارك على حقول النفط في جنوب البلاد في الوقت الذي سيطرت فيه قوات خاصة

أميركية أنزلت في كركوك على الحقول النفطية الشمالية. وفي 27 آذار مارس انهارت المقاومة العراقية في مدينة البصرة التي دخلتها القوات الغازية البريطانية. وفي 9 نيسان أبريل كانت القوات الأميركية الغازية قد تغلّبت على المقاومة العراقية الشرسة في النجف وكربلاء والعمارة وباتت على مشارف مطار بغداد الذي حدث فيه معارك شرسة مع قوات الحرس الجمهوري العراقي. لكن المقاومة العراقية انتهت في ذلك اليوم ودخلت القوات الأميركية الغازية بغداد فيما اختفى الرئيس العراقي صدام حسين وأركان قيادة حزب البعث الحاكم عن الأنظار تحضيراً لتنظيم المقاومة العراقية ضد قوات الغزو.⁵⁴⁰

ما أن سقطت بغداد حتى تعرّضت مع غيرها من المدن لعملية نهب واسعة ذكرت العراقيين بغزو المغول والتتار للمدينة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. فقد تعرّض المتحف الوطني العراقي لعملية نهب محتوياته وسُجّلت سرقة مئات آلاف القطع الأثرية منه ما اعتبر أكبر نكبة في تاريخ التراث الإنساني، كذلك تعرّضت المصارف والثكنات العسكرية والمنشآت النووية لعمليات النهب التي تمّت تحت أعين القوات الأميركية الغازية. وقد سقطت نتيجة هذه الحرب الجديدة على العراق مئتا ألف قتيل عراقي، وذلك حتى العام 2010 فيما سُجّل سقوط 4000 قتيل أميركي في صفوف قوات الاحتلال إضافة إلى مئات أخرى من القوات الحليفة للقوات الأميركية الغازية مع جرح نحو 30 ألف جندي أميركي على يد المقاومة العراقية. وفي العام 2008 صدر تقرير لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأميركي والذي خلص إلى اتهام الرئيس الأميركي جورج بوش الابن بتلفيق الاتهامات وبتحويل معلومات استخبارية لتبرير غزو العراق.

العراق تحت الاحتلال

بعد احتلال العراق فرض الأميركيون احتلالاً عسكرياً على البلاد وبدأوا بملاحقة القيادة العراقية، وفي تموز يوليو 2003 تمكنوا من كشف المنزل الذي لجأ إليه نجل الرئيس العراقي عدي وقصي وحفيده مصطفى فهاجموا المنزل ولقوا مقاومة عنيفة من الثلاثة أدّت إلى استشهادهم جميعاً. وفي كانون الأول ديسمبر من العام نفسه اعتقل الرئيس صدام حسين في إحدى المزارع في تكريت فيما كان عدد آخر من قادة حزب البعث والوزراء العراقيين قد سقطوا في قبضة قوات الاحتلال.⁵⁴¹

⁵⁴⁰ Courtney Hunt, The History of Iraq, p.p. 105 – 107.

⁵⁴¹ القصة الكاملة لإلقاء القبض على صدام، دنيا الوطن، 16 - 12 - 2003.

<https://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2003/12/16/1677.html>

وفي أيار مايو 2003 أعلن الاحتلال الأمريكي عن قيام السلطة المؤقتة في العراق برئاسة بول بريمر الذي أصدر قراراً بحلّ الجيش العراقي وتسريح عديده وقطع رواتبهم إضافة إلى تسريح آلاف الموظفين العراقيين وقطع معاشاتهم.⁵⁴² هذا ساهم في تغذية النقمة على قوات الاحتلال وتعزيز أعمال المقاومة ضد قوات الاحتلال الأمريكي والتي ستستمر حتى الانسحاب الأمريكي من العراق عام 2011 والتي نجحت في قتل آلاف الجنود الأميركيين وجرح عشرات الآلاف منهم. وكانت معركة الفلوجة التي وقعت بين قوات المقاومة العراقية من جهة والقوات الأميركية من جهة أخرى من أبرز المحطات في مواجهة الاحتلال الأمريكي في ربيع العام 2004. وبدأت الأحداث بإلقاء الجموع القبض على اربعة عناصر من ميليشيا بلاكووتر تورطوا بإطلاق النار على مدنيين عراقيين، وقامت الجموع بقتلهم والتمثيل بجثثهم ما دفع بالقوات الاميركية إلى حشد آلاف الجنود لمحاصرة المدينة ومهاجمتها في تشرين الثاني نوفمبر 2004 ما أدّى إلى استشهاد 200 مقاتل عراقي في مقابل 40 جندياً أمريكياً إضافة إلى سقوط آلاف الجرحى من الطرفين ومن المدنيين.⁵⁴³

في حزيران يونيو 2004، ونتيجة الخسائر الكبيرة التي كانت تتعرّض لها القوات الأميركية على يد المقاومة العراقية، تقرّر نقل السلطة إلى حكومة محلية عراقية مع إبقاء قوات الاحتلال الأمريكي في العراق وإبقاء السلطة الفعلية في أيديهم.⁵⁴⁴ وفي كانون الثاني يناير 2005 أجريت انتخابات عامة في العراق بعد اعتماد قانون طائفي لعضوية مجلس النواب والحكومة العراقية فيما توزّعت الرئاسة الثلاث على الطوائف الرئيسية في البلاد فنال الأكراد رئاسة البلاد التي تحوّلت منصباً شرفياً في عراق ما بعد صدام، فيما نال الشيعة رئاسة الوزارة والسنة رئاسة مجلس النواب.⁵⁴⁵ وقد تميّزت الانتخابات بمشاركة كبيرة بين الشيعة والأكراد ومشاركة ضعيفة جداً بين السنة. لكن آمال الأميركيين في مساهمة الانتخابات بتراجع حدة المقاومة ضدهم تبخّرت إذ إن المقاومة استعرت ضدهم مسجّلة معدل ما بين 30 و40 عملية بالشهر ضدهم ما أسقط مئات القتلى والجرحى في صفوفهم كل شهر. وفي أيار مايو شنت قوات المارينز عملية ماتادور في منطقة الأنبار إلا أنها فوجئت بكمين نصبه لها مقاومون عراقيون ما أدّى إلى سقوط نحو 40 قتيلاً في صفوف المارينز

⁵⁴² بريمر: قرار حل الجيش العراقي اتخذ بالتشاور مع بريطانيا، قناة العالم 29 ايار 2010،

<http://www.alalam.ir/news/7698>

⁵⁴³ أحمد منصور، معركة الفلوجة: هزيمة أميركا في العراق، 2007.

⁵⁴⁴ العراقيون تسلموا السلطة من أميركا، الوطن 6 حزيران 2004.

<http://www.alwatan.com/graphics/2004/06jun/29.6/dailyhtml/news1.html>

⁵⁴⁵ لمحة عن انتخابات 2005، السومرية، 7 اذار 2012:

<https://www.alsumaria.tv/mobile/news/23859/%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%A9-%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%86%D8%AA%D8%AE%D8%A7%D8%A8%D8%A7%D8%AA-2005/ar>

ونحو 200 جريح في مقابل مقتل 150 مقاتلاً عراقياً.⁵⁴⁶ هذا دفع بالمسؤولين الأميركيين إلى التعبير عن أسهمهم من السيطرة على العراق في صيف 2005. في هذا الوقت كانت الحكومة العراقية المؤقتة قد أصدرت دستوراً جديداً يعتمد التوزيع الطائفي الأنف الذكر وقد أجري الاستفتاء عليه وصادق بغالبية 79 في المئة وفقاً للنتائج التي أعلنتها الحكومة المؤقتة. وفي كانون الأول ديسمبر أجريت الانتخابات التشريعية والتي فاز بغالبية مقاعدها حزب الدعوة الإسلامي وحلفاؤه فكلّف زعيم الحزب نوري المالكي بتشكيل الوزارة العراقية فيما انتخب جلال الطالباني رئيساً للبلاد مع بقاء السلطة الفعلية في قبضة قوات الاحتلال الأميركي التي استمرت في مواجهة مقاومة عراقية شرسة.⁵⁴⁷

بنتيجة المقاومة اضطرت القوات الأميركية والبريطانية إلى الانسحاب من عدد من القواعد التي كانت تتمركز فيها وتسليمها إلى قوات عراقية جمعت حديثاً تحت مسمى الجيش العراقي الجديد والذي كان قد استبعد جميع عناصر الجيش العراقي السابق. وفي ربيع 2006 قامت القوات الأميركية بتسليم قاعدة العمليات المتقدمة في نينوى إلى الحكومة المحلية في نينوى. بعد ذلك بشهر قامت القوات البريطانية بتسليم قاعدة كامب أبو ناجي بالقرب من العمارة إلى قوات عراقية شكلت حديثاً، وذلك نتيجة تعرّض القوات البريطانية لخسائر كبيرة نتيجة العمليات العراقية ضد القاعدة. وقد تلا ذلك تسليم محافظة المثنى إلى الحكومة العراقية وانسحاب القوات البريطانية بالكامل من العراق بعد أشهر قليلة.⁵⁴⁸

في الوقت نفسه كانت المقاومة العراقية في الأنبار قد تصاعدت إلى حد خروجها كلياً عن السيطرة الأميركية. هذا دفع بالأميركيين إلى الإيعاز للحكومة العراقية بقيادة نوري المالكي إلى الأمر بإعدام الرئيس العراقي صدام حسين في 30 كانون الأول ديسمبر 2006، وكان يوم عيد الأضحى ما أثار شكوكاً بأن الغاية من الإعدام كانت لإثارة فتنة سنية شيعية تشعل حرباً أهلية بين العراقيين وتريح الأميركيين من ضغط المقاومة ضدهم.⁵⁴⁹ وقد تلا ذلك إرسال الأميركيين لمزيد من القوات إلى العراق لإعادة السيطرة على محافظة الأنبار بالتعاون مع شيوخ العشائر السنية في تلك المنطقة. وفي أيار

⁵⁴⁶ عمليات تحرير الأنبار، الحرة:

<https://www.alhurra.com/a/military-operation-Iraq-Ramadi-anbar-province/276374.html>

⁵⁴⁷ راجع نوري المالكي: رئيس الوزراء العراقي، الميادين، 1 شباط 2013،

<http://www.almayadeen.net/episodes/635408>

⁵⁴⁸ بوش: 3 سنوات صعبة في العراق ونتوقع المزيد، الاتحاد، 24 مايو 2006:

[/https://www.alittihad.ae/Article/60026/2006](https://www.alittihad.ae/Article/60026/2006)

⁵⁴⁹ تنفيذ حكم الإعدام في صدام حسين شتقاً حتى الموت، الجزيرة 30 - 12 - 2006:

<http://www.aljazeera.net/news/arabic/2006/12/30>

مايو 2007 طالب البرلمان العراقي القوات الأميركية بالإعلان عن جدول زمني لانسحابها من العراق وهو ما كانت ترفضه قوات الاحتلال. وقد دفعها هذا إلى استقطاب قبائل الأنبار إلى صفها عبر دفعها المال لهم وتنظيمها ميليشيا مسلحة بينهم متعاونة مع الاحتلال الأميركي. وقد وصل الحدّ بالأميركيين في محاولة استمالتهم لعشائر الأنبار أن زار الرئيس الأميركي جورج بوش الابن شخصياً المنطقة لتهنئة الشيخ عبد الستار، أحد الشيوخ المتعاونين مع الاحتلال. ولضمان ارتباط العراق مستقبلاً بالولايات المتحدة بدأت هذه الأخيرة بتنفيذ برنامج تسليح مكثف للقوات العراقية بالسلاح الأميركي بدءاً من العام 2008.⁵⁵⁰ ومع انتخاب الرئيس الجديد في الولايات المتحدة باراك أوباما وتسلمه مقاليد الحكم في بداية العام 2009 تضاعفت جهود الحكومة العراقية للضغط على الأميركيين للانسحاب من العراق بدعم من إيران وسوريا، ما أدّى إلى انسحاب هذه القوات أواخر العام 2011.⁵⁵¹

دستور العراق لعام 2005

وفي العام 2005، وبعد عامين على الغزو الأميركي للعراق تم إصدار دستور من قبل الاحتلال الأميركي بالتعاون مع النخبة السياسية التي كانت معارضة للبعث دستوراً جديداً كان من أهم مبادئه اعتماد الصيغة الطائفية للعراق بذريعة التعددية واعتماد نظام فدرالي يعطي الأكراد والشيعية والسنة كيانات منفصلة في إطار الدولة العراقية. ومن أهم بنود الدستور الجديد:

المادة (1):

جمهورية العراق دولة اتحادية واحدة مستقلة ذات سيادة كاملة، نظام الحكم فيها جمهوري نيابي (برلماني) ديمقراطي. وهذا الدستور ضامن لوحدة العراق.

المادة (2):

- أولاً: الإسلام دين الدولة الرسمي، وهو مصدر أساس للتشريع:
- أ - لا يجوز سن قانون يتعارض مع ثوابت أحكام الإسلام.
- ب - لا يجوز سن قانون يتعارض مع مبادئ الديمقراطية.

⁵⁵⁰ بوش يلتقي شيوخ الأنبار ولا يستبعد خفض القوات، الشرق الأوسط، 4 أيلول 2007،

<http://archive.aawsat.com/details.asp?section=1&article=435582&issueno=10507#.W4an5-gzbIU>

⁵⁵¹ أوباما يعلن انسحاب القوات الأميركية من العراق بنهاية العام، بي بي سي، 21 تشرين أول 2011:

http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2011/10/111021_obama_iraq_withdrawal

ج - لا يجوز سن قانون يتعارض مع الحقوق والحريات الأساسية الواردة في هذا الدستور. ثانياً: يضمن هذا الدستور الحفاظ على الهوية الإسلامية لغالبية الشعب العراقي، كما ويضمن كامل الحقوق الدينية لجميع الأفراد في حرية العقيدة والممارسة الدينية كالمسيحيين والآيزديين والصابئة المندائيين.

المادة (3):

العراق بلد متعدد القوميات والأديان والمذاهب، وهو عضو مؤسس وفعال في جامعة الدول العربية وملتزم بميثاقها وجزء من العالم الإسلامي.

المادة (4):

أولاً: اللغة العربية واللغة الكوردية هما اللغتان الرسميتان للعراق، ويضمن حق العراقيين بتعليم أبنائهم باللغة الأم كالتركمانية والسريانية والأرمنية في المؤسسات التعليمية الحكومية وفقاً للضوابط التربوية، أو بأية لغة أخرى في المؤسسات التعليمية الخاصة.

ثانياً: يحدد نطاق المصطلح لغة رسمية، وكيفية تطبيق أحكام هذه المادة بقانون يشمل:

أ - إصدار الجريدة الرسمية باللغتين.

ب - التكلم والمخاطبة والتعبير في المجالات الرسمية كمجلس النواب، ومجلس الوزراء، والمحاكم، والمؤتمرات الرسمية، بأي من اللغتين.

ج - الاعتراف بالوثائق الرسمية والمراسلات باللغتين وإصدار الوثائق الرسمية بهما.

د - فتح مدارس باللغتين وفقاً للضوابط التربوية.

هـ - أية مجالات أخرى يحتملها مبدأ المساواة، مثل الأوراق النقدية، وجوازات السفر، والطوابع.

ثالثاً: تستعمل المؤسسات الاتحادية والمؤسسات الرسمية في إقليم كردستان اللغتين.

رابعاً: اللغة التركمانية واللغة السريانية لغتان رسميتان آخريان في الوحدات الإدارية التي يشكلون فيها كثافة سكانية.

خامساً: لكل إقليم أو محافظة اتخاذ أية لغة محلية أخرى لغة رسمية إضافية إذا أقرت غالبية سكانها ذلك باستفتاء عام.

المادة (5):

السيادة للقانون، والشعب مصدر السلطات وشرعيتها، يمارسها بالاقتراع السري العام المباشر وعبر مؤسساته الدستورية.

المادة (6):

يتم تداول السلطة سلمياً عبر الوسائل الديمقراطية المنصوص عليها في هذا الدستور.

المادة (7):

أولاً: يحظر كل كيان أو نهج يتبنّى العنصرية أو الإرهاب أو التكفير أو التطهير الطائفي أو يحرض أو يهّـد أو يمّـجّد أو يروّـج أو يبرّر له، وبخاصة البعث الصدامي في العراق ورموزه وتحت أي مسمّى كان، ولا يجوز أن يكون ذلك ضمن التعددية السياسية في العراق، وينظم ذلك بقانون. ثانياً: تلتزم الدولة محاربة الإرهاب بجميع أشكاله، وتعمل على حماية أراضيها من أن تكون مقراً أو ممراً أو ساحة لنشاطه.

المادة (8):

يرعى العراق مبدأ حسن الجوار، ويلتزم عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، ويسعى لحل النزاعات بالوسائل السلمية، ويقيم علاقاته على أساس المصالح المشتركة والتعامل بالمثل، ويحترم التزاماته الدولية.

المادة (9):

أولاً:

أ - تتكوّن القوات المسلحة العراقية والأجهزة الأمنية من مكوّنات الشعب العراقي، بما يراعى توازنها وتمثيلها دون تمييز أو إقصاء وتخضع لقيادة السلطة المدنية وتدافع عن العراق ولا تكون أداة لقمع الشعب العراقي ولا تتدخّل في الشؤون السياسية ولا دور لها في تداول السلطة.

ب - يحظر تكوين ميليشيات عسكرية خارج إطار القوات المسلحة.

ج - لا يجوز للقوات المسلحة العراقية وأفرادها، وبضمنهم العسكريون العاملون في وزارة الدفاع أو أية دوائر أو منظمات تابعة لها، الترشيح في انتخابات لإشغال مراكز سياسية، ولا يجوز لهم القيام بحملات انتخابية لصالح مرشحين فيها ولا المشاركة في غير ذلك من الأعمال التي تمنعها أنظمة وزارة الدفاع ويشمل عدم الجواز هذا أنشطة أولئك الأفراد المذكورين آنفاً التي يقومون بها بصفتهن الشخصية أو الوظيفية دون أن يشمل ذلك حقهم بالتصويت في الانتخابات.

د - يقوم جهاز المخابرات الوطني العراقي بجمع المعلومات وتقويم التهديدات الموجهة للأمن

الوطني وتقديم المشورة للحكومة العراقية. ويكون تحت السيطرة المدنية ويخضع لرقابة السلطة التشريعية ويعمل وفقاً للقانون وبموجب مبادئ حقوق الإنسان المعترف بها.

هـ- تحترم الحكومة العراقية وتنفيذ التزامات العراق الدولية الخاصة بمنع انتشار وتطوير وإنتاج واستخدام الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية ويمنع ما يتصل بتطويرها وتصنيعها وإنتاجها واستخدامها من معدات ومواد وتكنولوجيا وأنظمة للاتصال.

المادة (10):

العتبات المقدسة والمقامات الدينية في العراق كيانات دينية وحضارية، وتلتزم الدولة بتأكيد وصيانة حرمتها، وضمان ممارسة الشعائر بحرية فيها.

المادة (11):

بغداد عاصمة جمهورية العراق.

المادة (12):

أولاً: ينظم بقانون علم العراق وشعاره ونشيدته الوطني بما يرمز إلى مكونات الشعب العراقي. ثانياً: تنظم بقانون الأوسمة والعطلات الرسمية والمناسبات الدينية والوطنية والتقويم الهجري والميلادي.

المادة (13):

أولاً: يُعد هذا الدستور القانون الأعلى في العراق، ويكون ملزماً في أنحائه كافة وبدون استثناء. ثانياً: لا يجوز سن قانون يتعارض مع هذا الدستور، ويُعد باطلاً كل نص يرد في دساتير الأقاليم أو أي نص قانوني آخر يتعارض معه.

المادة (47):

تتكوّن السلطات الاتحادية من السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، تمارس اختصاصاتها ومهامها على أساس مبدأ الفصل بين السلطات.

المادة (116):

يتكوّن النظام الاتحادي في جمهورية العراق من عاصمة وأقاليم ومحافظات لامركزية وإدارات محلية.

المادة (117):

أولاً: يقرّ هذا الدستور عند نفاذه إقليم كردستان، وسلطاته القائمة إقليمياً اتحادياً. ثانياً: يقر هذا الدستور الأقاليم الجديدة التي تؤسس وفقاً لأحكامه.

المادة (118):

يسنّ مجلس النواب في مدة لا تتجاوز ستة أشهر من تاريخ أول جلسة له، قانوناً يحدد الإجراءات التنفيذية الخاصة بتكوين الأقاليم بالأغلبية البسيطة للأعضاء الحاضرين.

المادة (119):

يحق لكل محافظة أو أكثر تكوين إقليم بناء على طلب بالاستفتاء عليه، يقدم بإحدى طريقتين: أولاً: طلب من ثلث الأعضاء في كل مجلس من مجالس المحافظات التي تروم تكوين الإقليم.

ثانياً: طلب من عُشر الناخبين في كل محافظة من المحافظات التي تروم تكوين الإقليم.⁵⁵²

⁵⁵² راجع الدستور العراقي لعام 2005 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.77/>

الفصل الثاني

سوريا ولبنان 1991 – 2010

بنتيجة حرب الخليج وتدمير القدرات العراقية، وما تلاها من انهيار للاتحاد السوفياتي في صيف العام 1991 لم يجد الرئيس السوري حافظ الأسد بدءاً من الانفتاح على الولايات المتحدة، وبالتالي لم يكن له بد إلا بقبول الشروط الأميركية لحل الصراع العربي الإسرائيلي، وفقاً لمبدأ الأرض مقابل السلام على أساس القرارين الدوليين 242 و338 برعاية أميركية.⁵⁵³ وقد كان على سوريا أن تقبل بالمفاوضات وفقاً لمسارات منفصلة لا أن يكون العرب ضمن فريق مفاوض موحد على أن يتم التفاوض على جميع المسارات بشكل متوازٍ وأن يتوافق التقدم بالمفاوضات بتقدم على مستوى تطبيع العلاقات بين العرب وإسرائيل. وقد اعتبر المراقبون والمحللون السياسيون أن الأسد قبل بالشروط الأميركية لأنه كان يريد تجنب مواجهة مع واشنطن ما يمكن أن يمنع عنه العقاب الذي تعرض له صدام حسين.⁵⁵⁴ وكانت دمشق تراهن على تعنت الطرف الإسرائيلي لعرقلة المفاوضات التي أتت في غير صالحها. وقد عقدت الجلسة الافتتاحية لمحادثات السلام في 30 تشرين الأول أكتوبر 1991. وبما إن إسرائيل كانت ترفض مشاركة وفد فلسطيني في المفاوضات فلقد شارك الفلسطينيون في هذه المفاوضات ضمن الوفد الأردني على أن يكون أعضاء الوفد الفلسطينيون من أبناء الضفة الغربية وغزة لا من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية ولا من أبناء القدس المحتلة.⁵⁵⁵ وفي وصف لما جرى في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر كتب الصحافي ساطع نور الدين لـ "السفير"، مشيراً إلى أن "اليوم الأول كان هادئاً ومكرساً للمراسم، وفي ما يتعلق بالكلمات التي أُلقيت فإنها لم تعكس أي موقف استثنائي. ولقد كان جميع أعضاء الوفود المشاركة قلقين باستثناء شخصيتين هما بوش ووزير خارجيته جيمس بايكر. ولم يكن حضور غورباتشيف ذا أهمية تذكر، الأمر الذي كان يعكس الوضع الداخلي الحرج لبلاده. وكانت الوفود التي تمثل المتنازعين في حالة عصبية، وكان كل فرد يعبر عن عصبية على طريقته الخاصة. فلقد أدار رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق شامير ظهره إلى رئيس الوفد اللبناني وزير الخارجية فارس بوز وكان ينظر مباشرة إلى رئيس الوفد السوري وزير الخارجية فاروق الشرع الذي كان يبدو كمن عاد من ساحة المعركة. وإلى جانب الشرع جلس

⁵⁵³ جواد ألسيتي، "الأسد يقبل وعد بوش، فلسطين الثورة"، العدد 855، في 8/4/1991، ص. 17.

⁵⁵⁴ Daniel Pipes, "Is Damascus ready for peace?", Foreign Affairs, automne 1991, p.37.

⁵⁵⁵ السفير في 17 تشرين الأول/أكتوبر 1991

رؤساء الوفد الفلسطيني - الأردني وهما حيدر عبد الشافي ورئيس الدبلوماسية الأردنية كامل أبو جابر فيما جلس صائب عريقات خلفهما.⁵⁵⁶

وقد ألقى مضيف المؤتمر، رئيس الوزراء الإسباني فيليبي غونزاليس كلمة دعا فيها الوفود المشاركة إلى بذل الجهود لتحقيق السلام.⁵⁵⁷ أما الرئيس الأميركي فلقد شدّد على أن بلاده تعمل على إحلال سلام حقيقي يتضمن "المعاهدات والأمن والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والتجارة والاستثمار والتبادل الثقافي وحتى السياحة".⁵⁵⁸ بعد ذلك، ألقى الزعيم السوفياتي كلمة دعم فيها بوش واعتبر أن التعاون بين موسكو وواشنطن ضروري لإقامة السلام في الشرق الأوسط. وفي جلسة بعد الظهر، ألقى وزير الخارجية الهولندي هانس فان دين بروك كلمة باسم الاتحاد الأوروبي، أكّد فيها عزم أوروبا على المشاركة بدفع عملية السلام. وانتهت الجلسة الافتتاحية بكلمة وزير الخارجية المصري عمرو موسى الذي دعا فيها إلى الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة والاعتراف بالهوية الوطنية الفلسطينية كشرطين أساسين للسلام في الشرق الأوسط.⁵⁵⁹ وفي اليوم الثاني ألقى شامير كلمة أشار فيها إلى رفضه مبدأ الأرض مقابل السلام معتبراً أن أرض فلسطين كاملة هي أرض إسرائيل.⁵⁶⁰ أمّا رئيس الوفد الفلسطيني - الأردني كامل أبو جابر فقد ألقى كلمة شدّد فيها على "ضرورة أن الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة بالاستقلال وإقامة دولته الوطنية" بعد ذلك، ألقى وزير الخارجية اللبناني فارس بوز كلمة طالب فيها بانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان وفقاً للقرار الدولي 425. وفي الختام ألقى وزير الخارجية السوري فاروق الشرع كلمة أكّد فيها رغبة سوريا بالتوصّل إلى سلام مع إسرائيل، وفقاً للشرعية الدولية وللقرارين 242 و338 ومبدأ "الأرض مقابل السلام"، مع حماية الحقوق الوطنية للفلسطينيين. كما أكّد على "أهمية دور الأمم المتحدة وأوروبا في هذه العملية".⁵⁶¹

⁵⁵⁶ نور الدين ساطع، السفير، في 31 تشرين الثاني/نوفمبر 1991

⁵⁵⁷ مراجعة السفير، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991

⁵⁵⁸ مراجعة خطاب بوش في صحيفة النهار، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991

⁵⁵⁹ النهار، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991

⁵⁶⁰ النهار، في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1991

⁵⁶¹ السفير، في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1991

أوسلو ووادي عربة

لم تُسفر الجولة الأولى، شأنها شأن الجولات الأربع التي تلتها عن أية نتيجة لأن حكومة الليكود كانت ترفض مبدأ الأرض مقابل السلام.⁵⁶² وكان شامير يريد استغلال المفاوضات لتطبيع العلاقات مع العالم العربي من دون الانسحاب من أي شبر من الأرض المحتلة.⁵⁶³ وكان الإسرائيليون يراهنون على أن يمارس المجتمع الدولي وعلى رأسه الولايات المتحدة ضغوطاً على الفلسطينيين ليقبلوا بحل الحكم الذاتي عوضاً عن إقامة الدولة في الأراضي المحتلة ما يفتح المجال أمامهم لإقامة سلام مع الأردن يشكل جسر عبور لهم إلى دول منطقة الخليج من دون الحاجة لإقامة سلام مع سوريا.⁵⁶⁴ هذا دفع بالإسرائيليين إلى التركيز على المسارين الأردني والفلسطيني وإهمال التفاوض على المسارين السوري واللبناني. وقد تجاوب الفلسطينيون مع المساعي الإسرائيلية لأنهم اعتبروا أن من شأنها التخفيف من وطأة الاحتلال الإسرائيلي على الضفة الغربية وغزة. وقد جرى الحديث أن سلاماً مع الفلسطينيين والأردنيين يمكن أن يمهّد لإقامة اتحاد كونفدرالي بين إسرائيل والفلسطينيين والأردنيين.⁵⁶⁵

كانت المفاوضات عقيمة في ظل حكومة الليكود ما أدّى إلى خلافات كبيرة بين القيادة الإسرائيلية وإدارة الرئيس جورج بوش التي اندفعت لدعم حزب العمال الإسرائيلي بقيادة إسحق رابين وشيمون بيريز لتحقيق فوز في الانتخابات التشريعية الإسرائيلية التي أجريت في حزيران/يونيو 1992. وقد شكلت نتائج الانتخابات أول هزيمة لحزب الليكود منذ العام 1977، كما شكل مدعاة تفاؤل للأطراف الراعية لعملية السلام.⁵⁶⁶ ولقد كان حزب العمل يريد دفع عملية السلام، لذلك وعد الفلسطينيين بالحكم الذاتي،⁵⁶⁷ وأعلن رابين أنه ينوي إعطاء الأولوية للمسار السوري في محاولة منه لابتزاز الفلسطينيين للقبول بحل الحكم الذاتي.⁵⁶⁸ وكان رابين وشريكه بيريز يريان أن السلام

⁵⁶² وحيد عبد المجيد، "إسرائيل والمفاوضات الجارية، مصطفى اللوي: المفاوضات العربية - الإسرائيلية ومستقبل السلام في الشرق الأوسط، القاهرة، 1994، ص. 161.

⁵⁶³ السفير، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991

⁵⁶⁴ باتريك سيل، "رابين يريد الجولان منزوع السلاح ويعترف بالهيمنة السورية على لبنان في مقابل سلام بين دمشق وتل أبيب"، ص. 20.

⁵⁶⁵ جواد الصمد، "الخيار الكونفدرالي الأردني - الفلسطيني"، شؤون الشرق الأوسط، عدد رقم 48، كانون الثاني/يناير 1996، ص. 54 و 55.

⁵⁶⁶ Muslih, Muhamed, "Dateline Damascus: Assad is ready", Foreign Policy, no. 96, Automne 1994, p.151

⁵⁶⁷ السفير، في 24 حزيران/يونيو 1992

⁵⁶⁸ النهار والسفير، في 3 تموز/يوليو 1992

يصبّ في مصلحة إسرائيل وأن الهدف الرئيس هو رسم خريطة جيوسياسية جديدة في الشرق الأوسط يكون لإسرائيل فيها الدور المحوري.⁵⁶⁹ وكانت استراتيجية حكومة حزب العمل تقوم على استغلال التناقضات بين السوريين والفلسطينيين،⁵⁷⁰ لذلك أعلن رابين فور انتخابه أنّ السلام مع سوريا سيكون هو هدفه الرئيسي.⁵⁷¹ إلا أن سوريا لم تكن مستعدة للقبول بسلام في المنطقة يؤدي إلى ان تصبح إسرائيل هي القطب الرئيسي فيها.⁵⁷² وكان الفلسطينيون يخشون من أن تتمكّن سوريا من عقد سلام مع إسرائيل قبلهم، تاركة إياهم تحت رحمة الإسرائيليين. ولذلك، فقد سعوا إلى عقد سلام مع إسرائيل بأيّ ثمن. وكان عرفات مستعداً للتوقيع على معاهدة مع الإسرائيليين مهما كلفه ذلك. وكان أساس موقفه هذا خشيته من أن يصبح الوفد الفلسطيني في المفاوضات بدلاً عن منظمة التحرير التي يرأسها. وهو اتخذ من ذريعة خشيته من أن تسبقه سوريا إلى السلام مع إسرائيل مبرراً لهروولته إلى السلام مع الصهاينة بأيّ ثمن علماً أنه كان يعرف استحالة السلام بين دمشق وتل أبيب. وقبيل الجولة السادسة من المفاوضات بدأت تلوح في الأفق بوادر حلّ منفصل بين الإسرائيليين والفلسطينيين ينال الآخرون بموجبها حكماً ذاتياً في الأراضي المحتلة. وما أن أُطلقت الدعوة لاستئناف المفاوضات بدأ الفلسطينيون بتنفيذ مقترحات كامب ديفيد 2 والتي تتعلق بإنشاء قوة شرطة يتمّ تدريبها في الأردن. وقد أعلن الإسرائيليون استعدادهم لتدريب هذه القوة.⁵⁷³ وقد بدأت الجولة السادسة في واشنطن في 24 آب/أغسطس 1992. وأعلن الإسرائيليون قبولهم بقرار الأمم المتحدة رقم 242 كأساس للتفاوض.⁵⁷⁴ لكن الخلاف دب بين الطرفين السوري والإسرائيلي ما أدّى بالأخير إلى تعليق المفاوضات بسبب عدم استعداد دمشق لتقديم تنازلات في ما يتعلق بالجولان.⁵⁷⁵ ومع حلول أيلول سبتمبر كان مقدراً للمفاوضات أن تتجمّد خصوصاً مع دخول الولايات المتحدة طور الانتخابات الرئاسية التي كان على الرئيس بوش

⁵⁶⁹ هشام الدجاني، "آفاق السلام المسدود على المسار السوري - الإسرائيلي"، الحياة، في 4 حزيران/يونيو 1997، ص. 27.
⁵⁷⁰ وحيد عبد المجيد، "إسرائيل ومفاوضات السلام الجارية"، المفاوضات العربية - الإسرائيلية ومستقبل السلام في الشرق الأوسط، تحرير مصطفى العلوي، القاهرة، 1994، ص. 163.

⁵⁷¹ Muslih, Muhammad: "Dateline Damascus, Assad is ready", Foreign Policy, no 96 Automne 1994, p. 151.

⁵⁷² باتريك سيل، "رابين يريد الجولان منزوع السلاح ويعترف بالهيمنة السورية على لبنان في مقابل سلام بين دمشق وتل أبيب"، الوسط

⁵⁷³ هدى الحسيني، مراسلة في صحيفة الشرق الأوسط، في 6 آب/أغسطس 1992

⁵⁷⁴ السفير، في 25 آب/أغسطس 1992

⁵⁷⁵ النهار، في 7 أيلول/سبتمبر 1992

أن يخوضها للفوز بولاية جديدة. وقد استغلت القيادة الإسرائيلية ذلك للدفع بمطالبها بإقامة كوندراالية إسرائيلية فلسطينية أردنية.⁵⁷⁶

في تشرين الثاني نوفمبر 1992 أعلنت نتائج الانتخابات الرئاسية الأميركية بخسارة جورج بوش وفوز منافسه عن الحزب الديمقراطي بيل كلينتون. وقد شكّل دعم اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة لكلينتون أحد أهم عوامل فوزه، خصوصاً أن الصهاينة كانوا يعتبرون أن كلينتون كان أقرب لهم من بوش.⁵⁷⁷ وقد شعر الإسرائيليون أنهم باتوا أكثر قدرة على التأثير على سياسات الإدارة الأميركية في الشرق الأوسط. وقد أعلن كلينتون أن إدارته لن تمارس أي ضغوط على إسرائيل في ما يتعلق بعملية السلام.⁵⁷⁸ بعد انتخاب كلينتون جرى عقد ثلاث جولات تفاوضية أخرى بين العرب وإسرائيل من دون إحراز تقدم حقيقي. في هذا الوقت كانت تدور مفاوضات سرية بين قيادة منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية بوساطة نروجية وقد علمت بها دمشق وسعت إلى عرقلتها ما دفع بإسرائيل إلى شنّ عدوان على لبنان في تموز يوليو 1993. ولم يتوقف العدوان إلا بعد إجراء مفاوضات غير مباشرة أدّت إلى إعلان هدنة في لبنان في مقابل وقف دمشق معارضتها لأوسلو الذي سيوقع في أيلول سبتمبر 1993. وقد كان الاتفاق إنجازاً كبيراً لإسرائيل التي أزالته عقبة رئيسية من طريقها باتجاه تطبيع العلاقات مع العرب. وقد جاء الاتفاق وفقاً للتصورات الإسرائيلية إذ إنه منح الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً في غزة وأريحا ولم يدفع إسرائيل إلى الانسحاب من أي شبر من الأراضي المحتلة. وقد كان بإمكان إسرائيل بعد الاتفاق أن تطبع العلاقات مع العرب من دون انتظار تحقيق السلام مع سوريا ولبنان. وقد سعى الأميركيون إلى طمأنة دمشق من أن دورها سيأتي لتوقيع سلام مع إسرائيل وذلك في اتصال هاتفي بين كلينتون والأسد.⁵⁷⁹

شكّل اتفاق أوسلو نهاية للطريق المسدود طيلة عامين من المحادثات التي بدأت في مدريد. كانت له آثارٌ جعلت الوضع بين الفلسطينيين والإسرائيليين أكثر مرونة كما أثر في جوانب

⁵⁷⁶ النهار، في 23 أيلول/سبتمبر 1992

⁵⁷⁷ السفير، في 27 تشرين الأول/أكتوبر 1992

⁵⁷⁸ Klane, Michael T, *Priorités contradictoires dans un monde sans repère : M. Clinton en quête d'une nouvelle vision diplomatique*, Le Monde diplomatique, février 1993, p. 8.

⁵⁷⁹ De la Gorce, Paul-Marie, *Washington et la nouvelle donnée, construire la paix au Proche-Orient.*, Le Monde Diplomatique, octobre 1993. p. 8.

أخرى من الصراع العربي - الإسرائيلي.⁵⁸⁰ وعليها كان من شأن هذا السلام أن يفتح آفاقاً جديدة لتطبيع العلاقات بين العرب وإسرائيل بغض النظر عن أي تقدّم على المسارين السوري واللبناني. اعتمد راين استراتيجيّة تلاعبٍ على جميع المسارات، إذ دفع الفلسطينيين إلى الاعتقاد بأنه كان يُحرز تقدّماً على المسار السوري بغية تقديم أقلّ قدر ممكن من التنازلات لهم وبغية فرض حلّ عليهم شبيه بخطة آلون.⁵⁸¹ ولقد أعلن السفير الإسرائيلي السابق في فرنسا بنيامين نتنياهو في هذا الصدد أنّ اتفاق أوصلو قد مهّد الطريق للتطبيع مع الدول العربية.⁵⁸² غير أنّ العوامل التي دفعت الإسرائيليين إلى التوقيع على هذا الاتفاق كانت أنه لم يتطلب الكثير من التنازلات من جانب الإسرائيليين، بل إنّه منحهم العديد من المكاسب. ومن ثمّ فإن راين كان بحاجة إلى تحقيق تقدّم في عملية السلام هذه وكان يخشى اشتداد معارضة الليكود الذي كان يهدّد بعرقلة أي اتفاق مع الفلسطينيين ومع العرب.⁵⁸³ كما كان الإسرائيليون قد سئموا من الصراع مع العرب لما له من تداعيات نفسية واجتماعية وسياسية. فقد رأوا أنّ الوقت قد حان لتوقيع اتفاق مع الفلسطينيين، وخصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عام 1991.⁵⁸⁴

وعقب التوقيع على الاتفاق الإسرائيلي - الفلسطيني، كان الأردن متلهّفاً للسير على الطريق التي سبقته إليها منظمة التحرير الفلسطينية إذ تم تسجيل لقاءين مع وزير الخارجية الإسرائيلي شيمون بيريز، أحدهما ضم وليّ العهد الأمير حسن والآخر ضمّ الملك حسين نفسه. ولممارسة الضغوط على سوريا ألح راين إلى إمكانية توقيع اتفاق سلام مع لبنان إذا ارتضت الحكومة اللبنانية برئاسة رفيق الحريري نشر الجيش في الجنوب وسحب سلاح حزب الله ومنع العمليات التي يشنها ضد إسرائيل.⁵⁸⁵ وبعد اتفاق أوصلو بات الطريق ممهداً للأردن لتوقيع اتفاق سلام منفصل مع إسرائيل، خصوصاً أنه لم يكن هنالك أراض أردنية محتلة تعيق توقيع اتفاق كهذا.⁵⁸⁶ وفي 25 تموز/يوليو 1994، عُقدت قمة إسرائيلية - أردنية بهدف التحضير لاتفاق وادي

Shlaim, Avi, "The Oslo Accord", Journal of Palestine Studies, XXIII, no. 3, printemps 1994, pp. 826-827.

Rouleau, Eric, *Comment les fractures et surenchères ont affaibli le monde arabe*, Le Monde ⁵⁸¹

Diplomatique, octobre 1993, p. 8.

Lancry, Yehuda, Entretien avec l'ambassadeur israélien à Paris. Propos recueillis par Régine Dhoquios ⁵⁸²

Colen. Le Processus de Paix est irréversible

Faith Douglas J., "Withdrawal Process not Peace Process, the Tunnar's Logic of Israel's Negotiations", ⁵⁸³

Middle East Quarterly, mars 1996, p.p. 13-14.

Fath Douglas J., "Land for no Peace", Commentary, juin 1994, p. 32. ⁵⁸⁴

النهار، في 16 أيلول/سبتمبر 1993 ⁵⁸⁵

السفير، في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1993 ⁵⁸⁶

عربة. وقد زار الرئيس المصري حسني مبارك دمشق لإقناع الأسد بعدم عرقلة الاتفاق الأردني الإسرائيلي العتيد. وأعلنت الحكومة الإسرائيلية أن معاهدة السلام مع الأردن باتت جاهزة وأنها "تحدّد أسساً واضحة لمستقبل العلاقات بين الطرفين بشأن خطوط الهاتف والكهرباء وافتتاح نقطتي عبور جديدتين في الجنوب في منطقة العقبة، إضافة إلى الاتفاق على حركة انتقال السياح والمفاوضات لفتح خط جوي مباشر والتعاون في مجال الأمن لمكافحة الجرائم والمخدرات والمفاوضات بشأن القضايا الاقتصادية والمياه ومواصلة عقد قمم ثنائية بين البلدين".

بعد ذلك بأسابيع قليلة جرى التوقيع على الاتفاق الأردني الإسرائيلي رسمياً في وادي عربة، ولتجنّب أية تداعيات سلبية لهذا التوقيع، اتّصل كلينتون بالرئيس السوري حافظ الأسد مطمئناً إيّاه بأنّه يبذل جهوداً لدفع عملية السلام بين إسرائيل وسوريا.⁵⁸⁷ ووفقاً للاتفاق التزم الطرفان الإسرائيلي والأردني "بعدم اللجوء إلى القوة لحل النزاعات أو تهديد أمن كل منهما".⁵⁸⁸ وتعهد الطرفان ببحث حلول للخلافات في قضايا الحدود ومسائل الأرض والأمن والمياه والطاقة والبيئة ووادي الأردن.⁵⁸⁹ ووفقاً للمفاوضات فقد قبلت اللجنة الفرعية للمياه والبيئة والطاقة الاعتراف المتبادل بحصص كلّ طرفٍ من المياه من نهري الأردن واليرموك⁵⁹⁰ وإقامة خطّ هاتفي مباشر بين إسرائيل والأردن، وربط شبكات الكهرباء بين إسرائيل والأردن كجزءٍ من شبكة إقليمية يجري العمل على إنشائها، وفتح نقطتي عبور جديدتين بين إسرائيل والأردن إحداهما في العقبة والأخرى في الشمال قرب نهر الأردن، والاتفاق على انتقال السياح بين البلدين وغيرها من البنود التي ذكرت سابقاً. وتجدر الإشارة إلى أن القائمين بالأعمال اللبناني والسوري قد حضرا حفل التوقيع، ولكنهما رفضا مصافحة رابين، مما يظهر وجود تفاهم ضمني لبناني - سوري على عدم عرقلة اتفاق وادي عربة.⁵⁹¹ ومن جانبه، فقد أعرب كريستوفر عن تفاؤله بشأن إحراز تقدّم على المسار السوري في حين أن الولايات المتحدة ستواصل المفاوضات مع سوريا.⁵⁹²

⁵⁸⁷ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁵⁸⁸ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁵⁸⁹ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁵⁹⁰ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁵⁹¹ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁵⁹² السفير، في 29 تموز/ يوليو 1994

محاولات حصار سوريا

اقتصر الموقف السوري بتوجيه الانتقاد للاتفاق الأردني الإسرائيلي إلا أنه لم يرقم بخطوات عملية لعرقلة. ⁵⁹³ فبنتيجة الاتفاق تمّ عزل سوريا بشكل كبير في ظلّ الحظر الحديث عن تحالف إسرائيلي - تركي كان يلوح به في الأفق. هذا الاتفاق مهّد الطريق أمام تطبيع علاقات بين إسرائيل من جهة والعرب من جهة أخرى. غير أن دمشق ستحاول التعويض عن الخسائر التي مُنيت بها عبر الاعتماد على تحالفها مع إيران وعدد من الفصائل الفلسطينية المعارضة لعرفات. ⁵⁹⁴ وكان الأسد يعوّل على فشل تحقيق السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، معتبراً أن صيغة اتفاق أوسلو ستؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى انفجار الوضع في الأرض المحتلة. وفي محاولة لدفع السلام على المسار السوري قدماً قام الرئيس بيل كلينتون بزيارة إلى دمشق اتبعها بزيارة إلى الأردن. وقد حاول كلينتون بإقتناع الأسد تقديم تنازلات إلا أنه فشل في هدفه. وعقد كلينتون والأسد مؤتمراً صحافياً، أكد خلاله الأسد "أن السلام هو خيار استراتيجي لسوريا، التي التزمت إنهاء الاحتلال وفق قراري الأمم المتحدة 242 و338، كذلك الأمر بالنسبة للقرار 425 المتعلق بلبنان. كما أكد أن اتفاقاً إسرائيلياً - سورياً يمثل مفتاحاً شاملاً للحل". ⁵⁹⁵ في المقابل أكد كلينتون أن إعلان الأسد "يذهب بعيداً عن المبادرات الدبلوماسية التي أقامها في الماضي وأن هذا الإعلان يجب أن يطمئن المواطنين الإسرائيليين، ويشجّع على الحوار ويدعم المساعي الهادفة إلى تفعيل السلام". ⁵⁹⁶ وقد حاولت إسرائيل فصل المسار اللبناني عن المسار السوري فأقامت علاقات سرّية مع مسؤولين لبنانيين أدّت إلى إطلاق الرئيس اللبناني الياس الهراوي مبادرة سلام بدعم من رئيس الوزراء رفيق الحريري وتشجيع من السفارة الأميركية في لبنان. وكان من أولى تجليات هذه المبادرة إطلاق عناصر من الجيش اللبناني للنار على مظاهرة لحزب الله احتجاجاً على اتفاق أوسلو في أيلول سبتمبر 1993 أدّت إلى مقتل تسعة من مناصري الحزب. لكن دمشق استطاعت إفشال مبادرة الهراوي وصرّح منسق الأنشطة الإسرائيلية في لبنان أوري لوبراني أن دمشق أجهضت محاولة سلام لبنانية إسرائيلية تقدم بها الهراوي". ⁵⁹⁷ في الوقت نفسه تمكّن الإسرائيليون من إقامة علاقات اقتصادية مع عدد من البلدان العربية مثل قطر وسلطنة عمان وتونس والأردن واشتركوا في مؤتمرات اقتصادية إقليمية كمؤتمر الدار البيضاء وعمان.

⁵⁹³ جريدة النهار

⁵⁹⁴ 1994 - 8 - 19, Times Magazine, Waiting for the Deal, Nelan Brose

⁵⁹⁵ جريدة النهار، 28 و29 تشرين الأول 1994

⁵⁹⁶ جريدة السفير، 28 تشرين الأول 1994

⁵⁹⁷ جريدة الحياة، 4 تشرين الأول 1994

في ظل هذه الأوضاع المتعدية ارتأت دمشق القبول بالمقترح الأميركي بقاء قائد الأركان السوري حكمت الشهابي مع قائد الأركان الإسرائيلي إيهود باراك في واشنطن في كانون الأول ديسمبر 1994، إلا أن المباحثات فشلت بسبب إصرار الطرف الإسرائيلي على إقامة قواعد إنذار مبكر في الأراضي السورية لقاء الانسحاب من الجولان وهو ما رفضته القيادة السورية.⁵⁹⁸ فبمواجهة المطالب الإسرائيلية طالبت سوريا بأن تكون الترتيبات الأمنية متبادلة ومتوازنة وهو ما رفضته إسرائيل.⁵⁹⁹

في هذا الوقت كانت المحاولات الإسرائيلية لتطبيع العلاقات مع عدد من الدول العربية تستفز مصر التي كانت ترى أن هذه المحاولات تهدف أيضاً إلى عزل مصر وتقليل دورها الريادي في المنطقة العربية. وقد تجلّى التوتر الإسرائيلي المصري بقمة الدار البيضاء التي عقدت في تشرين الأول أكتوبر 1994 حين أعلن وزير الخارجية الإسرائيلي شيمون بيريز موجهاً كلامه لوزير الخارجية المصري عمرو موسى أن مصر قادت المنطقة إلى حروب مدمرة لأربعة عقود، لذلك يجب أن تدع إسرائيل تقود المنطقة إلى الرخاء في العقود المقبلة ما استدعى ردّاً عنيفاً من عمرو موسى ساندته فيه وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل الذي اعتبر أن تطبيع العلاقات بين العرب وإسرائيل لا يمكن أن يحصل قبل تحقيق السلام العادل والشامل على المسار السوري أيضاً وانسحاب إسرائيل من كامل الأراضي المحتلة بما فيها القدس الشرقية. وقد تلت ذلك مواجهة أخرى بين الطرفين المصري والسعودي في قمة عمان التي عقدت في تشرين الأول أكتوبر 1995 والتي هاجم خلالها موسى والفيصل الدول العربية المهرولة للتطبيع مع إسرائيل.⁶⁰⁰

هنا تدخلت واشنطن لدفع السلام على المسار السوري خشية من أن يؤدي الفشل فيه إلى عرقلة التقدم الذي حصل على المسارين الفلسطيني والأردني. وقد أدّى هذا إلى لقاء آخر جمع بين قائد الأركان السوري حكمت الشهابي مع قائد الأركان الإسرائيلي الجديد إسرائيل شاحاك وذلك بغية التوصل إلى ترتيبات أمنية مطمئن الطرفين السوري والإسرائيلي وتؤدي إلى السلام بينهما. وقد عقد اللقاء في حزيران يونيو 1995.⁶⁰¹ وقد تناولت المحادثات موضوع المناطق العازلة ومناطق تخفيف السلاح وقواعد الإنذار المبكر والدور المحتمل لقوات دولية تنتشر على طرفي الحدود بين سوريا وفلسطين المحتلة إضافة إلى إرسال واشنطن مراقبين أميركيين إلى

⁵⁹⁸ سبريل تاوونساند، العقبات في الاتفاق الإسرائيلي-السوري، الحياة 22 آب 1995، ص. 17.

⁵⁹⁹ سبريل تاوونساند، "العقبات على المسار السوري - الإسرائيلي"، الحياة 22 آب 1995

⁶⁰⁰ المصدر نفسه

⁶⁰¹ قاسم محمد جعفر، حوار شاهاك - شهابي المصري؟ نهاية العقد في سلام الجولان، الوسط رقم 177، 19 حزيران ص. 16.

البلدين.⁶⁰² لكن الطرف الإسرائيلي أبدى تعنتاً خصوصاً لجهة الانسحاب إلى خط الرابع من حزيران يونيو 1967 الذي كان يطالب به الأسد ما أدى مرة جديدة إلى فشل المفاوضات. وسيشكل هذا اللقاء آخر محاولة جدية للسلام بين سوريا وإسرائيل في عهد إسحق رابين.

صعود اليمين الإسرائيلي

وسط احتفالية بالسلام ضخمة وحاشدة، أقدم يهودي تابع لليمين المتطرف اسمه إيغال أمير على اغتيال إسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي، وذلك في 4 شهر تشرين الثاني العام 1995، وحجة القاتل في ذلك أن رابين ومحاولاته الرامية إلى إقامة سلام مع الدول العربية سيضحي بإسرائيل. هذا الأمر جعل حزب العمال الإسرائيلي بقيادة شيمون بيريز يتولى رئاسة الحكومة، مدفوعاً بتعاطف والتفاف شعبي كبير حوله، كان بالإمكان أن يوظفه للمضي قدماً لإحراز تقدم في عملية السلام مع الدولة السورية.⁶⁰³ لكنه في ربيع العام 1996، أقدم بيريز على خطأ فادح، حين دعا إلى إجراء انتخابات مبكرة. بالإضافة إلى أنه لم يستفد من الالتفاف الشعبي حول حزب العمال بعد واقعة الاغتيال، ليقوم على اتخاذ بعض التنازلات التي تساعد على تحقيق السلام، بل انتظر من دمشق أن تقوم بهذه الخطوة، وطبعاً هذا الأمر رفضته الحكومة السورية مما انعكس على مسار المفاوضات ووضعتها في خانة الجمود. وقد أعرب الجانب السوري من خلال نائب الرئيس السوري عبدالحليم خدام، عن قلق دمشق من صعود اليمين المتطرف الإسرائيلي.⁶⁰⁴ فقد كان رابين من المؤيدين لإقامة السلام مع الدول العربية، وطبعاً بما يتوافق مع الشروط الإسرائيلية، لذلك عدّ اغتياله بمثابة الضربة القاصمة التي أصابت هذا الفريق. في الوقت نفسه لم يحمل بيريز الرصيد السياسي والعسكري ذاته الذي كان يتصف بهما رابين، والذي كان سيمكنه من الإقدام على اتخاذ القرارات الحاسمة،⁶⁰⁵ بل عمل بيريز على الاتجاه بسياسته نحو التشديد في ما يخصّ عملية التفاوض مع دمشق.⁶⁰⁶

⁶⁰² جريدة السفير والنهار 28 حزيران 1995

⁶⁰³ هشام دجاني، اغتيال رابين وأفاق السلام السوري - الإسرائيلي، الحياة، في 1995/11/26، ص. 17.

⁶⁰⁴ مقابلة مع عبد الحليم خدام، الحياة، في 1995/11/20، ص. 13.

⁶⁰⁵ الديار، في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1995

⁶⁰⁶ الديار، في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1995

أما سوريا في تلك الفترة، فقد تحسّنت مكانتها على الصعيد الإقليمي. كما دفعت المحاولات الإسرائيلية لبسط نفوذها على المنطقة، إلى انزعاج الرياض والقاهرة، التي كانت تتمسك بدورها الإقليمي الذي يخدم مصالحها الاقتصادية ويؤكد شرعية نظامها. هذا الأمر أيضاً ينطبق على السعودية التي كانت تخشى من محاولات تل أبيب بالالتفاف عليها، والعبور إلى دول الخليج التي تُعدها مناطق نفوذ لها. أما على الصعيد الدولي، فقد تبدّلت الأمور والمواقف نسبياً وبدأت تميل لصالح الموقف السوري، خاصة مع وصول جاك شيراك إلى موقع الرئاسة الفرنسية وذلك في العام 1995. الأمر الذي أدّى إلى تبدّل في المواقف الفرنسية وسياساتها تجاه الدول العربية. وقد أدّى القلق الأوروبي من ارتفاع نسبة الهجرة العربية إلى أوروبا، والقلق من ازدياد الإسلام المتطرّف، فضلاً عن منافستها مع البيت الأبيض، كل هذا دفعها إلى اتخاذ سياسات مستقلة وبعيدة عن سياسات البيت الأبيض، خاصة أن "حرب الخليج" قد وضحت لباريس وبرلين على حد السواء وجود تضارب وتباين في المصالح بينهما وبين البيت الأبيض.⁶⁰⁷ فما يهمّ أوروبا هو الحفاظ على استقرار أمنها، وهذا الأمر يُشكّل لها هاجساً كبيراً. وهو ما دفعها للتحضير إلى إقامة علاقات تعاون مع البلدان العربية، ودول متوسطة غيرها تشبه إلى حد كبير "الاتحاد الأوروبي" (اليوروميد euromed). وهذا الأمر تجلّى في "مؤتمر برشلونة" الذي عُقد في 27 و28 تشرين الثاني من العام 1995، وضمّ كلاً من الدول العربية المطلة على البحر المتوسط وقبرص وتركيا وإسرائيل ودول الاتحاد الأوروبي. لكن هذا المؤتمر لم يخرج برؤية أوروبية واضحة، بل اكتفى بالتوجهات العامة، كما أنه لم يُشكل رؤيته في ما يخصّ سياساته في منطقة الشرق الأوسط والتي يمكن عبرها خلق توازن مع سياسات البيت الأبيض.⁶⁰⁸ وكان من اللافت للنظر أن المؤتمر عدّ "إسرائيل" دولة مثل سائر دول الشرق الأوسط، بينما كان المخطط الأميركي يعمل على منح "إسرائيل" دوراً مترعماً وريادياً في المنطقة. بالنسبة إلى دمشق فقد أُعجبت بالموقف الأوروبي، خاصة أنها كانت تعمل على تحجيم دور تل أبيب على المستوى الإقليمي. وكانت بيروت ودمشق تُقاطع كل المؤتمرات التي كانت ترمي إلى إقامة علاقات اقتصادية مع "تل أبيب"، لكنهما تحمّستا إلى المشاركة في مثل هذه المؤتمرات. وهذا ما أسهم بتطور في العلاقات بين باريس ودمشق.

⁶⁰⁷ هيثم الكيلاني، "الشراكة الأوروبية - المتوسطية: تحليل لنتائج مؤتمر برشلونة". شؤون الأوسط، رقم 49، شباط/فبراير 1996، ص.ص. 71 - 73.

⁶⁰⁸ هيثم الكيلاني، "الشراكة الأوروبية - المتوسطية: تحليل لنتائج مؤتمر برشلونة". شؤون الأوسط، رقم 49، شباط/فبراير 1996، ص.ص. 71 - 73.

سعى بيريز إلى العمل على تحقيق تقدّم على مسار مفاوضات السلام، يُحسّب له ويستطيع توظيفه كانتصار سياسي قبل الانتخابات. وفي الوقت ذاته كانت سوريا ترغب في إحراز تقدّم بالمفاوضات، فقد كانت تعلم أن فرصة السلام سوف تكون ضعيفة في حال تمكّن اليمين الإسرائيلي من تسلّم زمام إدارة السلطة. في الوقت نفسه كانت تتمسّك بشروطها من أجل تحقيق السلام وذلك يتجلّى في انسحاب تل أبيب إلى خط حدود ما قبل 4 حزيران من العام 1967، وتحجيم دورها على المستوى الإقليمي، وهذا ما فعلته دمشق بعد عملية اغتيال رابين، حيث أخبرت كريستوفر بأنها راغبة في الإسراع بعملية المفاوضات لتحقيق السلام.⁶⁰⁹

ولكن، عمل الإسرائيليون على وضع العقبات والعراقيل أمام حصول أي تقدّم في المفاوضات، وذلك برغم كل الجهود المبذولة من قبل الإدارة الأميركية والتعاون المقرون بالنيات الحسنة للحكومة السورية. وتجلّى هذا الموقف السلبي من الجانب الإسرائيلي في 25 شهر تشرين الثاني، عبر وزير الخارجية والاقتصاد الجديد يوسي بيلين الذي أعلن صراحة أن "إسرائيل" تُوافق على الانسحاب الجزئي وليس الكامل من الجولان، مما أدّى إلى إعلان دمشق استيائها من هذا التصريح. ترافق ذلك مع قيام باراك على التأكيد والتمسك بالشروط الإسرائيلية لإتمام عملية السلام، ورغبة "إسرائيل" في حفاظها على تمركزها العسكري والمدني في منطقة وادي الأردن وكذلك الأمر في ما يخص مستوطنات السامرة، وأنها ترفض الانسحاب إلى خط حدود ما قبل 4 حزيران من العام 1967.⁶¹⁰

وعمل بيريز في الوقت ذات على استباق زيارة قام بها وفد روسي للمنطقة، وذلك بالدعوة إلى قيام مفاوضات جديدة مع دمشق. زيارة الوفد الروسي كانت في 5 كانون الأول من العام 1995، حيث اجتمع مع الرئيس الأسد بحضور الشرع والمعلم إضافة إلى المستشار الأمني لكلينتون "مارك بارس" في منطقة الشرق الأوسط، حيث أعلنت الحكومة السورية التزامها على تحقيق عملية السلام. والذي جاء متوافقاً مع موقف الوفد الروسي، ثم بعدها اجتمع الروس مع بيريز الذي أعجبه فكرة توقيع اثنتين وعشرين دولة عربية لاتفاقية سلام مع تل أبيب وذلك في حال أقدمت سوريا ووافقت على ذلك.

وضمن هذا السياق جاءت زيارة بيريز لواشنطن في 11 كانون الأول من العام 1995، حيث التقى الرئيس الأميركي بيل كلينتون، بعدها انتقل إلى مجلس الشيوخ الأميركي حيث ألقى خطابه بإدخال

⁶⁰⁹ السفير في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1995

⁶¹⁰ النهار، في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1995.

تعديل عليه مغاير لخطابه السابق الذي اتصف بالاعتدال، قال: "حلّ مسألة الجولان يتوقّف على الثمن الذي ستقدّمه دمشق". مخفياً في الوقت نفسه الثمن الذي يتوجب في المقابل على "إسرائيل" أن تدفعه، مؤكداً أنه لن يفصح عنه إلا في الكنيست، وذلك بعد أن يكون قد عرف الثمن الذي ستدفعه دمشق. مكتفياً بالقول إن "إسرائيل" لن تنسحب إلا إلى الحدود المعروفة التي فرضها على سوريا الانتداب الفرنسي وعلى فلسطين الانتداب الإنكليزي. في المقابل كان أمنون شاحك القائد الأعلى للجيش الإسرائيلي أكثر وضوحاً وصراحة بالأمور التي ترتبط بعملية التفاوض مع دمشق. فالأمر حين يتعلّق بالأمن، فإنه لا يوجد أي اتفاق سلام يمكن أن يكون مهماً كهضبة الجولان.⁶¹¹

أما بيريز فقد استمرّ بارتكاب الأخطاء، فبالإضافة إلى مماطلته وتضييع الوقت بما يتعلق بعملية المفاوضات مع الجانب السوري، عمد إلى القيام بإعطاء الأمر لتنفيذ عدد من الاغتيالات ضد قادة كل من الجهاد الإسلامي وحماس، فجاء الردّ عليه سريعاً من قبلهما وذلك عبر القيام بعمليات استشهادية وصلت إلى العشرات. فأقدمت "إسرائيل" على تنفيذ عملية تصفية فتحي الشقاقي الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في مالطا واغتالته في 26 آب من العام 1995. في المقابل عملت المقاومة الفلسطينية بمختلف فصائلها على القيام بعشرات العمليات الانتقامية ضد الاسرائيليين المحتلين. بالإضافة إلى إيقاف مسار المفاوضات مع دمشق من قبل بيريز، وذلك في شهر شباط، بغية الإعداد للانتخابات المبكرة، لكن هذه الإجراءات انعكست سلباً على مكانة بيريز أمام الشعب الإسرائيلي، فانخفضت شعبيته على إثرها، في الوقت نفسه ازدادت شعبية منافسه المتزعم لحزب اليمين الإسرائيلي بنيامين نتنياهو. وباءت كل محاولات بيريز بالفشل لمكافحة الجماعات التي تسببت بهذه العمليات، وتأتي حماس والجهاد الإسلامي في مقدمتها والتي كانت عاملاً مهماً ورئيسياً في انخفاض شعبية بيريز.⁶¹²

عدوان نيسان على لبنان

سارعت واشنطن إلى عقد قمة لدعم بيريز، حيث أقامتها في مصر ودعت إليها كلاً من الأوروبيين والصين واليابان وروسيا وجميع القوى الإقليمية، بحجة الوقوف في وجه "الإرهاب"، والحقيقة أن هذه القمة تهدف إلى تعزيز موقف بيريز الذي أضعفه اليمين المتطرف الإسرائيلي، وللوقوف أيضاً

⁶¹¹ السفير، في 11 كانون الأول/ديسمبر 1995.

⁶¹² راجع جمال واكيم، سورية ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط، بيروت: المطبوعات، 2010، الفصل الثامن.

في وجه "التطرف الإسلامي". وعمدت هذه القمة إلى اتهام الجهاد الإسلامي وحماس والدول التي تقدّم الدعم لها ونعتهم بالأعداء الذين تتوجّب مواجهتهم. وعمل بيريز على إيقاف مفاوضات عملية السلام. وبعدها في 13 آذار من العام 1996، قامت هذه الدول بالاجتماع، في الوقت الذي مازالت شعبية بيريز تتراجع على المستوى الداخلي الإسرائيلي. لذا كان يتوجب عليه العمل على جعل دمشق تقوم بوضع حدّ لحزب الله. وبهذه الطريقة تتمكّن "إسرائيل" من عزل كلّ من إيران وسوريا، وبالتالي ستتفرّغ لصدّ الأصوليين الفلسطينيين ومواجهتهم.

لم يحضر لبنان وسوريا هذه القمة لأنهما أدركا أنها مستهدفان. وصرّحت الحكومة السورية معارضتها للمؤتمر ورفضها له، لأنه يستهدف كلاً من الأحزاب الفلسطينية المقاومة وحزب الله بسبب معارضتهم ورفضهم اتفاق أوسلو. في المقابل قادة حزب الله صرّحوا أن "مؤتمر شرم الشيخ" ما هو إلا محاولة لإنقاذ عملية التسوية المتأزمة، وبالتالي فإن توصياته ستعمل على تعقيد وتأزيم الوضع في المنطقة.

وعمدت "إسرائيل" بعد انتهاء القمة بأسابيع عدة على الإقدام بعدوانٍ على لبنان بحجة محاربتها إرهاب "حزب الله". وتجلّى ذلك بقيام الطائرات الإسرائيلية يوم 11 نيسان من العام 1996، على شنّ غارات عدة استهدفت بها قواعد "حزب الله" في جنوب لبنان، والضاحية الواقعة في جنوب العاصمة بيروت، والبقاع، ترافق ذلك مع إعلان وزير الخارجية الإسرائيلية أن الهدف السياسي من العدوان على لبنان هو جعل الحكومة اللبنانية تعمل على فرض سيادتها على جميع أراضيها، في الوقت ذاته كان لهم هدف آخر على الصعيد العسكري والذي يتمثل في إسقاط "حزب الله" وإضعافه والقضاء عليه.⁶¹³

وعانت دمشق مع بداية الحملة العسكرية هذه، عزلة على الصعيدين الإقليمي والدولي، لم يكسرهما إلا دعم إيران. في المقابل أعلن رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري عن موقف خطير تمثّل في كون الدولة اللبنانية على أتمّ استعداد لتأخذ على عاتقها الحفاظ على أمن جنوب لبنان وذلك فور انسحاب "إسرائيل". هذا الإعلان يتوافق مع المحاولة السابقة التي قام بها في العام 1993، رئيس الجمهورية إلياس الهراوي، والتي كانت تهدف إلى موافقة لبنان بالعمل على تشكيل لجنة عسكرية مشتركة بين الإسرائيليين واللبنانيين من أجل فرض الأمن على الجنوب. وهذا يعني لاحقاً العمل

⁶¹³ السفير، في 1996/4/12.

على نزع وتفكيك سلاح المقاومة، وإلى خسارة دمشق ورقتها الهامة التي تستعملها ضد "إسرائيل"، بالإضافة إلى أن هذا الأمر سيؤدي إلى عزل سوريا وذلك من خلال العمل على فك ارتباطها بلبنان.

الرد السوري جاء سريعاً على ما أعلنه الحريري من تصريحات، (والتي كانت بدافع أميري)، وتمثل الرد السوري عبر وزير الخارجية اللبناني فارس بوز الذي قال: "إذا أردنا حقاً تجاوز هذه الحلقة المفرغة، علينا مقاومة الانتهازية الإسرائيلية وعوضاً عن ذلك تفعيل عملية السلام لتسوية النزاع في المقام الأول، ووضع حدٍّ للعمليات العسكرية". وهذه رسالة سورية للجانب الإسرائيلي بأنها ترفض تماماً نزع وتفكيك سلاح "حزب الله" قبل إتمام عملية التوقيع على اتفاقية سلام شامل وعادل مع "إسرائيل". كذلك أتى الرد السوري عبر خطاب نصرالله: "إنَّ أمنَّ شمال فلسطين لن يتحقَّق إلَّا من خلال تأمين سلامة المدنيين في جنوب لبنان، وإذا كنت تريد المشاركة في الانتخابات بدمائنا، سيكون رهانك خاسراً. إنَّ الردَّ على قصف الضاحية الجنوبية سيُطال شمال فلسطين لا بل كلَّ مكان آخر".⁶¹⁴

وارتفعت حدة الأحداث عندما قامت القوات الإسرائيلية الجوية بضرب قاعدة تابعة للجيش السوري، وذلك في الشويفات التي تقع في جهة الغرب من مطار بيروت الدولي، وكانت نتيجة الهجوم أن قُتل جندي سوري واحد. تزامن ذلك مع محاولات البيت الأبيض بالضغط على لبنان، والتي صرَّح بنتيجها رئيس الوزراء الحريري بتصريحات لم تلقَ قبولاً ورضى الحكومة السورية، والتي مفادها أن العدوان الإسرائيلي على لبنان سيزيد من قوة "حزب الله". وهذا يعني أن الحريري يعمل على الفصل والتمييز بين المواقف التابعة للحكومة اللبنانية، والمواقف الصادرة عن "حزب الله" ضد "إسرائيل". مما دفع بسوريا إلى إرسال دعوة زيارة لكل من الحريري وبوز إلى دمشق، ليلتقيا بالرئيس السوري حافظ الأسد. الذي وجه انتقاداً لاذعاً للرئيس الحريري وطلب منه إعادة النظر في مواقفه وتغييرها بما يتلاءم مع الأحداث للوقوف في وجه العدوان الإسرائيلي. وعلى إثر ذلك تغيرت مواقف الرئيس الحريري الذي تجلّى من خلال خطابه السياسية، مع بدء جولاته على العديد من الدول الأوروبية لشرح وتوضيح مواقف الحكومة اللبنانية.⁶¹⁵

أما في الجانب الإسرائيلي فتتمثل الغاية السياسية من العملية من خلال العمل على تحقيق أهدافها وبسرعة كبيرة حتى يتسنى لـ بيريز أن يستثمرها ويوظفها في عملية الانتخابات التي تقرّر البدء فيها في أوائل شهر حزيران، فقد كان القلق يُسائر "إسرائيل" من أن تطال الحرب على لبنان وهذا

⁶¹⁴ النهار، في 1996/4/12.

⁶¹⁵ السفير، في 1996/4/14.

يجعلها تُعاني من تزايد خسائرها الاقتصادية والبشرية، ويصبح الوضع في ذلك شبهةً بالحال التي كانت عليه في العام 1982. في وقت جاء رد "حزب الله" بإطلاق صواريخ الكاتيوشا مستهدفاً بها المستوطنات، وعمل في اليوم الثالث للعدوان الإسرائيلي على لبنان بإطلاق 50 صاروخاً طالت كلاً من الجليل والجليل الجنوبي مخلفة خسائر كبيرة. إلى أن جاء اليوم السادس من الحرب الإسرائيلية، حيث بدأت تظهر التباينات والخلافات بين الحكومة الإسرائيلية والجيش. الذي كان قلقاً من أن الحكومة الإسرائيلية تتخذ قراراً بإيقاف العملية وذلك لأسباب سياسية، خاصة بعد أن أظهرت الوقائع الميدانية أن العملية ستأخذ وقتاً أطول من المتوقع لها، لذلك كان الجيش الإسرائيلي بحاجة إلى المزيد من الوقت ليتمكن من تحقيق الأهداف التي من أجلها قام بالعدوان على لبنان. وضمن هذا السياق أتي تصريح أوري لوبراني العميد الإسرائيلي وقائد وحدة الاتصال مع دولة لبنان: "نحن نرفض الوصول إلى نقطة يمنعنا فيها رئيس الوزراء من مواصلة الهجوم قبل إنهاء مهمتنا... ونحن نعلم أن القيادة السياسية ستأمراً بوقف العمليات قبل أن تحقق أهدافها. إن الأوامر والتعليمات التي تلقيناها تشير إلى أن القيادة السياسية متفهمة لذلك، ولدي ثقة في هذه القيادة التي وجهتنا نحو إتمام هذه العملية حتى قبل أن تبدأ"، كما ونفى أن يكون هناك تباعد بين المواقف العسكرية والسياسية. وعلى إثر تصريحات أوري لوبراني تم استدعاؤه من قبل رئيس الأركان وبييرز اللذين أصدرتا بياناً أكدوا فيه أن تصريحاته قد فهمت بشكل خاطئ.⁶¹⁶

في هذا الوقت، بدأت تظهر تبدلات دولية في المواقف الداعمة للعدوان الإسرائيلي على لبنان، وتبدلت نتيجة أسباب عديدة، منها:

- تغير صورة "إسرائيل" من الضحية إلى الجلاد، حيث استقطبت تعاطفاً دولياً نتيجة العمليات الانتحارية، سرعان ما تغير وانقلب السحر على الساحر وأصبحت "إسرائيل" المعتدي الذي يقتل المدنيين.
- الدخول الفرنسي من خلال المبادرة التي قام بها وزير الخارجية الفرنسي هيرفيه دو شاريت، حيث أخذت اهتماماً دولياً مما ترك أثراً بالغاً على "إسرائيل". أما في ما يخص موقف الحكومة السورية من المبادرة الفرنسية، فلم تُثر اهتمامها كثيراً، لكن ما يعني دمشق أن باريس هي التي قامت بها واعتمدتها.

⁶¹⁶ النهار في 1996/4/16.

في الواقع، هذا العدوان الإسرائيلي على لبنان، جعل بيريز يواجه المجتمع الإقليمي والدولي الذي تغيّرت مواقفه في غير صالح "إسرائيل"، زِدْ عليه الأزمات الداخلية والتي تمّ ذكرها آنفاً، مع الجيش الإسرائيلي، بالإضافة إلى الضغوط المتأتية من اليمين الإسرائيلي الذي لاهمه لأن عملية "عناقيد الغضب" قد باءت بالفشل. وهذا بدوره أدّى إلى زيادة المعارضة اليسارية لعملية العدوان، وذلك للخسائر الكبيرة التي مُنيَ بها القطاع الزراعي والصناعي، حيث كانت المستوطنات الشمالية مركزاً أساسياً لهما، والتي استهدفتها صواريخ الكاتيوشا التي أطلقها "حزب الله" باتجاهها، وحتى امتداد عمق 30 كم داخل الأراضي المحتلة من قبل "إسرائيل". وأيضاً تضرر القطاع السياحي حيث قام الكثير من السياح بإلغاء حجوزاتهم مما أدّى إلى تكبد شركات الطيران لخسارة مالية كبيرة، وفي نهاية الأمر خسر بيريز الانتخابات التي فاز فيها بنيامين نتنياهو رئيس اليمين المتطرّف الإسرائيلي، وبهذا تكون عملية السلام قد توقفت عند هذا الحدّ.⁶¹⁷

الألفية الجديدة

عن عمر يناهز 69 سنة، توفي حافظ الأسد الرئيس السوري، وذلك بعد معاناة طويلة مع المرض في العاشر من شهر حزيران لعام 2000، وقبل هذا التاريخ بعامين عمل الرئيس الأسد على تقديم كل الدعم لقائد الجيش اللبناني اميل لحود وإيصاله لتسلم رئاسة الجمهورية اللبنانية، وذلك بهدف الوقوف في وجه رفيق الحريري الذي كانت السعودية وواشنطن تقدّمان له كل الدعم المطلوب لتقوية نفوذه في لبنان. وعلى إثر ذلك خرج الرئيس الحريري من تزعم السلطة وتسلم بدلاً عنه رئاسة الحكومة سليم الحص. ولكن، فترة رئاسة لحود تواجّهت مع غازي كنعان منسق الأنشطة السورية في لبنان، وقد قام كنعان بالاتفاق سرّاً مع رفيق الحريري وحكمت الشهابي وعبدالحليم خدام، بغية وضع يدهم على السلطة في كل من سوريا ولبنان. لذلك عمل كنعان على العمل لسنّ قانون انتخابي يناسب الحريري وبالطبع معه حلفاؤه من أجل إلحاق الهزيمة بـ لحود، الأمر الذي ساعد على تحقيق فوز لوائح الحريري وباري وجنبلاط، وبالتالي تسمية الحريري مرة أخرى ليكون رئيساً للحكومة. وسارع هذا الفريق الذي ذكرناه آنفاً إلى الإعداد لعملية انقلاب على حكم بشار الأسد الذي تسلم مقاليد رئاسة سوريا بعد وفاة والده، وكاد الأمر أن ينجح، لولا التدخل الحاسم

⁶¹⁷ السفير والنهار، في 19/4/1996.

والدور الذي لعبه مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري، بالإضافة إلى عوامل عدّة ساعدت على تذليل العقبات والعوائق أمام تسلم بشار الأسد للسلطة في سوريا وخلافة والده.

مع الدخول في الألفية الجديدة، توجّب على البيت الأبيض أن يعمل على القيام باتخاذ قرارات حاسمة عدة من أجل تأكيد تفرّده بقيادة العالم وتزعمه من دون أن يكون هناك شريك له ينافسه. وقد استغلت الولايات المتحدة الهجمات التي قام بها "تنظيم القاعدة" في كلٍّ من واشنطن ونيويورك في أحداث 11 أيلول 2001، وشنت حربها على أفغانستان بحجة الحرب على "الإرهاب"، كما وجدت الفرصة سانحة لإحكام بسط هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط. وضمن هذا السياق في العام 2003، أتي غزوها للعراق، الذي رأت فيه واشنطن أنه سيساهم في تمكين الهيمنة الأميركية على المنطقة وسوف يساعدها على إعادة بناء جغرافية البيت الأبيض السياسية. وكان المخطط الأمريكي يتمثل في بسط نفوذها على منطقة الشرق الأوسط، بدءاً من المحيط الأطلسي من جهة الغرب وصولاً إلى الصين جهة الشرق، وذلك بغية وضع يدها على طرق المواصلات العالمية، ومنع التقارب الروسي - الأوروبي، ووضع العراقيل والعوائق بين أفريقيا وأوروبا، وأيضاً منع موسكو من أن يكون لها وجود في شرق المتوسط، وبالتالي منفذ على المياه الدافئة، كذلك الأمر بالنسبة إلى الصين من خلال منعها من الوصول إلى أفريقيا عن طريق إيران. كذلك تضمّن المخطط الأمريكي رسم خرائط وحدود جديدة لدول الشرق الأوسط من خلال معاودة تقسيمها من جديد، بغية تقسيمها إلى دويلات وكيانات طائفية وإثنية وعشائرية، لتجعل منها مناطق حيوية وحاضنة لـ"إسرائيل". كما قامت واشنطن متمثلة بالرئيس بوش الابن على إعادة تحالفها مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك، لإحياء علاقتهما من جديد، والعمل على معاودة تقسيم الشرق الأوسط وبسط نفوذهما فيه.⁶¹⁸ وهكذا، بعد أن كانت باريس رافضة للغزو الأمريكي على العراق، انتقلت للاصطفاف مع واشنطن من خلال تحالفها معها.⁶¹⁹ حدث ذلك نتيجة للضربات التي قامت بها المقاومة العراقية ضد الجيش الأمريكي المحتل للعراق، الأمر الذي دفع البيت الأبيض إلى القبول بالتعاون مع فرنسا مقابل إطلاق سيطرتها وهيمنتها على سوريا ولبنان.⁶²⁰ ولأجل تحقيق ذلك

⁶¹⁸ - راجع ريشار لابييفير، التحول الكبير، بغداد - بيروت، دار الفارابي، 2008. ص.ص. 92-93.

⁶¹⁹ Vincent Nouzille, Dans le Secret Des Presidents, P.P. 409-419.

⁶²⁰ Vincent Nouzille, Dans le Secret Des Presidentss, P.P. 444-449.

سارع الرئيس الفرنسي جاك شيراك على العمل لإقناع الرئيس السوري بشار الأسد إلى التخلي عن إيران، لكن محاولاته باءت بالفشل.⁶²¹

في أيار من العام 2000، اضطرت "إسرائيل" إلى الانسحاب من الجنوب اللبناني، ونتيجة للانتخابات التي تمّت في لبنان، والتي على إثرها فاز الحريري وسُمي مرة أخرى ليكون رئيساً للوزراء، الأمر الذي عدّ انقلاباً سياسياً موجهاً ضد الرئيس اميل لحود المدعوم من قبل بشار الأسد الرئيس السوري. وقد عمل الحريري في تلك الفترة من العام 2004، على إصدار القرار الأممي رقم 1559، والقاضي بانسحاب جيش سوريا المتمركز في لبنان فوراً، بالإضافة إلى محاسبتها. هذا الأمر دفع سوريا إلى العمل على تمديد الفترة الرئاسية لـ اميل لحود لمدة ثلاث سنوات أخرى، مما ساهم وسهّل على إخراج الرئيس الحريري من السلطة في تشرين الأول من العام 2004، وتسلم عمر كرامي رئاسة الوزراء بدلاً منه. ولكن، في 14 شباط من العام 2005، تمّ اغتيال رفيق الحريري، الذي شكل زلزالاً قوياً في الساحة اللبنانية، الأمر الذي أدّى إلى قيام مظاهرات مدعومة من قبل قيادات وأحزاب سنية ودرزية ومسيحية، طالبت بخروج الجيش السوري من لبنان في شهر نيسان من العام 2005. وذلك بعد مضي حوالي ثلاثة عقود على وجود الجيش السوري في لبنان، وقد عمل "حزب الله" وحلفاؤه على منع استكمال المخطط الانقلابي في لبنان، وشكلوا مع بعضهم تحالفاً سُمي بـ "تحالف 8 آذار"، أما القوى التي أتيينا على ذكرها آنفاً فقد شكلوا تحالفاً سُمي بـ "14 آذار".

عدوان تموز 2006 وتبعاته

في شهر تموز من العام 2006، وصل المخطط الأميري في منطقة الشرق الأوسط إلى ذروته، من خلال قيام "إسرائيل" بشنّ حرب على لبنان. ولكن كانت المفاجأة بالجهوزية الكاملة للمقاومة اللبنانية المتمثلة بـ "حزب الله"، والتي عملت على صد هجوماتهم وهزيمتهم والانتصار عليهم. وقبل أشهر قليلة، تمّ التوقيع على الوثيقة الشهيرة والتي تمّت في كنيسة مار ميخائيل، في ضاحية بيروت الجنوبية، بين ميشال عون و"حزب الله" المتمثل بالأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله، مما شكّل لـ "حزب الله" دافعاً كبيراً له بالإضافة إلى إضفاء بُعد وطني عليه بالتعاون والتحالف

⁶²¹ المرجع نفسه ، ص.ص. 451 - 450 .

معه من قبل عون. الأمر الذي جعل الكنيسة المارونية وقوى 14 آذار تعملان على وضع العوائق والعقبات أمام عون وإجهاض جميع جهوده المبذولة وتحطيمه، وتكررت بعد هذا التاريخ محاولات الاعتداء التي قامت بها القوات اللبنانية بحق مناصري عون، كان أبرزها التظاهرة التي حدثت بعد اعتصام كانون الأول من العام 2006، فعلى إثرها قام عناصر من القوات بالاعتداء وبشكل منظم على العونيين في مناطق لبنانية عدة منها: الشمال والمثن وكسروان، وحدثت صدامات عنيفة بين الطرفين في 23 كانون الثاني من العام 2007. ومع ذلك استمرت في وسط بيروت الاعتصامات، التي لم تتوقف إلا قبل أسابيع قليلة من قرب انتهاء حكم اميل لحود رئيس الجمهورية اللبنانية. والتي تمّ الاتفاق بعدها على أن يكون العماد ميشال سليمان رئيساً للبلاد، الذي عدّ وصوله قيمة إضافية في رصيد قوى 14 آذار، المتحالف معها ضمناً. وقد تمثل ذلك من خلال الضغوط التي مارسها الرئيس ميشال سليمان على عون وأنصاره في الاستحقاقات السياسية والتي تجلت بالانتخابات النيابية اللبنانية التي تمّت في 2009، وأيضاً الانتخابات البلدية التي جرت بعدها بنحو عام. حلم إقامة دولة مسيحية وغيرها من المشاريع القائمة على أساس دويلات طائفية ومذهبية، باءت بالفشل، وذلك بعد أحداث 7 أيار من العام 2008، والتي تصدّى لها "حزب الله" و"حركة أمل" اللذين أحبطا مخطط "تيار المستقبل" ووليد جنبلاط، عبر مواجهتهما ميليشياتهما وهزمها، حيث شكلت ضربة موجعة كبيرة لكل منهما، والتي أسفر عنها، اتخاذ جنبلاط قراراً بضرورة الابتعاد عن "قوى 14 آذار"، وتمثل ذلك خصوصاً فيما بعد الانتخابات النيابية التي أجريت في شهر حزيران من العام 2008.

الأحزاب اللبنانية بعد الطائف

بعد نهاية الحرب الأهلية اللبنانية ضمرت الأحزاب ذات الطابع العلماني واليساري وظهرت أحزاب جديدة لتصبح عماد السلطة في لبنان ما بعد الحرب. وكان من أبرز هذه الأحزاب التيار الوطني الحر الذي تحلّق حول شخص قائد الجيش العماد ميشال عون الذي شنّ حرباً على الوجود السوري في لبنان واعتبر متمرداً على الحكم الذي انبثق عن اتفاق الطائف وأطيح به في 13 تشرين الأول أكتوبر 1990 فلجأ إلى السفارة الفرنسية لينتقل بعد عام إلى باريس ويبقى في المنفى مدة 14 عاماً، عاد بعدها إلى لبنان وخاض الانتخابات النيابية محققاً نتيجة كبيرة بحصوله على غالبية المقاعد المسيحية في مجلس النواب في الانتخابات التي جرت في العام 2005 وليدخل بعدها في العام 2006 في تحالف مع حزب الله بعد لقائه الشهير بالأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله وتوقيعهما

على تفاهم مار مخايل الشهير الذي أرسى تحالفاً وثيقاً بينهما. وقد ساهم هذا التحالف بتحسين حزب الله على الصعيد اللبناني ومنحه الشرعية التي يحتاجها للمقاومة في مواجهة الكيان الصهيوني. في المقابل أعطى هذا التحالف لعون بعداً إسلامياً ووطنياً مكّنه في العام 2016 من أن يُنتخب رئيساً للجمهورية بعد عقبات واجهها طموحه هذا لمدة ثلاثة عقود. وقد عارض التيار الوطني الحر جميع الرؤساء والحكومات التي تعاقبت على لبنان بعد الطائف واعتبرها غير شرعية ومنبثقة عن سلطات احتلال هي السلطات السورية. وقد عانى أنصاره من القمع نتيجة ذلك طوال ربع قرن من الزمن. ومن المحطات المهمة في تاريخ التيار الوطني الحر مثل 7 آب أغسطس 2001 حين دعا العماد عون أنصاره "إلى التظاهر عند قصر العدل في بيروت رفضاً لقرارات القضاء "التعسفية" بحق بعض عناصر الجيش اللبناني الذين كانوا قد شاركوا بالحرب بين عامي 88 و90 إلى جانب رئيس الحكومة العسكرية ميشال عون. ومع بداية التظاهرة قامت قوات الأمن بفضّ الاعتصام بالقوة ما أدّى إلى إصابة العشرات بين قاتل وجريح بالإضافة إلى عشرات المعتقلين السياسيين. وقد كانت لهذه التظاهرة نتائج دولية، حيث صدرت بيانات استنكار عالمية تدين التعرّض للتظاهرات السلمية في لبنان. إشارة إلى أنّها كانت المرة الأولى التي يظهر فيها تفاعل دولي مع الحراك السياسي العوني في الشارع". ويوم 14 آذار مارس 2005 الذي يعتبر العونيون أن أكثر اللبنانيين انضموا إليهم فيه للمطالبة بانسحاب الجيش السوري من لبنان وهو ما تحقق بعد شهر واحد. إضافة إلى ذلك شكّل السابع من أيار مايو 2005 يوماً تاريخياً بالنسبة للتيار الوطني الحر حين عاد عون إلى لبنان وخاض الانتخابات النيابية بعد أسابيع ليحقق نتيجة مبهرة دفعت خصومه إلى وصفه بالتسونامي.⁶²²

أما الحزب الثاني الذي سيلعب دوراً بارزاً بعد الطائف فهو حزب القوات اللبنانية. وقد كانت القوات الجناح العسكري للجهة اللبنانية بقيادة حزب الكتائب خلال الحرب الأهلية اللبنانية. وقد ظهر الخلاف والشقاق بين الكتائب والقوات في العام 1985 نتيجة الصراع على الزعامة بين رئيس الجمهورية أمين الجميل من جهة وقائدَي القوات آنذاك إيلي حبيقة وسمير جعجع. وفي العام 1986 أطاح جعجع بحليفه نتيجة معارضته للاتفاق الثلاثي الذي وقع برعاية سوريا وتفرد بقيادة القوات اللبنانية. وفي العام 1989 دخل جعجع في صراع مع عون نتيجة تأييده اتفاق الطائف ومعارضة عون له فجرت معارك دموية بين القوات اللبنانية والجيش اللبناني انتهت إلى تقسيم المنطقة المسيحية بينهما إلى كسروان وجبيل تحت سيطرة القوات والمتمن الشمالي وأجزاء

⁶²² راجع موقع التيار الوطني الحر www.tayyar.org

من المتن الجنوبي تحت سيطرة الجيش بقيادة عون. وبعد الحرب أُيدت القوات إطاحة عون وساندت الطائف، إلا أن حزب القوات اللبنانية اتهم بالقيام بأعمال تفجير دفعت السلطات اللبنانية إلى اعتقال رئيسه ومحاكمته وسجنه أحد عشر عاماً حتى إطلاقه بقانون عفو عام في العام 2005. بعد ذلك تحالفت القوات مع الرئيس سعد الحريري وعدد من القوى المعارضة لعون وحزب الله والتي أطلقت على نفسها قوى 14 آذار. وقد استطاعت القوات الفوز بكتلة نيابية وازنة في العام 2018.⁶²³

أما الحزب الثالث الذي سيتصدر المشهد السياسي طوال العقود الثلاثة التي تلت الطائف فهو تيار المستقبل والذي تشكل في صفوف الطائفة السنية وتحلق حول رئيس الوزراء رفيق الحريري. وبعد اغتيال الحريري في شباط فبراير 2005 تزعم الحزب ابنه سعد الذي قاد حركة الاحتجاج ضد السوريين في لبنان وساهم في إخراج الجيش السوري من هذا البلد بعد ثلاثة عقود من تركزه فيها. وقد خاض التيار الانتخابات النيابية للعام 2005 متحالفاً مع القوات اللبنانية وأنصار وليد جنبلاط وحركة أمل بقيادة نبيه بري وحقق فوزاً كبيراً أدّى إلى حصوله على أكبر كتلة نيابية في المجلس. ورفض الحريري الابن أن يصبح رئيساً للوزراء مفضلاً تسمية فؤاد السنيورة لرئاسة الحكومة.

وعقب أحداث 11 أيار مايو 2008 التي وقعت فيها مواجهات بين أنصار حزب الله وحلفائه وأنصار المستقبل وحلفائه عُقد اتفاق الدوحة بين الأطراف اللبنانية المختلفة وكان من نتائجه انتخاب ميشال سليمان رئيساً للجمهورية وسعد الحريري رئيساً للحكومة، إلا أن حكومة الحريري لم تعمر أكثر من عام ونصف العام انفرط بعدها عقدها نتيجة استقالة الوزراء المقربين من حزب الله وميشال عون. وقد غادر الحريري بعدها لبنان ولم يعد إليه إلا بعد انتخاب العماد عون رئيساً للجمهورية. وقد تقلّصت كتلة نواب المستقبل في المجلس النيابي في انتخابات 2018 إلى النصف على الرغم من بقائها الكتلة السنية الأكبر في المجلس.⁶²⁴ إضافة إلى ذلك احتلت قوتان سنيّتان

⁶²³ راجع موقع القوات اللبنانية

<https://www.lebanese-forces.com/>

⁶²⁴ راجع موقع تيار المستقبل

www.almustaqbal.org/

أصوليتان حيزاً من الحياة السنية هما الجماعة الإسلامية التي تعتبر فرعاً للأخوان المسلمين في لبنان وتحالف مع الحريري وهي مقربة من السعودية، وجمعية المشاريع الخيرية الإسلامية المعروفة بالأحباش وهي مقربة من سوريا ومن حزب الله.

وفي الساحة الشيعية سيتصدر المشهد السياسي بعد الحرب الأهلية اللبنانية حركة أمل وحزب الله. وكانت الحركة قد انبثقت عن حركة المحرومين التي كان قد أطلقها في الستينيات الإمام موسى الصدر، وفي العام 1975، وعلى أعتاب الحرب الأهلية اللبنانية أعلن الإمام الصدر إطلاق حركة أفواج المقاومة اللبنانية أمل. وقد جاءت انطلاقة الحركة على حساب الأحزاب اليسارية والعلمانية التي كانت تستقطب الشباب الشيعة. والجدير ذكره أن حركة أمل كانت معارضة لأحزاب الحركة الوطنية اللبنانية كما كانت معارضة للمشاركة في الحرب الأهلية التي اندلعت في العام 1975 ناهيك عن معارضتها لنفوذ منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. وفي العام 1979 اختفى أثر الإمام الصدر خلال أو إثر زيارة قام بها إلى ليبيا مع اثنين من إخوانه. وقد حُمل الزعيم الليبي الراحل معمر القذافي مسؤولية اختفاء الإمام ولم يتم جلاء القضية حتى اليوم. وقد خلفه في رئاسة الحركة النائب حسين الحسيني الذي أصبح لاحقاً رئيساً لمجلس النواب اللبناني في العام 1985 وحتى العام 1992. وفي العام 1980 تم انتخاب المحامي نبيه بري رئيساً للحركة وقد بقي في المنصب حتى تاريخ كتابة هذا الكتاب. وقد برز دور الحركة خلال وبعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام 1982. فلقد شارك أعضاء الحركة في قتال القوات الغازية، ثم ساهموا في الانقلاب على حكم أمين الجميل بين العامين 1982 و1984. ولقد كانت الحركة منذ يومها الأول متحالفة مع سوريا إضافة إلى تحالفها مع إيران. فلقد جمعت الإمام الصدر علاقة وثيقة بالرئيس حافظ الأسد، ولقد أبقى الحسيني وبري بعد ذلك على هذه العلاقة الوثيقة مع سوريا. كذلك فلقد ارتبطت الحركة بعلاقة وثيقة مع إيران. وكان أول مسؤول تنظيمي لها وهو مصطفى شمران أول وزير دفاع لإيران بعد انتصار الثورة الإسلامية فيها. وبعد نهاية الحرب الأهلية اللبنانية خاضت الحركة الانتخابات النيابية لعام 1992 وفاز رئيسها برئاسة مجلس النواب وهو لا يزال في هذا المنصب حتى تاريخه.

وتنص مبادئ الحركة على:

- **المبدأ الأول:** إن هذه الحركة تنطلق من الإيمان بالله بمعناه الحقيقي لا بمفهومه التجريدي فإنه الأساس لكافة نشاطاتنا الحياتية ولعلاقاتنا الإنسانية وهو الذي يجدد عزيمتنا باستمرار وثقتنا ويزيد طموحنا ويصون سلوكنا. كما أنها تعتمد على أساس الإيمان

بالإنسان، بوجوده، بحريته وبكرامته. والحقيقة أن الإيمان بالإنسان هو البعد الأرضي للإيمان بالله، بُعد لا يمكن فصله عن البُعد السماوي والينابيع الأصلية للأديان تؤكد ذلك بإصرار.

- **المبدأ الثاني:** أما تراثنا العظيم في لبنان وفي الشرق كله الحافل بالتجارب الإنسانية الناجحة، المشرق بالبطولات والتضحيات والزاخر بالحضارات والقيم، فهو الذي يرسم الخطوط التفصيلية للطريق ويؤكد أصالتنا ويعطي سبباً واضحاً لوجودنا وسنداً قاطعاً لمشاركتنا الحضارية، وفي الوقت نفسه فإن الاستفادة من التجارب في أقطار الأرض مع الاحتفاظ بالأصالة دليل رغبتنا الأكيدة إلى الكمال والتقدم وقناعتنا بوحدة العائلة البشرية وتفاعلها.
- **المبدأ الثالث:** إن حركة المحرومين أمل انطلاقاً من هذه المبادئ تؤمن بالحرية الكاملة للمواطن وتحارب دون هوادة كافة أنواع الظلم من استبداد وإقطاع وتسلب وتصنيف المواطنين. وتعتبر أن نظام الطائفية السياسية في لبنان لم يعط ثماره وهو الآن يمنع التطور السياسي ويجمد المؤسسات الوطنية ويصنف المواطنين ويزعزع الوحدة الوطنية.
- **المبدأ الرابع:** وترفض الحركة الظلم الاقتصادي وأسبابه من احتكار واستثمار الإنسان لأخيه الإنسان وتحول المواطن إلى المستهلك والمجتمع إلى تجمع المستهلكين وحصر النشاطات الاقتصادية في أعمال الربا والتحول إلى سوق للإنتاج العالمي. وتعتقد الحركة أن توفير الفرص لجميع المواطنين هو أبسط حقوقهم في الوطن وأن العدالة الاجتماعية الشاملة هي أولى واجبات الدولة.
- **المبدأ الخامس:** إن حركة المحرومين هي حركة وطنية تتمسك بالسيادة الوطنية وسلامة أراضي الوطن وتحارب الاستعمار والاعتداءات والمطامع التي يتعرض لها لبنان. والحركة هذه تعتبر أن التمسك بالسيادة وبالمصالح القومية وتحرير الأرض العربية وحرية أبناء الأمة هي من صميم التزاماتها الوطنية لا تنفصل عنها. وغني عن القول إن صيانة لبنان الجنوبي والدفاع عن تنميته هو جوهر الوطنية وأساسها حيث لا يمكن بقاء الوطن بدون الجنوب ولا تصور المواطنة الحقبة بدون الوفاء للجنوب.
- **المبدأ السادس:** فلسطين، الأرض المقدسة، التي تعرّضت ولم تزل لجميع أنواع الظلم هي في صلب حركتنا وعقلها وأن السعي لتحريرها أولى واجباتنا وأن الوقوف إلى جانب شعبها وصيانة مقاومته والتلاحم معها شرف الحركة وإيمانها، سيما أن الصهيونية تشكل الخطر الفعلي والمستقبلي على لبنان وعلى القيم التي نؤمن بها وعلى الإنسانية جمعاء وإنها ترى في لبنان بتعايش الطوائف فيه تحدياً دائماً لها ومنافساً قوياً لكيانها.

- **المبدأ السابع:** إن هذه الحركة لا تصنف المواطنين ولا ترفض التعاون مع الأفراد أو الفئات الشريفة التي ترغب في بناء لبنان أفضل. إنها ليست حركة طائفية ولا عملاً خيراً ولا موعظة ونصحاً ولا تهدف إلى تحقيق مكاسب فئوية إنها حركة المحرومين جميعاً إنها تتبنى الحاجات وتنظر إلى حرمان المواطنين وتدرس الحلول وتتحرك فوراً لأجلها وتناضل إلى جانب المحرومين إلى النهاية؛ لذلك فإنها تعتقد أنها حركة اللبنانيين الشرفاء جميعاً أولئك الذين يحسون بالحرمان في حاضرهم وأولئك الذين يشعرون بالقلق على مستقبلهم.⁶²⁵

أما الحزب الثاني الذي سيتصدر المشهد داخل الطائفة الشيعية فهو حزب الله. وقد انطلق الحزب بعد الغزو الإسرائيلي للبنان في العام 1982 من رحم حركة أمل بدعم من الجمهورية الإسلامية الإيرانية ومن ثم بدعم من سوريا. وقد ركّز الحزب جهده في سنيه الأولى على قتال إسرائيل كما نسبت إليه هجمات استهدفت القوات الأميركية والفرنسية التي كانت تقاتل إلى جانب الجيش اللبناني بقيادة رئيس الجمهورية الكتائب أمين الجميل. ومن هذه الهجمات استهداف مقر المارينز الأميركي والقوات الفرنسية في منطقة الجناح في تشرين الأول 1983 ومقتل 240 جندياً أمريكياً وستين جندياً فرنسياً ما ساهم بإخراج القوات الغربية من لبنان بعد أشهر قليلة على ذلك. كما نسبت للحزب بقيادة مسؤوله الأمني والعسكري عماد مغنية استهداف السفارة الأميركية في عين المريسة بهجوم انتحاري أودى بعشرات مسؤولي المخابرات المركزية الأميركية الذين كانوا يعتقدون اجتماعاً في بيروت وكان على رأسهم كبير الجواسيس الأميركيين في الشرق الأوسط روبرت إيمز الذي صدر كتاب عنه مؤخراً هو الجاسوس الطيب.⁶²⁶ وبعد العام 1987 أصبح حزب الله هو المقاوم الأول لإسرائيل في لبنان. وفي العام 1992 تمّ اغتيال أمينه العام الثاني السيد عباس الموسوي فتم انتخاب السيد حسن نصر الله أميناً عاماً للحزب حتى يومنا هذا. وفي ظل السيد نصر الله خاض الحزب أربع مواجهات كبرى مع إسرائيل في تموز من العام 1993 ونيسان من العام 1996 وأيار من العام 2000 وتموز من العام 2006. وقد تمكّن الحزب من الصمود في جميع هذه المنازلات وهزيمة إسرائيل بدعم من سوريا وإيران. وقد تمكّن الحزب من تحرير الأراضي اللبنانية من

⁶²⁵ راجع موقع حركة أمل

<https://www.amal-movement.com/>

⁶²⁶ Kai Bird, The Good Spy: The Life and Death of Robert Ames, New York: Broadway Books, 2015

الاحتلال الاسرائيلي في العام 2000. وكانت هذه المرة الأولى التي تنسحب فيها إسرائيل من أراض عربية محتلة دون قيد أو شرط. كما تمكن الحزب من الانتصار على إسرائيل في العام 2006.

على الصعيد الداخلي اللبناني اختار الحزب المشاركة في الحياة السياسية اللبنانية وخوض الانتخابات في العام 1992 حيث حاز على كتلة وازنة في مجلس النواب حافظ عليها حتى يومنا هذا. وفي العام 2005 وبعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري كان الحزب أبرز المعارضين للانقلاب السياسي الذي وقع في البلاد واختار المشاركة في الحكومة اللبنانية لمنع أي بيان وزاري يمرره أطراف متحالفة مع الولايات المتحدة ولا يعطي الشرعية للمقاومة اللبنانية. وبعد اندلاع الحرب السورية اختار الحزب الانخراط في القتال هناك إلى جانب الجيش السوري ضد ما اعتبره محاولات غربية وإسرائيلية لإسقاط سوريا وتقسيمها وكسر سند قوي للمقاومة اللبنانية.

ويمتلك الحزب عدداً كبيراً من المؤسسات المدنية مثل:

- مؤسسة (جهاد البناء) وتأسست سنة 1988 وتضم العديد من المهندسين والفنيين والعمال وتتخصص في حفر الآبار وإعداد الدورات التدريبية في مجال الزراعة والبيطرة. وهي تهتم الآن خاصة بإعادة إعمار ما دمره العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز 2006 وقد قطعت شوطاً كبيراً في ذلك.
- الهيئة (الصحية الإسلامية) ولها فروع عدة بلغت 47 فرعاً تنتشر في البقاع والجنوب بالإضافة إلى بيروت.
- جمعية (القرض الحسن) وتأسست سنة 1982 بهدف تقديم القروض غير الربوية للمحتاجين.
- جمعية (الإمداد الخيرية الإسلامية) وتأسست سنة 1987 وتعمل على مساعدة الأسر على الاكتفاء ذاتياً، ورعاية الأيتام والعجزة والأرامل.
- مؤسسة (الشهيد) ومهمتها الاهتمام التربوي والتعليمي بأسر الشهداء.
- المؤسسة (الإسلامية للتربية والتعليم) ويعود تاريخ تأسيسها إلى سنة 1993 وتهتم ببناء المدارس في مختلف المناطق اللبنانية وتحرص على أن تكون أولوية الالتحاق في تلك المدارس لأبناء الشهداء.
- مؤسسة الجرحى ومهمتها الاهتمام بجرحى المقاومة ورعايتهم وتقديم الخدمات الصحية لهم.

- هيئة (دعم المقاومة الإسلامية) التي تجمع التبرعات للمقاومة وتعقد الندوات وتقيم المعارض لزيادة الوعي بأهمية المقاومة.

كما يمتلك الحزب عدداً كبيراً من المؤسسات الإعلامية على رأسها تلفزيون المنار وإذاعة النور إضافة إلى عدد كبير من المؤسسات المدنية والعسكرية والأمنية. وتتميز علاقته بإيران بالطابع الأيديولوجي لإيمان الحزب بولاية الفقيه التي تقوم على مبدأ الحكم الإسلامي تحت إشراف مرجع ديني أعلى يتولى الإشراف على الدولة لحين ظهور الإمام المهدي المنتظر. كما تتميز العلاقة بدعم إيراني سياسي ومالي واجتماعي.⁶²⁷

الدستور السوري الجديد

وفي بدايات الأزمة السورية، وفي محاولة لإيجاد أطر قانونية لحل الأزمة تم إقرار دستور جديد للبلاد كان من أهم بنوده إلغاء تلك التي تتعلق بالدور القيادي لحزب البعث في الدولة والمجتمع ومن بنوده:

"تعتبر الجمهورية العربية السورية بانتمائها العربي، وبكون شعبها جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية مجسدة هذا الانتماء في مشروعها الوطني والقومي، وفي العمل على دعم التعاون العربي بهدف تعزيز التكامل وتحقيق وحدة الأمة العربية".

المادة الأولى: الشعب في سوريا جزء من الأمة العربية.

المادة الثامنة: يقوم النظام السياسي للدولة على مبدأ التعددية السياسية، وتتم ممارسة السلطة ديمقراطياً عبر الاقتراع.

⁶²⁷ راجع موقع حزب الله

<https://www.moqawama.org/>

تسهم الأحزاب السياسية المرخصة والتجمّعات الانتخابية في الحياة السياسية الوطنية وعليها احترام مبادئ السيادة الوطنية والديمقراطية.

ينظم القانون الأحكام والإجراءات الخاصة بتكوين الأحزاب السياسية.

المادة الرابعة والثمانون: يشترط في المرشح إلى منصب رئيس الجمهورية ما يأتي:

- أن يكون متمماً الأربعين عاماً من عمره.
- أن يكون متمتعاً بالجنسية العربية السورية بالولادة من أبوين متمتعين بالجنسية العربية السورية بالولادة.
- أن يكون مقيماً في الجمهورية العربية السورية لمدة لا تقلّ عن عشر سنوات إقامة دائمة متصلة عند تقديم طلب الترشيح.

المادة الثامنة والثمانون: ينتخب رئيس الجمهورية لمدة سبعة أعوام ميلادية تبدأ من تاريخ انتهاء ولاية الرئيس القائم، ولا تجوز إعادة انتخاب رئيس الجمهورية إلا لولاية واحدة تالية.

المادة الخامسة والخمسون بعد المئة: تنتهي مدة ولاية رئيس الجمهورية الحالي بانقضاء سبع سنوات ميلادية من تاريخ أدائه القسم الدستوري رئيساً للجمهورية، وله حق الترشح مجدداً لمنصب رئيس الجمهورية، وتسري عليه أحكام المادة /88/ من هذا الدستور اعتباراً من الانتخابات الرئاسية القادمة.

الفصل الثالث

فلسطين والأردن 1991 – 2010

منذ أواخر الثمانينيات من القرن الماضي جرت اتصالات غير مباشرة بين منظمة التحرير الفلسطينية ووزارة الخارجية الأميركية أنتجت إعلاناً من ياسر عرفات بإدانة الإرهاب، ما شكل إعلاناً رسمياً من قبله بالتخلي عن الكفاح المسلح والسير في طريق المفاوضات المباشرة مع الإسرائيليين. وفي أيلول/سبتمبر 1987، جمعت مفاوضات سرية بين ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية وممثلين عن الحكومة الإسرائيلية قبل خلالها الفلسطينيين بحق تقرير المصير وفقاً لما نصت عليه اتفاقية كامب دايفيد قبل ثمانية أعوام بين مصر وإسرائيل.⁶²⁸ وكانت اللقاءات غير الرسمية بين الفلسطينيين والإسرائيليين قد بدأت منذ السبعينيات.⁶²⁹ وقد هدف اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في نيسان أبريل 1988 في الجزائر وما تلاه من إعلان لدولة فلسطين إلا للتغطية على المفاوضات السرية بين ممثلي عرفات وممثلي الحكومة الإسرائيلية. وخلال عهد الرئيس الأميركي جورج بوش الأب بين عامي 1989 و1993 لعب وزير خارجيته جيمس بايكر دوراً كبيراً لإقناع الحكومة الإسرائيلية بقبول مبدأ الأرض مقابل السلام والذي يقضي بانسحاب الإسرائيليين من أراضٍ عربية محتلة في مقابل إقامة السلام الشامل وحلّ النزاع العربي - الإسرائيلي. وقبل انعقاد مؤتمر مدريد عام 1992 نجح بايكر إلى حد بعيد في جهوده فقبل الإسرائيليون أن يعقد المؤتمر بحضور مراقبين دوليين وبأن يشارك فلسطينيون من الضفة الغربية وغزة في المفاوضات ضمن وفد أردني - فلسطيني مشترك مع استثناء ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية أو فلسطينيي القدس الشرقية. وفي 30 تشرين الأول أكتوبر 1991 عقد مؤتمر السلام بين العرب والإسرائيليين في مدريد. وخلال المؤتمر ألقى رئيس الفريق الفلسطيني في الوفد الأردني - الفلسطيني المشترك حيدر عبد الشافي كلمة أسف فيها للكران الذي يتعرض له الفلسطينيون وحقوقهم المشروعة في أرض فلسطين التاريخية، وقال "إنّ الدعوة إلى عقد السلام الذي نطالب به جميعنا لم توجّه إلى كلّ أبناء شعبنا متجاهلة بذلك وحدتنا الوطنية والتاريخية. لقد جئنا إلى هنا بعد أن أجبرنا على الانفصال عن

⁶²⁸ راجع محمود عباس

⁶²⁹ محمد حسنين هيكل، "سلام الأوهام: أوسلو ما قبلها وما بعدها"، دار الشروق، القاهرة، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1996،

ص.ص. 62-63.

أشقائنا الفلسطينيين تحت الاحتلال. ومع ذلك، فنحن نصرّ على أن يمثّل كلّ واحدٍ منّا حقوق ومصالح كلّ الشعب الفلسطيني. ولقد اختارها شعبنا ليأتمنّها على تاريخه وراثته، لقد اعترف بها المجتمع الدولي باستثناء أقلية تستمرّ بالتستّر على الواقع". وشدّد على أهمية مدينة القدس بالنسبة للفلسطينيين وأن تكون عاصمة للدولة الفلسطينية العتيدة. وطالب بوقف الاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية وغزة رافضاً ضمّ القدس إلى الدولة الصهيونية كما طالب بإقرار حق العودة للاجئين الفلسطينيين في الشتات.⁶³⁰

لم تُسفر الجولة الأولى، شأنها شأن الجولات الأربع التي تلتها عن أية نتيجة لأنّ حكومة الليكود كانت ترفض مبدأ الأرض مقابل السلام.⁶³¹ وكان شامير يريد استغلال المفاوضات لتطبيع العلاقات مع العالم العربي من دون الانسحاب من أي شبر من الأرض المحتلة.⁶³² وكان الإسرائيليون يراهنون على أن يمارس المجتمع الدولي وعلى رأسه الولايات المتحدة ضغوطاً على الفلسطينيين ليقبلوا بحل الحكم الذاتي عوضاً عن إقامة الدولة في الأراضي المحتلة ما يفتح المجال أمامهم لإقامة سلام مع الأردن يشكل جسر عبور لهم إلى دول منطقة الخليج من دون الحاجة لإقامة سلام مع سوريا.⁶³³ هذا دفع بالإسرائيليين إلى التركيز على المسارين الأردني والفلسطيني وإهمال التفاوض على المسارين السوري واللبناني. وقد تجاوب الفلسطينيون مع المساعي الإسرائيلية لأنهم اعتبروا أن من شأنها التخفيف من وطأة الاحتلال الإسرائيلي على الضفة الغربية وغزة. وقد جرى الحديث أن سلاماً مع الفلسطينيين والأردنيين يمكن أن يمهّد لإقامة اتحاد كونفدرالي بين إسرائيل والفلسطينيين والأردنيين.⁶³⁴ كانت المفاوضات عقيمة في ظل حكومة الليكود ما أدّى إلى خلافات كبيرة بين القيادة الإسرائيلية وإدارة الرئيس جورج بوش التي اندفعت لدعم حزب العمال الإسرائيلي بقيادة إسحق رابين وشيمون بيريز لتحقيق فوز في الانتخابات التشريعية الإسرائيلية التي أجريت في حزيران يونيو 1992. وقد شكّل فوز حزب العمل بقيادة إسحق رابين وشيمون بيريز في الانتخابات التي جرت في حزيران يونيو 1992 دفعاً لعملية السلام في الشرق الأوسط.⁶³⁵ وقد رحّب

⁶³⁰ السفير، في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1991

⁶³¹ وحيد عبد المجيد، "إسرائيل والمفاوضات الجارية، مصطفى اللوي: المفاوضات العربية - الإسرائيلية وسمتقبل السلام في الشرق الأوسط، القاهرة، 1994، ص. 161.

⁶³² السفير، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991

⁶³³ باتريك سيل، "رابين يريد الجولان منزوع السلاح ويعترف بالهيمنة السورية على لبنان في مقابل سلام بين دمشق وتل أبيب"، ص. 20

⁶³⁴ جواد الصمد، "الخيار الكونفدرالي الأردني - الفلسطيني"، شؤون الشرق الأوسط، عدد رقم 48، كانون الثاني/يناير 1996، ص. 54 وص. 55.

⁶³⁵ Muslih, Muhamed, "Dateline Damascus: Assad is ready", Foreign Policy, no. 96, Automne 1994, p.151

الرئيس الأميري بهذا الفوز مقدراً بأنه سيسمح بالسير قدماً بعملية السلام في المنطقة مما يشكّل فائدة لانتخاباته. وكان رابين مستعداً لمنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً في الضفة الغربية وغزة وقد اعتمد على استراتيجية تهدف إلى استغلال التناقضات بين الفلسطينيين والسوريين للحصول على أقصى التنازلات منهما.⁶³⁶ وفي آب أغسطس 1992، وبعد موافقة الإسرائيليين على انضمامه إلى الوفد الفلسطيني المفاوض، أعلن فيصل الحسيني أن الطرف الفلسطيني مستعد للقبول ببقاء المستوطنات الصهيونية في الأراضي المحتلة بعد تحقيق السلام وأن تكون الدولة الفلسطينية العتيدة مقدّمة لإقامة كونفدرالية إسرائيلية فلسطينية أردنية.⁶³⁷

اتفاق أوسلو

في المقابل دعا إسحق رابين الفلسطينيين إلى مفاوضات منفصلة لتحقيق السلام معهم تؤدي إلى الحكم الذاتي. كذلك أعلن نيته وقف التقدم على المسارين الأردني والسوري معرباً عن أمله في تحقيق السلام مع الفلسطينيين خلال صيف العام 1993.⁶³⁸ وفي خطاب له أمام الكنيست في 13 تموز/يوليو 1992، أعلن رابين أن الحكم الذاتي الذي ورد ذكره في اتفاقية كامب ديفيد، "هو أفضل ما يمكنه أن يقدمه لهم، متمنياً على الفلسطينيين "ألا يفوتوا هذه الفرصة التاريخية".⁶³⁹ وكان عرفات مستعداً للتوقيع على معاهدة مع الإسرائيليين بأي ثمن خشية من أن يصبح الوفد الفلسطيني المفاوض بديلاً عنه وعن منظمة التحرير. وهو تذرّع بخوفه من توصل سوريا لسلام مع إسرائيل قبله للاستعجال بالسلام مع الإسرائيليين. وكان الوفد المفاوض قد أعلن عن نية الفلسطينيين تشكيل حكومة فلسطينية تدير الأراضي المحتلة بعد الاتفاق مع الإسرائيليين، إضافة إلى إنشاء قوة شرطة محلية منزوعة السلاح على أن يتم تدريبها في الأردن. وقد تجاوب الإسرائيليون مع هذه التصريحات معلّنين عن استعدادهم للمساهمة بتدريب قوة الشرطة هذه رغم معارضة المستوطنين الصهاينة في الأراضي المحتلة.⁶⁴⁰ وعشية الجولة السادسة من المفاوضات أعلنت وسائل الإعلام الإسرائيلية أنّ حكومة رابين قد تقترح خطة سلام مع لبنان وسوريا تتضمن انسحاباً من

⁶³⁶ وحيد عبد المجيد، "إسرائيل ومفاوضات السلام الجارية"، المفاوضات العربية - الإسرائيلية ومستقبل السلام في الشرق الأوسط، تحرير مصطفى العلوي، القاهرة، 1994، ص. 163.

⁶³⁷ السفير، 6 آب/أغسطس 1992

⁶³⁸ السفير، في 21 تموز/يوليو 1992

⁶³⁹ النهار، في 14 تموز/يوليو 1992

⁶⁴⁰ هدى الحسيني، مراسلة في صحيفة الشرق الأوسط، في 6 آب/أغسطس 1992

الجولان ما أثار مخاوف الفلسطينيين من أن تسبقهم دمشق إلى السلام ما يؤدي إلى عزلهم.⁶⁴¹ وقد بدأت الجولة السادسة في واشنطن في 24 آب/أغسطس 1992. وأعلن الإسرائيليون قبولهم بالقرار الدولي 242 و338 كأساس للتفاوض مع العرب،⁶⁴² لكنهم أوقفوا هذه الجولة في أيلول سبتمبر بعد افتعالهم مشكلة مع السوريين.⁶⁴³ وكانت إدارة الرئيس جورج بوش الأب قد بدأت بالتحضير للانتخابات الرئاسية ما جعل دورها يضعف في إدارة المفاوضات.⁶⁴⁴ وكان بوش بحاجة لدعم اللوبي اليهودي ما جعله يدعم تل أبيب بشكل غير مشروط. وفي تشرين الثاني نوفمبر أعلنت نتائج الانتخابات بخسارة بوش الأب وفوز منافسه بيل كلينتون الذي كان يعد أقرب إلى اللوبي الصهيوني وإلى إسرائيل وأكثر تجاوباً مع مطالبها ما عزز موقف الإسرائيليين التفاوضي.

بعد انتخاب كلينتون عقدت ثلاث جولات تفاوضية بين الإسرائيليين والعرب من دون نتائج، في الوقت الذي كانت منظمة التحرير الفلسطينية تجري مفاوضات سرية مع الإسرائيليين في العاصمة النروجية أوسلو. كان عددٌ كبير من الوزراء الإسرائيليين ومن ضمنهم شيمون بيريز متحمسين لعقد اتفاقية سلام مع الفلسطينيين بمعزل عن انتمائهم لمنظمة التحرير.⁶⁴⁵ ولقد ظهرت بوادر التوصل إلى اتفاق للحكم الذاتي إلى العلن في أيار مايو 1993 بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان قبل شهر من ذلك التاريخ والذي أجبر السوريين على الرضوخ وعدم عرقلة الاتفاق الإسرائيلي الفلسطيني العتيد. وقد اقترح عرفات، في رسالة بعث بها إلى المستشار النمساوي فرانز فرانيتسكي، أن تغادر القوات الإسرائيلية المناطق المأهولة بالسكان في غزة وأن تُستبدل بقوات دولية، ودعا رابين للتفاوض مباشرة معه. من جهته زار المستشار السياسي للرئيس المصري أسامة الباز واشنطن وتناقش مع وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر في سبل التغلب على العقبات التي تعرقل التقدم على المسار الإسرائيلي - الفلسطيني، مشيراً إلى أهمية إقامة اتحاد كونفدرالي بين الفلسطينيين والأردنيين ما يمهد لقبول المجتمع الإسرائيلي لفكرة الدولة الفلسطينية.⁶⁴⁶ وكشفت مصادر في وزارة الخارجية الإسرائيلية أن الوفد الإسرائيلي سيقترح على الفلسطينيين حكماً ذاتياً في غزة.

⁶⁴¹ السفير، في 19 آب/أغسطس 1992

⁶⁴² السفير، في 25 آب/أغسطس 1992

⁶⁴³ النهار، في 3 أيلول/سبتمبر 1992

⁶⁴⁴ باتريك سيل، "رابين يريد الجولان منزوع السلاح"، ص. 2.

⁶⁴⁵ السفير، في 24 كانون الثاني/يناير 1993

⁶⁴⁶ النهار، في 24 أيار/مايو 1993

وقد صيغ الاقتراح على أن يمنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً في غزة وأريحا. ويشير بيريز في مذكراته إلى اللقاءات السرية التي جرت بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية خلال صيف 1992 عبر وزير الخارجية النرويجي الذي اقترح في أيلول/سبتمبر 1992 أن تقوم "الـFAFO" وهي منظمة نرويجية للبحوث بالتوسط بين الطرفين. ولقد اجتمع مديرها، تيري رود لارسن السياسي الإسرائيلي اليساري يوسي بيلين الذي أصبح نائباً لوزير الخارجية الإسرائيلية في حكومة حزب العمل. وفي أيلول/سبتمبر، اقترح وزير الخارجية النرويجي إقامة قناة اتصال سرية تربط إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان بيلين حذراً جداً في هذا الصدد وقرّر وضع لارسن في اتصال مباشر مع أكاديميين إسرائيليين لا صلة لهما بالحكومة أحدهما يدرس في جامعة حيفا وهو يائير هيرتشفيلد والآخر طبيب وهو رون بينداك. وعن طريق إثارة بعض النقاط الحساسة من المشروع في كانون الأول/ديسمبر 1992، تقرّب هيرتشفيلد من المسؤول المالي في منظمة التحرير أحمد قريع. ولقد وافق هؤلاء على حضور حلقة دراسية عن الموارد البشرية عُقدت في كانون الثاني/يناير في أوسلو وقد شارك فيها عن الجانب الإسرائيلي، هيرتشفيلد وبينداك، وعن الجانب الفلسطيني، أحمد قريع وماهر الكردي وحسن عصفور. وقد قدّم أحمد قريع اقتراحاً من ثلاث نقاط وهي انسحاب الإسرائيليين من غزة خلال ثلاث سنوات من توقيع الاتفاق على أن يتواصل التفاوض في ما يتعلق بالضفة الغربية، وأن تقر خطة إمامية بتمويل دولي على غرار مشروع مارشال الذي أطلق في أوروبا عقب الحرب العالمية الثانية لإعادة بنائها، وأن يرتبط الإسرائيليون والفلسطينيون بعلاقات تعاون اقتصادي.⁶⁴⁷

في هذا الوقت كانت منظمة التحرير الفلسطينية تعاني من العزلة عربياً ومن أزمة مالية خانقة نتيجة وقف التمويل الخليجي لها بسبب موقفها الداعم للعراق خلال حرب الخليج ما جعلها في موقف تفاوضي ضعيف. واعتبر راين أن مبدأ "غزة أولاً" يصبّ في مصلحة إسرائيل لأن غالبية الإسرائيليين يريدون التخلص من غزة المكتظة بالسكان والمليئة بالتهديدات. وعلاوة على ذلك، لقد ارتأت أوسلو أن تبدأ السنوات الخمس المؤقتة مباشرة بعد التوقيع، في حين أنّه بموجب اتفاق كامب ديفيد عام 1978 لن تبدأ هذه الفترة إلا بعد أن تكون جميع تفاصيل الحكم الذاتي قد سُوّيت.⁶⁴⁸

⁶⁴⁷ مذكرات شيمون بيريز، ص.ص. 371 - 377

⁶⁴⁸ المرجع نفسه، ص.ص. 380 - 381

في مطلع أيار/مايو 1993، كانت كل تفاصيل المفاوضات مع الفلسطينيين قد سويت ولم تكن الجولة العاشرة من المفاوضات الا للتعمية على هذه المفاوضات والتقدم الحاصل فيها. ويؤكد محمود عباس في كتابه أن اللقاءات بين الفلسطينيين والإسرائيليين كانت قد بدأت قبل خمسة أشهر من اندلاع "الانتفاضة" في 4 تموز/يوليو 1987، عندما التقى عضو الليكود موشيه أميران بأنور نسيبة بإيعاز من عرفات نفسه. تلت ذلك لقاءات عدة بين الطرفين أفضت إلى اتفاق مبدئي ينص على الاعتراف بالحقوق الوطنية للطرفين بما فيها تقرير المصير للشعبين الفلسطيني والإسرائيلي، وأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وعلى حق إسرائيل بالوجود ضمن حدود معترف بها دولياً. أما في ما يتعلق ببنود الاتفاقية التي ستضمن بعد سنوات في اتفاق أوسلو فقد نصّت على:

1. الشروع بمرحلتين من المفاوضات بين الفلسطينيين والحكومة الإسرائيلية. تؤدّي المرحلة الأولى التحضيرية إلى اتفاق انتقالي وتؤدّي المرحلة الثانية إلى اتفاق نهائي بشأن السلام.
2. يمكن للمرحلة التحضيرية أن تتم في بلد آخر يتمّ تحديده، وتتمّ المرحلة الثانية بعد سنتين من تطبيق الاتفاق المؤقت، على أن تقرّر الأطراف المتفاوضة على الصيغة النهائية لاتفاقية السلام وعلى الضمانات الدولية المطلوبة لدعمه. يمتدّ الاتفاق الانتقالي على فترة تتراوح بين ثلاث إلى خمس سنوات.
3. خلال الفترة الانتقالية، تجب إقامة كيان فلسطيني على الأراضي المحتلة في حزيران/يونيو 1967، مع الجزء العربي من القدس عاصمة له. وسيكون للفلسطينيين المقيمين في هذه المنطقة حرية اختيار لإدارة شؤونهم بطريقة يتمّ تحديدها خلال المرحلة الأولى من المفاوضات. ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار الحقوق المشروعة الممنوحة لهذا الكيان الفلسطيني في ما يخصّ الموارد الطبيعية وأيضاً في ما يخصّ المطالب الإسرائيلية.
4. لهذا الكيان الحقّ في أن تكون له رموز وطنية كعلم وعملة ونشيد وطني وشبكة الاتصالات السلكية واللاسلكية وإذاعة وتلفزيون مستقلّين، بالإضافة إلى إصدار بطاقات هوية ووثائق سفر وغيرها من المستندات الخاضعة لاتفاق خلال المفاوضات. غير أن هذه الأخيرة لا تتعلّق بظروف السلام بين الكيان وإسرائيل.

5. اتفاق شامل على إنشاء هذا الكيان ووضع المستوطنات والمستوطنين الإسرائيليين وعودة الفلسطينيين إلى ديارهم وتقاسم الموارد والاقتصاد والتعاون التجاري، يجب أن يُوفَّع خلال المرحلة الأولى من المفاوضات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

ولضمان مناخ إيجابي خلال المفاوضات، يجب أن:

أ. تعترف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية بصفتها ممثلاً شرعياً للشعب الفلسطيني وتعترف المنظمة بدورها بدولة إسرائيل.

ب. يُعرب الطرفان عن استعدادهما للتفاوض للوصول إلى تسوية.

ج. تُعلن إسرائيل رسمياً تجميد جميع أنشطتها في الأراضي المحتلة ووقف العنف ضدّ الشعب الفلسطيني وممتلكاته خلال الفترة الأولى. ومن جهتها، تعلن منظمة التحرير الفلسطينية كذلك وقف جميع أعمال العنف.

وقد تمّ التوصل إلى اتفاق على الخطوط العريضة قبل اندلاع الانتفاضة عام 1987. ولم يكن إعلان الدولة الفلسطينية من جانب عرفات عام 1988 سوى للتعمية على المفاوضات مع الإسرائيليين. ويذكر أبو مازن في كتابه الاتصالات السرية مع أرييل شارون، ودافيد كيمحي، وقد استؤنفت المحادثات مع الطرف الإسرائيلي في كانون الأول/ديسمبر عام 1992 وحتى وصول حكومة حزب العمل إلى السلطة في إسرائيل. وكان من المفترض لاتفاق أوسلو أن يؤدي إلى قيام كونفدرالية فلسطينية إسرائيلية أردنية تصبح حجر الزاوية للنظام الإقليمي الجديد في الشرق الأوسط. ولم يكن عدوان نيسان 1993 على لبنان الا لتجاوز عقبة المعارضة السورية للاتفاق وهو ما نجحت به تل أبيب. وقد وقع الاتفاق رسمياً في واشنطن في 13 أيلول سبتمبر 1993 ووقع عليه ياسر عرفات عن الطرف الفلسطيني وإسحق رابين عن الطرف الإسرائيلي.⁶⁴⁹

⁶⁴⁹ محمود عباس، "طريق أوسلو، موقع الاتفاق يروي أسرار المفاوضات، شركة المطبوعات، الطبعة الرابعة، بيروت، 1995، ص.ص.

وادي عربة وما بعده

شكّل اتفاق أوسلو نكسة لسوريا إذ مهّد السبيل للتطبيع بين العرب وإسرائيل، كما مهّد السبيل لتوقيع اتفاق سلام بين إسرائيل والأردن يمكن أن تدخل عبره تل أبيب إلى العالم العربي. وقد شجّع الاتفاق مع الفلسطينيين الجمهور الإسرائيلي على السلام مع العرب بعدما عاش لعقود في حالة حرب معهم.⁶⁵⁰ وعقب التوقيع على الاتفاق الإسرائيلي - الفلسطيني، كان الأردن متلهّفاً للسير على الطريق التي سبقتها إليها منظمة التحرير الفلسطينية إذ تمّ تسجيل لقاءين مع وزير الخارجية الإسرائيلي شيمون بيريز، أحدهما ضم وليّ العهد الأمير حسن والآخر ضم الملك حسين نفسه. ولممارسة الضغوط على سوريا ألح رابين إلى إمكانية توقيع اتفاق سلام مع لبنان إذا ارتضت الحكومة اللبنانية برئاسة رفيق الحريري نشر الجيش في الجنوب وسحب سلاح حزب الله ومنع العمليات التي يشنّها ضد إسرائيل.⁶⁵¹ وبعد اتفاق أوسلو بات الطريق ممهداً للأردن لتوقيع اتفاق سلام منفصل مع إسرائيل، خصوصاً أنه لم تكن هنالك أراضٍ أردنية محتلة تعيق توقيع اتفاق كهذا.⁶⁵² وفي 25 تموز/يوليو 1994، عُقدت قمة إسرائيلية - أردنية بهدف التحضير لاتفاق وادي عربة. وقد زار الرئيس المصري حسني مبارك دمشق لإقناع الأسد بعدم عرقلة الاتفاق الأردني الإسرائيلي العتيد. وأعلنت الحكومة الإسرائيلية أنّ معاهدة السلام مع الأردن باتت جاهزة وأنها "تحدّد أسساً واضحة لمستقبل العلاقات بين الطرفين بشأن خطوط الهاتف والكهرباء وافتتاح نقطتي عبور جديدتين في الجنوب في منطقة العقبة، إضافة إلى الاتفاق على حركة انتقال السياح والمفاوضات لفتح خط جوي مباشر والتعاون في مجال الأمن لمكافحة الجرائم والمخدرات والمفاوضات بشأن القضايا الاقتصادية والمياه ومواصلة عقد قمم ثنائية بين البلدين". بعد ذلك بأسابيع قليلة جرى التوقيع على الاتفاق الأردني الإسرائيلي رسمياً في وادي عربة، ولتجنّب أيّة تداعيات سلبية لهذا التوقيع، اتّصل كلينتون بالرئيس السوري حافظ الأسد مطمئناً إيّاه بأنّه يبذل جهوداً لدفع عملية السلام بين إسرائيل وسوريا.⁶⁵³ ووفقاً للاتفاق التزم الطرفان الإسرائيلي والأردني "بعدم اللجوء إلى القوة لحل النزاعات أو تهديد أمن كل منهما".⁶⁵⁴ وتعهّد الطرفان ببحث حلول

⁶⁵⁰ Faith, Douglas J, "Land for no Peace", Commentary, juin 1994, pp.. 32-36.

⁶⁵¹ النهار، في 16 أيلول/سبتمبر 1993

⁶⁵² السفير، في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1993

⁶⁵³ السفير، في 26 آب/أغسطس

⁶⁵⁴ السفير، في 26 آب/أغسطس

للخلافات في قضايا الحدود ومسائل الأرض والأمن والمياه والطاقة والبيئة ووادي الأردن.⁶⁵⁵ ووفقاً للمفاوضات فقد قبلت اللجنة الفرعية للمياه والبيئة والطاقة الاعتراف المتبادل بحصص كل طرفٍ من المياه من نهري الأردن واليرموك⁶⁵⁶ وإقامة خطٍّ هاتفي مباشر بين إسرائيل والأردن، وربط شبكات الكهرباء بين إسرائيل والأردن كجزءٍ من شبكة إقليمية يجري العمل على إنشائها، وفتح نقطتي عبور جديدين بين إسرائيل والأردن إحداهما في العقبة والأخرى في الشمال قرب نهر الأردن، والاتفاق على انتقال السياح بين البلدين وغيرها من البنود التي ذكرت سابقاً. وتجدر الإشارة إلى أن القائمين بالأعمال اللبناني والسوري قد حضرا حفل التوقيع، ولكنهما رفضا مصافحة رابين، مما يظهر وجود تفاهم ضمني لبناني - سوري على عدم عرقلة اتفاق وادي عربة.⁶⁵⁷ ومن جانبه، فقد أعرب كريستوفر عن تفاؤله بشأن إحراز تقدّم على المسار السوري في حين أن الولايات المتحدة ستواصل المفاوضات مع سوريا.⁶⁵⁸

وفقاً لمقررات اتفاقية أوسلو كان على عرفات إقامة إدارة ذاتية في غزة وأريحا أولاً. بناء على ذلك انتقل عرفات إلى مدينة غزة التي وضعت تحت سيطرة السلطة الوطنية الفلسطينية التي أصبح عرفات رئيسها وقام بتشكيل حكومتها. تلت ذلك إقامة أجهزة إدارية وأمنية لتصبح نواة للسلطة الوطنية الفلسطينية في ظل الاحتلال الإسرائيلي. وخلال العام التالي قام عرفات بجولات على عدد كبير من المدن الفلسطينية في الأراضي المحتلة. وكان مقرراً أن أوسلو مرحلة انتقالية نحو إقامة الدولة الفلسطينية، إلا أن انتخاب نتنياهو في حزيران يونيو 1996 عرقل ذلك. ولم تُجدِ الجهود الأميركية والضغط الدولي على القيادة الإسرائيلية لإقناعها بالتقدم أكثر في عملية السلام مع الفلسطينيين على الرغم من توقيع مذكرة واي ريفر بين نتنياهو وعرفات برعاية أميركية في العام 1998 والتي كان من شأنها تفصيل الخطوات الآيلة إلى الانتقال من الحكم الذاتي إلى إقامة الدولة الفلسطينية. وقد تلت ذلك الاتفاق محاولات أخرى في ظل حكومة حزب العمل بزعامة إيهود باراك والتي تشكلت في العام 1999 بعد فوز حزب العمل في الانتخابات التشريعية لذلك العام. وقد عرض باراك على عرفات دولة على 73 بالمئة من أراضي الضفة الغربية وغزة إلا أن عرفات أصرّ على أن تكون الدولة على كامل أراضي الضفة الغربية وغزة على أن تكون القدس الشرقية عاصمة للدولة الفلسطينية العتيدة. وقد أنهى ذلك عملية السلام نهائياً. وقد مهّد ذلك

⁶⁵⁵ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁶⁵⁶ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁶⁵⁷ السفير، في 26 آب/ أغسطس

⁶⁵⁸ السفير، في 29 تموز/ يوليو 1994

لاندلاع الانتفاضة الثانية في أواخر العام 2000 عقب اقتحام زعيم حزب الليكود الجديد أرييل شارون للمسجد الأقصى في أيلول سبتمبر 2000. وقد استمرت هذه الانتفاضة أربعة أعوام كاملة. وقد ترافقت هذه الانتفاضة مع فرض السلطات الإسرائيلية الحصار على مقر عرفات في رام الله لمدة عامين كاملين. وبعد وصول جورج بوش الابن إلى كرسي الرئاسة في الولايات المتحدة واجتياحه أفغانستان والعراق والحديث عن شرق أوسط جديد ترسم خريطته السياسية وفقاً لأسس جديدة، بدا الوضع مؤثياً للإسرائيليين لإنهاء مفاعيل السلام مع الفلسطينيين. وفي تشرين الثاني نوفمبر 2004 توفي ياسر عرفات في ظروف غامضة وقيل إنه مات مسموماً من قبل المخابرات الإسرائيلية بأمر من رئيس الوزراء الجديد أرييل شارون. وقد خلف عرفات على رأس السلطة الفلسطينية محمود عباس أبو مازن.

السلطة في مواجهة حماس

في أوائل العام 2005 كان محمود عباس قد انتخب رسمياً رئيساً لسلطة الحكم الذاتي الفلسطينية ورئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية خلفاً لياسر عرفات. وكانت حركة فتح قد أصبحت الحزب الحاكم لسلطة الحكم الذاتي. وكانت عملية السلام ومفاعيلها قد توقفت قبل سنوات في ما كانت سلطات الاحتلال الإسرائيلية قد ضربت حصاراً سياسياً واقتصادياً على السلطة ما أدى إلى أزمة اقتصادية خانقة في الأراضي المحتلة. وما فاقم الأمور هو الفساد الذي استشرى في إدارات السلطة الفلسطينية وبين مسؤوليها ما أدى إلى تصاعد النقمة الشعبية ضدهم وحول تعاطف فلسطينيين كثيرين إلى حركة المقاومة الإسلامية حماس التي كانت قد طرحت نفسها بديلاً عن فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية منذ أوائل التسعينيات من القرن الماضي. وكانت حركة حماس قد تأسست في العام 1987 على يد فلسطينيين من غزة كانوا مقربين من جماعة الإخوان المسلمين في مصر. وفي البداية اعتمدت الحركة سياسة مهادنة للاحتلال الإسرائيلي وكان خطابها عدائياً بالدرجة الأولى تجاه حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقيل إن الموساد الإسرائيلي غرض الطرف عن صعود الحركة حتى تكون هنالك قوة تواجه هيمنة فتح ومنظمة التحرير في هذه الساحة. لكن ما لبثت الحركة أن تبوأَت واجهة المقاومة المسلحة ضد إسرائيل خلال التسعينيات من القرن الماضي، وقد رفضت الموافقة على اتفاق أوسلو أو أي تسوية سياسية مع إسرائيل مطالبة بتحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني من الاحتلال الإسرائيلي بما فيه الأراضي التي احتلتها إسرائيل في العام 1948. كما طالبت بحق الفلسطينيين بالعودة إلى أرض فلسطين وإقامة دولة إسلامية فيها. في العام 2004

تعرّضت قيادات حماس لسلسلة اغتيالات من قبل الموساد الإسرائيلي أودت بحياة مؤسس الحركة الشيخ أحمد ياسين وإضافة إلى عبد العزيز الرنتيسي وهو من أركان الحركة. وكانت الحركة قد رفضت الاعتراف بالسلطة الوطنية الفلسطينية معتبرة إياها هيئة تعمل بخدمة الاحتلال الإسرائيلي، لكن ذلك تغير في كانون الثاني يناير 2006 حين اختارت الحركة المشاركة بالانتخابات البرلمانية الفلسطينية وفازت بغالبية مقاعد البرلمان الفلسطيني ما جعل رئيسها إسماعيل هنية يشكل الحكومة الفلسطينية. إلا أن ذلك واجه مقاومة قوية من قبل حركة فتح التي لم تستسغ فقدان السلطة والنفوذ كما واجه معارضة غربية قوية بسبب عدم اعتراف الحركة بإسرائيل. هذا دفع بإسماعيل هنية إلى أن يحلّ حكومته ويشكل حكومة وحدة وطنية في آذار مارس 2007 ضمّ إليها قياديين من حركة حماس وحركة فتح. لكن هذا التعديل لم يخفف من شراسة معارضة فتح أو الولايات المتحدة والغرب لتشكيل حماس للحكومة. بعد أسابيع قليلة أعلن محمود عباس حلّ حكومة هنية وتشكيل حكومة أخرى وهو ما رفضته حماس فانقسمت الأراضي الفلسطينية المحتلة بين الضفة الغربية تحت سيطرة حكومة فتح وقطاع غزة تحت سلطة حكومة حماس. في الوقت نفسه كانت السلطات المصرية تحضّر لانقلاب على حماس في غزة عبر دعم القيادي في فتح محمد دحلان وقواته إلا أن حماس اكتشفت المخطط فاستبقت ذلك بهجوم شنته على فتح في غزة أدّت إلى إطاحتها من القطاع بعد مواجهات دموية أودت بحياة المئات من أعضاء الحركتين، لكن كانت غالبيتهم من عناصر فتح.

بذلك تحوّلت القضية الفلسطينية إلى ركام سلطة يتنافس عليها محمود عباس وأحمد قريع وجبريل الرجوب ومحمد دحلان في الضفة الغربية وقطاع غزة اللذين تآكلا من جراء عمليات قضم واستيطان قام بها الاحتلال الإسرائيلي. وكانت ممارسات هذه السلطة على مدى أحد عشر عاماً بعد أوصلو خلفت منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها جميعاً ركاماً لا حول لها ولا قوة. كل هذا أدّى إلى تآكل التأييد الشعبي لحركة فتح وإلى سحب البساط من تحتها. وقد أمكن للأميركيين والإسرائيليين أن يستغلوا الوضع لتفتيت القضية الفلسطينية التي أضحت، بعد أحداث عام 2008 ، مقسمة بين الضفة الغربية التي تسيطر عليها فتح وقطاع غزة الذي تسيطر عليه حماس. وكان منفذ فتح على العالم يمرّ عبر عمان وسقفها اتفاق وادي عربة بين الأردنيين والإسرائيليين. أما منفذ حماس فالقاهرة وسقفها اتفاق كامب ديفيد بين المصريين والإسرائيليين. هذا ما جعل من الهجوم الإسرائيلي عليها عام 2009 من دون ردّ فعل يُذكر من الساحتين العربية والعالمية. خلال شتاء 2009 - 2008 تعرّض قطاع غزة لحملة عسكرية إسرائيلية كانت تهدف إلى القضاء على حركة حماس التي أقلقت إسرائيل من دعم إيران لها، ومن حال المقاومة التي تمثلها

هذه الحركة على الساحة الفلسطينية، ما يعرقل جهود إسرائيل لفرض شروطها للسلام على الفلسطينيين. وساند الأميركيون العدوان الإسرائيلي على غزة، لأنهم كانوا يرون في دعم إيران حركة حماس اختراقاً جدياً منها للجبهة التي كانت الولايات المتحدة تحاول إقامتها عبر منع تسلل روسيا أو الصين عبرها إلى البحر المتوسط. فبالنسبة إلى الجيو - استراتيجية الأميركية لم يكن من المسموح لآسيا الممثلة بالصين وروسيا أن تصلا إلى البحر المتوسط أو المياه الدافئة. وكانت إيران حققت اختراقات مهمة على الصعيد الاستراتيجي عبر ثلاثة محاور جعلتها تطل على البحرين المتوسط والأحمر. فعلاقتها مع سوريا وحزب الله أتاح لها الإطالة منذ الثمانينيات على البحر المتوسط، وعلاقتها مع حماس وسيطرة الأخيرة على قطاع غزة جعلها إيران تدعم موقعها على المتوسط وتدق إسفيناً بين إسرائيل ومصر، ثم إن تمرد الحوثيين على الرئيس علي عبد الله صالح في اليمن وعدم قدرة السلطات اليمنية والمملكة العربية السعودية على قمع هذا الحراك، جعلوا الولايات المتحدة تقلق على نفوذها في البحرين المتوسط والأحمر. فمن هناك كان في إمكان إيران ومن ورائها الصين أن تدعموا علاقتهما بالسودان وتنطلقا إلى عمق القارة الأفريقية.

وكانت مصر مبارك قلقة من هذا التمدد الإيراني بمقدار قلق الولايات المتحدة. فالنظام المصري كان اتخذ قراره منذ أيام أنور السادات بالرهان على الولايات المتحدة، ولم تكن الخلافات الطرفية مع إسرائيل إلا خلافات محدودة تنطلق من حرص مصر على دور إقليمي ريادي كان يمكن أن تأخذه عبر خطب ودّ الولايات المتحدة. وبالتالي شجعت مصر إسرائيل على ضرب قطاع غزة رغبة في إزالة بؤرة المقاومة منها ضد إسرائيل. وهي بؤرة كانت تزيد من تفاقم التملل داخل مصر لأنها تقع على حدودها. ولكن ما لم تكن القيادة المصرية تعيه أن القصف الإسرائيلي على غزة كان في حقيقة أمره قصفاً للأمن القومي المصري الذي كانت غزة مرتبطة به منذ فجر التاريخ، على ما ورد في الفصول السابقة. فمن غزة انطلق الهكسوس ليحتلوا مصر أيام الفراعنة القدامى. وعند غزة أوقف المماليك المغول في معركة عين جالوت. وبين غزة وبئر سبع تعلم جمال عبد الناصر درسه الأهم وهو أن غزة هي عقب أخيل في الأمن القومي المصري. هذا الأمن الذي تآكل إلى حد بعيد بعد أحد عشر عاماً من حكم أنور السادات بين عامي 1970 و1981، وخلال ثلاثين عاماً من حكم حسني مبارك من عام 1981 وحتى عام 2011. ففي هذه المرحلة تقلص نفوذ مصر إلى حده الأدنى في المشرق العربي، وخلال التسعينيات فقدت عنصراً آخر من عناصر أمنها بعد اندلاع الحرب الأهلية في الصومال، ما هدد أمن القرن الأفريقي الذي يُعدُّ أحد عناصر الأمن المصري. وقد تبع ذلك تهديد منابع النيل بعد المجازر التي حدثت في رواندا وبرتو على ضفاف بحيرة فيكتوريا ما أفقد الهوتو، حلفاء المصريين والفرنسيين نفوذهم لحساب التوتسي، حلفاء الأميركيين

والإسرائيليين. وتلا ما سبق احتلال أريتريا جزيرة حنيش الكبرى اليمنية بإيعاز من إسرائيل، ما شكّل تهديداً آخر لأمن البحر الأحمر. وأضيف ذلك إلى الحصار الذي فُرض على ليبيا خلال التسعينيات ما انطوى على تهديد لامتداد الأمن القومي غرباً في اتجاه شمال أفريقيا.

حركتا حماس والجهاد

خلال العقود الثلاثة التي تلت انهيار كتلة الدول الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة، ضمرت منظمات فلسطينية وظهرت أخرى على الساحة تميّزت بأنها تحمل شعارات سياسية إسلامية وهما حركتا المقاومة الإسلامية حماس والجهاد الإسلامي. وعلى الرغم من أن الحركتين تحملان شعارات إسلامية إلا أن هنالك فارقاً كبيراً بينهما يعود إلى خلفية كل منهما. ففي حين تألفت حركة حماس من ناشطين كانوا سابقاً جزءاً من حركة الإخوان المسلمين، فلقد تشكلت الجهاد الإسلامي من عناصر يسارية تبنت فكر الإسلام السياسي بتأثير من الثورة الإسلامية في إيران. وقد تأسست حركة حماس في كانون أول 1987 عقب حادثة دهس قامت بها شاحنة عسكرية إسرائيلية لسبعة شبان فلسطينيين شكلت الشرارة الأولى للانتفاضة الفلسطينية الأولى. وقد تنادت سبع شخصيات هم الشيخ أحمد ياسين ومحمد شمعة وإبراهيم اليازوري وعبد الفتاح دحان وعبد العزيز الرنتيسي وصلاح شحادة وعيسى النشار لتشكيل الحركة. وقد سرت شائعات عن دور للحكومة الإسرائيلية في تسهيل نشوء الحركة حتى تكون نداً لفتح في الساحة الفلسطينية. وقد أعلن ميثاق حركة حماس رفضه أية تسوية مع الكيان الصهيوني مطالباً بتحرير كامل التراب الفلسطيني وإزالة إسرائيل من الوجود. كما عارضت حماس الانضواء في منظمة التحرير الفلسطينية متهمة إياها بالتفريط بالحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني. وقد آمنت حماس بالكفاح المسلح سبيلاً وحيداً لتحرير الأرض واستفادت من شعارها الإسلامي لتتلقى الدعم من مصادر مختلفة في منطقة الخليج إضافة إلى تلقيها الدعم من الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وقد تصدّرت حماس والجهاد إضافة للجبهة الشعبية النضال العسكري ضد إسرائيل في التسعينيات من القرن الماضي. وفي أواخر كانون الأول ديسمبر 1992 قامت سلطات الاحتلال بإبعاد 415 ناشطاً وقيادياً في حماس والجهاد الإسلامي إلى مرج الزهور في لبنان الذي رفض استقبالهم فأقيم لهم مخيم في تلك المنطقة بقي حتى صيف العام 1993 حين تمّ حلّ قضيتهم بعودتهم إلى ديارهم حتى لا تعكّر قضيتهم صفو التوقيع على اتفاقية أوسلو بين قيادة منظمة التحرير والقيادة الصهيونية. وقد تعرّض الشيخ أحمد ياسين ثم الدكتور عبد العزيز الرنتيسي إلى الاغتيال في العام 2004 في إطار جهود إسرائيل لتصفية القيادات

الفلسطينية. وفي العام 2006 فازت حماس في الانتخابات التشريعية التي أجرتها السلطة وحازت على العدد الأكبر من المقاعد إلا أن رئيس السلطة محمود عباس رفض تكليف حماس تشكيل الحكومة، ودعمه في خياره الولايات المتحدة وإسرائيل والدول الأوروبية. لكن تمت تسوية بعد ذلك سمحت لإسماعيل هنية تشكيل حكومة فلسطينية. وفي العام 2007 وقع نزاع سياسي مع السلطة تحول نزاعاً مسلحاً بين حماس وفتح بقيادة أحمد دحلان في غزة. وبنتيجة المواجهة سيطرت حماس على غزة فيما استأثرت السلطة بالسيطرة على الضفة الغربية.⁶⁵⁹

أما حركة الجهاد الإسلامي فلقد تأسست قبل حماس بعقد من الزمن من قبل طلبة فلسطينيين كانوا يدرسون في مصر وتأثروا بالثورة الإسلامية في إيران وانتصارها. وكان من أبرز هؤلاء الطلاب الدكتور فتحي الشقاقي الذي تزعم الحركة حتى اغتياله في مالطا في العام 1995 فخلفه في زعامة الحركة رمضان عبد الله شلح حتى صيف العام 2018. وقد رفضت الحركة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وبالتسوية مع الكيان الصهيوني وتمسكت بخيار تحرير كامل التراب الفلسطيني. وعلى الرغم من الفارق الكبير بين إمكاناتها المتواضعة والإمكانات المتاحة لحماس فلقد تصدّرت الجهاد الإسلامي ساحة النضال المسلح ضد إسرائيل وكان لها دور كبير في شنّ عمليات موجعة ضد الاحتلال الإسرائيلي. وخلافاً لحماس لم تقم الجهاد الإسلامي علاقات مع دول الخليج العربية معتبرة إياها قوى رجعية تتحالف مع الولايات المتحدة وتدعم عملية التسوية مع إسرائيل على حساب القضية الفلسطينية. وقد رفضت الجهاد الاعتراف بأوسلو وبأي من مفاعيله ولم تشارك في أي انتخابات أجرتها السلطة الفلسطينية باعتبار أنها سلطة منبثقة عن الاحتلال ومتعاونة معه.

وتنادي المبادئ العامة للحركة بـ:

- تلتزم حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، وأداة لتحليل وفهم طبيعة الصراع الذي تخوضه الأمة الإسلامية ضد أعدائها، ومرجعاً أساسياً في صياغة برنامج العمل الإسلامي للتعبئة والمواجهة.
- فلسطين - من النهر إلى البحر - أرض إسلامية عربية يُحرّم شرعاً التفریط في أي شبر منها، والكيان الصهيوني وجود باطل، يُحرّم شرعاً الاعتراف به على أي جزء منها.

⁶⁵⁹ راجع موقع حركة المقاومة الإسلامية حماس hamas.ps

- يمثل الكيان الصهيوني رأس الحربة للمشروع الاستعماري الغربي المعاصر في معركته الحضارية الشاملة ضد الأمة الإسلامية، واستمرار وجود هذا الكيان على أرض فلسطين وفي القلب من الوطن الإسلامي، يعني استمرار وهيمنة واقع التجزئة والتبعية والتخلف الذي فرضته قوى التحدي الغربي الحديث على الأمة الإسلامية.
- لفلسطين من الخصوصية المؤيَّدة بالبراهين القرآنية والتاريخية والواقعية ما يجعلها القضية المركزية للأمة الإسلامية التي إجماعها على تحرير فلسطين، ومواجهتها للكيان الصهيوني، تؤكد وحدتها وانطلاقها نحو النهضة.
- الجماهير الإسلامية والعربية هي العمق الحقيقي لشعبنا في جهاده ضد الكيان الصهيوني، ومعركة تحرير فلسطين وتطهير كامل ترابها ومقدساتها هي معركة الأمة الإسلامية بأسرها، ويجب أن تسهم فيها بكامل إمكاناتها وطاقاتها المادية والمعنوية، والشعب الفلسطيني والمجاهدون على طريق فلسطين هم طليعة الأمة في معركة التحرير، وعليهم يقع العبء الأكبر في الإبقاء على الصراع مستمراً حتى تنهض الأمة كلها للقيام بدورها التاريخي في خوض المعركة الشاملة والفاصلة على أرض فلسطين.
- وحدة القوى الإسلامية والوطنية على الساحة الفلسطينية، واللقاء في ساحة المعركة، شرط أساسي لاستمرار وصلابة مشروع الأمة الجهادي ضد العدو الصهيوني.
- كافة مشاريع التسوية التي تقرر الاعتراف بالوجود الصهيوني في فلسطين أو التنازل عن أي حق من حقوق الأمة فيها، باطلة ومرفوضة.

وتسعى حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تحرير كامل فلسطين، وتصفية الكيان الصهيوني، وإقامة حكم الإسلام على أرض فلسطين، والذي يكفل تحقيق العدل والحرية والمساواة والشورى.
- تعبئة الجماهير الفلسطينية وإعدادها إعداداً جهادياً، عسكرياً وسياسياً، بكل الوسائل التربوية والتثقيفية والتنظيمية الممكنة، لتأهيلها للقيام بواجبها الجهادي تجاه فلسطين.
- استنهاض وحشد جماهير الأمة الإسلامية في كل مكان، وحثها على القيام بدورها التاريخي لخوض المعركة الفاصلة مع الكيان الصهيوني.
- العمل على توحيد الجهود الإسلامية الملتزمة باتجاه فلسطين، وتوطيد العلاقة مع الحركات الإسلامية والتحررية الصديقة في كافة أنحاء العالم .

- الدعوة إلى الإسلام بعقيدته وشريعته وآدابه، وإبلاغ تعاليمه نقية شاملة لقطاعات الشعب المختلفة، وإحياء رسالته الحضارية للأمة والإنسانية.⁶⁶⁰

دستور السلطة الفلسطينية

في العام 2003، وبنتيجة الضغوط الأميركية عليه، ارتضى رئيس السلطة الفلسطينية إصدار دستور للسلطة الوطنية الفلسطينية. وكان هدف الأميركيين والإسرائيليين من هذه الخطوة كسر احتكار عرفات للسلطة وتمكين أبو مازن من انتزاع جزء من صلاحيات الرئاسة بصفته رئيساً للوزراء. وقد شكل هذا الدستور الخطوة الأولى نحو التخلص من عرفات وهو ما حصل عند وفاته أواخر ذلك العام. ومن مواد هذا الدستور:

مادة 1: فلسطين جزء من الوطن العربي الكبير، والشعب العربي الفلسطيني جزء من الأمة العربية والوحدة العربية هدف يعمل الشعب الفلسطيني من أجل تحقيقه.

مادة 2: الشعب مصدر السلطات ويمارسها عن طريق السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية على أساس مبدأ الفصل بين السلطات على الوجه المبين في هذا القانون الأساسي.

مادة 3: القدس عاصمة فلسطين.

مادة 4: الإسلام هو الدين الرسمي في فلسطين ولسائر الديانات السماوية احترامها وقديستها. مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع. اللغة العربية هي اللغة الرسمية.

مادة 5: نظام الحكم في فلسطين نظام ديمقراطي نيابي يعتمد على التعددية السياسية والحزبية وينتخب فيه رئيس السلطة الوطنية انتخاباً مباشراً من قبل الشعب وتكون الحكومة مسؤولة أمام الرئيس والمجلس التشريعي الفلسطيني.

⁶⁶⁰ راجع موقع الجهاد الإسلامي

<https://jehad.ps/>

مادة 6: مبدأ سيادة القانون أساس الحكم في فلسطين، وتخضع للقانون جميع السلطات والأجهزة والهيئات والمؤسسات والأشخاص.

مادة 7: الجنسية الفلسطينية تنظم بقانون.

مادة 8: يكون علم فلسطين بالألوان الأربعة والأبعاد والمقاييس المعتمدة من منظمة التحرير الفلسطينية هو العلم الرسمي للبلاد.

مادة 21: يقوم النظام الاقتصادي في فلسطين على أساس مبادئ الاقتصاد الحر. ويجوز للسلطة التنفيذية إنشاء شركات عامة تنظم بقانون. حرية النشاط الاقتصادي مكفولة، وينظم القانون قواعد الإشراف عليها وحدودها. الملكية الخاصة مصونة، ولا تنزع الملكية ولا يتم الاستيلاء على العقارات أو المنقولات إلا للمنفعة العامة وفقاً للقانون في مقابل تعويض عادل أو بموجب حكم قضائي. لا مصادرة إلا بحكم قضائي.

مادة 34: ينتخب رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية انتخاباً عاماً ومباشراً من الشعب الفلسطيني وفقاً لأحكام قانون الانتخابات الفلسطيني.

مادة 35: يؤدي الرئيس قبل مباشرة مهام منصبه اليمين التالية أمام المجلس التشريعي بحضور رئيس المجلس الوطني ورئيس المحكمة العليا (أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً للوطن ومقدساته، وللشعب وتراثه القومي، وأن أحترم النظام الدستوري والقانون، وأن أرفع مصالح الشعب الفلسطيني رعاية كاملة، والله على ما أقول شهيد).

مادة 36: مدة رئاسة السلطة الوطنية الفلسطينية هي أربع سنوات، ويحق للرئيس ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثانية على أن لا يشغل منصب الرئاسة أكثر من دورتين متتاليتين.

مادة 41: يصدر رئيس السلطة الوطنية القوانين بعد إقرارها من المجلس التشريعي الفلسطيني خلال ثلاثين يوماً من تاريخ إحالتها إليه، وله أن يعيدها إلى المجلس خلال ذات الأجل مشفوعة بملاحظاته وأسباب اعتراضه وإلا اعتبرت مصدرة وتنتشر فوراً في الجريدة الرسمية. إذا ردّ رئيس السلطة الوطنية مشروع القانون إلى المجلس التشريعي وفقاً للأجل والشروط الواردة في الفقرة

السابقة تُعاد مناقشته ثانية في المجلس التشريعي، فإذا أقرّه ثانية بأغلبية ثلثي أعضائه اعتبر قانوناً وينشر فوراً في الجريدة الرسمية.⁶⁶¹

⁶⁶¹ راجع موقع الجزيرة

<http://www.aljazeera.net/news/arabic/2007/7/18/%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D9%86%D9%88%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%A7%D8%B3%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A>

خاتمة

مع بداية العقد الثاني من الألفية الجديدة كان مقدراً للساحة العربية أن تشهد تحولات جذرية وتقلبات ستُعرف بالربيع العربي. وقد انطلقت أحداث هذا الربيع العربي لتعلن رسمياً وفاة النظام الرسمي العربي الذي ساد في المنطقة عقب انهيار الدولة العثمانية. وقد بدأت التظاهرات في تونس ضد حكم الرئيس السابق زين العابدين بن علي، وذلك في شهر كانون الأول من العام 2010، ثم ما لبثت أن انتقلت شرارة التظاهرات إلى كلٍ من مصر وليبيا واليمن ووصلت سوريا، معلنة مصطلحاً جديداً "الربيع العربي"، حيث ظنّ كثيرون أنه بداية الطريق إلى نشر الديمقراطية المبتغاة في الوطن العربي. هذه التظاهرات لم تهدأ إلا بعد إطاحة معمر القذافي في ليبيا، وحسني مبارك في مصر، وبن علي في تونس، بينما الصراع إلى الآن ما يزال مستمراً في سوريا.

لكن، "الربيع العربي"، لم يبقَ منحصرًا ضمن المنطقة العربية، بل تعدّاها إلى أوكرانيا شمالاً وجنوباً إلى القرن الأفريقي، وذلك نتيجة لمتغيرات وتطورات إقليمية ودولية، فمع الوقت تبين أن "الربيع العربي" ما هو إلا شكل آخر من أشكال الصراع بين القوى العظمى، سببه التغيرات التي طرأت على المنظومة الدولية والتحول في نظامها العالمي من نظام أحادي القطب تُسيطر عليه الولايات المتحدة الأميركية إلى نظام جديد متعدد الأقطاب.

الشرق الأوسط المعاصر

والجدير ذكره أن الخريطة الجيوسياسية الحالية للعالم العربي كانت قد نتجت عن خسارة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى وانهيار ما تبقى من إمبراطوريتهم، والتي كانت من نتائجها اتفاقية سايكس - بيكو، وبناء عليها تقاسم كلٌّ من الإنكليز والفرنسيين تركة الرجل المريض (تركيا)، فنتج عنها النظام الإقليمي الموجود في منطقتنا العربية الآن، حيث بسط الإنكليز نفوذهم بالكامل على الجزيرة العربية، واكتفوا بانتدابهم على كلٍ من فلسطين والأردن والعراق، في حين هيمن الفرنسيون على كلٍ من لبنان وسوريا وذلك وفق اتفاقية سايكس - بيكو.⁶⁶² كذلك وقع في النصف

Zeine Zeine, The Struggle for Arab Independence Beirut: Khayat, 1960. ⁶⁶²

الثاني من القرن التاسع عشر، السودان ومصر تحت الاحتلال البريطاني الاستعماري، في حين امتد الاستعمار الفرنسي ليطال كُلاً من تونس والجزائر والمغرب.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الأنظمة التي تشكلت في منطقتنا العربية لا تمثل المخطط البريطاني والفرنسي الاستعماري، وإنما جاءت نتيجة اصطدام مشروعهما الاستعماري مع المعارضة الوطنية في تلك البلدان التي رضخت تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي الاستعماري، فحالت دون تحقيق هذا الأمر، إذ كانت بريطانيا ترغب في تقسيم العراق ثلاث دويلات:

- في الجنوب، دولة شيعية.
- في الوسط، دولة سنية.
- في الشمال، دولة كردية.

في حين كان المخطط الفرنسي يقوم على تقسيم سوريا أربع دويلات:

- في جبل الدروز، تُقام دولة درزية.
- في حلب ودمشق، تُقام دولتان سنيّتان.
- وفي الساحل، تُقام دولة علوية.⁶⁶³

ومع بدء تحرّر البلدان العربية من الاستعمارين الإنكليزي والفرنسي، كانت "إسرائيل" تُقيم دولتها في فلسطين من خلال تهجير معظم شعبها وعُرف هذا العام بعام نكبة فلسطين 1948.

في هذا الوقت كانت مصر تقود حركات التحرّر ليس فقط في البلدان العربية وإنما في أفريقيا، فنتج عنه تحرّر غالبية أقطارها من نير الاستعمار. لكن، مشروع التحرّر العربي ما لبث أن اصطدم بالمشروع الأميركي الصاعد الطامح إلى بناء إمبراطوريته خارج حدوده، خاصة بعد اغتيال الرئيس الأميركي جون كينيدي وذلك في العام 1963، فانعكس سلباً على حركات التحرر التي تراجعت أمامه، وكان من نتائجها أن وقعت معظم الدول العربية تحت السيطرة

⁶⁶³ Michael Province, *The Great Syrian Revolt, and the Rise of Arab Nationalism* Austin: University of Texas Press, 2005, p. 17.

الأميركية، في حين نجت كُلٌّ من سوريا وليبيا واليمن الذين فضلوا الانحياز والاتجاه إلى المعسكر الاشتراكي وذلك في فترة الحرب الباردة.

وبعد هزيمة كُلٍّ من الاتحاد السوفياتي وكتلة الدول الاشتراكية وانهيارهما في الحرب الباردة العام 1991، نتج عنها أن تزعمت الولايات المتحدة الأمريكية العالم، دون وجود نِدٍ يوازيها في هذا المجال. لكن، واشنطن كانت متيقنة من أن هناك عدداً آخر من القوى كروسيا والصين واليابان والبرازيل والهند تسير في دربها لتأخذ دورها في تبوء مركز دولي، لذا، كان الهم الوحيد للقادة الأمريكيين في البيت الأبيض هو العمل على الحفاظ أن تكون بلادهم هي المتزعمة الأقوى والقائد الأول للعالم.

ونسَلِّطُ الضوء هنا على التفكير الجيوسياسي الأمريكي، الذي كان مؤمناً ومتأثراً بفكرة أن الولايات المتحدة هي وريثة بريطانيا من خلال قوتها البحرية وبسط سيادتها على البحار والمحيطات، وبرز هذا بشكل واضح في اعتقاد الأدميرال الأمريكي الشهير ألفريد ثاير ماهان.⁶⁶⁴

التفكير الأمريكي تأثر أيضاً بالعالم البريطاني الشهير هالفورد ماكيندر من خلال نظرياته الجيوسياسية، مثل اعتقاده أن مَنْ يُسيطر على أوراسيا يستطيع السيطرة على كُلِّ العالم، ونجد في مقالاته الشهيرة التي تحدث فيها عن المحور الجغرافي للتاريخ ما يوضح ذلك، فروسيا تقع في قلب أوراسيا، وقد كانت برأيه مهدياً لصعود وقيام إمبراطوريات كبرى برية عبر التاريخ، والتي كانت تقوم بفرض سيطرتها على كامل الأراضي الأوراسية، مما شكّل تهديداً في وجه القوى البحرية والتي كان آخرها بريطانيا وذلك تمهيداً لاحتلالها، لذا يرى ماكيندر أنه يجب أن لا تتوحد أوراسيا كي لا تشكل قوة موحدة، كما يجب العمل على عدم وصول أية قوة برية متمركزة في أوراسيا إلى طرق المواصلات البحرية، وهذا يأتي خدمة لحماية المصالح البريطانية.⁶⁶⁵

تفكير ماكيندر هذا، جاء من خلال تأثره بمفكرين جيوسياسيين أمريكيين، أبرزهم: نيكولاس سبيكمان، الذي عبّر عن خلال كتاباته في فترة الحرب العالمية الثانية عن هذه الفكرة والخطر

Alfred Thayer Mahan, The Influence of Sea Power Upon History: 1660 – 1783, Boston: Brown and Company, 1918, P iii. ⁶⁶⁴

Halford Mackinder: The Geographical Pivot of History, the geographical journal, vol 170, no 4, december 1904, p.p. 298 – 300. ⁶⁶⁵

الذي يحيط بالولايات المتحدة الأميركية ويهدد تفرد زعامتها للعالم وعزلها في القارة الأميركية الشمالية ومحاصرة بأعدائها من الغرب والشرق، إن هي تركت أوراسيا تتحد وتُشكل قوة عظمى في موازاتها، وحدد سبيكمان حسب رؤيته للتهديد أنه يمكن أن يأتي من مناطق الأطراف المجاورة لروسيا.⁶⁶⁶

في المقابل رأى المستشار السابق للأمن القومي الأميركي في عهد الرئيس جيمي كارتر، زبغنيو بريجنسكي، أن الولايات المتحدة كي تُحافظ على مكانتها في تزعم العالم، يتوجب عليها إبقاء أوروبا الغربية ضمن نطاق سيطرتها باعتبارها صلة الوصل وطريق عبور لواشنطن إلى الأراضي الأوراسية. كما أكد بريجنسكي منع أية قوى أوراسية من السيطرة على الشرق الأوسط ومناطق وسط آسيا، وإلى عدم خروج الولايات المتحدة منها، وأن تبقى المرجع الوحيد في القضايا الشائكة المتعلقة بها، وتعود لواشنطن فقط الكلمة الفصل في كل يتعلق بها من قضايا.⁶⁶⁷

صعود الصين

أدركت الصين ومنذ القدم أهمية بحر جنوب الصين، والذي يقع من الجنوب الشرقي منها. وفي الوقت نفسه كانت تنظر أيضاً ببالغ الأهمية تجاه وسط آسيا التي تُمثل نقطة التقاء للمواصلات التجارية البرية والذي سُمي اصطلاحاً "طريق الحرير". كما شكل المغول قوة بارزة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر والذي يُعتبر عاملاً مهماً في صعود الصين وهيمنتها الدولية. ومن أجل هذا السبب يخشى الغرب من توحد أوراسيا، فقد شكل المغول تهديداً مخيفاً لأوروبا الغربية من خلال فرض سيطرتهم عليها، لكن، توقفت حدود سيطرتهم في المجر. لكن، بعد أن أطاح مؤسس أسرة مينغ بالإمبراطورية المغولية، ظلت الصين في عزلة تامة حتى بدايات القرن التاسع عشر.

وفي منتصف القرن الثامن عشر أي في العام 1840، قامت بريطانيا بشنّ حرب على الصين من أجل بيع الأفيون الذي تنتجه المستعمرات البريطانية في الأسواق الصينية، مما أسفر عن رضوخ الصين

Nicholas Spykman, America's Strategy in World Politics-The United States and the Balance of Power, ⁶⁶⁶ New Brunswick, Transaction Publishers, 2008, p. 59.

Zbigniew Brzezinski, The Grand Chessboard, American Primacy and its Geostrategic Imperatives XIV. ⁶⁶⁷

تحت السيطرة الغربية وسُمِّي هذا القرن بـ"قرن الذل".⁶⁶⁸ الذي انتهى مع الانتصارات التي حققتها الثورة الصينية في العام 1949، التي قادها ماو تسي تونغ. وإعلان قيام جمهورية الصين الشعبية، عادت الصين لتأخذ مكانها على الخريطة الدولية، لكن، خروجها الحقيقي للعالم لم يكن إلا في العام 1976، أي بعد وفاة ماو. ووصول دينغ كسياو بينغ لتولي القيادة بعده في العام 1978 الذي عمل على توطيد علاقته مع الولايات المتحدة الأمريكية من خلال الانفتاح عليها.⁶⁶⁹

وعمل دينغ على تنفيذ الخطة الاقتصادية التي وضعها شوين لاي في العام 1975، والتي تعتمد مبدأ التصنيع بعدها يتم الانتقال إلى التنمية المتوازنة والمتساوية، والتي تشمل: قطاع التكنولوجيا، قطاع الصناعة، قطاع الزراعة وقطاع الدفاع.⁶⁷⁰

كما تمّ العمل على إقامة وبناء مناطق اقتصادية تعتمد مبدأ الاقتصاد الحر المنفتح على الاقتصاد الدولي، وفي الفترة الممتدة من ثمانينيات إلى تسعينيات القرن الماضي نما وتطور الاقتصاد الصيني فارتفعت في السنة معدلاته بين 8 و 10 %، وانعكس ذلك على مداخيل الأفراد التي زادت بنسبة 80 %، وارتفع الإنتاج الصناعي الذي أصبح يشكل 50 % من إجمالي الناتج المحلي.⁶⁷¹ كما حققت الصين في العام 1992، فائزاً كبيراً في ميزانها التجاري مع الولايات المتحدة الأمريكية، وعملت بالتالي على رفع احتياطها من العملات الأجنبية بما يقارب الـ 40 مليار دولار، الذي زاد في ما بعد إلى أضعاف هذا المبلغ.⁶⁷² وهذا ما مكّن الصين في العام 1991 من الخروج بسلامة من الأزمة التي أصابت كتلة الدول الاشتراكية والتي كانت سبباً في انهيارها.

بعد أن ارتاحت الصين لوضعها الاقتصادي وجهت أنظارها نحو انطلاقتها السياسية، فقد كان لديها قلق وخشية تاريخية من وسط آسيا، وذلك بسبب كون وسط آسيا سبباً لمعظم الغزوات التي زعزت استقرار الصين والخسائر التي مُنيت بها عبر التاريخ، لكنها كانت في الوقت نفسه نقطة انطلاق هامة للصين لترسي دعائم تجارتها في كامل البر الآسيوي والذي كان يُعرف بـ"طريق الحرير".

وبناء على ذلك عملت الصين بتأسيس "مجموعة الخمسة بالتعاون" مع طاجيكستان وقرغيزستان وكازاخستان وروسيا، والتي أصبح اسمها في العام 2001 "منظمة شنغهاي للتعاون" وذلك بعد أن

William T. Rowe, China's Last Empire: the Great Qing, Cambridge: Harvard University Press, 2009, ⁶⁶⁸ p.172.

Chi Kwan Mark, China and the world since 1945, London: Routledge, 2011, p. 96. ⁶⁶⁹

Alfred K. Ho, China's Reforms and Reformers, Westport: Praeger, 2004, p. 81. ⁶⁷⁰

Chi Kwan Mark, p. 97. ⁶⁷¹

Alfred K. Ho, p. 82. ⁶⁷²

انضمت لها أوزبكستان، وهدفها الأساسي يتمحور حول الحفاظ على الاستقرار والأمن في وسط آسيا، كما تعمل على التصدي لكل الحركات الانفصالية التي تنطلق منها.⁶⁷³

"منظمة شنغهاي" تأتي أهميتها في كون ربع سكان العالم يعيش فيها، بالإضافة إلى أنها تستحوذ على 60% من مساحة آسيا. وإذا وضعنا في الحسبان الدول التي تحمل صفة مراقب كإيران، وأفغانستان، والهند، وباكستان، فهذا يعني أن "منظمة شنغهاي" يسكنها حوالي نصف سكان العالم، وتستحوذ على 80% من مساحة أوراسيا. وقد قامت المنظمة بإنشاء هيئة مهمتها مكافحة الإرهاب.⁶⁷⁴

وفي العام 2006، أرسلت الولايات المتحدة طلباً للانضمام إلى المنظمة فقبولت بالرفض، بعدها حاولت أن تكون عضواً مراقباً فيها، لكن طلبها رُفض أيضاً. وهذا ما جعل المحللون يرجعون هذا الرفض إلى خشية كلٍّ من روسيا والصين من أن تكون محاولة أميركية لتتوغل وتبسط نفوذها على وسط آسيا.⁶⁷⁵

ذكرنا سابقاً أن الصين مهتمة جداً بجنوب بحر الصين، فمن ناحية يُشكل نقطة التقاء المحيطين الهندي والهادي، ومن ناحية أخرى يُعد المنفذ الوحيد للصين الذي يربطها بطرق مواصلات الملاحة البحرية.

لذلك تسعى الولايات المتحدة - حسب رأي محللين - إلى محاولة مدّ سيطرتها على تلك المنطقة، من خلال إقامة علاقات مع البلدان التي تحيط بالصين والمشاطئة لها، مثل: كوريا الجنوبية واليابان، وذلك بغية وضع عراقيل أمام الصين ومنعها من الوصول إلى طرق مواصلات الملاحة البحرية.⁶⁷⁶

وفي سبيل منع صعود الصين ووقف نمو قوّتها حتى لا تصبح من القوى العظمى في العالم، سعت الولايات المتحدة لافتعال أزمات للصين، فعمدت في شمال غرب الصين إلى تشجيع ودعم الحركات

Website of Shanghai Cooperation Organization at ⁶⁷³

<http://www.sectsco.org/EN123/brief.asp> accessed on 23 - 2 - 2015.

Website of Shanghai Cooperation Organization at ⁶⁷⁴

<http://www.sectsco.org/EN123/AntiTerrorism.asp> accessed on 23 - 2 - 2015.

Norling, Nicklas and Niklas Swanström. "The Shanghai Cooperation Organization, Trade, and the Roles of Iran, India and Pakistan." *Central Asian Survey* Volume 26. Issue 3 2007: p.p.429-444, p.p. 429-432. ⁶⁷⁵

Robert D. Kaplan, Asia' Cauldron: The South China Sea and the End of a Stable Pacific, New York: ⁶⁷⁶

Random House, 2014

الانفصالية في جينجيانغ التي تقطنها غالبية مسلمة، وفي التبت أيضاً. واشتعل فتيل العنف بين الأيغور المسلمين والبوذيين الهان وحدث بينهما مواجهات عنيفة في تموز 2009. وأرجعت الحكومة الصينية سبب هذه المواجهات إلى دعم وتشجيع كُلٍّ من الأفغانين والباكستانيين للجماعات المتطرفة السلفية، ورداً عليها قام الحزب الشيوعي الصيني بإصدار بيانٍ أكد فيه أهمية استقرار الأمن في جينجيانغ، وأن المواجهات العنيفة التي حدثت، قامت بإذكائها جماعات متطرفة إرهابية.⁶⁷⁷ وعلى إثر هذا البيان قامت ضد الصين مجموعة من الحملات المستغربة التي انتقدتها وقد وجهت إليها من الناطق باسم الخارجية الأميركية إيان كيلى والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل ورئيس الوزراء الأسترالي كلفين رود والأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون.⁶⁷⁸

المسؤولون الصينيون يرون أن واشنطن تعمل على افتعال مشاكل بينها وبين الدول المجاورة أو المشاطئة لها في جنوب بحر الصين. هذا الأمر جاء عبر الناطق باسم الخارجية الصينية هونغ لي في شباط 2014، الذي نفى جميع الاتهامات الأميركية للصين، من خلال توجيه أصابع الاتهام إلى الولايات المتحدة برفع حدة التوترات وافتعال الأزمات بهدف مدّ نفوذها على منطقة جنوب بحر الصين.⁶⁷⁹

ردّ الصين على الولايات المتحدة لم يتوقف عند هذا الحد، وحسب، ففي آب الماضي أصدر مكتب وزير الخارجية الصيني وانغ يي، خلال "قمة آسيان"، بياناً طالب فيه واشنطن بعدم التدخل في منطقة جنوب بحر الصين وشؤونها. واستغرب البيان من قيام دول "غريبة عن المنطقة أن تثير المشكلات فيها". وتساءل، لماذا تُصر الولايات المتحدة على إشعال الفتن والاضطرابات والفوضى فيها، وهو الشيء نفسه الذي قامت به في كلٍّ من ليبيا والعراق وسوريا.⁶⁸⁰ وبالرغم من ذلك لم تتوقف واشنطن عن التدخل حيث قام قائد مدمرة أميركية في نيسان 2015، باتهام الصين بإنشاء حواجز ضمن المناطق التي تُعتبر نقطة نزاع في بحر الصين، من أجل ضمّها إليها.⁶⁸¹

⁶⁷⁷ "Xinjiang protesters to be punished 'with utmost severity'", TIBETAN review AUGUST 2009, p. 28.

⁶⁷⁸ UN Chief urges respect for right to protest, others follow suit, TIBETAN REVIEW AUGUST 2009, p. 26.

⁶⁷⁹ China accuses US of adding to regional tensions, The Guardian, February 9 - 2014, at <http://www.theguardian.com/world/2014/feb/09/china-accuses-us-south-china-sea> accessed on April 7, 2015.

⁶⁸⁰ US accused of inciting South China Sea tensions, RT, August 11, 2014, at <http://rt.com/usa/179512-asean-kerry-wang-tensions/> accessed on April 7, 2015.

⁶⁸¹ Saibal Dasgupta, US commander accuses China of creating artificial landmass in South China Sea, The Times of India, April 3, 2015. At <http://timesofindia.indiatimes.com/world/china/US-commander-accuses-China-of-creating-artificial-landmass-in-South-China-Sea/articleshow/46790380.cms> accessed on April 7, 2015.

صعود روسيا

عملت الصين على الإسراع إلى تمكين علاقتها بروسيا من خلال إقامة تحالف معها، وعلى وجه الخصوص فإن لدى موسكو شعوراً دائماً باستهداف واشنطن لها، والغرب عامة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الروس ومنذ تحرّره في العام 1380 في معركة كوليكوفو، سكنهم هاجسان:

- الهاجس الأول، يتعلق بالأمن وضمان الحفاظ عليه في وسط آسيا، التي تُعدّ نقطة انطلاق للغزوات المغولية باتجاه روسيا.

- الهاجس الثاني، العمل على ضمان مقعدهم بين الدول الأوروبية.

وبرغم تراجع الروس من ساحة المواجهة مع واشنطن وانتهاء "الحرب الباردة"، إلا أنه لم يوقف الولايات المتحدة عند هذا الحدّ، لذا عملت مع الغرب بوضع سياسات اعتبرتها موسكو تهديد أمنها القومي، كالإبقاء على "حلف الناتو" الذي توسّعت عضويته لتضم بلداناً قريبة من روسيا في أوروبا الشرقية. وعملاً أيضاً على التوسّع في وسط آسيا ومنطقة القوقاز، الأمر الذي دفع موسكو للتقارب مع كل من إيران والصين اللتين أخذتا نصيبهما من سياسات واشنطن وحلفائها.

في هذا الوقت تسلّم فلاديمير بوتين منصب رئيس الوزراء في روسيا في العام 1999، وبعد استقالة الرئيس بوريس يلتسين بسبب مرضه، تولى بوتين رئاسة روسيا في بداية العام 2000.⁶⁸² الذي عمل على التقرب من الصين وأنشأ معها "منظمة شنغهاي للتعاون". وعندما قام الأميركيون باجتياح العراق في العام 2003 عارضهم بوتين. وفي عامي 2003 و2005 دعمت واشنطن الانقلابات التي حصلت في جورجيا وأوكرانيا وقرغيزستان، وطالب الرئيس الأوكراني يوتشينكو الذي كان موالياً للغرب بالانضمام إلى "حلف الناتو"، الأمر الذي أزعج الروس واعتبروه يمس أمنهم القومي. وجاء الرد الروسي في العام 2008، من خلال ضربة عسكرية روسية ضد جورجيا، وإبعادها عن التنافس الحاصل بين واشنطن وموسكو في القوقاز. وفي أوكرانيا العام 2010، دعمت روسيا حليفها ميخائيل يانوكوفيتش مما أدّى إلى وضع العراقيل والعوائق أمام أوكرانيا في انضمامها لـ "حلف الناتو" و"الاتحاد الأوروبي". لكن، في العام 2014، دعمت واشنطن بالتعاون مع الأوروبيين الانقلاب ضد

Charles J. Shields, Vladimir Putin, New York: Chelsea House Publishers, 2007, p.p. 50 – 59. ⁶⁸²

يانوكوفيتش الأمر الذي ساهم دخول أوكرانيا في أزمة، خاصة بعد أن عمل أركان النظام الجديد على المطالبة في الإسراع لانضمام أوكرانيا إلى "الاتحاد الأوروبي" و"الناتو". في المقابل دعمت موسكو المعارضة التي قامت في شرق البلاد، بالإضافة إلى دعمها جمهورية القرم التي طالبت بالاستقلال، وفي ما بعد طالب قاطنوها بانضمامهم إلى روسيا.

وعملت روسيا والصين في محاولة منهما لكسر عزلتهما وإحباط مخططات واشنطن لحصرهما في البر الأوراسي على الانضمام إلى "دول منظمة البريكس" مع جنوب أفريقيا والبرازيل والهند، التي تعمل على الوقوف في وجه النفوذ الأمريكي وسيطرته على العالم.

وتأتي أهمية البرازيل والهند وجنوب أفريقيا في كونها واقعة على الطريق الذي سار فيه ماجلان وذلك قبل خمسة قرون، مما يساعدنا في توضيح مواقف روسيا والصين اللتين تواجهان السيطرة الغربية وهيمنتها في منطقة أوراسيا، وفي الوقت نفسه تقومان بسلك طريق ماجلان نفسه بالالتفاف وتطوير أماكن نفوذ واشنطن والقواعد العسكرية، والوصول إلى طرق مواصلات الملاحة البحرية في الوقت ذاته.

صعود إيران

سنتحدث هنا عن قوة أخرى آسيوية، برز نجمها في العقدين الأخيرين وهي إيران. فقد كانت الإمبراطوريات التي تتحكم وتبسط نفوذها على الهضبة الفارسية تسعى للعب دور نقطة الالتقاء والوصل بين شرق المتوسط وشرق آسيا، مما ينعكس على ازدهارها، في حين كان دورها يضعف ويتراجع تحت وطأة أزماتها الداخلية.

وكانت إيران تُعد نقطة التقاء أو صلة وصل بين شرق المتوسط والصين المغولية، ولعبت دوراً كبيراً في ذلك خاصة بعد تحالفها مع مملكة أرمينيا الصغرى الواقعة في منطقة كليكيّا في شمال سوريا. في المقابل كان هناك تحالف اقتصادي معارض لهما قائم بين مغول الجحافل الذهبية في منطقة جنوب روسيا، ومغول الشغتاي في منطقة وسط آسيا، وبين المماليك في مصر.⁶⁸³ التي كانت تربط طرق التجارة البحرية الواصلة بين شرق المتوسط والبحر الأسود من جهة، وبين جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي والبحر الأحمر من جهة أخرى. وكانت بلاد الشام تُشكل نقطة تقاطع لطرق

⁶⁸³ Spuler, The Mongol Period. New York: markus Weiner Pub, 1994, p. 23.

التجارة البرية والبحرية التي تهيمن عليها وتتحكم بها كُلٌّ من إيران والصين. وربما لهذا السبب يعود الصراع الذي استمر طويلاً، قرابة القرن، بين المماليك في مصر والتتار في إيران على بلاد الشام.⁶⁸⁴

وقد حاولت إيران في زمن الشاه محمد بهلوي، العودة إلى أن يكون لها دور إقليمي، وذلك عبر كونها عضواً في "حلف بغداد"، لكن هذا الدور بقي تحت المظلة الغربية. وفي العام 1979، حدثت الثورة الإسلامية في إيران التي مكنتها من استبعاد مكانتها على الخريطة الإقليمية حيث كانت نقطة وصل أو جسر عبور بين مناطق شرق المتوسط ومناطق شرق آسيا، متزامناً مع تسلم دينغ كسياو بينغ سدة الحكم في الصين الذي عمل على إخراجها من عزلتها. لكن هذا الأمر لم يُعجب الولايات المتحدة التي حاولت زرع الاضطرابات والفتن والفوضى في إيران من خلال دفعها للرئيس العراقي صدام حسين لمحاربتها في حرب استمرت ثماني سنوات وأدت إلى إنهاك كُلٍّ من إيران والعراق. وفرضت واشنطن عليها الحصار، لكن طهران استطاعت برغم ذلك من أن تقيم تحالفات مع سوريا. كما عملت على إقامة علاقات مع روسيا والصين للوقوف في وجه الأطماع الأميركية وسيطرتها على العالم، وذلك بعد تفكك الاتحاد السوفياتي.

الولايات المتحدة والألفية الجديدة

مع بداية القرن الحادي والعشرين وجد الأميركيون أنفسهم أمام تحديات مصيرية من حيث حسم أمر زعامتهم وهيمنتهم على العالم من دون وجود نِدٍ لهم. لذا كان موضوع الإرهاب حاجة ماسة لواشنطن تستخدمها كورقة رابحة من أجل تمكين سيطرتها على الشرق الأوسط. وكما فعلت ألمانيا حين شنت حربها على بولندا متخذة من خدعة قام بها جنود المان في أيلول 1939، ارتدوا لباس جنود بولنديين، سبباً لحربهم ضدها، كذلك اتخذت واشنطن من مخطط الهجمات التي تمت على برج التجارة في مدينة نيويورك في الحادي عشر من أيلول 2001، ذريعة لإعلان حربها على الإرهاب ومهاجمة أفغانستان والعراق. الذي أعطى للولايات المتحدة دافعاً لتثبيت سيطرتها في الشرق الأوسط بشكل أعمق وكذلك لتتحكم بالنفط، ثم عملت بعدها على تنفيذ خطواتها التالية والتي تتمثل في العمل على إسقاط نظامي دمشق وطهران، أو على الأقل العمل على ترويضهما وإخضاعهما للإرادة الأميركية وسياساتها في المنطقة، حتى تكون سيطرتها كاملة على الشرق الأوسط.

Ibid, p.p. 26-27. ⁶⁸⁴

فالمخطط الأميركي يهدف إلى بسط نفوذه على كامل الشرق الأوسط وحتى الصين، محققاً بذلك أهدافاً عدة، منها:

- أن الأميركيين من خلال بسط نفوذهم على هذه المنطقة الحيوية سيتمكنون من عزل أوروبا عن القارة الأفريقية.
- العمل على منع إقامة أي تقارب بين روسيا وأوروبا.
- وضع العراقيل أمام موسكو حتى لا تقيم أي صلات علاقة مع دول الخليج العربي.

ولم يكن انسحاب إسرائيل من الجنوب اللبناني عام 2000 إلا تحضيراً لإصدار القرار 1559، وإبعاد المقاومة اللبنانية "حزب الله" عن حدودها، هذا القرار الذي صدر بعد 4 سنوات داعياً سوريا أن تسحب قواتها من لبنان.

أما فرنسا فقد تحوّلت بعد 2004، من خط مواجهة واشنطن إلى دولة تمشي في الركب الأميركي وداعمة لقراراتها، وذلك بعد رهانها الخاسر على صمود العراق بوجه الغزو الأميركي مما سيضطر واشنطن على طلب مساعدة باريس للخروج من المأزق العراقي، ولكن هذا لم يحصل وسقط العراق⁶⁸⁵، بعد أن استطاع الأميركيون أن يحسموا المعركة لصالحهم، وسارع الرئيس الأميركي جورج بوش الابن على مقاطعة الرئيس الفرنسي جاك شيراك والعمل على عزله دولياً.⁶⁸⁶ ومع مرور الوقت زادت حدة المقاومة العراقية وعملياتها ضد الجيش الأميركي، مما دفع بالرئيس الأميركي بوش إلى طلب العون من شيراك ودعمه من أجل إعطاء التحالف الدولي غطاءً شرعياً للاحتلال الأميركي للعراق. بعدما أصبحت هناك قناعة أميركية بأن باستطاعة باريس أن تُفيد واشنطن في تنفيذ مشروعاتها في الشرق الأوسط، في المقابل تطلق واشنطن يد فرنسا في لبنان وسوريا.⁶⁸⁷

وعند بلوغ بشار الأسد في سوريا سدة الحكم في العام 2000، كان شيراك من الداعمين له، بغية جعله ينسحب من لبنان ويرفع وصايته عنه، كما حاول شيراك إقناع الحكومة السورية بالتخلي عن علاقتها بطهران.⁶⁸⁸ وجاء الرد السوري عليه بالتمديد 3 أعوام للرئيس إميل لحود، وإجهاد كل محاولات الحريري في تشكيل حكومة، وتقدير كل الدعم الكافي للرئيس عمر كرامي ليقوم

⁶⁸⁵ Vincent Nouzille, Dans le Secret Des Presidents, Paris: Fayard, 2010, p.p. 395-408.

⁶⁸⁶ Vincent Nouzille, p.p. 409-419.

⁶⁸⁷ Vincent Nouzille, p.p. 444-449.

⁶⁸⁸ Vincent Nouzille, p.p. 450-451.

بتأليف الحكومة اللبنانية، لكن وتيرة الأحداث تغيّرت وانقلبت رأساً على عقب، بعدما تمّ في 14 شباط 2005، اغتيال الرئيس الحريري، واتهام سوريا بذلك، وبعدها أكملت واشنطن مخططاتها في المنطقة بحرب "إسرائيل" على لبنان في تموز 2006، والذي تصدّت له المقاومة اللبنانية المتمثلة بـ"حزب الله" ورد العدوان الإسرائيلي وانتصر عليه.

في الواقع نجد أن النصر الأميركي في العراق وأفغانستان لم يكن كاملاً وحاسماً، فما قامت به واشنطن خلال "الحرب الباردة" وحروبها غير المتكافئة أمام السوفيات، قد تعلّمت منه القوى الأخرى المعارضة لسياسات البيت الأبيض، وارتكزت عليه لوضع العوائق في وجه المخطط الأميركي، لذلك قامت كل من طهران ودمشق بتقديم كافة الدعم للمقاومة العراقية ليجعلا الولايات المتحدة تدفع ثمناً باهظاً بعدوانها على العراق. كما قامت موسكو بدعم الانقلابات التي قامت في جورجيا، ضد الرئيس ميخائيل ساكاشفيلي، كذلك أطاحت في أوكرانيا بـ فيكتور يوشينكو. وقد تزامنت هذه الأحداث مع الأزمة الاقتصادية التي ضربت الولايات المتحدة، والتي ساهمت في مجيء باراك أوباما إلى السلطة، الذي ساهم في فهم الأميركيين لقدراتهم المحدودة، وفي محاولة تخفيف أعباء حربهم على العراق عملوا على الوصول إلى صيغة اتفاق سياسي بالتوافق مع حكومة عراقية تكون موالية لواشنطن، حتى يستطيعوا من إحكام قبضتهم على أفغانستان.

ويمكن من خلال التقرير الذي صدر عن مجلس الأمن القومي الأميركي أن يعطينا التوجهات الأميركية في المنطقة، حيث تم إبعاد الإسلام عن استهدافاته، مع الإبقاء على "تنظيم القاعدة" كعدو يجب العمل على محاربته واستئصاله.

عملت إيران الشيعية من القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن التاسع عشر على احتواء الدولة العثمانية السنية، فلماذا لا تقوم تركيا باحتواء الثورة الإسلامية في إيران؟

في الواقع هناك دور مهم لتركيا الإسلامية في نظر واشنطن لتلعبه في المنطقة، فهذا سيجعلها في مقابلة "إسلام" إيران، وستنحاز الفئة الغالبة من السنة إلى تركيا، هذا الأمر لم تستطع السعودية أن تحققه. كما سينجذب إليها إسلاميو مصر والسودان، ونكون هنا قد وصلنا إلى الهدف الأكبر، وهو أن السودان أقام مؤخراً تحالفات اقتصادية مع الصين التي وجدت فيه نقطة انطلاق لها في أفريقيا، ومن خلال الدعم المبطن الذي قدمته الصين للبشير استطاع أن يتصدى لكافة الضغوط الغربية. والسؤال هنا، أن الولايات المتحدة الأميركية لم تستطع برغم الضغوط الغربية التي مارستها لإسقاط البشير، فلماذا لا تعمل واشنطن على الاستفادة من إسلاميي السودان بقيادة حسن الترابي من أجل وضع العراقيل ووقف التمدد الصيني في أفريقيا؟

في العام 2002، وصل حزب العدالة والتنمية سدة الحكم في تركيا، معلناً بذلك حصول تغيير في السياسة التي ستنتهجها مستقبلاً، وفي الفترة التي تلت "الحرب الباردة"، كان أبرز الذين رسموا ملامح سياستها الجديدة، أحمد داود أوغلو وزير الخارجية التركي، الذي فيما بعد تسلّم رئاسة الوزراء. إذ برأيه يجب على تركيا الخروج من عزلتها التي عاشتها في فترة إقامة الجمهورية، والانطلاق إلى ممارسة دورها الإقليمي عبر سياستها الخارجية لتكون أكثر فعالية وديناميكية،⁶⁸⁹ كما يتوجب على تركيا الحفاظ على وجودها في تراقيا من خلال الدفاع عن مدينة إسطنبول. وهذا الأمر لا يقتصر على حدودها مع كل من بلغاريا واليونان وإنما يتخطاها إلى البحر الأدرياتيكي، لذا يتوجب على أنقرة العمل على توطيد علاقتها مع كل من البوسنة وكوسوفو، وألبانيا، التي تُعدّ بنظره نقطة انطلاق للنفوذ التركي لبسط سيطرته على البلقان.⁶⁹⁰ وهو يرى أيضاً أن شرق الأناضول ودفاع تركيا عنه لا يحتم عليهم الاكتفاء بالوقوف على مشارف حدودهم مع دولة أرمينيا ودولة إيران، بل يجب أن يبدأ هذا الأمر انطلاقاً من بحر قزوين غرباً، لذا ولكي يكون هناك تأثير لتركيا واليد العليا في منطقة القوقاز يجب أن تتخذ من أذربيجان نقطة انطلاق لتحقيق ذلك.⁶⁹¹ بالإضافة إلى أنه يعتقد أن الحفاظ على استقرار شرق الأناضول، لا يكون فحسب مقتصراً على حدود تركيا مع كل من العراق وسوريا، وإنما يمتدّ ليشمل العراق شمالاً كركوك والموصل إلى الشمال السوري. أما الشرق الأوسط فهو يُعدّ في نظره "الحديقة الخلفية" لأنقرة والتي يحثها إلى ضرورة أن تكون اللاعب الأساسي فيه،⁶⁹² وتقييمه للوضع هذا في رأيه ينسجم ويتلاءم مع المصالح الجيوستراتيجية التي تبتغيها واشنطن وتسعى إليها في المنطقة، لذلك يجد في سوريا بوابة العبور والمدخل الرئيس لعودة تركيا إلى الشرق الأوسط من جديد.

قامت "إسرائيل" في شتاء العام 2008 - 2009، بحملات عسكرية عدة ضد قطاع غزة، استهدفت فيها حركة حماس للقضاء عليها، وذلك بسبب دعم إيران لها، وخوفها مما تشكله حركة حماس من مقاومة ضدها، مما يُجهض كل المحاولات الإسرائيلية التي تقوم بها من أجل فرض سلام مشروط على الفلسطينيين، وسط دعم أميركي لهذا العدوان، الذين كانوا يرون أن دعم إيران لحماس هو محاولة لاختراق هذه الجبهة التي تعمل واشنطن على منع وإيقاف التمدّد الصيني والروسي

⁶⁸⁹ أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي، موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة محمد ثلجي وطارق عبد الجليل، الدوحة: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010، ص.ص. 75-81.

⁶⁹⁰ أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي، ص.ص. 146-150.

⁶⁹¹ أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي، ص.ص. 150-155.

⁶⁹² أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي، ص.ص. 155-158.

إليها من خلال إيران إلى منطقة البحر المتوسط ووصولهما إلى المياه الدافئة. وذلك بعدما استطاعت إيران على المستوى الاستراتيجي من أن تصل إلى البحر الأحمر والبحر المتوسط، من خلال إقامتها تحالفات مع حزب الله وسوريا. يُضاف إليها دعمها لحماس مما يجعلها تُمكن وجودها على البحر المتوسط، كذلك في اليمن، حيث شكّل وقوفها ودعمها للحوثيين في تمردهم ضد الرئيس علي عبدالله صالح وعجز السلطات اليمنية والسعودية عن القضاء عليهم، أقلق الأميركيين على وجودهم في البحرين الأحمر والمتوسط. إذ ترى واشنطن أنه يمكن أن يتحول إلى نقطة انطلاق لطهران والصين لتمكين علاقتهما بالسودان وتقويتها بحيث سيكون نقطة عبور إلى داخل أفريقيا.

القلق الأمريكي لم يقتصر على الأميركيين، وإنما تعداه إلى مصر مبارك، الذي شاركهم هذا القلق خلال فترة حكمه الممتدة من العام 1981 إلى العام 2011. إذ تراجع في تلك الفترة الدور المصري في المشرق العربي، كما أن الحرب الأهلية التي ضربت الصومال كانت عاملاً أساسياً في تهديد أمن واستقرار القرن الأفريقي الذي تعتبره مصر امتداداً لأمنها القومي. يضاف إليه الاقتتال الذي حدث على ضفاف بحيرة فكتوريا بين رواندا وبروندي، وهُدّد بالتالي منابع النيل، والذي انتهى بخسارة الهوتو الذين كانوا حلفاء الفرنسيين والمصريين، وانتصار التوتسي، الذين كانت تدعمهم "إسرائيل" والولايات المتحدة. وبتشجيع من تل أبيب عمدت أريتريا إلى وضع يدها على جزيرة "حنيش الكبرى" التابعة لليمن واحتلالها، مما زاد في ارتفاع منسوب التهديد لأمن البحر الأحمر. يُزاد عليه الحصار الذي فُرض على دولة ليبيا في فترة التسعينيات والذي عُد أيضاً إضراراً بالأمن القومي الواقع غرباً في شمال القارة الأفريقية.

والأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد حدث في يناير 2011، إجراء الاستفتاء على المطالبة باستقلال "جنوب السودان" وانفصاله عن السودان، وقد صوّتت الغالبية الساحقة داعمة هذا الانفصال، الذي جاء نتيجة للضغط الأميركية بهدف تحجيم الدور المصري والعمل على الفصل بين الدول الواقعة في شمال أفريقيا والدول الواقعة في جنوب الصحراء الكبرى، ثم جرى بعدها العمل على فصل إقليم دارفور الذي يحتوي كميات كبيرة من النفط، عن السودان، على أن تكون الخطوة التالية هي منطقة شرق السودان التي تعد امتداداً لمصر من ناحية المنطقة الجنوبية الشرقية. هذه الأحداث تزامنت أيضاً مع مطالبة الدول المطلة على نهر النيل بأن تكون حصتها من مياهه أكبر من المعتاد، وذلك دون أن تعود بهذا الأمر إلى السودان ومصر، التي يعاني فيها المصريون من تدنى مستوى المعيشة المتأتي من السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التي كان يعتمد عليها الفريق القريب جداً من جمال مبارك، ابن الرئيس المصري.

شكل تراكم جميع هذه العوامل سبباً رئيسياً لانفجار أحداث 25 كانون الثاني العام 2011. كما كان سقوط نظام زين العابدين في تونس في تاريخ 14 كانون الثاني، دافعاً للشباب المصري على الاستمرار في تنظيم تحركاتهم في الشارع وإصرارهم في المطالبة على تنحي الرئيس حسني مبارك عن السلطة. ما حدث في مصر من ثورة ضد مبارك، أربك البيت الأبيض وجعله يشعر بالقلق لأسابيع عدة. وهذا ما دفعه للتحرك بسرعة للإمساك بزمام الأمور واحتواء الاحتجاجات الشعبية المصرية، حتى لا تخرج مصر من سيطرته عليها. وقام المجلس العسكري المصري من خلال إجبار نائب الرئيس عمر سليمان بالإعلان في بيان تنحي الرئيس حسني مبارك عن حكم مصر وذلك في الحادي عشر من شهر شباط. هذا الإعلان كان مفاجئاً لمبارك نفسه، ثم قام المجلس العسكري بتسليم مقاليد الحكم وعمل على التنسيق والمشاورة مع جماعة "الأخوان المسلمين" بالإضافة إلى الجماعات السلفية من أجل السيطرة على الشارع المصري، وقد عملت الرياض على تقديم الدعم لحركة "الأخوان المسلمين"، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحركات السلفية من خلال إعطائهما مبالغ مالية طائلة.

أمام هذه التطورات على الساحة المصرية، كان لا بد لواشنطن أن تسارع وتتحرك على الصعيد الإقليمي، وذلك كي لا تنتقل "العدوى المصرية" والاحتجاجات إلى بلدان أخرى موالية لسياسات الولايات المتحدة. فقد بدأت الاحتجاجات في شوارع كل من البحرين والأردن والسعودية وسلطنة عمان، وهذا يُشكل تهديداً للوجود الأميركي ونفوذه في الشرق الأوسط، فعمدت واشنطن على مداواة النار بالنار من خلال تشجيع ودعم التحركات المعارضة الأخرى في البلدان التي تقع ضمن حدود الأمن القومي المصري مثل سوريا واليمن وليبيا. حيث بدأت الاحتجاجات والمظاهرات في اليمن مطالبة بإسقاط نظام الرئيس علي عبدالله صالح، وذلك في اليوم ذاته الذي تمت فيه إطاحة حكم مبارك في مصر، وبعدها بثلاثة أيام في ليبيا، اندلعت الاحتجاجات، التي كانت سبباً لدخول "حلف شمال الأطلسي" في مجرى الأحداث الليبية. وامتدت هذه الأحداث بأيام قليلة لتتوالى سوريا وسط احتجاجات بدأت في مدينة درعا. غير أنه كان الالفت للنظر الدور الإعلامي الذي قامت به "قناة الجزيرة" القطرية، من خلال "دعم هذه الثورات"، والجدير بالذكر هنا أن هذه القناة تسيطر عليها "جماعة الإخوان المسلمين"، حيث إنه بعد العام 2003، كان أشهر وجوهها ومدرائها منتمين لتلك الجماعة.

الصراع في سوريا

أدت مجريات الأحداث على الساحة المصرية إلى دفع البيت الأبيض لإعادة ترتيب الأوراق في الشرق الأوسط، بحيث يخرج منها بأقل ضرر على صعيد مصالحه الاستراتيجية، أحداث سوريا بدأت في مدينة درعا من خلال احتجاجات ضد النظام في أوائل شباط من العام 2011، وحدثت إثرها اصطفايات دولية وإقليمية، حيث دعمت عدد منها الرئيس السوري بشار الأسد، ومنها إيران التي أيدته بشكل كامل، وأعلنت وزارة الخارجية الإيرانية أنها ترفض دخول أطراف خارجية في الساحة السورية،⁶⁹³ وأن ما يجري فيها، هو تنفيذ للمشروع الغربي من أجل إثارة الفوضى وزعزعة الأمن والاستقرار في سوريا التي تؤيد وتدعم المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.⁶⁹⁴ كما رفضت طهران كل الاتهامات التي وجهها الغرب إليها، باتهامها بمساعدة الأجهزة الأمنية السورية باستعمال العنف في قمع الاحتجاجات.⁶⁹⁵ كذلك الأمر بالنسبة إلى "حزب الله" الذي أعلن منذ البداية من خلال الأمين العام السيد حسن نصرالله، دعمه وتأييده للرئيس الأسد،⁶⁹⁶ الذي كان داعماً دائماً لحق المقاومة في دفاعها ضد الاحتلال الإسرائيلي، وخسارة هذا الدعم ستجعل المقاومة محاصرة أيضاً من ناحية البر، بعد أن فرضت القوى الغربية وبشكل سافر حصاراً بحرياً على كامل الشواطئ اللبنانية، وذلك بعد العدوان الإسرائيلي عليه في العام 2006.

وهذا الأمر ينطبق على روسيا أيضاً، والتي تعود بعلاقتها القوية مع دمشق إلى زمن الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، وتغيير النظام في سوريا يعني خسارتها حليفاً مهماً لموسكو في منطقة الشرق الأوسط. وقد شكل القرار الدولي الذي اتخذته مجلس الأمن بشأن حماية المدنيين في ليبيا من بطش العقيد معمر القذافي، والذي وافقت عليه روسيا، ليتضح في ما بعد أنه كان "خدعة" من قبل الناتو اتخذته حجة لشرعنة تدخله العسكري في ليبيا، مما أضرّ بالمصالح الروسية وتمركزها في غرب المتوسط من خلال بوابتها طرابلس الغرب. هذا الأمر دفع موسكو إلى الإعلان بصراحة عن استيائها وانزعاجها من "الخدعة" الغربية. لذلك، جاء الرد الروسي على الغرب في مجلس الأمن من خلال معارضة ورفض أي قرار وإجراء يتخذونه بحق سوريا، وقد عملت إلى الآن على عرقلة وإجهاض أي

⁶⁹³ - السفير 10 حزيران 2011

⁶⁹⁴ السفير 13 نيسان 2011.

⁶⁹⁵ السفير 15 حزيران 2011

⁶⁹⁶ السفير 26 ايار 2011

قرار ضد سوريا، كذلك عملت موسكو على تشجيع المعارضة السورية على ضرورة الحوار مع الدولة السورية، وأنها ضد أي تدخل خارجي فيها.

أما الصين فهي تُعتبر الدولة الثالثة الداعمة لسوريا ولنظام الرئيس بشار الأسد. وكيف لا، وهي الخبيرة بكل سراديب السياسة الغربية ومؤمراتها فلها تاريخ طويل من الصراع مع الغرب في هذا المجال، لذا عارضت منذ البداية أي قرار دولي يُتخذ ضد سوريا والنظام السوري. والجدير ذكره أن التطور الاقتصادي للصين في العصر الحديث، جعلها تتخلى عن قرار عزلتها، وذلك نتيجة لحاجتها إلى النفط وإلى البحث عن أسواق جديدة تساعد في تصريف منتجاتها. لذلك كانت الصين تعي وتدرك أن تغيير النظام في سوريا سيترتب عليه فرض حصار على إيران في محاولة لتغيير النظام فيها وزعزعة استقرارها، مما سيؤدي إلى ضرب طوق حول الشرق الأوسط وإغلاق أسواقه في وجه الصين. لذلك عملت واشنطن على ضرب حصار بحري على الصين من خلال كوريا الجنوبية واليابان، بالإضافة إلى الدول الواقعة في جنوب شرق آسيا، كل ذلك لتصعب على الصين خروجها عبر الطرقات البحرية من دون موافقة أميركية. وبالتالي هذا الأمر سيكون عقبة في طريق أي قوة تعمل على الوصول إلى دور دولي لها، أن تقبل وترضى بوقوع جميع طرق مواصلات تجارتها مع العالم تحت سيطرة قوة أخرى، خاصة إذا كانت هذه القوة تقف موقف الند المنافس لها. فخروج الصين إلى دول العالم لا يكون إلا من خلال الشرق الأوسط، وعن طريقه ستمكن من العبور إلى القارة الأفريقية التي تملك موارد طبيعية غنية. هذا الأمر يوضح لنا علاقتها مع السودان الذي تعتبره نقطة انطلاقها إلى الدول الأفريقية.

لذا من الضروري أن يظل الشرق الأوسط مفتوحاً في وجه الصينيين، ومن المهم جداً على طهران أن تصمد وتقاوم جميع الضغوط الغربية، كما يتوجب على سوريا أيضاً أن تبقى صامدة في وجه كل الحملات التي يقودها الغرب ضدها لفرض وصايته ونفوذه عليها. وبالتالي فإن وصول الأميركيين بعد عدوانهم على أفغانستان في العام 2002، إلى مشارف الحدود الغربية للصين، ساهم في تحريك مسألة الأقليات المسلمة الواقعة ناحية الغرب في الصين، وهذا ما شكل دافعاً مهماً للصين على ضرورة عدم خضوع الشرق الأوسط بالكامل للإرادة الأميركية، التي ستستخدمه منصة لها للتوغل داخل المناطق الغربية للصين والتي تقطنها غالبية مسلمة. وبالتالي فإن عدم وقوع سوريا تحت السيطرة الغربية سيزيد من أهميتها لدى الصين. وهذا الأمر عبرت عنه وزارة الخارجية الصينية من أن سوريا تعتبر دولة لها مكانة كبيرة في الشرق الأوسط، لذا يجب العمل على الحفاظ على استقرارها، وعلى ضرورة حل مشكلاتها داخلياً من دون أن تكون هناك يدٌ لأي تدخل خارجي

في المشكلات الداخلية التي تعاني منها سوريا والتي بالتأكيد ستساهم في تعقيدها وتفاقمها بدلاً من حلها.⁶⁹⁷

وبالخلاصة فإن ما يحدث في الشرق الأوسط ما هو إلا نتيجة تغير في موازين القوى الدولية، التي ستؤدي حتماً إلى الانتقال إلى نظام دولي جديد قائم على أقطاب عدة بدلاً من القطب الواحد، وسنشهد انهيار وسقوط الهيمنة الغربية التي كانت تسيطر على المقدرات العالمية. والغرب بقيادة واشنطن قلق من هذه التطورات السريعة وصعود قوى أخرى في مواجهته، وخاصة روسيا والصين اللتين قامتا بتأسيس "منظمة شنغهاي للتعاون"، وبالتأكيد ستعمل إيران على الانضمام إليها. عندها ستكون هذه المنظمة هي المهيمنة على أوراسيا، من حيث إمكانياتها الاقتصادية الغنية والقوى البشرية الضخمة، لذا تعمل واشنطن جاهدة لوضع العراقيل أمامها بغية الحد من إمكانياتها، وذلك من خلال منعها من الوصول إلى طرق التجارة العالمية عبر الملاحة البحرية. وفي هذا الإطار تأتي تحالفات الولايات المتحدة مع الدول المجاورة للصين، مثل كوريا الجنوبية واليابان، وأيضاً الدول المطلة على بحر الصين، كل ذلك خدمة لحماية مصالحها في أوراسيا وتأطير حجم الصين، وضمن هذا السياق أيضاً يأتي تحريك الأزمة الأوكرانية بين كل من الغرب وروسيا، هذه الأحداث تنسحب على منطقة الشرق الأوسط وما تشهده من أزمات وحروب غير متكافئة أو حروب وكالة تقوم بها جماعات متطرفة سلفية صُنِّفت ضمن قائمة الجماعات الإرهابية.

وبالرغم من ذلك فإن التكتلات التي قامت في وجه الولايات المتحدة والأوروبيين الغربيين، لم تمنعها من فرض نفسها على الساحة العالمية، بدءاً من "منظمة شنغهاي للتعاون" وصولاً إلى "منظمة دول البريكس". يحدث هذا وسط انتقال المركز الاقتصادي العالمي واتجاهه نحو المحيط الهندي، وهذا الأمر يحدث للمرة الأولى وذلك منذ القرن السادس عشر، حيث تعمل هذه القوى (الصين وروسيا وإيران، والهند والبرازيل وجنوب أفريقيا) إلى الوصول لطرق الملاحة البحرية بغية جعلها بعيدة عن السيطرة الأميركية.

لكن، المشكلة هنا، تتمثل في بسط النفوذ الأمريكي لسيطرته على طرق المواصلات الموجودة في المتوسط ومنطقة الشرق الأوسط، حيث تصل هذه السيطرة إلى 80%. ومن المتوقع أن يكسر هذه السيطرة، صعود مصر وعودتها للعب دور مستقل بغض النظر عن المصالح الأميركية. حيث كانت مصر تشكل مركزاً أساسياً للنفوذ الأمريكي للانطلاق منها إلى الشرق الأوسط، وذلك منذ فترة حكم

⁶⁹⁷ السفير 13 أيار 2011

السادات، وبالتالي فإن ابتعاد مصر عن هيمنة واشنطن واتجاهها للتقارب مع موسكو سيؤدي بالنتيجة إلى زعزعة مكانة الولايات المتحدة وإضعاف مكانتها في الشرق الأوسط، وفقدان سيطرتها على طرق الملاحة البحرية، خاصة أن المحيط الهندي يُشكل دافعاً قوياً للدول المتحالفة مع بعضها والتي تقف في وجه السيطرة الأميركية وترفض هيمنتها المطلقة على الاقتصاد العالمي ومخططاتها السياسية التدميرية.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

- 1- أبو عز الدين، سليمان، "إبراهيم باشا في سوريا"، (القاهرة: دار الشروق، 2009).
- 2- أوغلو، أحمد داوود، العمق الاستراتيجي، موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة محمد ثلجي وطارق عبد الجليل، الدوحة، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010.
- 3- أيوب، ل. س، "الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان"، (بيروت، دار الحرية، 1959).
- 4- اجتياح لبنان: يوميات، صور وثائق، وكالة مختارات الأخبار العربية والعالمية، (بيروت: 1982).
- 5- الأحمد، أحمد سام، "الحزب السوري القومي الاجتماعي: 1932 - 1962 دراسة تاريخية"، (بيروت، دار ومكتبة التراث الأدبي، 2014).
- 6- "الأخوان المسلمون في الأردن.. من أركان المملكة الهاشمية إلى أعداء للنظام؟"، الشروق 25 أكتوبر 2017.
- 7- البرنامج المرحلي للحركة الوطنية اللبنانية، وثائق الحركة الوطنية 1975 - 1981، (بيروت، 1981).
- 8- الجسر، باسم، "فؤاد شهاب"، (بيروت: بيسان، 1998).
- 9- "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: المسيرة التاريخية خلال خمسين عاماً"، (دمشق، مركز الهدف للدراسات والتوثيق، 2016).
- 10- الخالدي، وليد، "خمسون عاماً على حرب 1948: أولى الحروب العربية - الصهيونية"، (بيروت: دار النهار، 1998).
- الخالدي، وليد، "خمسون عاماً على تقسيم فلسطين". (بيروت: النهار، 1997).
- 10- الخاني، عبد الله فكري، "جهاد شكري القوتلي من أجل الاستقلال والوحدة"، (بيروت، دار النفائس، 2003).
- 11- الدجاني، هشام، "آفاق السلام المسدود على المسار السوري - الإسرائيلي، الحياة، في 4 حزيران/يونيو 1997.

- الدجاني، هشام، اغتيال رابين وآفاق السلام السوري - الإسرائيلي، الحياة، في 1995/11/26.
- 12- الصايغ، نصري، "عبد الحميد كرامي"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
- 13- 24- مرقص، الياس، "تاريخ الأحزاب الشيوعية في العالم العربي"، (بيروت: دار الطليعة، 1964).
- 14- العيسمي، شبلي، "حزب البعث العربي الاشتراكي: مرحلة الأربعينيات التأسيسية 1940 1949"، (بيروت: دار الطليعة، 1980).
- 15- المواد من الدستور السوري. 93، 114، 111.
- 16- 93. Revoir les articles de la constitution syrienne. 111، 114.
- 17- بريجنسكي، زبغنيو، "رقعة الشطرنج الكبرى"، ترجمة أمل الشرفي، الأهلية للنشر، الطبعة الأولى، عمان، 1991.
- 18- تيموفيف، إيغور، "كمال جنبلاط الرجل والاسطورة"، (بيروت: دار النهار، 2000).
- 19- 30- تيموفيف، إيغور، "كمال جنبلاط، الرجل والأسطورة"، (بيروت: دار النهار للنشر، 2001).
- 20- جروس، سعاد، "من الانتداب إلى الانقلاب: سوريا زمان نجيب الرئيس"، (بيروت: دار رياض نجيب الرئيس، 2015).
- 21- جورج فرسخ، "رشيد كرامي"، (بيروت: شركة المطبوعات، 2016).
- 22- حتي، فيليب، "تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحالي"، (بيروت: دار الثقافة، 1978).
- 23- دندشلي، مصطفى، "حزب البعث العربي الاشتراكي"، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر).
- 24- ديب، كمال، "سوريا في التاريخ: من أقدم العصور حتى 2016"، (بيروت: المكتبة الشرقية، 2017).
- ديب، كمال، "أمراء الحرب وتجار الهيكل: خبايا رجال السلطة والمال في لبنان"، (بيروت: الفارابي، 2017).
- ديب، كمال، "يوسف بيدس: إمبراطورية انترا وحيثان المال في لبنان 1949 - 1968"، (بيروت: المكتبة الشرقية، 2017).

- 25- راندل، جوناثان، "حرب الألف عام في لبنان"، ترجمة فندي الشعار، دار المروج، 1984.
- 26- رستم، أسد، "لبنان في عهد المتصرفية"، (بيروت: المكتبة البولسية، 1987).
- 27- عباس، محمود، "طريق أوصلو، موقع الاتفاق يروي أسرار المفاوضات، شركة المطبوعات، الطبعة الرابعة، بيروت، 1995.
- 28- عبد المجيد، وحيد، "إسرائيل والمفاوضات الجارية، مصطفى العلوي: المفاوضات العربية - الإسرائيلية ومستقبل السلام في الشرق الأوسط"، القاهرة، 1994.
- 29- غانم، رفيق، "بيار الجميل: قائد ومؤسسة"، (بيروت: حزب الكتائب اللبنانية، 1987).
- 30- فتوني، علي، "تاريخ لبنان الطائفي"، (بيروت: الفارابي، 2013).
- 31- فرسخ، عوني، "التحدي والاستجابة في الصراع العربي - الصهيوني: جذور الصراع وقوانينه الضابطة 1799 - 1949"، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008)، 97 - 106.
- فرسخ، عوني، "الصراع العربي الصهيوني: متغيراته مستجداته 1949 - 2009"، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2018).
- 11- سمحات، قاسم، "محمد علي باشا والمشروع الفرنسي في بلاد الشام 1804 - 1850"، (بيروت: دار المواسم، 2016).
- 12 سيل، باتريك، "الأسد - الصراع على الشرق الأوسط"، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 1987.
- سيل، باتريك، "رابين يريد الجولان منزوع السلاح ويعترف بالهيمنة السورية على لبنان في مقابل سلام بين دمشق وتل أبيب".
- 13 شيفر، شيمون، "أسرار الغزو الإسرائيلي للبنان عملية كرة الثلج". (بيروت: شركة المطبوعات الشرقية، 1985)
- 14 قاسم محمد، جعفر، "سوريا والاتحاد السوفياتي، دراسة في العلاقات العربية السوفياتية"، (لندن: رياض الريس، 1987).
- قاسم محمد، جعفر، حوار شاحك - شهابي المصيري؟ نهاية العقد في سلام الجولان، الوسط رقم 177، 19 حزيران.
- 15 قصير، سمير، "تاريخ بيروت"، (بيروت: دار النهار، 1995).

- 16 قلعجي، قدري، "الثورة العربية الكبرى"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 1993.
- 17 كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية.
- 18 لابيغير، ريشار، التحول الكبير، بغداد - بيروت، دار الفارابي، 2008.
- 19 لوتسكي، "تاريخ الأقطار العربية الحديث"، (بيروت: الفارابي، 1980).
- 20 مبيّض، سامي، "تاريخ دمشق المنسيّ: أربع حكايات 1916 - 1936"، (بيروت: دار رياض الريس، 2016).
- 21 منصور، أحمد، معركة الفلوجة: هزيمة أميركا في العراق، 2007. (الدوحة: مركز الجزيرة، 2005).
- 22 منظمة التحرير الفلسطينية: الميثاق، النظام الأساسي، نظام الصندوق القومي الفلسطيني، المصادق عليها" (: د. م 1964 حزيران سنة 2 الموافق 1384 محرّم سنة من المجلس الوطني في جلسته المنعقدة يوم الثلاثاء في منظمة التحرير الفلسطينية (1964).
- 23 مطر، فؤاد، "حكيم الثورة: سيرة جورج حبش ونضاله"، (بيروت: دار النهار، 2008).
- 24 مقابلة شاملة مع طلال ناجي، مقابلة شاملة مع الأمين العام المساعد للجهة الشعبية القيادة العامة، بيروت: باحث، 2010).
- 25 نيكسون، ريتشارد، "1999 نصر بلا حرب". يعطي هذا الكتاب فكرة جيدة عن أهميّة النفط في العلاقات الدولية، خصوصاً بعد نهاية الحرب الباردة لا سيما أن الولايات المتحدة كانت تنتظر منافسين جُددًا كروسيا وأوروبا واليابان والصين.
- 26 هيكل، محمد حسنين، ملفات السويس: حرب الثلاثين عاماً، (القاهرة: دار الشروق، 1996).
- هيكل، محمد حسنين، "الانفجار: حرب الثلاثين عاماً"، (القاهرة: الشروق، 1990).
- هيكل، محمد حسنين، "عام من الأزمات 2000-2001"، المصرية للنشر العربي، القاهرة 2001.
- هيكل، محمد حسنين، "سلام الأوهام: أوصلو ما قبلها وما بعدها"، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1996.
- هيكل، محمد حسنين هيكل، "خريف الغضب"، (القاهرة: الشروق).

27- واكيم، جمال، "صراع القوى الكبرى على سوريا"، (بيروت: دار المطبوعات، 2011)،
الفصل السادس.

- واكيم، جمال، "سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط"، (بيروت: المطبوعات،
2010)، الفصل الثامن.

28- وثائق الحرب اللبنانية لعام 1978.

الدوريات الثقافية (مجلات دورية)

- 1- أمين، سمير، "بعد حرب الخليج، الهيمنة الأميركية إلى أين؟"، المستقبل العربي، رقم 170، نيسان/أبريل 1993.
- 2- إسماعيل، محمد زكريا، "النظام الدولي الجديد بين الوهم والخديعة"، المستقبل العربي، عدد رقم 143، كانون الثاني/يناير 1991.
- إسماعيل، محمد زكريا، "الهوية العربية في مواجهة السلام الإسرائيلي"، المستقبل العربي، عدد رقم 190، كانون الأول/ديسمبر 1994.
- 3- الصايغ، يوسف، "دلالات التحوّلات الجوهرية في مجموعة البلدان الاشتراكية الأوروبية بالنسبة إلى الوطن العربي وقضية فلسطين"، المستقبل العربي، عدد رقم 150، آب/أغسطس 1991.
- 4- الصايغ، يزيد، "أزمة الخليج وإخفاق النظام الإقليمي العربي"، المستقبل العربي، عدد رقم 149، تموز/يوليو 1991.
- 5- الصمد، جواد، "الخيار الكونفدرالي الأردني - الفلسطيني"، شؤون الشرق الأوسط، عدد رقم 48، كانون الثاني/يناير 1996.
- 6- جواد أُلشيتي، "الأسد يقبل وعد بوش، فلسطين الثورة". العدد 855، في 1991/8/4.
- 7- دياب، محمد زهير دياب، الموقف السوري من التسوية السلمية للنزاع العربي الإسرائيلي، مجلة الدراسات الفلسطينية عدد 9 شتاء 1992.
- 8- سلامة، غسان، "العرب، إسرائيل، أميركا والمفاوضات"، المستقبل العربي، العدد 172، حزيران/يونيو 1993.
- 9- ولد اباه، عبد الله السيد، "التسوية في الشرق الأوسط ومستقبل النظام العربي"، المستقبل العربي عدد 192 شباط 1995.

10- هيثم الكيلاني، "الشراكة الأوروبية - المتوسطية: تحليل لنتائج مؤتمر برشلونة". شؤون الأوسط، رقم 49، شباط/فبراير 1996.

المراجع الأجنبية:

- 1 (2009). ، (Harper Collins Ebooks، Catherine the Great، Simon Dixon
- 2 Egypt and the Fertile Crescent: 1516 – 1922 A Political ،P. M. Holt
، (1966)، (London: Cornell University Press،History
- 3 ، *Arabisme et Islamisme de 1798 à 1945* ، Henry: *l'Orient Arabe*،Laurens
2000. ، Paris،Armand Colin
- la lutte pour la Palestine de 1869* ،- Laurens Henry ; *Le retour des exilés*
Paris 1998. ، Robert Laffont،à 1997
- Le ، Henry: *Pourquoi Ryad préfère le parapluie américain?* ،- Laurens
Monde Diplomatique août 1992.
- 4 ، No 2، vol 11، Foreign Affairs، Fouad: *The End of Pan Arabism*،Ajami
،1978/9
- 5 Michael Province: The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab
(2005)، (Austin: University of Texas Press،Nationalism
- 6 The Struggle For Syria: A Study in Post War Arab ،Patrick Seale
(1987). ، (london: Yale University Press،Politics 1945 – 1958
- Al Siraa Ala Al Sharq Al Awsat* » Al ، Patrick. « *Al Assad*،- Seale
1987،Muassassat Alarabia Lildirassat Wa Alnashr
- Patrick and Linda Butler; *"Assad's Regional Strategy and the* ،- Seale
، no. 101،*Challenge from Netanyahu*". Journal of Palestine Studies
Automne 1996.

- . Middle East , “*Israel and Syria; Contradictory aims*” Seale Patrick -
International. Nov. 1996.
- , (London: Routledge, China and the World since 1945, Chi Kwan Mark -7
1. ,2011)
- A Modern History of Lebanon. (New York: Caravan ,Kamal Salibi -8
1976), Press
(New York: , Crossroads to Civil War: 1958 - 1976, Kamal Salibi -
1976), Caravan Books
(london: Pluto , A Modern History of Lebanon, Fawwaz Traboulsi -9
2007). , Press
- Nationalism and the State Under the , Inventing Lebanon, Firoo -10
(London: I. B. Tauris. 2003). , Mandate
- The Historical Role of Political Economy in the , Carolyn Gates -11
(Beirut: Center for Lebanese , Development of Modern Lebanon
1989). , September, Studies
- , (Boulder: Westview Press, The Modern History of Iraq, Phebe Marr -12
21. ,2012)
- , (London: Greenwood Press, The History of Iraq, Courtney Hunt -13
2005).
- A Peace to end all Peace. , David Fromkin -14
- The Near East since the First World War: A History to , M. E. Yapp -15
1996), Longman, (Edinburgh, 1995
- the geographical* , Halford Mackinder: *The Geographical Pivot of History* -16
298 - 300. , December 1904, no 4, Vol. 170, *journal*
- America's Strategy in World Politics-The United* ,17-Nicholas Spykman
, Transaction Publishers, (New Brunswick, *States and the Balance of Power*
2008)

- , (London: Macmillan St Martin. Tibawi; *A Modern History of Syria* 18
 1969).
- Tr. par Marion , *a critical enquiry, Arab Nationalism*, Bassam Tibi 19
 1981). , (London: MacMillan Press. Farouk-Shiyett et Peter Sniggett
- , (Beirut: Khayat, the struggle for Arab Independence. Zeine Zeine 20
 1960).
- Abraham. , Muhammad and Wagner. Mclaurin R. D. and Mughisuddin 21
 Domestic Influences on , Foreign Policy Making in the Middle East
 1977), Irak and Syria. (New York: Praegers Publishers. Policy in Egypt
- , *Sectarianism*, Nikolas; *The Struggle for Power in Syria*. Van Dam 22
 (London: Groom , 1961-1978. *Regionalism and Tribalism in Politics*
 1979). , Helm limited
 (New York: Monthly , The Struggle Over Lebanon. Tabitha Petran 23
 1987). , Review Press
- Raymond; *Does Syria want Peace? Syrian Policy in the* , Hinnebusch 24
 Journal of Palestine Studies (Revue , *Syrian Israeli Peace Negotiations*
 Automne 1996. , no. 101. d'Etudes Palestiniennes)
- Assad; *Syria and the Arab Israeli Conflict*. Current , Abou Khalil 25
 1994. , February. History
- , Ib. Tauris. Volker; *The Political economy of Syria Under Assad*. Perthes 26
 . London
- , Binghamton. Vail Ballou press. Human Rights watch; *Syria unmasked* 27
 1991.
- Hanna; *Some Observations on the Social roots of the Syrian* , Batatu 28
 été 1991. , volume XXV. The Middle East Journal. *Political Elite*"
- 1966-1976: *A Spatial and* , Alasair; *The Syrian Political Elite*. Drysdale 29
 Jan. 1 1981. , vol. XVII. Middle Eastern Studies. *Social Analysis*

- Alasair; *The Assad Regime and its Troubles*. Merip Reports.- Drysdale
1982. .nov/dec
- Alasdair and Hinnebusch Raymond; "Syria and the Middle East Peace Process".
a New Dominant . Mahmud; *The Alawi Community of Syria*.Faksh 30
Political Elite.
- I. . *the conflict between Syria and Irak. Baath vs Baath*. Eberhard.Kienle 31
1993. . 3rd ed. . London.B. Tauris & Co. limited publishers
Michael; "Arming for Peace? Syria's Elusive Quest for .Eisenstadt 32
. The Washington Institute for Near East Policy.*Strategic Parity*"
1992. .Washington D. C.
a Political Biography". . Moshe; "Assad the Sphinx of Damascus.Ma'oz 33
1988. . Widenfield and Michalson.London
"Syrian-Israeli Relations and the Middle East Peace . Moshé.Ma'oz -
Process".
- Syria and the PLO*". . Evner; "On a Short Leash. Moshe and Yaniv.- Ma'oz
Domestic .Dans Maoz Moshe and Yaniv Evner (eds); "Syria Under Assad
1ere edition 1986. . London. Groom Helm.*Constraints and Regional Risks*"
1985. . July. William; "Syria in Lebanon". Merip Reports.Harris 34
Moderate Goals and . Elie; "Syrian Policy in Lebanon. Chalala 35
1985. . no. 1. vol. 4.*Pragmatic Means*". Journal of Arab Affairs
. Westview Press. John; "Syria: Modern state in an ancient land".Devlin 36
1ère edition 1983. .Boulder Colorado
the Assad Years". . Efriam; "The Soviet Union and Syria.Karsh 37
(New . *the War in Lebanon. Century*". John; "Final Conflict.Bulloch 38
1983). .York: publishing Co. limited

.Elezzi Ghassan ; *"De la Paix en Galilée à la Relance de la Guerre Civile* 39
Quand l'Armée Israélienne "sauvait" le Liban". Le Monde
 juin 1992. ,Diplomatique
 , *Why Israel invaded Lebanon?* , Michael; *"The Battle of Beirut*,Jansen 40
 1982). ,(London: London Zed Press
 Itamar. "The Changing Prism". dans Ma'oz Moshe and ,Rabinovitch 41
 Domestic Constraints and Regional , Evner: Syria Under Assad.Yaniv
 1986). ,Risks. (London: Groom Helm
Irreconcilable Differences" , Christopher; *"Assad and His Allies*,Dickey 42
 vol. 66 autumn 1987. ,Foreign Affairs
 , Antoine ; *"Guerres secrètes au Liban"* , Annie & Basbous.Laurent 43
 1987). ,(Paris: Gallimard
 "Toward , Halim, Najib; *"Syrian-Lebanese Relations"*. Ed Barakat.Saliba 44
 1988). , (London: Groom Helm,*a viable Lebanon"*
"Russian Policy in the Middle East: Strategic change , Richard.Hermann 45
 , no. 3, vol. 84, Middle East Journal,*and Tactical Considerations"*
 summer 1994.
 , "The Shifting Sands of the Middle East Peace" , Alfred Leroy.Atherton 46
 spring 1992. , no. 83,Foreign Policy
 Ibrahim A. : "Arab Dilemmas in the 1990's: Breaking taboos ,Karawan 47
 summer , no. 3, vol. 48,*and searching for signposts"*. Middle East Journal
 1994.
 John P. : "At arms length Soviet Syrian relations in the , Hanna 48
 Gorbachev era".
 Foreign , Peter: "Middle East Policy after the Gulf Wa"r,Rodman 49
 spring 1991. , vol. 70,Affairs
 vol. , Foreign Affairs, Graham E. : "Moscow and the Gulf War",Fuller 50
 summer 1991. ,70

,Current History, Bernard "The United States in the Middle East", Raich 51
 january 1991.
 the Assad Years", Efram; "The Soviet Union and Syria", Karsh 52
 août 1992. , Le Monde Diplomatique, Amère victoire, Julien, Claude 53
 , Indonesia the Second Greatest Crime in History, Deidre Griswold 54
 Workers. org
 , The Struggle for Egypt: From Nasser to Tahrir Square, Steven Cook 55
 2012), (Oxford: Oxford University Press
 Politics and Society". , Derek; "Syria 1945-1986", Hopwood 56
 Death of a Nation". , Mackey Sandra: "Lebanon 57
 , (New York: Thunder Mouth Press, Pity the Nation, Robert Fisk 58
 2002).
 Chapter the Carpet , the Great War for Civilization, Robert Fisk -
 Weavers.
 Haghighat Chapour: Comment les États-Unis avaient prévu d'écraser 59
 avril d'Irak: les dessous de la guerre du Golfe. Le Monde Diplomatique
 1992.
 été 1991. , vol. 70, "The New Arabia. Foreign Affairs", James E. Akins 60
 , (Harper Collins Ebook, Saddam: His Rise and Fall, Con Coughlin 61
 2016).
 , The Rise and Fall of the Communist Party of Iraq, Tarek Ismael 62
 2008). , (Cambridge: Cambridge University Press
 , The Kurds in Iraq: The Past Present and Future, Kerim Yildiz 63
 2004). , (London: Pluto Press
 Raymond; Does Syria want Peace? Syrian Policy in the , Hinnebusch 64
 , no. 101, Journal of Palestine Studies, Syrian Israeli Peace Negotiations
 Autumn 1996.

- The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran ,Kenneth M. Pollack 65
 . 2004), (New York: Random House, and America
 (New , The Iran- Iraq War: Chaos in a Vacuum, Stephen C. Pelletiere 66
 1992). , York: Praeger Publishers
nouveaux , Négociations dans l'impasse, Paul Marie, De la Gorce 67
Le Monde , la défense israélienne en état d'alerte, rapports de force
 . septembre 1990, Diplomatie
construire la , Washington et la nouvelle donnée, Paul-Marie, De la Gorce -
 octobre 1993. , Le Monde Diplomatique, *paix au Proche-Orient*.
 Arab , “US Foreign Policy in the Middle East” , Abbas, Al Nasrawi 68
 winter 1989. , no. 1, vol. 11, Studies Quarterly
Le Monde , seul décideur », « Bush, Marie-France: M. Toinet 69
 . février 1991, Diplomatie
the , “Western Imperialism in the Middle East, George Klay Jr, Kirsh 70
Case of the United States Military Intervention in the Persian Gulf”.
De l'Atlantique aux confins de la Perse: les frontières , Jacques, Thobie 71
, Le Monde Diplomatique, brûlantes cicatrices des partages coloniales
 nov. 1990.
 , Indonesia the Seconde Greatest Crime in History, Deidre Griswold 72
 Workers. org.
 , The Struggle for Egypt: From Nasser to Tahrir Square, Steven Cook 73
 2012). , (Oxford: Oxford University Press
 , (London: Routledge, China and the world since 1945, Chi Kwan Mark 74
 2011)
 , (Westport: Praeger, China's Reforms and Reformers, Alfred K. Ho 75
 2004)
 (New York: Chelsea House , Vladimir Putin, Charles J. Shields 76
 .2007), Publishers

automne , Foreign Affairs. “ <i>Is Damascus ready for peace?</i> ”.Daniel Pipes	77
	1991.
Foreign , “ <i>Dateline Damascus: Assad is ready</i> ”. Muhamed.Muslih	78
	Automne 1994. , no. 96.Policy
<i>Priorités contradictoires dans un monde sans repère</i> : , Michael T.Klane	79
Le Monde <i>M. Clinton en quête d'une nouvelle vision diplomatique</i>	
	février 1993. ,diplomatie
no. , XXIII, Journal of Palestine Studies. “ <i>The Oslo Accord</i> ”. Avi.Shlaim	80
	printemps 1994. ,3
<i>Comment les fractures et surenchères ont affaibli le</i> , Eric.Rouleau	81
	octobre 1993. , Le Monde Diplomatique, <i>monde arabe</i>
(Entretien avec l'ambassadeur israélien à Paris). , Yehuda.Lancry	82
Propos recueillis par Régine Dhoquios Colen. Le Processus de Paix est	
	irreversible.
<i>the Tunner's</i> , “ <i>Withdrawal Process not Peace Process</i> ”.Faith Douglas J.	83
	mars 1996. , Middle East Quarterly, <i>Logic of Israel's Negotiations</i> ”
juin 1994. ., Commentary, “ <i>Land for no Peace</i> ”.- Faith Douglas J	
2010). (Paris: Fayard, Dans le Secret Des Presidents,Vincent Nouzille	84
(New , The Good Spy: The Life and Death of Robert Ames,Kai Bird	85
	2015). ,York: Broadway Books
The Influence of Sea Power Upon History: 1660 ,Alfred Thayer Mahan	86
	- 1783.
America’s Strategy in World Politics-The United ,Nicholas Spykman	87
Transaction , (New Brunswick,States and the Balance of Power	
	2008). ,Publishers
American Primacy and , The Grand Chessboard,Zbegenw Brzezinski	88
	its Geostrategic Imperatives XIV..

(Cambridge: ، China's Last Empire: the Great Qing. William T. Rowe 89
 2009). ، Harvard University Press
 Nicklas and Niklas Swanström. "The Shanghai Cooperation ، Norling 90
 India and Pakistan. " ، and the Roles of Iran، Trade، Organization
 ، Central Asian Survey Volume 26. Issue 3 (2007). Robert D. Kaplan
 ، Asia' Cauldron: The South China Sea and the End of a Stable Pacific
 2014). "Xinjiang protesters to be punished ، (New York: Random House
 TIBETAN review AUGUST 2009. ، 'with utmost severity"
 ، others follow suit، UN Chief urges respect for right to protest 91
 TIBETAN REVIEW AUGUST 2009.
 1994). ، The Mongol Period. (New York: markus Weiner Pub، Spuler 92

المواقع الإلكترونية:

1- أوباما يعلن انسحاب القوات الأميركية من العراق في نهاية العام، بي بي سي، 21 تشرين الأول 2011.

http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2011/10/111021_obama_iraq_withdrawal

2- التيار الوطني الحر www.tayyar.org

3- الجهاد الإسلامي <https://jehad.ps/>

4- الجزيرة <http://www.aljazeera.net/news/arabic>

5- الحزب الشيوعي العراقي <http://www.iraqicp.com/>

6- الحزب الديمقراطي الكوردستاني <http://www.kdp.info/>

https://www.pukmedia.com/AR_BabetiLekchu.aspx?Babet=YNK&Nawnishan

7- الانتخابات النيابية في طرابلس 1972، البيان 19 - 1 - 2018.

<http://www.albayanlebanon.com/news.php?id=4951&idC=10>

- 8- الدستور الأردني على موقع وزارة الداخلية الأردنية <http://www.moi.gov.jo/EchoBusV3.0/SystemAssets/PDFs/AR>
- 9- الدستور المؤقت لعام 1958 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.85/>
- 10- الدستور المؤقت لعام 1968 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.82/>
- 11- الدستور المؤقت لعام 1970 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.81/>
- 12- العراقيون تسلموا السلطة من أميركا، الوطن 6 حزيران 2004.
- 13- <http://www.alwatan.com/graphics/2004/06jun/29.6/dailyhtml/news1.html>
- الدستور العراقي لعام 2005 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.77/>
- 14- القانون الأساسي العراقي لعام 1925 على موقع المحكمة الدستورية العراقية <https://www.hjc.iq/view.86/>
- 15- القصة الكاملة لإلقاء القبض على صدام، دنيا الوطن، 16 - 12 - 2003 <https://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2003/12/16/1677.html>
- 16- القوات اللبنانية <https://www.lebanese-forces.com/>
- 17- المرابطون <http://www.almourabitoun.com/>
- 18- التنظيم الشعبي الناصري <https://ar-ar.facebook.com/Nasserist.Popular.Party/>
- 19- برهم: قرار حلّ الجيش العراقي اتخذ بالتشاور مع بريطانيا، قناة العالم 29 أيار 2010، <http://www.alalam.ir/news/7698>
- 20- بوابة صيدا - الشهيد معروف سعد: سيرة مناضل حتى الشهادة، موقع صيدا غيت، <http://www.saidagate.net/Show-4683>

21- بيروت المساء

<http://beyrothelmassaa.com/tag>

25- بوش: 3 سنوات صعبة في العراق ونتوقع المزيد، الاتحاد، 24 مايو 2006

[/https://www.alittihad.ae/Article/60026/2006](https://www.alittihad.ae/Article/60026/2006)

22- بوش يلتقي شيوخ الأنبار ولا يستبعد خفض القوات، الشرق الأوسط، 4 أيلول 2007.

[http://archive.aawsat.com/details.](http://archive.aawsat.com/details.asp?section=1&article=435582&issueno=10507#.W4an5-gzbIU)

[asp?section=1&article=435582&issueno=10507#.W4an5-gzbIU](http://archive.aawsat.com/details.asp?section=1&article=435582&issueno=10507#.W4an5-gzbIU)

23- تعديل الدستور المؤقت عام 1963 على موقع المحكمة الدستورية العراقية

<https://www.hjc.iq/view.84/>

24- تنفيذ حكم الإعدام في صدام حسين شنقاً حتى الموت، الجزيرة 30 - 12 - 2006

<http://www.aljazeera.net/news/arabic/2006/12/30>

25- تيار المستقبل [/www.almustaqbal.org](http://www.almustaqbal.org)

26- حركة أمل <https://www.amal-movement.com/>

27- حزب الله <https://www.moqawama.org/>

28- حركة المقاومة الإسلامية حماس [hamas.ps](http://www.hamas.ps)

29- حركة فتح <https://www.fateh-gaza.com/>

30- حزب البعث على فيسبوك

<https://ar-ar.facebook.com/HzbAlbthAlraqy/>

31- حزب الدعوة الإسلامية <http://www.al-daawa.org/main/>

32- دستور الجمهورية العراقية لعام 1991 على موقع المحكمة الدستورية العراقية

<https://www.hjc.iq/view.80/>

33- عمليات تحرير الأنبار، قناة الحرة

34- [https://www.alhurra.com/a/military-operation-Iraq-Ramadi-anbar-](https://www.alhurra.com/a/military-operation-Iraq-Ramadi-anbar-province/276374.html)

[province/276374.html](https://www.alhurra.com/a/military-operation-Iraq-Ramadi-anbar-province/276374.html)

35- ملحة عن انتخابات 2005، السومرية، 7 آذار 2012. [https://www.alsumaria.](https://www.alsumaria.tv/mobile/news)

[tv/mobile/news](https://www.alsumaria.tv/mobile/news)

- 36- مي الزعبي، المخيمات الفلسطينية في لبنان، الجزيرة www.aljazeera.net
- 37- ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية في سوريا على موقع الجبهة http://www.pnf.org.sy/?page=category&category_id=131
- 38- مؤسسة الدراسات الفلسطينية: منظمة التحرير الفلسطينية: الميثاق، النظام الأساسي، نظام الصندوق القومي الفلسطيني، المصادق عليها" (: د. م 1964 حزيران سنة 2 الموافق 1384 محرم سنة 21 من المجلس الوطني في جلسته المنعقدة يوم الثلاثاء في منظمة التحرير الفلسطينية (1964).
- 39- <https://www.palestine-studies.org/sites/default/files/uploads/files/28-5-1964b.pdf>
- 40- نص الدستور السوري لعام 1973 على موقع المركز الوطني للأبحاث ncro.sy/wp-content/uploads/2016/04/19731.pdf
- 41- نص الدستور اللبناني على موقع رئاسة الجمهورية اللبنانية <http://www.presidency.gov.lb/Arabic/LebaneseSystem/Documents>
- 42- نوري المالكي: رئيس الوزراء العراقي، الميادين، 1 شباط 2013، <http://www.almayadeen.net/episodes/635408>
- 43- وزارة الدفاع السورية، <http://www.mod.gov.sy/index.php?node=554&cat=1169>
- 44- ، The Guardian.China accuses US of adding to regional tensions at ,February 9 - 2014 <http://www.theguardian.com/world/2014/feb/09/china-accuses-us-south-china-sea> accessed on April 7 2015.
- 45- Saibal Dasgupta ,US commander accuses China of creating artificial landmass in South China Sea 2015. At , April 3, The Times of India.<http://timesofindia.indiatimes.com/world/china/US-commander-accuses-China-of-creating-artificial-landmass-in-South-China-Sea/articleshow/46790380.cms> accessed on April 7

، 2014، August 11، RT،US accused of inciting South China Sea tensions -46
at <http://rt.com/usa/179512-asean-kerry-wang-tensions/> accessed on
2015. ،April 7

Website of Shanghai Cooperation Organization at -47
<http://www.sectso.org/EN123/brief.asp> accessed on 23 - 2 - 2015. -48

الصحف العربية:

مراجع الصحف:

- 1- التايمز، نيلان بروسز، "في انتظار العرض"، 1994/19/8
- 2- الحياة، 4 تشرين الأول 1994.
- 3- الحياة، مقابلة مع عبد الحليم خدام، في 1995/11/20.
- 4- الحياة، سيريل تاونساند، العقبات في الاتفاق الإسرائيلي - السوري، 22 آب 1995.
- 5- الحياة، سيريل تاونساند، "العقبات على المسار السوري - الإسرائيلي"، 22 آب 1995.
- 6- الديار، في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1995.
- 7- السفير (اللبنانية)، حافظ الأسد، في 1 نيسان/أبريل 1989.
- 8- السفير في 17 تشرين الأول/أكتوبر 1991.
- 9- السفير، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991.
- 10- السفير، في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1991.
- 11- السفير، نور الدين ساطع، في 31 تشرين الثاني/نوفمبر 1991
- 12- السفير، في 24 حزيران/يونيو 1992.
- 13- السفير، في 21 تموز/يوليو 1992.
- 14- السفير، 6 آب/أغسطس 1992.
- 15- السفير، في 19 آب/أغسطس 1992.
- 16- السفير، في 25 آب/أغسطس 1992.
- 17- السفير، في 26 آب/أغسطس.

- 18- السفير، في 25 آب/أغسطس 1992.
- 19- السفير، في 27 تشرين الأول/أكتوبر 1992.
- 20- السفير، في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1993.
- 21- السفير، في 24 كانون الثاني/يناير 1993.
- 22- السفير، في 29 تموز/يوليو 1994.
- 23- السفير، في 29 تموز/يوليو 1994.
- 24- السفير، في 28 تشرين الأول 1994.
- 25- السفير في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1995.
- 26- السفير، في 11 كانون الأول/ديسمبر 1995.
- 27- السفير، في 12/4/1996.
- 28- السفير، في 14/4/1996.
- 29- السفير 13 نيسان 2011.
- 30- السفير 10 حزيران 2011.
- 31- السفير 15 حزيران 2011.
- 32- السفير 26 أيار 2011.
- 33- الشرق الأوسط، هدى الحسيني، في 6 آب/أغسطس 1992.
- 34- النهار، خطاب بوش، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991.
- 35- النهار، في 31 تشرين الأول/أكتوبر 1991.
- 36- النهار، في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1991.
- 37- النهار، في 14 تموز/يوليو 1992.
- 38- النهار، في 3 أيلول/سبتمبر 1992.
- 39- النهار، في 7 أيلول/سبتمبر 1992.
- 40- النهار، في 23 أيلول/سبتمبر 1992.
- 41- النهار، في 24 أيار/مايو 1993.
- 42- النهار، في 16 أيلول/سبتمبر 1993.
- 43- جريدة النهار، 28 و 29 تشرين الأول 1994.
- 44- النهار، في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1995.
- 45- النهار، في 12/4/1996.

46- النهار في 1996/4/16.

47- النهار والسفير، في 3 تموز/يوليو 1992.

48- النهار والسفير، 28 حزيران 1995.

49- السفير والنهار، في 1996/4/19.

قنوات تلفزيونية:

1 - الجزيرة الوثائقية، أحمد الشقيري، 5 نيسان أبريل 2017.

2- الجزيرة الوثائقية، منظمة التحرير الفلسطينية، الجزيرة الوثائقية، 3 تموز يوليو 2011.

3-الجزيرة، السي أبي عاصي، نجاح واكيم، برنامج زيارة خاصة، 8 تشرين الأول أكتوبر 2011.

نبذة ذاتية عن المؤلف:

أستاذ دكتور في التاريخ والعلاقات الدولية في الجامعة اللبنانية.

- حاز في العام 2004 على شهادة دكتوراة دولة في تاريخ العلاقات الدولية من الجامعة اليسوعية في بيروت.
- حاز في العام 1999 على شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر من الجامعة اليسوعية في بيروت.
- حاز في العام 1998 على شهادة الماجستير في العلوم السياسية: السياسة المقارنة والعلاقات الدولية من الجامعة الأميركية في بيروت.
- حاز في العام 1995 على شهادة الليسانس في التاريخ العربي - الإسلامي المعاصر من الجامعة الأميركية في بيروت.
- تابع عامي 2005 و2006 برنامج ما بعد الدكتوراة في جامعة مكغيل في مونتريال - كندا.
- عمل طويلا في مجال الصحافة المكتوبة والإذاعية والتلفزيونية وهو يتقن اللغات العربية، الفرنسية، الإنكليزية، والإسبانية.

له عشرات الكتب والمقالات الأكاديمية والصحافية منها:

- جمال واكيم، قرية البربارة: من المجتمع الريفي إلى المجتمع المدني، (بيروت: أبعاد، 2020)
- جمال واكيم، جريمة ولا عقاب: الحرب الأهلية اللبنانية وترميم النظام الطائفي، (بيروت: شركة المطبوعات: 2019)

جمال واكيم، هل وجد أمير اسمه فخر الدين المعني الأول: تساؤلات حول الرواية التاريخية المؤسسة للكيان اللبناني، المستقبل العربي، عدد 467، كانون ثاني 2018.

جمال واكيم، هل تجتاح إسرائيل لبنان: المفاعيل الإقليمية لحرب إسرائيلية محتملة ضد حزب الله، المستقبل العربي، عدد 461، تموز 2017.

جمال واكيم، أوراسيا والغرب والهيمنة على الشرق الأوسط، (بيروت: أبعاد، 2006)

Jamal Wakim, Iran's Perpetual Drive to the East Mediterranean, Rivista Di Studi Mediterranei – N. 2 Anno I – 2015

Jamal Wakim, Eurasia Vs the West, (Beirut: Abaad, 2016)

Jamal Wakim, "End of al-Assad or of Erdogan? Turkey and the Syrian Uprising, Arab Studies Quarterly, Summer 2014, in Process

Jamal Wakim, The Struggle of Major Powers Over Syria, (London: Ithaca Press, 2013)

جمال واكيم، تاريخ الخنشارة والجوار، (بيروت: كاريتاس، 2015)

جمال واكيم وموريال ميراث فيسباخ، السياسة الخارجية التركية، (بيروت: المطبوعات، 2014)

جمال واكيم، صراع القوى الكبرى على سوريا-البعاد الجيوسياسية لأزمة 2011، (بيروت: دار المطبوعات، 2011)
طبعة ثانية 2012

جمال واكيم "سوريا و مفاوضات السلام في الشرق الاوسط"، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، بيروت 2010.
طبعة ثانية 2011

Jamal Wakim, Geopolitical Dimensions of the Syrian Crisis, Foreign Policy
Journal, August 4, 2012-08-30

Jamal Wakim and Michael Provence, Colonial Origins of the Syrian Security
State, al-Akhbar English, October 4, 2011

جمال واكيم، "ايران قوة اقليمية عظمى"، مجلة شؤون الأوسط

جمال واكيم، الأبعاد الجيوسياسية الإقليمية والدولية للأزمة السورية، الآداب عدد 10-12 2011

جمال واكيم ومايكل بروفانس، جذور الدولة الأمنية في سوريا، الآداب عدد 7-9 2011

جمال واكيم، الحرب الاهلية اللبنانية (1975-1991) اقتراح لمقاربة جديدة، "مجلة الاداب"، عدد
2009 10-9.

مشاركة في ندوة عن زياد الرحباني مجلة الاداب عدد 1-2-3 2010.

جمال واكيم: مراجعة كتاب بيتر غران The Rise of the Rich

Jamal Wakim and Ali Tarabay, An Overview of Arab-Islamic Civilization,
Beirut: Dar Nelson, 2009